# الفرقان في تفسير القرآن

بالقرآن والسنة

تأليف

محمد الصادقي

انتشارات فرهنگ اسلامی

# الفرقان
## في
# تفسير القرآن
## بالقرآن والسنة

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

١٩٧٨ م

محمد الصادقي

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان
ص.ب ٧١٢٠

الطبعة الثانية

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

## سورة الملك _ مكية _ وآياتها ثلاثون

« بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ • تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ
وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ
أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ٢ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ
سَماواتٍ طِباقاً ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ
الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ ٣ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ
إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ٤ .. »

إنه تعالى متبارك في مُلكه ، دون لعنة ولا نكسة ولا نكبة ، خلاف ملك الخلق ، إلا الملوك الذين هم ظلال الرب في ملكهم ، إلا فيما يجهلون ويعجزون للقصور الذاتي ، فهو تعالى متبارك في كافة شؤون الربوبية خلقاً وأمراً : « ألا له الخلق والأمر تبارك الله ربُّ العالمين » ( ٧ : ٥٤ ) ومتبارك في الأمر التشريعي كما التكويني _ سواء : « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » ( ٢٥ : ١ ) ففي ملك السماوات والأرض ككلٍّ وفي كلٍّ : « تبارك الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما » ( ٤٣ : ٨٥ ) ف : « تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير » .

إنه ليس مَلِكاً ومالكاً يملك مُلكه ومِلكه، إنمـا هما بيده لا سواه، وهمـا له لا سواه، وكل مالك مملوك إلا إياه، وكل ملك يُملك عليه سواه: «قل اللهم مالـك الملك ..» (٣ : ٢٦) «ولم يكن له شريك في الملك» (١٧ : ١١١).

وفيما إذا يؤتي ملكه من يشاء لا يتحلل هو عنه، ولا يؤتيه المُلك الخاص به: «والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم» (٢ : ٢٤٧).

فالملك الحق من الخلق ليس وكيلاً عن الله بانعزاله — سبحـانه — عن شيء من الملك، ولا شريكاً له ولياً من الذل، ولا معيناً يعينه — بعض الشيء — في الملك، وإنما يؤتاه تطبيقاً لحكمه العدل بين الخلق، بشيراً ونذيراً، دون أن يكون له من الأمر شيء: «ليس لك من الأمر شيء» (٣ : ١٢٨) «فتعالى الله الملِك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم» (٢٣ : ١١٦) «هو الله الذي لا إله إلا هـو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ..» (٥٩ : ٢٣).

«تبارك» ولأنه بيده الملك فهو متبارك: متعاظم بذاته وصفاته وأفعاله، لا تُحد بركاته ولا يُعدُّ فيها وإنما يمدُّ، ولا تُعدّ نعمائه «وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها» وبما أن الملك يخصه، فالبركة أيضاً تخصه:

«الذي بيده الملك» ان اليد — هنا وفي سواه مما نسبت إلى الله — توحي بالسلطة الإلهية اللامحدودة غير المغلوبة، والملك قرينة أخرى إضافة إلى القرينة العقلية، يوحي أن اليد هنا ليست هي الجارحة الجسدانية، فإن الملك لا تصله هذه اليد، وإنما السلطة، وتقديم الظرف «بيـده» والاستغراق المستفاد من «الملك» يفيد ان الحصر، أن الملك — أياً كان — إنما هو بيد الله.

والملك أعم من ملك الخلق والتقدير والتدبير، ومن ملك النبوة والسلطة الزمنية، ولماذا يؤتيها الفجار إذا كانت هي أيضاً منه تعالى؟ له تأويل يأتي في محله الأنسب.

**كلام في القدرة الإلهية :**

« **وهو على كل شيء قدير** » : فما هو كل شيء ، وما هي القدرة ؟

فهل يقدر ربّنا أن يجمع بين المتناقضين ذاتياً ، أو يخلق نفسه ، أو يخلـق مثله ، أو يلد من لا يولد ولا يُخلق ، أو أن يُدخل الدنيا في بيضة دون أن تصغر الدنيا أو تكبر البيضة ، أو ما إلى ذلك من المستحيلات الذاتية عقلياً ؟.

نقول : الأمور المتصورة – من حيث تعلق القدرة بهـا وعدم تعلقها – على أربعة أضرب :

١ – الكائنات التي بالإمكان تحويرها وتغييرها ، دون حـاجة إلى معجزة أو اختراع ، فهي من أبسط الأشياء التي تتعلق بها القدرة .

٢ – التي تحتاج إلى قواعد علمية كالمخترَعات ، فهي قبل اختراعها قد تُزعم مستحيلة ، ولكنما العلم يثبت إمكانيتها.

٣ – التي لا تقدر المحـاولات العلمية عليها من الطرق العادية ، كمعجزات النبيين ، التي يزعمها الإنسان – ولا سيما المتحلل عن وحي السماء ، الشاك فيه – يزعمهـا : من المستحيلات ، ولكنها من الممكنات الذاتية ، مهما كانت مستحيلة بالنسبة للقدرات المحدودة .

ومن هذه خلق العالم لا من شيء ، وسائر الاختصاصات الإلهية في خلقه المبدَع ، فاللاشيء الذي بالإمكان إيجاده بالقدرة اللامحدودة ، إنه يستحق إسم الشيء بهذه الإمكانية الاستعدادية لقبول الخلق ، سواء أخلق أم لم يخلق ، فالمادة الأولية كانت هي اللاشيء الممكن إيجاده ، وقد خلقت ، والسماوات الثمانية وما فوقها ، كانت اللاشيء الممكن إيجاده ولم تخلق ، ولكنها على سواء في أنها شيء لإمكانية خلقها ، مهما كانت الأولى راجحة في الحكمة والثانية مرجوحة ، فهي من المستحيل عرضياً ، لا ذاتيـاً .

٤ ـ الأمور التي لا تستحق إسم الشيء، لأنها ليست كائنة، ولا بالإمكان تكوينها: معدومات مستحيلة التكوين، كالأمثلة المسبقة، فإنهـا ليست من الأشياء حتى تشملها القدرة، مهما كانت إلهية لا نهائية.

إن القدرة تعني إمكانية تعلقها بشيء ممـا قدمناه، والاستحالة الذاتية تعني ـ فيما تعنيه ـ استحالة تعلق القدرة بها وإن كانت القدرة الإلهية، غير المحدودة، فإذا تعلقت القدرة بأمر ـ مما يزعم استحالته ـ فالواقع المقدور، دليل لا مرد له على إمكانيته.

فهل بالإمكان الجمع بين النقيضين معاً: «أنا أنا ولست أنا» أو سلبهما معاً: «أنا لست أنا ولا لا أنا»، مهما كانت القدرة المحاولة لجمعهما أو سلبهما إلهية؟

وهل بالإمكان أن الله خالق نفسه، فخلقٌ شيء يسبقه عدمه، وهذا ينافي الوهية المخلوق، وخالقية شيء تقتضي كونه قبل مخلوقه، فهل إن الله كان قبل كونه! أمران مستحيلان ذاتياً!.

وهل بالإمكان أن يخلق الله مثله، فيكون المثل خالقاً غير مخلوق، مثله. فالإله المخلوق إذاً لم يكن مخلوقاً، حتى يماثل خالقه. فهو معدوم لم يخلق! فهل المعدوم يماثل الخالق، وإذا كان مخلوقاً فكيف يماثل خالقه في أنه غير مخلوق. أم هل هو مخلوق وغير مخلوق لـكي يربح الواجبين: مماثلته خالقه، وعموم القدرة الإلهية لخلق مثله؟ الأمر إليكم!.

إنه ـ رغم ما يزعمه الثالوثيون وأضرابهم ـ، ليس عـــدم تعلق القدرة الإلهية بالمحالات الذاتية، نقصاً في القدرة، ونقضاً في شمولها، وإنما هي المحالات النسبية، التي لا يقـــدر عليها إلا الله، فيختصها بقدرته فـ «إن الله على كل شيء قدير».

نسألكم: هل بالإمكان أن يكون الله إلهاً وليس إلهـاً؟ خالقاً ولا خالق، عالمـاً ولا عالم! فإذا «نعم» فليس الملحدون خاطئين إذ تمسكوا بأحد جزءي

القضية المتناقضة « موجود ومعدوم » إذ زعموا أنه معدوم ، وإذا « لا » فلماذا « لا » فهل إلا لأنه من الحالات الذاتية ! فكذلك سائر الحالات الذاتية كالأمثلة المسبقة .

فالمستحيل ذاتياً ليس شيئاً حتى تتعلق بـــه القدرة ، ولا أن القدرة تتعلق باللاشيء الذي يستحيل أن يكون شيئاً ، اللهم إلااللاشيء الممكن إيجاده .

فذلك ليس لنقص في القدرة اللانهائية ، وإنمـــا لأن القدرة لا تعني إلا التي بإمكانها إيجـــاد الممكن الذاتي ، فالنقص كل النقص في المستحيل الذاتي الذي لا يقبل الإيجاد ، إن صح التعبير بـ « يقبل ولا يقبـــل » عن اللاشيء المستحيل وجـــوده ! .

ولئن سألت : هل لا يقدر ربنا أن يخلق في الحالات ، حالة قبول لخلقها . فالجواب أنه « ليس للمحال جواب » ! فإنما الحالة والصفة تخلق في شيء موجود، لا المعدوم المستحيل الوجود ، وفـــيما إذا كان الشيء موجوداً ، لا يحمل صفة تناقض كيانه ، فهـــل يحمل ذات الله صفة الحدوث ، أو هـــل تحمل ذوات الممكنات صفـــة الأزلية . كذلك – وبالأحرى – لا تحمل الذوات المستحيلة الوجود – إن صح تعبير الذوات – لا تحمل صفة الإمـــكان والقبول ، المناقضة للاستحالة الذاتية !

فقبول صفة الإمـــكان للمفروض استحالته الذاتية يحمـــل تناقضين :

١ – فرض القبول للمعدوم حالة عدمه : صفة دون موصوف !

٢ – تحميل الحالة المناقضة لذات المحمول، عليه ، جمعاً بين الصفة والموصوف المتناقضين : مستحيل ذاتي يقبل حالة الإمكان ! ظلمات بعضها فوق بعض .

فالمحال الذاتي محال أينما حل ، ويجنب القدرة الإلهية أيضاً ، وليس عنه خبر ولا جواب ، إلا أنه « ليس للمحال جواب » يجيب بـــه الإمام الصادق زنديقاً ســـأله : أليس هو قادراً أن يظهر لهم حتى يروه ويعرفوه فيُعبد على يقين ؟

فيجيبه : « ليس للمحال جواب » يعني بذلك: أن المحال ليس شيئاً يذكر فيسأل عنه ، فلو أن الله أظهر نفسه فلاثره العيون بشاهدة الأبصار ، وفي ذلك تحول المجرد عن اللامادة إلى المادة ، لكي تشاهَد ، وهذا محال !.

كما يُسأل الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام : « هل يقدر ربك أن يدخل الدنيا في بيضة من غير أن تصغر الدنيا أو تكبر البيضة ؟ قال : إن الله تبارك وتعالى لا ينسب إلى العجز ، والذي سألته لا يكون »[١] .

وإن كان هنا وجه آخر للجواب ، فهو عن وجه آخر للسؤال وكما أجاب علي عليه السلام نفسه عن نفس السؤال : « ويلك إن الله لا يوصف بالعجز ، ومَن أقدر ممن يلطّف الأرض ويعظّم البيضة »[٢] .

يعني الحالة الممكنة في موضع السؤال : أن يلطف الله الأرض عن حجمها برفع الخلل والفواصل عن عناصرها وجزيآتها وذراتها ، ودمجها كما يمكن ، فتصبح قدَر البيضة فيدخلها فيها ، فالبيضة إذاً لا تكبر حجماً مها كبرت ثقلاً ، كما الدنيا لا تصغر ثقلاً مها صغرت حجماً ، فهذه هي الحالة الممكنة من إدخال الأرض البيضة ، بتلطيف الأرض حجماً وتكبير البيضة ثقلاً ! .

ثم استحالة تعلق القدرة الإلهية قد تكون ذاتية عقلية كالأمثلة المسبقة ، وقد تكون واقعية كصدور القبيح منه سبحانه ، أو خلق المرجوح كونياً ؛ وحسب المصلحة الجماعية للكائنات أو للمكلفين كالمقترحين المعجزات تعنتاً ولجاجاً : « قل إنّ الله قادر على أن ينزّل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون » ( ٦ : ٣٧ ) . فالأخيران – رغم إمكانيتها ذاتياً ، وبالنسبة للقدرات المحدودة أيضاً –

---

(١) نور الثقلين ج ١ ص ٣٢ عن التوحيد للصدوق عن عمر بن اذينة عنه (ع) .

(٢) نور الثقلين ج ١ ص ٣٢ عن ابان بن تغلب عن الصادق (ع) عنه (ع) .

هما مستحيلان على الله ، إذ يتنافيان وعدله وحكمته تعالى وتقدس ، استحالة بالإختيار .

انه لا قديرَ على كل شيء إلا الله ، فلا يعجزه شيء ، ولا يفوته شيء ، يخلق ما يشاء ، ويفعل ما يريد ، إنه عزيز حميد ، وهو غالب على أمره ، غير مغلوب فيما يريد ، فما يحيله الإنسان بحساب قدرته المحدودة ، إنه عند الله سهل يسير ، لا يعزب عنه شيء ولا يعزبه شيء .

وما يحيله العقل واقعياً ، من المنكر ، أو عقلياً من المحال الذاتي ، فهو ليس شيئاً يذكر ، أو لا يليق به تعالى حتى تتعلق به قدرته ، فما دام القابل ناقصاً لا يقبل الكمال، أم هو دون النقص والكمال لاستحالة شيئيته، فعدم تعلق القدرة الإلهية به ليس نقصاً فيها ، ولا نقضاً لعمومها وشمولها .

وهل إن القدرة الإلهية تتعلق بالشيء الموجود : خلقُ الشيء شيئاً : خلقه كما كان قبل خلقه ؟ فهو من تحصيل الحاصل ! أو خلقه شيئاً آخر بمعنى تغييره وتحويره ؟ أو بمعنى إعدامه ؟ فليست قدرته محصورة في حصار الكائنات بعد كونها، فمن هذا الذي كوّنها إلا هو ؟! أم تتعلق قدرته بما كوّنها ويخلق الأشياء من اللاشيء ؟ فكيف يتحول اللاشيء شيئاً ! أن يخلق الله العالم من اللاشيء ! أم خلق الأشياء لا من شيء ؟ وهذا هو الصحيح المعقول ، أن لا مصدر لخلق المادة الأولية وجودياً ولا عدمياً ، إنما مصدرها أولاً إرادته تعالى : أن خلق الأشياء لا من شيء : « إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » وإنما استحق اسم الشيء قبل تكوينه ، اعتباراً بإمكانية تكوينه وبحالة كونه المستقبل « علاقة ما يكون » .

ثم مصدر الأشياء ثانياً هي المادة الأولية — المخلوقة لا من شيء — ، بإرادته تعالى ، أن يحوّرها ويحوّلها ويبدّل ماهيتها ، ثم ماهياتِ الأشياء إلى ما يريد ، أو يعدمها ، وسوف نخوض في البحث عن كيفية التكوين في محالّها .

إذاً فعموم قدرته تعالى ليس إلا لعموم الممكنات: المعدومات المتمكنة للإيجاد، والموجودات المتمكنة للتغيير والتحوير، أو الانعدام، فهي كلها أشياء معنية بـ «كل شيء» دون المحالات الذاتية فإنها ليست شيئاً لكي تتعلق بها القدرة، ودون الموجودات في وجوداتها، فإن الموجود لا يحتاج إلى الإيجاد، اللهم إلا إبقاءه فإنه أيضاً بحاجة إلى القدرة والعناية الإلهية كما في بداية وجوده، إذاً فليست القدرة الإلهية فوضى تتعلق بالمحالات لكي تبرز الفلسفة الكنسية تقولها في الثالوث، المستحيل عقلياً، وان الإبن إله، مولود منذ الأزل، غير مخلوق، وأن الإله المجرد اللامحدود حلّ في الجسم اللامجرد المحدود[1].

«الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور»:

ومن عموم قدرته للأشياء أنها تعم الموت والحياة، فالموت شيء لأنه إعدام للحياة وفصل بين الكائن الحي وبين حياته، والحياة شيء وهي أصل الأشياء في الكائنات.

والموت الشيء، المخلوق، هو الموت عن الحياة وبعدها[2]، لا قبلها، فإنه أمر عدمي وليس إعدامياً لكي يكون شيئاً، وتقدُّمه على الحياة هنا في التعبير، لا يقدّمه عليها في الواقع المعني، إذ لا واقع له قبلها إلا عدم الحياة، وهو ليس شيئاً يخلّق، فخلق الموت هو الإماتة: «وأنه هو أمات وأحيى»

---

(١) راجع كتابنا «حوار بين الالهيين والماديين».

(٢) نور الثقلين ٥: ٣٧٩ عن الكافي عن الباقر (ع) «قال: ان الله خلق الحياة قبل الموت» وفيه ايضا عنه (ع) قال: الحياة والموت خلقان من خلق الله، فاذا جاء الموت فدخل في الانسان، لم يدخل في شيء الا وخرجت منه الحياة، وفيه ايضا عنه (ع) ما الموت؟ قال: هو النوم الذي يأتيكم في كل ليلة. الا انه طويل لاينتبه منه الى يوم القيامة.

اقول: كل ذلك يعني الموت عن الحياة، لا الذي قبلها، ولا يشمله كذلك.

( ٥٣ : ٤٤ ) ، لا الذي قبل الحياة فإنه كائن قبلها دون خلق، ولم يُذكر إلا في آية واحدة : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون » ( ٢ : ٢٨ ) .

ثم إن بلوى الإنسان ليس بالموت قبل الحياة ، إذ لا يشعره قبلها ، وإنما حالها ، بما يعلم انه يدركه لا محالة ، فليهيىء له نفسه ، وبعدها كذلك ، ليذوق ألم الحسرة : « يا ليتني قدمت لحياتي » فليحسن عمله في حياة التكليف ، ليحيى فيها وبعد الموت في حياة الخلود حياة طيبة .

إن التسابق في الأعمال الحسنة هو الهدف لهذه الازدواجية من الموت والحياة، وليست الحياة فقط هي الباعثة لهذا التسابق ، وإنما التي معها الموت علماً ، وبعدها واقعاً ، ومهما أنكر الإنسان حياة الحساب بعد الموت ، الذي لا ينكره أحد ، ولكن احتمال الحساب بعدُ قائم لا محى ، فليحسب العاقل له حساباً ، وكما يحسب كل تاجر حسابات في احتمالات الفائدة والضرر ، ولأن الموت يحمل هذه الذكرى الضرورية ، والبلوى العالية ، تقدّم هنا على الحياة رغم تأخره في غيرها من الآيات ، إلا الذي هو قبل الحياة وليس فيه بلوى ! « كنتم أمواتاً فأحياكم » .

« أيكم أحسن عملاً » والعمل هنا يعم عمل القلب — وهو أولى — وعمل القالب — وهو أدنى — لأن القالب يتبع القلب ويتّبعه في عمله ، وليس كذلك القلب، مهما تأثر هو بالقالب في خيره وشره .

ثم العمل منه حسن ومنه أحسن ، كما أن منه سيّىء ومنه أسوء ، والغاية القصوى من بلوى الموت والحياة الوصول إلى واقع العمل الأحسن قلباً وقالباً ، وهو الذي يبتغى به وجه الله كأعمال المقربين ، ودونه الأبرار الذين يريدون الآخرة ، فعملهم حسن ، كما أن الأسوء هو أعمال الكافرين الذين توافق سيآتهم نياتهم .

ومن حسن العمل الأحسن نسيانه وعدم استعظامه ، كما أن من الأحسن ذكر العمل السيء فجبرانه .

فالموت والحياة دليلان ، بما معها من أدلة إلهية ، عقلية وفطرية وواقعية ، يدلان الناس اليقظين إلى العمل الأحسن ، فليس الموت قبل الحياة داخلاً في المعني من الموت الابتلاء هنا .

هذا – وإن كان بالإمكان شمول الموت هنا لما قبل الحياة أيضاً ، بتأويل أنه مخلوق ضمن الكائن الميت[1] ، وكذلك الحياة غير الدنيوية فإنها حياة وأحيى من الدنيوية ، ولكنما البلوى ليست إلا في الحيـــاة الدنيا لواقع الإختيار والتكليف فيها ، وفي الموت عنها علمياً حالها ، فإنه الذي يحمل الذكرى ، ويحمل صاحبه على التسابق في الأعمـــال الحسنة « ليبلوكم أيكم أحسن عملاً » ، وللموت رحمات أخرى إضافة إلى البلوى[2] .

---

(١) ولكن الخلق هنـا يوحي بالاستقلال فـلا يشمل الموت ضمـن الكائن الميت .

(٢) ان رحمة الموت لا تختص بالبلوي التي تدفع الى التسابق في الصالحات ، وانما هي الاهم مر فوائده لبني الانسان حال الحياة اعتبارا ، وبعد الموت جزاء للمحسنى بالحسنى ، وللذين كفروا عذاب ، وهو رحمة للمحسنين –

وهنا رحمات اخرى نتيجة الموت في النبات والحيوان والانسان : فللانسان : هل ياترى لو لم يكن موت ، أكانت الكرة الارضية بفضائها تسع نسله المتواصل ؟ ولو وسعت ، فهل بامكان الاولاد ان يتحملوا عبء معايش الآباء والأمهات : الآلاف الالاف ! واذا امكن ، فهل بامكان هـذه الكثرة الخالدة في الحيـاة ، المعايشة السلمية ؟ كيف ! ولا تعيش الآن – وهي تلمس الموت ليل نهار – الا في اضطرابات ناتجة عن تخلفات !.

فيا للموت من رحمة لبني الانسان ، بنثاء لحياة سليمة ، لو تذكروا

ولولا العزة والغلبة الإلهية لم تكن هناك بلوى ولا حسن الأعمال ، فبعزته خلق الموت والحياة ، وبعزته يحافظ على الأحياء والأموات ، وعلى الأرواح والأجساد ، وعلى أعمال الإنسان ، وبعزته يجازي كلا على عمله ، إذ لا يفوته من أساء .

ولولا مغفرته كانت الحياة الأخرى كلها بلاءً وعذاباً ، ولكنه يغفر ما دامت

---

بها ، وواعظا لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيد ، ورادعا عن الشرور لمن اراد الحياة سالمة غير منغصة وان لم يؤمن بالآخرة ، وباعثا على التقوى لمن آمن بالله واليوم الاخر !.

وللحيوان : لو ان بيضات الاسماك ( البطروخات ) صارت كلها اسماكا ولم تمت ، لاصبحت البحار جامدة من زحامها ، فامتنعت الحياة عليها كلها .

ولو ان الجراثيم استمرت على التوالد خمسة ايام دون انقطاع ولا موت لملأت المحيط الى عمق ميل ، فكيف الحياة ؟!

ولو أن ميكروب الوباء ( الكوليرا ) ــ الذي يتضاعف كل عشرين دقيقة ــ لو مضى عليه يوم واحد دون عائق ، لبلغ وزنه ٧٣٦٦ طنا ، وعدده رقم ٥ مع ٢١ صفرا ، فاين الحياة !

ان بعض المحار في البحار تبيض الواحدة منها ستين مليونا ، لو بقيت انسالها بين عام وعامين لزادت على الكرة الارضية ، فكيف الحياة!

والذباب الذي ينغص عيش الانسان ، تبيض انثاه خمس أو ست مرات ، في كل مرة ١٢٠ ــ ١٥٠ بيضة ، فلو عاشت دون موت لم يعش على وجه الأرض انسان ولا حيوان !

فلولا الموت لم تكن حياة ، وانه يتبنى الحياة مادية ومعنوية ، خلقية وخلقية ، « ليبلوكم ايكم احسن عملا » سبحان الخلاق العظيم ، فهل لا يستحق الموت ــ اذا ــ ان يحتل الرتبة السابقة على الحياة : « خلق الموت والحياة » ؟ فان الموت رحمة للاحياء وللاموات !.

المغفرة لا تنافي عدله ، ويكفي أن مصير الموحدين كلهم الجنة ، بعد المغفرة ، أو والعذاب فيما لا يتحمل المغفرة ثم الجنة ، فرحمته وسعت كل شيء « وهو العزيز الغفور » .

أجل : وإن الخلق عامة ، وخلق الموت والحياة خاصة ، ليس جزافاً دون هدف ، وإنما هو الإبتلاء لإظهار المكنون في علم الله من سلوك المكلفين على الأرض ، بلوى : « بتكليف طاعته وعبادته ، لا على سبيل الامتحان والتجربة ، لأنه لم يزل عليماً بكل شيء »[١] و « أكيس المؤمنين أكثرهم للموت ذكراً وأحسنهم له استعداداً » « فليأخذ الإنسان من حياته لموته » واستقرار هذه الحقيقة الحية من واقع الموت في ضمائر الأحياء ، يدعهم أبداً يقظين منتبهين حذرين واعين ، للصغيرة والكبيرة ، في النية المستسرة ، والعمل الظاهر ، لا يدعه يطمئن أو يستريح ، إلا أن يسامح عن عقله وضميره ، فإن حسن العمل ليس إلا من حسن العقل ، وعلى حد تفسير الرسول الأقدس (ص) : « أيكم أحسن عقلاً ، ثم قال : أتمكم عقلاً ، وأشدكم لله خوفاً ، وأحسنكم فيما أمر الله عز وجل به ونهى عنه نظراً ، وإن كان أقلكم تطوعاً »[٢] .

---

(١) « نور الثقلين » عن الاحتجاج للطبرسي عن الرضا ـ عليه السلام ـ في الآية : « فإنه عز وجل خلق خلقه .. » .

(٢) « مجمع البيان » : أبو قتادة قال : سألت النبي (ص) عن قوله « أيكم أحسن عملاً » ما عنى به ؟ فقال : يقول : أيكم أحسن عقلاً .

وفيه عن ابن عمر عنه (ص) قال : « أيكم أحسن عقلاً ، وأورع عن محارم الله ، وأسرع في طاعة الله » ، وفي الكافي عن الصادق (ع) : « ليس يعني أكثركم عملاً ، ولكن أصوبكم عملاً ، وإنما الإصابة خشية الله والنية الصادقة ، ثم قال : الإبقاء على العمل حتى يخلص أشد العمل ، الا والعمل الخالص الذي لا تريد أن يحمدك عليه أحد إلا الله ، والنية أفضل من العمل ، ألا وإن النية هي العمل ، ثم تلا قوله تعالى : « قل كل يعمل على شاكلته » يعني على نيته .

**السماوات السبع الطباق :**

« الذي خلق سبع سماوات طباقاً » : الآراء حول السماوات بين مُفرط يزعمها مليارات ، عدد الأجواء المحيطة بالكواكب ، زعم أن السماء تعني الجو المحيط بكل كوكب ، وبين مفرّط يزعمها الأجواء المحيطة بالسيارات السبع ، معتذراً عن الجديدين « بلوتو – نبتون » أنهما غير مرئيين غالباً ، بالعين المجردة ، رغم أن سبع المفرّط ومليارات المفرط ، هي كلها في السماء الدنيا : الأولى ، حسب القرآن .

نجد السماء في القرآن ، تذكر ١٢٠ مرة ، والسماوات ١٨٣ ، والسبعَ سبعاً بسبعها ، ومرتين بسبع شداد وسبع طرائق[1] .

فالسماء تعني مطلق الجو المحيط حول الأرض ، سواء في حالتها الأولى الغازية الدخانية قبل تسبيعها أم بعدها ، والسماوات تعني السبع ، لا أقل ولا أكثر ، ولأن الآيات التسع التي تعتبرها سبعاً إنما هي بصدد عرض عدد السماوات المخلوقة : « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسوّاهن سبع سماوات وهو بكل خلق عليم » ( ٢ : ٢٩ ) « الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن .. » ( ٦٥ : ١٢ ) « قل أإنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين .. ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم » ( ٤١ : ١٢ ) .

فالسماء الدنيا ، وهي أدنى السماوات إلينا نحن المخاطبين في الآيات ، هذه السماء تحمل سماوات المفرطين والمفرّطين ، ثم لا ندري ماذا تحمل السماوات الست الباقية .

---

(١) راجع ص ٢٥ ـ من الجزء الثلاثين القسم الاول ففيه تفصيل عن السبع الشداد .

ولقد وُصِفت هذه السبع بأوصاف عدة ، كالشداد والطباق ، مما تدلنا على خروجها وتحللها عن الحالة الدخانية قبل تسبيعها ، إلى حالة أخرى وحالات ، ومن ذلك قصورها ومصابيحها ومدنها الشداد الطباق .

وإنها طباق لتطابقها بعضها على بعض، وتشابهها مع بعض، وتماسكها ببعض، وترابطها مادياً ومعنوياً مع بعض ، وتآخيها بما أنها وُلِدت من الدخان الأم : « ثم استوى إلى السماء وهي دخان .. فسواهن سبع سماوات » .

فلماذا تتهافت وتتفاوت؟ فإنها والخلق كله - كخلق الله - لم تُخلَق متفاوتة، وإنما التفاوت من الخلق نفسه ، تخلفاً عما خُلِق له ، وأراد الله منه :

**« ما ترى في خلق الرحمان من تفاوت » :**

إن رحمانيته تعالى ، وهي رحمته العامة الشاملة لخلقه أجمع ، إنها تشهد بعدم التفاوت والتهافت في خلقه كخلقه، فللائتلاف خلقهم لا للاختلاف: « ولا يزالون مختلفين . إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » ( ١١ : ١٩ ) رحمة التآلف في التكوين ، وأخرى في التشريع ، وثالثة لمن يطبق التشريع ، توفيقاً لما أراده من الرحمة «فالخير كله بيديه والشر ليس إليه» فالمخلوقون هم المتفاوتون المتضادون مع بعض ، تخلفاً عن شرعة التكوين والتشريع ، ولكنما الخالق لا يخلق متفاوتاً متهافتاً ، مما يدلّ على وحدته ورحمته ، فـ « ما ترى في خلق الرحمان من تفاوت » .

**هل ترى من فطور ؟**

**« ما ترى في خلق الرحمان من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير » .**

هنا يؤمر من له بصر وبصيرة لينظر في خلق الرحمان نظر الناقد البصير ، هل يرى من اختلال وفطور ؟ فلينظر نظرة أولى فـ « ما ترى » ثم ليرجع البصر علّه يجد ما ضل عنه في الأولى « فارجع البصر » ثم ثالثة هي الكرة الثانية :

« ثم ارجع البصر كرتين » وفي آخر المطاف : « ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير » !

كرر أيها الناظر نظرك إلى السبع الطباق ، من بعيد ، وأحرى لك من قريب ، على ضوء غزو الفضاء ، مفكراً في عجائبها ، مستنبطاً غوامض تراكيبها « ينقلب إليك البصر خاسئاً » : بعيداً عما طلبه ، من نقد في نظمها أو غور في ماهيتها « وهو حسير »: ذليل بفوت ما قدّره من تفاوت وتناحر : « قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » (١٠:١٠١) وأما المؤمنون من الناظرين في آيات الأرض ، ومن غزاة الفضاء ، فهم تغنيهم آياتها ، دلالة على مدبر واحد حكيم .

إن الخاسيء هو البعيد المرذول ، وكما يخسأ الكلب ، والحسير هو البعير المُعيَى ، الذي بلغ السير مجهوده ، واعتصر عوده ، فالبصر يرجع بعد كرتيه ، وسروحه في طلب مراده ، وإبعاده في غايات مرامه ، يرجع كالاً معيىً بعيداً مرذولاً ذليلاً من إدراك بغيته ، ونيل طلبته ، من اكتناه حكمة الخلق ، أو نقد زَعْمُ التفاوت فيه .

فليتجول الجوالون في غزوهم الجوي ، ولينظر الناظرون ، فليس آخر المطاف إلا عجزاً عن الغور ، دون أن يدركوا فطوراً وفتوراً إلا في أنفسهم ، إذ لا تبلغ قمة المعرفة بخلق الرحمان ، وكيف بالنقد فيه ، أو شبهة فيما يحويه ، اللهم إلا لمن سامح عن عقله ، ولجَّ في غيه ، فليخسأ وهو حسير !.

إن الكائنات ، رغم اختلافها في صفاتها وماهياتها ، وعناصرها ، وجزيآتها ، وذراتها ، فالاختلاف في آثارها وخواصها ، وتفاعلاتها ، إنها بالرغم من كل ذلك متلائمة متناسقة ، تحصل من ازدواجها وحدة ، ومن قربها وحدة ، ومن خلطها وحدة ، ومن بُعدها وحدة ، تضرب — على تضاربها ظاهرياً — إلى وحدة أنيسة رحيمة أليفة ، مما يدل على مدبر **ومكون واحد** .

هذه الآيات تتحدى الناقدين، أن ينظروا في خلق الرحمان، هل يقع نظرهم، بعِدِّته وعُدَّته، على شق أو صدع أو خلل ؟.. « هــل ترى من فطور » : من وَهْيٍ أو وهن، به يتصدع أو ينصدم، وهذه النظرة الفاحصة المتأملة هي التي يريدها الله : للمؤمنين لكي يزدادوا إيمــاناً، ولغيرهم ليزدادوا حجة تحسم مواد الشك والريبة عن قلوبهم، وغشاوات الأوهام عن أبصارهم، فبلادة الألفة تذهب بروعة النظرة إلى هذا الكون الرائع العجيب الجميل الجليل، لا تشبع العيون من تملّـي جماله وروعته، ولا القلب من تلقـّي إيماءاته وإيحاءاته، ولا العقل من تدبر نظامه بقوانينه، فليمش الإنسان نظراً في خلق الرحمان، ولكي يعرف عجزه وقدرة الرحمان، وجهله بجنب علمه، ونقصه حيال كماله.

ومن الرائع جداً أن قراءة كتاب التكوين لا تحتاج إلى ثقافة زائدة، ودراسة خاصة، وإنما بصر وبصيرة منح الله الإنسان إياهما وإن كانا في درجات، وإن كان للعلم أثراً عميقاً في مزيد المعرفة، ولكنما القرآن يخاطب ساكن الغابة والصحراء، كما يخاطب ساكن المدينة ورائد البحار وغازي الفضاء على سواء ! ولأنه كتاب الناس أجمع، يحمل هداية الناس أجمع.

وكما قلناه مسبقاً : إن التفاوت المنفي هنا هو التضاد والتنافي وعدم انسجام والتحام أجــزاء الكون، في أصل الكيان والنظام، فهذه أرضنا تحول حــول نفسها وحول شمسها في جادة فضائية، لا تتزلق عنها، ولا تبطيء ولا تزيد عما قرر لهــا من حراكها، ونرى كذلك كافــة السابحات في يم الفضاء، بالمليارات المليارات، فكل في فلك يسبحون، دون اصطدام واصطكاك واحتكاك، مما يدل على أن عليها سائق واحد مدبر حكيم.

فكلما تواترت الأنظار الدقيقة إلى خلق الرحمــان، لم تزدد إلا زيادة المعرفة بنظمه الشامل، وتنسيقه الكامل، دون تفاوت فيه، ولا نقص يعتريه.

ترى رحمانية الخالق – نتيجة كرور الأنظار ـــ من خــلال هذا الكون،

فـ « ما ترى في خلق الرحمان من تفاوت » : أياً كانت الرؤية ومن أي كانت ، « فارجع البصر هل ترى من فطور » ؟ تأكداً وتثبتاً ، في رجوع نافذ ناقد أعمق من النظرة الأولى ، علّه فاتك شيء فلتجده هنا ، هل ترى من فطور : من فروج وشقوق وفتوق وخروق ؟.

« ثم ارجع البصر كرتين » : بغية الإحاطة على ما علّه خفي عنك من فطور ، أو رجاء الإحاطة على خفيات الكون الغامضة : « ينقلب إليك البصر خاسئاً » مبعداً مصغراً ذليلاً كليلاً عما يهواه « وهو حسير » : ذليل أسير كليل أن يتعاطى نقداً ، أو تحيط علماً !

إن الأنظار المتجهة إلى الكون ، كلما تغرق في يمه المتلاطم ، حائرة ، لا يزداد أصحابها في سبرهم غوره إلا حسيرة وبهراً ، يذعنون أنهم خاسئون يجنب هذه العظمة الباهرة ، وإذا عميت عليها حكمة فيه ، كما في الكثير منه ، فالناظر المنصف لا يتسرع بالنقد ، لما يعلمه باتقان أن صانعه أعلم منه وأحكم مهما تسرّع الجاهلون الملحدون والمتساهون عن عقولهم وعن فطرهم وضمائرهم .

وقد تكون النظرة الأولى ، المأمور بها هنا ، النظرة البصرية الميسورة لكل واحد ، والثانية النظرة العقلية على ضوء الفلسفات العقلية والعلوم التجريبية ، والثالثة هي النظرة في ملكوت السماوات والأرض ، في حقيقة كيانها ، وأصل كونها ، وكيفية تكونها وتعلقها في ذواتها بالرحمان ، سواء أكانت النظرة من بعيد ، أو وأحرى من قريب على ضوء غزو الفضاء : « أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء » ( ٧ : ١٨٥ ) « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » ( ٥٠ : ٦ ) .

هذه نظرات ثلاث أمرنا بها هل ترى من فطور ، ولو كان كياننا كله نظراً

إلى الكون و كررناه إلى يوم الدين ، لم نرجع في نقـدنا إلا خاسئين ، ونرجع في استكشاف القدرة العجيبة الرائعة الإلهية إلى معرفة أسمى وبصيرة أنفذ واسني ، إن الخلقة تملك كمالاً دون نقص من حيث الصنعة الإلهيـة ، ثم نجد له جمالاً فوق الكمال وكما الآيات التالية تتحدث عن ذلك الجمال الرائع ، بعد ما برهنت الآيات المسبقة لكمالها وعدم فتورها :

« وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ٥ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ٦ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ ٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ٨ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ كَبِيرٍ ٩ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ١٠ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ١١ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ١٢ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ١٣ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ١٤ .. »

السماء الدنيا بمصابيحها الرجوم :

« ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين » :

هنا تتحدث الآية « ولقد زينا السماء الدنيا » عن سمائنا التي نواجهها ، وهي الأولى ، دون الستة الباقية البعيدة عن أنظارنا ، وإن كانت بالعيون المسلحة ، فضلاً عن غزو الفضاء ، فإننا حتى الآن لم نسبر غور السماء الأولى ، فضلاً عن سواها !

هنا « السماء الدنيا » الموصوفة بأنها الدنيا : أدنى السبع إلينا ، لا « سماء الدنيا » ! أمقابل سماء الآخرة ؟ فليست الآن مخلوقة ! والآية تحدثنا عما مضى ، فهذه الآية مع نظيراتها ، تدلنا أن المصابيح السماوية التي نشاهدها ، والكواكب التي نراها : « انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب » ( ٣٧ : ٦ ) انها – كلها – في السماء الأولى ، فما هي الكائنات في سواها ، من الستة الباقية ؟ لا ندري ، وكيف لنا أن ندريها ، وما ندري ما في سمائنا الدنيا !

رجوم الشياطين ؟

هل إن المصابيح هنا هي النجوم كلها ، أو الكواكب كلها ، أم قسم خاص منها ؟ وهل الشياطين هم شياطين الجن فقط ؟ أم والإنس أيضاً ؟ ثم كيف تكون المصابيح رجوماً على أية حال ؟

المصابيح هي الكواكب ونجومها الطالعة وسواها ، فهي مدرعات جوية ومقاذيف تقذف : « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ، وحفظاً من كل شيطان مارد ، لا يسَّمَّعون إلى الملإ الأعلى ويُقذفون من كل جانب . دحوراً ولهم عذاب واصب ، إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب » ( ٣٧ : ١٠ ) .. هذه الكواكب هي كلها رجوم ، ولا سيما بروجها : « ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين ، وحفظناها من كل شيطان رجيم ، إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين » ( ١٥ : ١٨ ) .

فموقع الكواكب ــ بين مواقعها ــ أنها حفظ من مردة الشياطين ، بعضها قذائف وشهب بحرسها : «وإنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرســاً شديداً وشهباً» ( ٧٢ : ٨ ) بين منفصلة عن بروجها ومدنها : عن وزارات الدفاع ومراكز الأسلحة ، انفصلت شهاباً رصداً ، ترصد وترقب مسترقي السمع «فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً» ( ٧٢ : ٩ ) وبين ما هو كرة سماوية ، مهما كبرت أو صغرت . تدفع من قاذفاتها شهباً ونيــازك نارية ، تهدف أهدافاً مقصودة ، يدفعها الحرس الملائكي ، أو تندفع دون حرس .

إن قذف الكواكب حتم لا مردّ له ، ولكنه ليس من نوع واحد ، فقد يكون رجوماً ، وقد يكون شهباً : الأحجار السماوية ونيازكها النارية .

فالرجوم هي الأحجار التي تحمل النار ، أو تتبدل ناراً باصطكاكها الجوي ، والمصابيح الرجــوم ليست هي الكرات ، إذ لا يرجم بها الشياطين ، وإنما يرجمون منها ، من قذائفها المنفصلة عنها ، فـ «جعلناها رجوماً للشياطين» لا تعني في الكرات إلا أنها مقاذيف ، طالما تعني في الأحجار المنفصلة الحائرة في الجو ، تعني منها أنفسها .

والشهب هي النيازك النارية[١] فالرجوم التي تحترق في الجو وتندثر بعد نفاذ

---

(١) يقول ( ماكسول رايد ) العالم الفلكي في كتابه ( النجوم للكل) : في ليلة نوفمبر ١٨٣٣ ــ اصبحت السماء مليئة من الشهب ، وكأنها الكواكب ، جعلت السماء ميدان النضال ، وادعى بعض انها كانت على كثرة ذرات البرد ، فالشهب ــ هذه ــ كانت تنتشر ، وكأنهــا من دوراة النار ، من النقطة التي فيها الصورة الفلكية «لنوى» : اســد ، لقد خيل الى بعض الناظرين كأن الدنيا انتهت ، وبعد قليل سوف تنفجر الارض بهذه الشهب الساقطة عليها ، وقد دامت هذه الحملة النارية طول الليل، مخيلة انها تمطر من ثقبة وتنتشر ، وتصاحبها في نضالها الكواكب حولها

أمرها ، هي الشهب ، والتي تصل إلى الأرض ، هي الأحجار السماوية التي تمطر أحياناً على شياطين الأرض ، فـ « جعلناها رجوماً للشياطين » تعم شياطين الجن بالشهب ، وشياطين الإنس بالأحجار ، ومن رجــوم شياطين الأرض سجّيل أصحاب الفيل وسواه ، كالتي أرسلت إلى سدوم ، وعلى قوم لوط : « قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ، لنرسل عليهم حجارة من طين . مسومة عند ربك للمجرمين » ( ٥١ : ٣٤ ) « فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود » ( ١١ : ٨٢ ) .

ثم كيف تقذف الرجوم والشهب إلى شياطين السماء ؟ ولماذا ؟ فهل يسمح للجن المؤمنين اختراق السماء إلى الملإ الأعلى للاستماع إليه ؟ وهل يمنع الإنسان أيضـاً من اختراق السماء وهو لا يستطيع التسمّع إلى المـلإ الأعلى ؟ ثم الشهب والنيازك النارية والأحجار ، هل إنها على كثرتها وتوافرها لا تهـدف إلا قذف شياطين السماء والأرض ؟ وكيف ذلك ؟ تجـد الجواب عنها في محالهـا الأنسب[1] .

« وأعتدنا لهم عذاب السعير » : عذاباً فوق العــذاب بخبره الحاضر الحاذر عن مستقبل شديد ، ورجومهم يوم الدنيا - بواقعه - عليهــم شهيد ،

---

= نقل احد الشاهدين هذه الحرب الجوية في « كارولينا الجنوبي »: سمعت صوتا خشنا خارقا أيقظني من نومي ، صرخة من ثمانمائة من العمال السود في المزارع ، حاولت الكشف عن السبب ، فاذا بصوت ضعيف من وراء الباب يطلبني ، اخذت سيفي واتبعت صاحب الصوت، فسمعت ثانية يسترحمني قائلا : قم فقد احترقت الدنيا ، فتحت الباب، ولست ادري هل كانت الصرخات المسترحمة أدهش ، ام المنظرة الرهيبة من الحرب الجوية ، رايت مائة من العمال ساقطين على الارض ، كانت حادثة عديمة النظير ، وان كانت لها اشباه في التاريخ .

(١) كما في سورة الحجر وفصلت والصافات والجن .

فهم بين عذاب حاضر وآخر معتد عتيـد ، عذاب فوق العذاب وبعد العذاب وبئس للظالمين بدلاً .

عذاب معتد : لم يأت وقته ، ولم يعد عدته ، ولأنهم وقوده ولما يدخلوه ، فإذا ألقوا فيه كمل العذاب بهذا اللقاء ، كما يقرب البترول النار ، فشهيق وفوار.

لا فحسب الشياطين : بناة الضلالة وأصولها من الجنة والناس أجمعين ، بل الحكم يعمهم والكافرين أجمع :

« وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير : فالذين لايرجون – منهم – يوم الدنيا ، هم شركاؤهم في عذاب جهنم يوم الدين : « ولاتحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار » .

« إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور » : يلقون فيها مهانة لهم ، وإلقاء للصلاءِ الوَقود ، لكي يَصطلون بأنفسهم ، فلقد كانت كاظمـة غيظها ، باطنة فورتها وميزها ، وأما الآن وهي تعيش وقودها ، فحق لها شهقتها وفورتها وثورتها على الكافرين .

الشهيق . هو الصوت الخارج من الخوف عند تضايق القلب من الحزن الشديد والكمد الطويل ، وهو صوت مكروه سماعه ، شديد إيقاعه .

أما إنها خائفة من وقودها الشديد ، متضايقة القلب الحزين ، من ورود هؤلاء الأرجاس الأوغاد ، رغم تصبُّرها لورودهم ، في كمد طويل ! .

تشهق فائرة : مرتفعة الغليان ، تجذبهم إلى داخلها جذب الهواءبشهيق النفس إلى داخل الصدر .

« تكاد تميز من الغيظ » : من قولهم تميزت القِدر ، إذا اشتد غليانها ، ثم صارت الصفة خاصة الإنسان المغضب ، وهنا وصفت النار بصفة المغيظ الغضبان الذي من شأنه – إذا بلغ ذلك الحد – أن يبالغ في الإنتقام ، ويتجاوز الغايات

في الإيقاع والإيلام ، وقد يوصف الإنسان الشديد الغيظ ، بأنه « يكاد يتميز غيظاً » أي : تكاد أعصابه المتلاحمة تتزايل ، وأخلاطه المتجاورة تتنافى وتتباعد ، من شدة اهتياج غيظه ، واحتياج طبعه واحتدامه ، فأجرى سبحانه هذه الصفة على نار جهنم ليكون التمثيل في أقصى منازله وأعلى مراتبه .

يا ويلاه ! هل ألقيت فيها قنبلة ذرية فتميزت شاهقة فوارة ؟ فإنها حصلت على عدتها بعد عِدتها تحرق بها وتحترق ، تميز بها وتتميز ، وهكذا أعدها ربها لهذا اليوم العصيب ! أعاذنا الله شره بحق الحبيب محمد وآله الطاهرين .

« **كلما أُلقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتيكم نذير** » ؟ : إنما يلقون فيها أفواجاً . فعذاب الإلقاء مهانة ، وعذاب الأفواج تطلعاً واطلاعاً ، بعضهم البعض ، وعذاب النار الشاهقة الفوارة بورودهم ، يضاف إليها كلها عذاب التنديد الشديد الذي لا جواب عنه إلا بلى ! .

إنهم يساقون إلى جهنم ويلقون فيها أفواجاً : « وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً » ( ٣٩ : ٧١ ) جعل الخبيث على الخبيث وركمهم جميعاً : « ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم » ( ٨ : ٣٧ ) ركماً ولكي تشتعل النار وتتميز من الغيظ بركامة وقودها ، تناصراً في الصّلاء ، وكما تناصروا يوم الدنيا في إيقادها على المؤمنين .

والملائكة الغلاظ الشداد ، وهم أصحابها : « عليها تسعة عشر وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة » ( ٧٤ : ٣١ ) هؤلاء العدول الموكلون بالنار يسألون أصحابها : « ألم يأتكم نذيرٌ » : حجةٌ عليهم ، وتنديداً بهم أن جاءهم نذير ، إذ الهلاك يوم الدنيا ويوم الدين ، ليس إلا عن حجة مسبقة تحملها النذر : « ما أهلكنا من قرية إلا ولها منذرون » ( ٢٦ : ٢٠٨ ) ، فالنذر تكفي حجة يوم الدين ، ولو لم تغن أحياناً يوم الدنيا : « حكمة بالغة فما تغن النذر » ( ٥٤ : ٥ ) .

وإذ لا تنديد ولا عذاب لمن لم يأته النذر، فما هذا التنديد الشديد بمن لم يأتهم !:

« ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون ... وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير » ( ٣٤ : ٤٤ ) .

تجد الجواب في : « قبلك » فإذ لم يأتهم نذير في الفترة بين المسيح ومحمد(ص)، فقد جاءهم النذير الأخير محمد ، وفيه الكفاءة إنذاراً وفيه المزيد ، وانما الآية توضح السبب في تصلبهم في الكفر : أنهم لم يأنسوا بالنذر قبله ، وأنه صلى الله عليه وآله وسلم يلاقي أشد الصعوبات في الدعوة ، وعليه أن يصّعّد أصعب العقبات فيها : « لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون . لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون » ( ٣٦ : ٧ ) .

ثم إذا كان واقع الأنذار شرطاً لزاماً في جواز العذاب ، فما هي — إذاً — حال من عاشوا زمن الفترة كما بين محمد والمسيح(ص) ؟ أو عاشوا في البلاد المنقطعة عن النذر أو عن إنذارهم كأمريكا، إذ اكتشفت قبل حوالي خمسة قرون؟ أو عاشوا في الفترة بين النبيين ، بعد موت السابق وقبل بعث اللاحق ، أو عاشوا في زمنهم ولكنهم لم يواجهوهم في دعوتهم ؟ فليس هناك — طوال التاريخ — إلا القلة القليلة من الكفار الذين تحق لهم النار، لأنهم أتاهم — أنفسهم — نذير ! ثم الكثرة الكثيرة لا يعذبون ، إذ لم يأتهم نذير !

هنا وهناك تعرف الجواب إذا تعرفت إلى كيان النذير ، الذي يفرض الحجة على المتخلفين :

إن الإنسان — غير المجنون والصغير — إنه يعيش نُذراً طوال حياة التكليف ، مهما اختلفوا في مدى الأنذار وكيفيته ، وطول مدته وقصرها ، وقوة حجته وأقواها :

فالعقل نذير ، والضمير الإنساني نذير ، والفطرة نذيرة ، وهذه نذر أنفسية دواخل ذواتنا ، وهي أسس الإنذار ، يتبنّاها المنذرون المرسلون ، وتتبنّاها الآيات الآفاقية في دلالتها وإنذارها ، « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » .

فعلى العقلاء أن يعقلوا عما تحيطهم من آيات الله البينات ، ولا أقل الآفاقية الكونية منها ، ولا أقل الأنفسية ! عليهم أن يعقلوا ويسمعوا ويعوا ، ومنهم الماردون الذين يتأوهون يوم الورود : « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ، فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير » (١٠) .

ثم الرسل المنذرون ، ليس لزاماً عليهم الإنذار بأنفسهم مواجهة ، ولا كلٌ في زمنه ، إنما المدار على بلوغ الإنذار الذي فيه الحجة البالغة ، سواء حمله الرسول بنفسه ، أم بمبعوثيه ، أم بكتابه ، ولا سيما الكتاب الذي يحمل معجزة الرسالة ومعجزة الرسول – البالغة الخالدة : « أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » ! ( ٢٩ : ٥١ ) .

فكل من بلغته الدعوةُ الحجةُ ، كيفما بلغت ، وبأيٍّ من الوسائل ، فقد لزمته الحجة الإلهية : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً »( ١٧ : ١٥ ) .

والعذاب دون حجة الإنذار، وكذلك اللارحمة واللاعذاب دون بلوغ الحجة، إنها حجة للناس على الله ، وحاشاه ! ولكن : « فلله الحجة البالغة » (١٤٩:٦) تبلغ العالِم بعلمه ، والجاهل بعقله ما لم يقصر : « رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً » ( ٤ : ١٦٥ ) «ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لو أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى » ( ٢٠ : ١٣٤ ) .

ولقد شمل الإنسانَ النذُر وأحاطوا به طوال التاريخ : « إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله » (١٤:٤١) « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » ( ٣٥ : ٢٤ ) لا تشذ النذارة الإلهية جماعة من الجماعات البشرية ، أو قطعة من قطاعاتها سواء أكان النذير من رجالات الوحي ، أم رسلهم الخاصة ، أو العامة ، أم – وفي أقل التقدير – نذر العقول التي تهدي إلى نذر الرسل ، وتدفع أصحابها للتحري عنهم .

ومما لا ريب فيه شك أن هناك قرى كثيرة ما أتتهم الرسل : « ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً » ( ٢٥ : ٥١ ) ولأن الأصل المبنية عليه الحجة ليس إلا وصول الإنذار الحجة ، لا مواجهة أصحاب الوحي كل القرى بكل الأمم ، ولأنهـــا مستحيلة في الواقع ، إضافة إلى عدم لزومها فيما يرام .

صحيح أن النـــذر والحجج تختلف ، والبيآت تختلف ، والعقول تختلف ، ولكنما الجزاء كذلك يختلف ، وفاقاً لاختلاف هذه المبادىء ، و « إنما يداق الله الناس في الحساب يوم القيامة على قدر عقولهم »[1].

ثم المكلفون في الفترة الرسالية على حـد التعبير المسبق ، لم يعيشوا إلا فترة رسولية ، لا رسالية ، حيث الإنسان – كائناً من كان – يعيش دعوات الرسل ورسالاتهم ، المودعة في كتاباتهم ، والمنقولة على ألسنة خلفائهم وعلمـاء أممهم ، فهم رغم أنهم لم ينذروا بالرسل : « لتنذر قومـــاً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون » ( ٣٦ : ٦ ) – هؤلاء الآباء غـير المنذرين – ولكنهم أنذروا بجملة الرسالات من العلماء والنبهاء ، وعلى أقل تقدير بنذر عقولهم وفطرهم ، وأخيراً لو كانوا قاصرين أو مستضعفين فهم « مرجون لأمر الله إمـــا يعذبهم أو يتوب عليهم » فالتوبة عليهم لضعف الحجة ، والعذاب – ولا ريب أنه قليل – لأصل الحجة ما داموا عقلاء ! ذلك « وأن الله ليس بظلام للعبيد » .

وأما العائشون في مثل أمريكا ، فمن أين انهم كانوا منقطعين عن الرسالات ، ألفصل البحار حولهم ؟ فعلها كانت متصلة قبل اكتشاف امريكا ، اتصالاً برياً ، أم بحرياً بقرب السواحل ، ثم ابتعدت لفترة ، اكتشفت لآخرها ، أم – كأبعد الاحتمالات – كانت المواصلات بحرية رغم بعد سواحلها ، وأخيراً ، لو تأكدنا من انقطاع المواصلات كلها ، بين أمريكا وأراضي الوحي ، فمن المحتمل المعقول ، بل المدلول عليه بالآيات ، أنه كان فيهم منذرون ، مستقلون بالوحي ، أم من أتبـاع رجالات الوحي : « ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصصهم عليك .. » ( ٤٠ : ٧٨ ) .

---

(١) اصول الكافي : باب العقل والجهل عن الامام الباقر "ع"

فهل يا ترى ان الآمة الأمركانية - قبل اكتشافها - لم تكن أمة بشرية حق تستحق نذيراً يخلو فيها ؟ : « وان من أمة إلا خلا فيها نذير » ! ( ٣٥ : ٢٤ ) أفهل نكذب كلام الله لأن تاريخ الرسالات لم ينقل لنا عن أنبياء أمريكا شيئاً ؟ والقرآن يقول : « ومنهم من لم نقصصهم عليك » وكيف بنا ! إذ نجهل أحياناً من قصهم الله، فكيف بمن لم يقصصهم ؟!

**« قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير » .**

هذا الاعتراف - إذ لا مرد لهم منه - إنه عذاب نفسي فوق عذاب التنديد، إضافة إلى عذاب السعير ، وشهود الجماهير ، وإلقائهم جماعة في السعير مهانة ، فقد شملهم وأحاط بهم مختلف ألوان العذاب : نفسياً وجسدانياً ، وكما كانوا عذاباً يوم الدنيا في الناحيتين ، وخلقوا جو العذاب لمجتمعهم ..

وهنا نعرف من الجواب أنهم كانوا ممن جاءهم نذير بالوحي ، فواجهوا سفراء ربهم بكل وقاحة وحماقة ، تجمع بين توهين الله بفرية : « ما نزل الله من شيء » وتوهين الرسل : « إن أنتم إلا في ضلال كبير » وهذه إهانة ثانية لله تعالى ، إذ يحسبون رسالته السامية ضلالاً كبيراً ، وهؤلاء هم المشركون وكما عن باقر العلوم (ع)[1] .

ومن هنا نعرف وهن العذاب لمن لم يعش الرسالات ، أو يواجهها بهكذا تكذيب وقح ، فكل إنسان يعمل على شاكلته ، ويجزى على شاكلته ، وكان ربك بصيراً .

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٣٨١ محمد بن مسلم عنه (ع) تفسيرا لهذه الآيات .

**« وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنــا في أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير » .**

أجل – إنما هو السمع وعقل ما يسمع ، يفلح الإنسان في الحيــاة ، ويفلج خصومه ضد الحياة ! سواء أكان سمعاً بسماع الاذن فعقلاً عما سمع ، أو سمعاً باذن القلب وعقلاً له كذلك ، فإن للقلب اذناً كما للجسم .

وهناك اتصالات للانسان بالعالم الخارجي ، تجعله كأنه العالم كله ، فيمشي مع الكون صراطه المستقيم .. بالسمع والبصر ومطلق الإحساس .

ولكنما السمع أفلح ما يكون وأقربه إلى الإعتبار والعقل ، فأكثر ما يسمعه الإنسان ويفهمه ، إنــه يعقله ، دون البصر والحس ، فإنها بعد السمع في الإنتــاج .

كذلك دواخل الإنسان من فطرة وصدر وفؤاد وقلب ولب ووهم وخيال ، فإن العقل فوقها لأنه الذي يعقل : يأخذ – المفاهيم ، بالسمع وبالبصر والإحساس وسواها ، يعقلها فيحولها ويغربلها إلى الصدر والقلب ، والقلب عامل نهائي في غربلة ما يرده من الصدر والعقل .

فإنما هو السمع والعقل ، إذا عمـلا واعتملا كما يجب ، كان بعده الفلاح ، ثم للمصيب أجران وللمخطيء أجر واحد ، ما لم يقصر في الطريق .

ثم العقل : منه قبل السمع : يدفع صاحبه لـكي يسمع ، ومنــه بعد السمع يدفعه لـكي يعقل ما سمع ، وكثير هؤلاء الذين يسمعون ولا يعقلون ، لأن سمعهم ليس عن عقل ، أو يكتفون بالسمع فراراً عن تكلفات العقل فـيما يسمعون ، وكثير هؤلاء الذين لا يسمعون لكيلا يعقلوا ، وهم أبعد وأضل سبيلاً، وقليل من يسمع ويعقل ثم يواصل في عقـلـه وسمعه ، وعلى حـد قول الرسول (ص) :

« ما يجزى أحد يوم القيامة إلا على قــدر عقله »[1]، اللهم اجعلنا من هؤلاء القـلة .

وإنما يعطف العقل على السمع هنا بـ «أو» لأن عقل الحقائق لا يختص بواسطة السمع وسواه من وسائط الإدراك، إنمـا الوسائط للأكثرية الساحقة من الناس الحسيين الذين ليست لهم تلك العقول الفائقة الناضجة، ولكنما العقلاء الناضجين يسمعون ويبصرون بعقولهم فوق مـا يسمعه السامعون، فإنما هو العقل : عقل الحقائق وإدراكها، سواء أكان عن سمع الآذان، أم سماعـاً عقلياً وفطرياً وفكرياً، وهذه هي رؤية الآيات الإلهية في الأنفس : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » ( ٤١ : ٥٣ )

فالذي يسمع ويعقل، أو يعقل ويسمع، أو يعقل دون حاجة إلى السمع، إلا عن رجالات الوحي لتكميل ما عقل، هذا الإنسان اللبق لا يورد نفسه هـذا المورد الوبيء، ولا يجحد مثل ما يجحد به أولئك الأوغاد المناكيد، ولا يتسرع باتهام الرسل بالضلال الكبير، فلا يكون آخر مطافه عذاب السعير : ومـاذا عليهـم لو سمعوا من العقلاء النابهين، أو عقلوا في أنفسهم ! فإن حدود كيان

---

(١) المجمع عن ابن عمر عن النبي (ص)، وعن انس قال : اثنى قوم على رجل عند رسول الله (ص) فقال رسول الله (ص) : كيف عقلـه ؟ قالوا : يا رسول الله ! نخبرك عن اجتهاده في العبادة واصناف الخيـر وتسالنا عن عقله ؟ فقال : ان الاحمق يصيب بحمقه اعظم من فجورالفاجر، وانما يرتفع العباد غدا في الدرجات وينالون الزلفى من ربهم على قـدر عقولهم .

وفي نور الثقلين ٥ : ٣٨٢ عن الكافي عن الصـادق (ع) من كـان عاقلا كان له دين، ومن كان له دين دخل الجنة، وفيـه عنه (ع) قيل لـه ما العقل ؟ قال : ما عبد به الرحمان واكتسب به الجنان، قيل : فالذي كان في معاوية ؟ فقال : تلك النكراء، تلـك الشيطنة، وهي شبيهـة بالعقل وليست بالعقل .

الإنسان كإنسان ، إنما سمعه من العقلاء ، وعقله في نفسه ، ولتصبح حياته في ازدواجية مشرّفة لا يضل فيها ، وأما إذا حصر سمعه بالمضلات ، وعقله بالملهيات والشهوات فهو السعير في نفسه ، وإنما سعير النار صورة واقعية عن سعيره :

« فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير » : كما سحقوا كيانهم الإنساني بسحق عقولهم ومحق فطرهم : بصّدوا عقولهم عن السمع ، وأسماعهم عن العقل، فحُرموا الحياة حـق الحياة ، فهم يوم القيامة عن حياة الجنة مسحوقون : بعيـدون .

« بذنبهم » : وهو هنا عدم عقلهم ، سواء عن سمعهم أو سواه ، فأكبر الذنوب عدم استعمال العقل ، لا عدمه ، فإنه الجنون الاضطراري ، والتكليف خاص بالعقلاء، وإنما الذنب هو الجنون الاختياري، للعاقل الذي لا يستعمل عقله حتى يصبح كأنه مجنون ، في تفكيراته وتصرفاته الفوضى .

ايقاظـان :

قد يُستند إلى هذه الآيات في انحصار عذاب النار بالكفار المكذبين للنذر : « كلما ألقي فيها فوج .. فكذبنا .. إن أنتم إلا في ضلال كبير » حيث العموم المستغرق لأهل النار في المكذبين الكفار ! وهذا خلاف الآيات الشاملة لغيرهم ، أو الخاصة بمن سواهم من المتخلفين !.

والجواب نجده في الآية المسبقة : « وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم .. » فهم المعنيون بـ « كلما ألقي فيها فوج .. » لا كل أهل النار، وإثبات النار لهؤلاء الكفار لا ينفيها عن سواهم ممن يستحق النار ، وإنما اختص المكذبون بالذكر هنا لانهم صِلاء النار وَقودها ، وهم الخالدون فيها أبداً ، دائمون فيها ما دامت .

وقد يستند الجبرية هنا بـ « لو » – الدالة على امتناع مدخولها – على أن سماعهم للحق وعقلهم عنه كان من المستحيل : « لو كنا نسمع أو نعقل » فكيف يلامون ويلومون أنفسهم ؟

والجواب : إن كانت هناك استحالة فإنما هي بالاختيار : إنهم تمادوا في الطغيان حتى كأنهم أصبحوا طغاة في ذواتهم بما كسبوا : «كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون» فمن رين على قلبه لايستطيع السمع والعقل بما كسب، ومن العقوبات الإلهية يوم الدنيا انه يُزيغ قلوب من زاغوا : «فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم».

**«إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير»:**

الخشية خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون عن علم بما يخشى منه، ولذلك خص بها العلماء بالله : «إنما يخشى الله من عباده العلماء» «الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله» (٣٣: ٣٩)

والخشية العالمة من نتائج العقل الفعال، فأصحابه يخشون ربهم، يخشونه لما عقلوه وعلموه من ربوبيته لهم ولعالمهم، وكلما ازدادت المعرفة هذه ازدادت الخشية، وكلما ازدادت الخشية ازدادت المعرفة، تناصراً في الزلفى، ابتداء من العقل.

«بالغيب»: غيب الرب، فرغم أنه غيبٌ عن الإحساس يخشونه، لأن عقلهم عنه وعلمهم به جعلهم كأنهم يرونه : «اعبد ربك كأنك تراه وإن لم تكن تراه فإنه يراك».

و «بالغيب»: غيب العقل، فبه يعرف الرب ويخشى، فهو لا يعرف ويخشى بالحس «فلا يُحس ولا يُجس ولا يمس ولا يدرك بالحواس الخمس» وإنما يعرف بالعقل وبأصحابه من الفطرة والصدر والقلب، عقل معرفة لا عقل إحاطة واكتناه ذات أو صفة.

و «بالغيب»: غيباً عن الناس، بينه وبين ربه، ولكي تسلم خشيته عن الرئاء، طالما يخشاه في الناس أيضاً، فمن الناس من يخشى ربه عند الناس، وإذا

تخلى عنهم لا يخشاه ، أو لا كما يخشاه عند الناس ، ومنهم من يخشاه في الغيب إخلاصاً في الخشية ، ثم قد لا يخشاه في الناس ، زعم أنه مزيد في الإخلاص ! ومنهم من يخشاه في الغيب أكثر مما يخشاه علانية ، ومنهم من يعكس أمر الخشية هذه وهم الأكثرون ، ومنهم من يخشاه في الغيب والشهادة على سواء ، فلا يفرق له حضور الناس وغيبهم ، وهؤلاء هم الأقلون عدداً ، وهم المعنيون هنا ، وإن خصت خشيتهم بالغيب هنا بالذكر ، لأنه الأصل فيها ، ثم من سواهم في هدى أو ضلال ، مهما اختلفت درجاته أو دركاته !.

« إن الذين يخشون ربهم بالغيب » وهو غيب ، بغيب عقولهم ، وفي غيب عن الناس « لهم مغفرة وأجر كبير » : مغفرة لرفع ما ربما يعرضهم من خطأ وغفلة ، ودفع ما ربما يقصدهم ولماً ، مغفرة دون عذاب ، ولأنهم تبنّوا حياتهم من خشية الرب ، وهي من أكبر كبائر الحسنات اللاتي يذهبن السيئات : « إن الحسنات يذهبن السيئات » « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً » « وأجر كبير » لوقفهم هذا – الكبير .

**« واسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور » :**

أسروا قولكم : مع ربكم – في ذكره ودعائه وعبادته ، أو في معصيته ، أو اجهروا به ، فهما على سواء لربكم : « إنه عليم بذات الصدور » فالقول إبداء لما في الصدر ، والله عليم بذات الصدور ، أكثر مما يعلمه ذوات الصدور من أنفسهم .

فهل يجهر المؤمن بقوله لكي يعلمه الله ؟ فلا يصلح هكذا جهر ! أم يجهر لكي يتبعه غيره فيشاركوه في عبادة ربه ؟ فنعم ونعما هو ! أم هل يسر الكافر بقوله لكي يخفيه عن الله ، فالله عليم بذات الصدور ! « إنه يعلم السر واخفى » فكيف بالجهر ، وتقديم السر هنا يوحي بما يروى أن الكفار كانوا يسرون من وقيعتهم

على النبي لكيلا يسمعه ربه فيخبره به[١] كما ويوحي بتقدم السر على الجهر إذ القول إنباء عما في الضمير، والله تعالى خبير بما في الضمير ولمّا يظهر، ثم خبير به إذا ظهر وهو أجدر، فكأنه أخبر بالسر من العلن إذ قدم السر، ولكنهما له سواء: «إنه عليم بذات الصدور»: صاحب الصدور، فإذا هو عليم بأصحاب الصدور ذواتهم، فكيف تخفى عنه الصدور ومطوياتها.

«ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير»: لطيف في ذاته فلا يُرى، ولطيف في خلقه و«بخلقه بلا علاج ولا إداة ولا آلة، وإن كل صانع شيء فمن شيء صنع، والله الخالق اللطيف الجليل خلق وصنع لا من شيء» كما عن الإمام موسى الكاظم (ع)[٢].

---

(١) عن ابن عباس: كانوا ينالون من رسول الله (ص) فيخبره جبرائيل، فقال بعضهم لبعض: اسروا قولكم لئلا يسمع اله محمد فانزل الله هذه الآية.

(٢) اصول الكافي عنه (ع) في حديث طويل، قوله (ع): انما قلنا اللطيف للخلق اللطيف لعلمه بالشيء اللطيف، أو لاترى الى اثر صنعه في النبات اللطيف، ومن الخلق اللطيف، ومن الحيوان الصغار، ومن البعوض والجرجس، وما هو اصغر منها مالا تكاد تستبينه العيون، بل لا يكاد يستبان لصغره، الذكر من الانثى، والحدث المولود من القديم. فلما رأينا صغر ذلك في لطفه واهتدائه للفساد والهرب من الموت والجمع لما يصلحه، وما في لجج البحار وما في لحاء الاشجار، والمفاوز والقفار، وافهام بعضها عن بعض منطقها، وما يفهم به اولادها عنها، ونقلها الغذاء اليها، ثم تأليف الوانها حمرة مع صفرة، وبياض مع حمرة، وانه مالا يكاد عيوننا تستبينه لدمامة خلقها، لا تراه عيوننا، وتلمسه ايدينا، علمنا ان خالق هذا الخلق لطيف لطف بخلق ما سميناه ...

«الخبير» وعلى حد تفسير الإمام الرضا(ع) : « وأما الخبير فالذي لا يعزب عنه شيء ، ولا يفوته شيء ، ليس للتجربة ولا للاعتبـــار بالأشياء ، فعند التجربة والاعتبار علمان ولولاهما ما علم ، لأن من كان كذلك كان جاهلا ، والله لم يزل خبيراً بما خلق ، والخبير من الناس ، المستخبر عن جهل ، المتعلم ، فقـــد جمعَنا الإسم واختلف المعنى »[1] .

وإن اجتماع الإسم واختلاف المعنى بين الخلق والخالق ، يعم الذات والصفات والأفعال أجمع ، فالموجود يطلق عليها ، ولكنما حقيقة الوجود الإلهي تبـــاين وجود المألوهين تبايناً كلياً ، ولا يعني باختلاف المعني ، اختلاف المفهوم فقط ، بل كلما وراء الإسم ، من مفهوم وحقيقة خارجية ، فكما أن واقع الوجود الإلهي يبـــاين واقع وجوداتنا « باين عن خلقه وخلقه باين عنه » كذلك المفهوم من الوجودين ، فنحن نفهم من وجوداتنا ما نفهم ، ولا نفهم من حقيقة الوجـــود الإلهي إلا أنـــه غير معدوم ، وأمـــا الإحاطة بوجوده ، أو إدراكه ولو شيئاً ما ـ فلا !.

فالاعتراف بأنـــه خالق ، لزامه الإعتراف بعلمه ، إذ الخلق يلزمه اللطف

---

(١) اصول الكافي علي بن محمد مرسلا عن ابي الحسن الرضا (ع)ـ وفي تفسير البرهـان ابن بابويـه باسنـاده عنـه (ع) قـال : انما سمي الله بالعلم لغير علم حـادث علم بـه الاشيـاء واستعـان به على حفظ ما يستقبـل من امره ، والرويـة فيمـا يخلق ويفنيـه ما مضى مما افنى من خلقه مما لو لم يحضره ذلك العلم ويعينه ، كان جاهلا ضعيفا ، كمـا انا رأينا علماء الخلق انما سموا بالعلم لعلم حادث اذ كانوا قبله جهـلة، وربما فارقهم العلم بالاية فصاروا الى الجهل ، وانمـا سمي الله عـالما لا يجهل شيئا فقد جمع الخالق والمخلوق واختلف المعنى على ما رايت ـ.

والخبرة : العلم والقدرة والحكمة والبصيرة ، فالخلق الفوضى لا يأتي إلا بالفوضى والفتور والفطور « فارجع البصر هل ترى من فطور ؟ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير » !

فمها أنكر الماديون الخالق المجرد عن المـادة ، فهل بإمكانهم إنكار الخلق ، وان خالقه عليم لطيف خبـير ؟! وإذا لم تدل حكمة الخلق وروعته وتناسقه وتلاؤمه ، على لطف خالقه وخبرته ، فهل تدل على جهله وفوضويته ؟ فهـل بإمكان الجهل والفوضى أن يأتيا بالحكمة ، وليس بإمكان العلم ؟ إذاً فعلى الجهال أن يحتلوا كراسي التدريس في مختلف العلوم ، ثم الأساتذة العلماء يعتبروا أنفسهم خدامهم أو تلامذتهم !.

* * *

« هُوَ الَّذِي جَعَـــلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي
مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ١٥ ءَأَمِنْتُـــمْ مَنْ فِي
السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي
السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَـــاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ١٧
وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ١٨ أَوَلَمْ
يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ
الرَّحْمَانُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ١٩ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ
يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَـــنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ ٢٠

أَمَّنْ هٰذَا ٱلَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ٢١ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٢٢ .. »

**« هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقـه وإليه النشور » :**

**الأرض الذلول :**

نستوحي من جعل الأرض ذلولاً أنها كانت قبلئذٍ شِماساً غير ذلول، وبما أن الذِلَّ ما كان بعد تصعُّب وشِماس ، والذلول هي الدابة التي ذلت بعد شماس ، نتأكد أن أرضنا هذه تحكها حركات متلائمة كالدابة الذلول، لحدِّ كأنها دابة ، وقد ذكرت لها مناكب كما للدابة : « فامشوا في مناكبها » !.

فمن رحمته تعالى أنه جعل أرضنا الشموس ، المحترقة المجنونة ، التي ما كانت تذل لراكب ، ولا تحـنّ لعايش ، جعلها لنا كالمركوب الذلول ، ممكّنة من الاستقرار عليها ، والتصرف فيها ، طائعة غير مانعة ، ومذعنة غير مدافعة ، « فامشوا في مناكبها » : في ظهورهـا وأعاليها ، « وكلوا من رزقه وإليه النشـور » .

فبالحركات الأرض من نعمة في ليونتها ونعومتها ، لحدِّ ما كانت البشرية تحسها ولمّا ، ولا تصدقها حتى برهن لها العلم ، وقبله صرحت بها آيات بينات ، منها آية الذلول ، مها أوّلها المفسرون الأوَل ، زعمَ سكون الأرض ، وحتى الآن لا يكاد يصدقها المؤمنون غير المثقفين !.

هـذه الوالدة الحنونة ، تُنوِّم وتُعيِّش أولادها ، وأفلاذ كبدها ، بحركاتها

الناعمة اللينة ، حركات لولاها لانصدمت الأرض ومَن عليها، بما لم يكن ليجبرها أيُّ جابر .

فالأرض جعلت ذلولاً في حركاتها وحرارتها وجرمها وكل مـا يصلح للحياة فيها ، وهذه هي غاية الذل ومبالغته المستفادة من صيغة المبالغة « ذلول » .

وآية القرار : « الله الذي جعـل لكم الأرض قراراً » ( ٤٠ : ٦٤ ) ليست بالتي تُسكن الأرض عن حراكها ، بل تُقر الأرض في حركاتها ، إذ « القَرّ » أصله البرد ، إيحـاءاً بسابق حرارة الأرض وشماسها في حركاتهـا المجنونة ، فجعلها ذلولاً ، ومن ذِلّها قرارُها: برودتها لحدّ تحنُّ لعائشيها وراكبيها أن يمشوا في مناكبها ويأكلوا من رزقه .

ثم نجد آيات : « الكفات » ، و « المهاد » ، « والراجفة التي تتبعها الرادفة » و « كل في فلك يسبحون » نجدها تصريحات في حركات الأرض ، كما درسناها وندرسها في طياتها .

فمن أسباب جعل الأرض ذلولاً جبالها الرواسي وكما في خطبة لعلي عليه السلام : « وعدّل حركاتها بالراسيات من جلاميدها » ، ومنها تبريدها عن حرارتها الزائدة « الله الذي جعل لكم الأرض قراراً »( ٤٠ : ٦٤ ) .

إن هذه الجبال الشاهقة الخَشْن الملامس،الصعبة المسالك،التي جعلت للأرض أثقالاً وأوتاداً ، وللخلق معقلا ، إنها مع سائر المرتفعات هي مناكب الأرض ، وقد ذللها الله تعالى على شموخها أن نمشي عليها ونستثمرها لصالحنا ، أو نفجرها أو نستفجرها لصالحنا ، ثم الأرض ذلول لنا ، لا لَيِّنة لا نتماسك عليها، ولا صعبة لا نقدر على حفرها وزرعها ، ولولا أن الله تعالى جعلها ذلولاً لمـا أمكنت من التصرف على ظهرها ، ولا مَثبت قدم عليها ، ولا مسرح نعم فيها ، سبحـان الخلاق العظيم !

« جعل لكم » : أما كانت الأرض قبلنا ذلولاً ؟ وولادتنا نحن الأناسي من آدم ليست إلا زهاء مائة قرن،والأرض تميش وتعيش العائشين عليها منذ ملايين السنين!؟

الجواب : أن « لكم » لا يخصنا نحن الإنسان من ولد آدم الأخير ، بل تعم كل من يستأهل الخطاب بـ « كم » ممن عاش على وجهها منذ الملايين من السنين ، وكما عن الإمام الصادق عليه السلام : إن الله تعالى خلق ألف ألف عالم وألف ألف آدم وأنت في آخرهم .

فـ « كم » هنا ، تعني عامة المكلفين العائشين على وجه الأرض ، منذ جعلت ذلولاً ، أو ان الخطاب هنا تختصنا تشريفاً وتكريماً لنا ، كأنما الأرض ذللت لنا ، وقد كانت مذللة لمن سبقنا . فقد أخذت الأرض - بجوها - تقبل بخار المياه وتُبدلها ماءً ، وتقبل مياه السماء واختباءها في عيونها ، وإنبات الأرض نباتها ، فإعاشة حيوانها وإنسانها ، وكما نجد عرض التكامل الأرضي في الآيات من فصلت .

إننا - لطول ألفتنا بالحياة على هذه الذلول ، وسهولة استقرارنا عليها ، وسيرنا فيها ، واستغلالنا لتربتها ومائها وكلائها وهوائها - نحن ننسى نعمة الله في تذليلها لنا ، والله تعالى يذكرنا إياها ويبصرنا بها في هذا التعبير العبير ، عديم النظير ، الذي كله علم وحكمة وموعظة وذكرى : يوحي ان هذه التي نراها مستقرة ثابتة ، هي كدابة دائبة الحركة متحركة ، رامحة راكضة مهطعة ، لا تبعثر راكبها ، ولا تتعثر خطاها ، ثم هي حلوب : « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » .

فيا لها من إشارة عابرة في الذكر الحكيم عن مركوبنا ، تحمل ما لم يتحمله العلم على تقدمه البارع ، مدى التأريخ وحتى الآن .

فالأرض ذلول في حركاتها حول نفسها وحول شمسها ، وهي معها حول فلك جاعي تحول حولها المنظومة الشمسية ، بسرعة على ترتيب : ألف - خمسة وستين ألف - عشرين ألف : ميلاً في الساعة ، ومع هذه الركضات المسرعة يعيش عليها الإنسان آمناً دون اضطراب فيها ، ولا انفلات عنها ، ولا دوخة وارتجاج في مخه ، وفي كل هذه الدورانات حِكَم لا يحصيها العلم ، وإن وصل إلى بعضها .

والله تعالى جعلها ذلولاً بآلاف من هذه المواقف الحكيمة الضرورية، التي لولاها، أو واحدة منها، لاستحالت الحياة عليها أو صعبت، وسوف نرسل البحث الفصل عن طائرتنا الجوية الكفات في سورة المرسلات، لو ساعدتنا الحياة، بتوفيق خالق الحياة والممات.

وهل لنا أن نأمن على هذه الأرض، ولأنها ذلول؟ أما إن ذلتها ليست إلا بما جعلها تعالى لنا، فإذا شاء يخسف بنا الأرض فإذا هي تمور، أو يرسل علينا حاصباً!

**«أأمنتم مَن في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور»:**

هل يا ترى إن الله ساكن السماء وما كنها حتى يخسف بنا الأرض منها! كلا! «وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله» (٤٣ : ٨٤) ليس له مكان، لأنه الذي مكّن المكان! وإلاهيته تشمل السماوات والأرض، لا ذاته، وإنما قدرته وعلمه وقيوميته!

الجواب: أن من في السماء إنما هم المدبرات أمراً بإذن الله، لا ذات الله، سبحانه وتعالى عما يصفون، ومنهم ملائكة يصدرون عن أمره ويفعلون ما يؤمرون.

«أن يخسف بكم الأرض»: يشقها بكم ويغيّبكم فيها، فإذا هي تمور: تتردد ذهاباً وإياباً كالموج: ان يهزها هزاً ويرجها رجاً، فهي تمور وتفور، فتفرقكم في مورها من فورها، فالذي جعلها ذلولاً بعد شماسها، هو القادر على أن يرجعها شموساً مارداً مائراً.

**«أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير»:**

الحاصب: الريح التي تأتي بالحصى والحجارة، وكما أرسلها على قوم لوط المجرمين: «إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط» (٥٤ : ٣٤) «فستعلمون كيف نذيرِ»: نذيري؟ كيف حال المنذَرين، المؤمنين منهم والكافرين، وكيف المنذِرون، فهل هم كما قلتم: في ضلال كبير؟ أم أنتم الأوغاد المناكيد!

وإذ لم نر حتى الآن مور الأرض وحاصب السماء، فقد رأينا الزلازل والبراكين التي تكشف عن الوحش الجامح الكامن في الدابة الذلول، التي يمسك الله بزمامها فلا تثور إلا بقدر، ولا تجمح إلا ثواني عدة، يتحطم فيها ما شيدناه، أو يغوص فيها إذ تفتح أحد أفواهها وتخسف قطعة منها وهي تمور!

أأمنتم أمان الغافل الناكر مكر الله «ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون» (٧ : ٩٩) «أفأمن الذين مكروا السيآت أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون. أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين. أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤوف رحيم» (١٦ : ٤٧).

هذا! أما إذا أمنتم إلى الله ورعايته ورحمته، فهذا من صفة المؤمنين، لا يقودهم إلى الغفلة والانغمار في غمرة الأرض ومتاعها، وإنما يدفعهم إلى الحياء من الله، وأن يرقبوا أعمالهم، ويربطوا بها أمنهم وآمالهم.

**«ولقد كذّب الذين من قبلهم فكيف كان نكير»**: نكيري عليهم بما أنكرت موقفهم كما أنكروني وعاشوا حياتهم نكيراً لي.. فنكيرهم كان انكار نعمة الله بعد ما عرفوها، وإنكار طاعة الله وعبادته، وإنكار نذره ورسله، ونكير الله عليهم أنه ينساهم كما نسوه ونسوا سوء الحساب، جهنم يصلونها وبئس المآب.

فنكير الله هنا هو الإنكار وما يتبعه من آثار الخراب والدمار، تصف لهم كيف كان هذا النكير وما أعقبه من تدمير خطير.

فهل بإمكان الإنسان أياً كان أن يكافح نكير الرحمان ويدافع عن نفسه مور الأرض وحاصب السماء، أو رجفة موضعية بسيطة، أو حسباناً؟ قد يخيل إلى البعض من العميان المناكيد أن الإنسان هو سيد الكائنات، وسوف يتمكن من كفاح الحوادث بقوة العلم، وهذا تكذيب لوعود الله: «ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير»؟

**« أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكن إلا الرحمان إنه بكل شيء بصير » .**

طير فوقنا حين الطيران ، صافات مبدئياً،لأن الصفيف هو الباعث الأكثري الأصيل للمُسكة والسير في الفضاء ، ويقبضن ، كعملية هامشية في الطيران ، قبضاً للتهيؤ والإمداد للطيران ، وللراحة ، وللطيران في بعض الأحيان .

« أولم يروا - فيما يرون - من عجائب الخلقة والقدرة الإلهية ، مما يسبح في الفضاء دون عَمَد كسائر الأنجم بسمائها : « رفع السماوات بغير عمد ترونها » ومن طائرتنا الأرضية الذلول الكفات السريعة السير والدوران ، كيف تسبح في فلكها مع رفيقاتها السابحات : « وآية لهم الأرض .. والشمس .. والقمر .. وكل في فلك يسبحون » ( ٣١ : ٣٣ ) .

أولم يروا إلى أمثال هذه الطائرات السابحات ؟ فمن هذا الذي يمسكهن إلا الرحمان ؟ لا نقول : إنه يمسكها عن السقوط دون سبب طبيعي ، وإنما الأسباب الطبيعية هي أيضاً منه وهو يمسكها ويسببها ، كانت ظاهرة لنا بمسبباتها ، أم خفية : سوف تظهر أم لا .

ولقد أخذت البشرية مثال الطير ، واختلق رمز مسكتها وطيرانها في الطائرات بعد أن سقطت ضحايا في دراسة الطيران من الطير[1]، ابتدأت الخطوة الناجحة في صناعة الطائرات سنة ١٨٩١م - إذ قام ( ايليانتال ) وراقب الطيور في حركاتها عشرين سنة متوالية ، وقال : إني درست من هذه الطيور أن سير الطيران يتم للإنسان إذا تسنت له قوة رافعة كافية لأن تدفعه بالسرعة

---

(١) منهم رجل ايطالي في بلاط الملك جيمس الرابع الاسكندري في بداية القرن ١٦ م ، وبعد قرن راهب الماني ، ثم مركيز فرنسي في اواسط القرن ١٨ م ، ثم عباس بن فرناس صاحب صحاح الجوهري ، حاولوا الطيران باجنحة من ريش تقليدا ناقصا عن الطير فاخفقوا جميعا .

الواجبة للارتفاع عن الأرض ، وحينئذ يمكنه أن يحـــوم في الفضاء كما يشاء ، ولكنه مع نجـــاحه المبدئي أيضاً سقط من طائرته فمات سنة ١٨٩٦ ، وبعده – وعلى أساس فكرته وتجربته – قام شابان أمريكيان هما الاخوان ( ويلبور ) و ( اورفيل رايت ) واستكملا ما تبناه المخترع الأول ، شيئاً مّا ، فطار أحدهما في الهواء أربعة وعشرين ميلاً في ثمـــان وثلاثين دقيقة ، وهذا مبدأ فتح مملكة الفضاء ، وهكذا إلى أن وصلت الطائرات في سيرها سرعة الصوت !.

أفلم يروا – فيما رأوا – إلى طائراتهم صافات في جـــو السماء ، ما يمسكهن إلا الرحمان ، لأنه الخالق أسباب المسكة والطيران ، وخلق عقل الإنسان الذي استطاع بـــه أن يكشف البعض عن رمز المسكة الجوية ، فهل تطير الطائرات وتمسك إلا بالبترول ؟ وقـد خلقها الرحمان ! أو هل بإمكانها الطيران لو لم يخلق الفلز الخفيف المناسب لغزو الفضاء ، أو هل كان يستطاعه هـــذا الاختراع لو لم يخلق له مثاله : الطير فوقه صافات ويقبضن ! سبحان الخلاق العظيم .

ثم كم فرق بين طير الرحمان وطـــير الإنسان ، فطير الرحمان يطير بشعوره الذاتي المتصل ، بروح عاقلة فاهمة دون طيار غيره ، وطير الإنسان يطير بشعور منفصل ، بطيار الإنسان ، فيه ، أم في الأرض ، بسياقته المنفصلة . وهذا ليس بإمكانه أخذ البترول في الجو ، وبإمكان ذلك – ولو أحياناً – أخـــذ الغذاء والماء في جو السماء ! طالمـــا الإثنان من صنع الرحمان ، ولكنما الضعف في طير الإنسان ناشيء عن صنعه وقلة علمه : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » !

إن تلكم الخوارق نعيشها في كل لحظة ، مهما أنسانا وقوعها المتكرر ، فالطير في جو السماء ، حالة الصف الغالبة ، والقبض العارضة ، يظل في الهـواء ، مشهد رائع ، ومنظر فائق لا يُمَلّ النظر ولا تمليه الفِكَر ، وما يمسكهن إلا الرحمان ، برحمته التي وسعت كل شيء .

لا ننكر أن ذلك كله – على الأكثر – لأسباب طبيعته ، ولكن مَن ذا الذي خلقها وسبّبها ؟ ومَن الذي رتبها ؟ : النواميس التي تكفل آلاف الموافقات ،

وتكلف آلاف المناسبات، في الأرض والجو وخلقة الطير، لتتم هذه الخارقة، وتعم بانتظام دائب.

إنه ليس مَسك الكون فقط من خالقه، فمُسكة الكون، وترتيب الكون، وتركيب الكون، وآثار الكون وخواصه، وما إلى ذلك من مُسَك، ليست إلا من الرحمان: «إنه بكل شيء بصير».

ليست هنا وهناك فوضى، دون بصيرة ولا هدف مقصود، وإلا لانخرط نظام الكون، وبطلت قوانينه، وبطل اكتشاف العلل من المعلولات، وبطلت العلوم بأسرها!

هل تظن أن إمساك الدواب على الأرض الطائرة، إنه أسهل من إمساك الطير في جوّ السماء؟ فهل يا ترى أيها أصعب وأعجب؟ إمساك الطير، أو إمساكه بما يحمله؟ والأرض طير تحمل البليارات من راكبيها، أحياءاً وأمواتاً: «ألم نجعل الأرض كفاتاً. أحياءاً وأمواتاً» (٧٧ : ٢٥) كفاتاً: تسرع في طيرانها، منقبضة فيها أحياء ما عليها وأمواتها، مكافحة قانون الفرار عن المركز، وسوف يأتيكم نبأ الكفات في سورة المرسلات.

علك تسأل: لماذا القرآن لا يصرح بطيران الأرض ومُسكتها في الجوّ، فيمثل الطير؟ الجواب: انه يمن – فيما يمن علينا – بكفات الأرض، منة عابرة، كيلا تفاجأ بالتكذيب، لأنه خلاف الحس العام، فيخص التصريح، والأمر بالنظر، بما لا ينكره أي ذي بصر: «أو لم يروا إلى الطير فوقهم» «أو لم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون» (١٦ : ٧٩) «والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه» (٢٤ : ٤١).

جلنا جولات عاطفة عابرة، كلها عبرة، مع الأرض الذلول، والطير الممسَك، ومع الخسف والحاصب، ولم نجد لنا منها جنوداً منفصلة من دون الرحمان، بل هي والكون كله من جنود الرحمان:

**« أم من هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الله الرحمان ، إن الكافرون إلا في غرور » :**

إنهم غرتهم الحياة الدنيا وغرهم بالله الغرور ، فظنوا أن ما نعتهم من الله آلهتهم التي ألهتهم عما يهمهم من متطلبات الحياة ، وجمدتهم على ما غرتهم ، فهل يجدون واقع النصر من جنودهم المزعومة من آلهة متفرقة مفتقرة إلى الله الواحد القهار ؟

ثم رزق الله ، المحيط بهم في آفاقهم وأنفسهم ، المرسل من عند الرحمان بقدر معلوم ، فهل من مرسل لهم دونه ، إن أمسك رزقه ؟

**« أم من هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور » :**

واللجاج في العتو والنفور — رغم لزوم الطاعة بوفور — إنه عادة كل كفور « يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها » ( ١٦ : ٨٣ ) « أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون » ( ١٦ : ٧٢ ) ؟

يا ليتهم ظلوا دون سلب أو إيجاب ، ولم يضلوا هكذا في عتو ونفور ، في طغيان عات ، وإعراض نافر ، كأنهم يكافحون ألد أعدائهم ، وينفرون عمن يخاصمهم حياتهم ! فيا لهم من حالة مزرية وقحة حمقاء ، فما لهم كيف يحكمون ! وهذه هي مشية المكب على وجهه لا يعرف إلا هواه ، ولا يمشي إلى هداه :

**« أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم » ؟**

إنها صفة من يخبط في الضلال ، أو يخرط الظلمات إلى النور ، أهما على سواء ؟

الضال الخابط الهابط حياته ، كمن يمشي مكباً على وجهه ، إذ لا ينتفع بواقع بصره وهو في وجهه ، وإذا كان الوجه مكبوباً على الأرض ، كان ماشيه كالأعمى وأضل سبيلاً ، لا يسلك جدداً ، ولا يقصد سدداً ، فهو أبداً في بدد ، يعثر كل ساعة ، ويخر على وجهه في كل خطوة لاختلال قواه وانقلاب مشيه .

الأعمى الماشي برجليه ، قـد يمشي على صراط مستقيم ، أو يمشّى عليه ، إذ لو فقد البصر ، لم يفقد البصيرة ، فهو يمشي بمـا به يمشى : برجله ، لا على وجهـه .

ولكنما العاتي النفور الكفور يمشي مكباً على وجهه ، أفبإمكانه أن يمشي أو أن يُمشّى ؟ كلا — وإنه يظل مرتكساً في حمأة الضلال !.

إنه مثل ما ألطفه وأمثله ، لمن لا يعرف إلا نفسه بهـواه ، فليست مشيته في الحيـاة ، في حركاته وتصرفاته ، في تطوراته وتفكيراته ، ليست إلا بغية الهوى وشهواتها ، فلا يبصر إلا هواه ، ولا يتبصر لهداه ، فهو في خوضه يلعب ، وفي غيه على عيه يتردد ، يمشي دوماً إلى نفسه ، فهي غايته القصوى ، دون أن يمشي على صراط مستقيم : إلى الله ومعرفته ، وإلى صالح مجتمعه لمرضاة الله ، فهو كدودة القز ، ينسج حوله في كد ، ويحبس نفسه لصالحه ، ثم يخرقه لكي ينجو عن الخفق ، ولا يستفاد من نسجه لصالح غيره ، إلا أن يبتدره صاحبه ، فيقتله بماءٍ ساخن رغماً عليه ، فينتفع من نسوجه غير المخروقة !

هذا الذي يمشي مكباً على وجهه ، حياته مركوسة « وقلبه منكوس »[1] وهـو منحوس ، لا يأتي حياته إلا بركسة ونكسة : « قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً »(١٨:١٠٤)

* * *

---

(١) معاني الاخبار للصدوق ، والكافي بالاسناد الى سعد الخفاف عن الباقر (ع) قال : القلوب اربعة : قلب فيه نفاق وايمان ، وقلب منكوس ، وقلب مطبوع ، وقلب ازهر انور — قلت : ما الازهر ؟ قال : فيه كهيئة السراج ، فاما المطبوع فقلب المنافق ، واما الازهر فقلب المؤمن ، ان اعطاه الله عز وجل شكر ، وان ابتلاه صبر ، واما المنكوس فقلب المشرك ، ثم قرأ هذه الآية « افمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم » .

« قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ
وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ٢٣ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي
الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ٢٤ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن
كُنتُمْ صَادِقِينَ ٢٥ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٢٦
فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي
كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ٢٧ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ
أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٨ قُلْ هُوَ
الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ
مُّبِينٍ ٢٩ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُم
بِمَاءٍ مَّعِينٍ ٣٠ »

* * *

**« قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون » :**

« أنشأكم » : بأبدانكم : « أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » ( ١١ : ٦١ ) وبأرواحكم : « ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » ( ٢٣ : ١٤ ) وبما أن الإنشاء هو الإحداث والتربية ، لذلك يعم إحداث وتربية الإنسان بجزءيه ، كما وأن جعل السمع والأبصار والأفئدة - هنا - هو إنشاؤها : « وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة » ( ٢٣ : ٧٨ ) .

وإنشاء الإنسان هكذا وإن كان يشمل السمع والأبصار والأفئدة، ولكنها خصت هي بالذكر إيحاء إلى أهمية الروح بين جزءي الإنسان، ثم أهمية هذه الثلاث بين قواها الداركة، ثم اختصاص الأولين بين الحواس لأهميتها بينها، كما اختصاص الأفئدة بين المدركات الروحية لأنها أهمها، كل ذلك: إضافة إلى شمول السمع والأبصار، أبصار الفؤاد وسمعه - أيضاً، ولكنما الفؤاد يختص بقلب الروح فحسب.

نرى في ثلاثة عشر موضعاً من القرآن قورن السمع بالأبصار، قَرْن المفرد بالجمع! ولماذا؟ طالما الأذن يجمع بـ «الآذان» في مواقف الجمع: «أم لهم آذان يسمعون بها» «وفي آذانهم وقر» ولا نجد «الأسماع» ولا مرة واحدة!

الجواب: علّه أن السمع مصدر في أصله فلا يجمع، كما: «إنهم عن السمع لمعزولون» (٢٦:٢١٣) «أو ألقى السمع وهو شهيد» (٥٠:٣٧).

وأن السمع - غير المصدر - قوة في الأذن، وليس هو الأذن، ولكل منا سمع في أذنين، وليس بصر في عينين، حيث البصر هو العين، أو منه العين، فلا يجب إفراده، فالسماع أو قوة السماع لا يجمع، إلا أن يعنى به ما للناس أجمع، كما في القلوب.

وان السمع - علّه - جمع، أو مفرد وجمع، كما عن سيبويه، لذلك نرى صيغة الإفراد كأنه لزام السمع دون أخويه: الأبصار والأفئدة.

ثم السمع أفضل الحسين، وكما أفرد بالذكر مع العقل: «وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير» وإنما الأبصار من مساعدي السمع والافئدة وقد يعم - كما هنا - سمع الأذن وسمع القلب بأذنه، كما يبصر ببصره: «قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة» (٧٩ : ٩) «ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا

نعمل صالحاً إنا موقنون » ( ٣٢ : ١٢ ) فـإن بصر العين وسمع الأذن كان لهم ولكل الحيوان يوم الدنيا ، لا يختصان بيوم تبلى السرائر وتنكشف الحقائق .

كما وأن الأبصـار تعم البصر والبصيرة ، بصر العين وبصيرة العقل والقلب والصدر والسر والخفي والأخفى .

والفؤاد كالقلب بتضمين معنى التفؤّد ، أي التوقد ، فالقلب المتوقد بنـور المعرفة الفطرية ثم الإكتسابية على أساس الفطرة ، هذا هو قلب الإنسان ، وما به الإنسان إنسان ، دون القلوب المقلوبة الميتة التي لا وقود لهـا ، أو تتوقد بنيران الشهوات والتخلفات .

نقف هنا وقفة الحائر أمـام خادمي الفؤاد : السمع والبصر وما فيهما من عجائب لم يبلغ العـلم إلا إلى شيء منها يسير ، بجنب المجهول الكثير الكثير !

إن حاسة السمع تبدأ في القسم الخارجي من جهازها ( التليفوني ) « الأذن » ولا يعلم أين تنتهي إلا الله ! والقسم الداخلي من هذا ( التليفون ) ، يأخذ بما فيه من « التيه » : الإهتزازات الواقعة على طبـلة الأذن ، والتيه يشتمل على نوع من الأليق بين لولبية ونصف مستديرة ، وفي القسم اللولبي وحده أربعة آلاف قوس صغيرة متصلة بعصب السمع في الرأس ، وفي الأذن مائة ألف خلية سمعية دقيقة تحير العقول »[1] .

« ومركز حاسة الإبصار هـو العين التي تحتوي على مائة وثلاثين مليوناً من مستقبلات الضوء ، وهي أطراف أعصاب الأبصـار ، وتتكون الشبكية من تسع طبقـات منفصلة ، والطبقة التي في أقصى الداخل تتكون من أعـواد

---

(١) مقتطفات عن كتاب : الله والعلم الحديث للاستاذ عبدالرزاق نوفل ص ٥٧ .

ومخروطات ، يقال إن عـــدد الأولى ثلاثون مليون عود ، والثانية ثلاثة ملايين مخروط »[١] .

هذه من الهبات العظام التي منحها الإنسان ليشكر ربه فيها وبها ، ولكن : « قليلاً ما تشكرون » فقليل منـا شكور ، وهذا القليل كذلك قاصر عن اداء القليل من شكره ، فلنعترف بالقصور والتقصير بجنب الله ، عله يعفو عنـا بفضله وكرمه .

« قل هو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون » :

ذرأكم : أظهركم وأوجد أشخاصكم ، بعدما كنتم خاملين تحت عموم التراب ، دون أشخاص ولا شخصيات ، ذرءٌ أول ، إظهار أبوينا الأولين وإشخاصهما إلى الوجود ، وذرء ثان مواصلة ذرئنا في الأنسال ، الذراري من الآباء والأمهات : « فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعـام أزواجاً يذرؤكم فيه .. » ( ٤٢ : ١١ ) : يبرزكم أنسالاً في جعل الأزواج فلولاها لم تكن أنسال ، وكما يذرؤ الحيوان ومختلف النبات بالأزواج : « وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه » ( ١٦ : ١٣ ) كما وأن لذرء النبات والحيوان دخلاً جوهرياً لذرء الإنسان ، فقد زرعنا الله تعالى كالنبات من الأرض : « والله أنبتكم من الأرض نباتاً » ( ٧١ : ١٧ ) وذرأنا أولاً وعلى طول الأنسال .

« وإليه تحشرون » : وسوف تحشر : تجمع ليوم الجمع – هـــذه الأنسال الكثيرة المختلفة ، ذرأكم في البداية ، وإليه تحشرون في النهاية – فـ « إنا لله وإنا إليه راجعون » « ولله الآخرة والأولى » .

« ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » :

فهل يا ترى أية علاقة لمعرفة وقت الحشر بصدق وعده ؟ فإذا قال المسؤول :

---

(١) عن كتاب : العلم يدعو للايمان ترجمة الاستاذ محمود صـــالح الفلكي ص ١١٣ .

سوف تحشرون بعد ألف سنة، فهو صادق! وإن لم يدر كان كاذباً!.. فأيٌّ منا يدري متى يموت، رغم علمه أنه سوف يموت، فهل لأحد منا نكران موته لأنه لا يدري متى هو؟.

أو لم يكف لتصديق وعد الحشر الجزاءِ عدلُ الله وحكمته، ولو لم يَعِد به، وقد وعد! أم لا يكفي شاهداً على إمكانية الحياة بعد الموت، تواتر الموت والحياة، متواصلة متعاقبة على الكائنات؟ مهما جهلنا وقت الحشر!

«قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين»: أنا نذير بين يدي عذاب شديد، مبين في إنذاري في لغة الإنذار، وكيفية الإنذار، وحجة الإنذار، لا أملك من موعد الحشر إلا الإنذار له، وإنما علمه عند الله.

وهكذا تكون أسئلة الناكرين المعاندين للحقائق، يدخلون أنفسهم في مآزق ويفضحونها، زعم أنهم ناجحون في هزئهم بحملة الرسالات الإلهية.

وبينما هم يسألون شاكين هازئين متعنتين، ويجابون عن حتم وجزم، نراهم يفاجأون بخبر الحشر كأنه واقع، فيجابون بواقع الجزاء عما يدّعون:

«فلما رأوه زُلفةً سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذي كنتم به تدّعون»:

فلما رأوا المحشر كما وعدوا به - رأوه زلفة: قريبة - وكل آت قريب - سيئت وجوه الكافرين به، بادياً فيها الإستياء، ووجدوا جوابهم حاضراً حاذراً في تأنيب: «هذا الذي كنتم به تدّعون»: تطلبونه هازئين!.

يا ويلاه! كيف رأوه الآن وهم بعدُ أحياء ناكرون؟ أقول: هذه قفزة علمية - كأنها الواقع - يقفز بهم الله من الدنيا إلى قرب الحشر، إلى أشراط الساعة، طياً لخط الزمن الفاصل بين البعدين، فإن الزمن إنما يقوم بالقياس إلى أهله، الحاكم عليهم، والمتصرف فيهم، دون خالق الزمن، الكائن قبله وبعده ومعه وإنما يجذب الله الناكرين، إلى موقف علمه تعالى وموقعه من الحشر، برفع حجاب الزمن، بعدما رفع حجب الارتياب فيه كلها، مواجهة حالة التكذيب بمفاجأة

شعورية تصويرية كأنها توقفه أمام الواقع ولما يقع ، توقفه على أشرافه وأشراطه فيقال : « هذا الذي كنتم به تدعون » ! تطلبون هازئين متمنتين !

**« قل أرأيتم إن اهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم » ؟**

توحي الآية بالبعض من أمانيهم الكاذبة : هل لنا الخلاص من محمد وحزبه ؟ أن يهلكوا فلا نسمع بلاغهم الحار ليل نهار ، عن النشر والحشر ، في دار القرار؟ فجاء الجواب : أن لا صلة لهلاكهم أو رحمتنا لهم بإجارة هؤلاء من عذاب أليم ، فهل إذا انقطع النذير المخبر عن الله ، إذن ينقطع العذاب المخبر بـه ، فما كيد الكافرين إلا في تباب ، دون انقطاع العذاب !

ثم إنها تربط إجارة الكافرين منعذاب أليم ، ببقاء الرسول هادياً ومبشراً ونذيراً ، فبلاغه ليل نهار هو الذي يجيرهم من عذاب النار ! وهذا إيحاء بأن حجة الرسالات هي أقوى الحجج ، لا أنها الحجة وحدها ، فلولاها لم يكن في سائر الحجج برهان يحتج به لعذاب المتخلفين ، فحجة الرسالات تكملة لحجج الفطر والعقول ، وإن كان دونها أعذار للقاصرين والمستضعفين ، فهم « آخرون مرجون لأمر الله » .

**« قل هو الرحمان آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين » :**

« هو الرحمان » : رحمة تعم الخلق أجمع، فكيف تشذ عن المؤمنين بالرحمان، وهم مختصون بزيادة الرحمة وهي الرحيمية ، فهل يا ترى إن الرحمان الرحيم يهلك المؤمنين بمن فيهم الرسول الأقدس وهو أول العابدين ، يهلكهم لكي يقطع بذلك أخبار الوحي وإنذاره عن الكافرين .

« هو الرحمان آمنا به » لا سواه ، « وعليه توكلنا » لا على سواه «فستعلمون من هو في ضلال مبين» نحن المؤمنين ، أو أنتم الكافرين .

وهنا: أخيراً – لا يحتم الضلال عليهم رغم الحتم المبين! – ورغم كون الهدى ظاهر البرهان ، وإنما يرجعهم إلى أنفسهم – لو بقيت لهم نفوس إنسانية – حتى يدبّروا : « مَن هو في ضلال مبين » !.

فهل هذه البراهين تشي بالدمار على أفكارهم الخاوية ، أم على المؤمنين ؟.

« قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين » ؟

.. إن أصبح ماؤكم الظاهر على وجه الأرض ، أو مـاؤكم النازل من السماء : إن أصبح غوراً : غائراً في العمق غائباً فيه : في عمق الأرض أو أعماق السماء ، فلم تستطيعوا له طلباً ، فمن هذا الذي يأتيكم بماء غيره مَعين ، ظاهر على وجـه الأرض ، مشهود ؟ أم إله غير الله يأتيكم به فكيف تأفكون، وعلى أبواب الضلالة تعكفـون ! .

الماء في كثير من المواضيع – ولا سيما هنا ، إذ يلحق ماءَ الحياة : الرسول الأقدس محمداً (ص) – إنه يشير إلى الحياة الروحية ، فلئن أصبحت رجـالات الوحي غوراً غائباً ، بالموت وانقضاء الوحي ، أم الانعزال عـن بلاغ الوحي ، أو فترة الغيبة عن الناس ، فهل إله غير الله يرسل لكم رسلاً مبشرين ومنذرين ، ودعاة مصلحين ؟.

وهكذا تعني أحاديث الجري والتأويل ، بياناً لمصداق من المصاديق المختلف فيهـا بين المسلمين ، من الإمـام الغـائب المنتظر عليه السلام[1] وعـلوم

(١) نور الثقلين ٥ : ٣٨٧ في كتاب اكمال الدين وتمام النعمة عـن الباقر (ع) في الآية : هذه نزلت في الامام القـائم – يقول : ان اصبح امامكم غائبا عنكم لا تدرون اين هو ؟ فمن يأتيكم بامام ظاهر يأتيكم باخبار السماوات والارض وحلال الله وحرامه ، ثم قال : والله ما جاء تاويـل هذه الآية ولا بد ان يجيء تاويلها .

وفيه عن عيون الاخبار عن ابي الحسن الرضا (ع) قال : لابد من فتنة صماء صيلم : ( الداهية الشديدة ) تسقط فيها كل بطانة ووليجة، وذلك عند فقدان الشيعة الثالث من ولدي ، يبكي عليه اهل السماء واهل الارض وكل حرى وحران : ( امراة حزينة ورجل حزين ، ) وكل حزيـن لهفان ، ثم قال : بابي وامي سمي شبيهي وشبيه موسى بن عمـران (ع) عليه جيوب النور تتوقد بشعاع ضياء القدس ، كم من حرى مؤمنة وكم=

الأئمة [١] ، وكما يصرح الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أنـه تأويل لا تفسير ، على حدّ قوله عليه السلام : إذا فقدتم إمامكم فلم تروه فماذا تصنعون [٢] .

هـذا ، اعتباراً أن الأئمة من آل الرسول (ص) هم - بعلومهم وبلاغهم - استمرارية الرسالة المحمدية (ص) ، فهو الماء المعين النضب العذب النابع الفائض المتدفق ، وهم سواقيه الموصلة له إلى الأمة أجمع ! اللهم صلّ عليه وعلى آلـه الطاهرين .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

---

= من مؤمن متأسف حيران حزين عند فقدان الماء المعين ، كأني بهـم آيس ما كانوا قد نودوا نداء يسمع من بعد كما يسمع من قرب ، يكون رحمـة على المؤمنين وعذابا على الكافرين .

(١) المصدر عن الامام الرضا (ع) « سئل عن قول الله عز وجل « قل ارايتم .. » فقال (ع) : ماؤكم ابوابكم الائمة والائمة ابواب الله « فمـن يأتيكم بماء معين » اي : يأتيكم بعلم الامام » .

(٢) المصدر علي بن جعفر عن اخيه موسى بن جعفر (ع) قال : قلت له : ما تاويل قول الله عز وجل « قل ارايتم ...» فقال :

## سورة القلم – مكية – وآياتها اثنتان وخمسون

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ • ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ١
مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ٣
وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ٥ بِأَيِّكُمُ
الْمَفْتُونُ ٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُهْتَدِينَ ٧ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ٨ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ٩
وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ١٠ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ١١ مَّنَّاعٍ
لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ١٢ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ
وَبَنِينَ ١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ١٥ سَنَسِمُهُ
عَلَى الْخُرْطُومِ ١٦ ..»

* * *

.. تسليات لخاطر النبي الأقدس محمد (ص) أن هتكوه وبهتوه وكل شيء فعلوه مساً بكرامته ، وإنها تحمل التصريح بأعظم المقامات الرسالية والولايات الإلهية ،تختصها به (ص): أن جاء بما جاء به النبيون وزيادة، كأنه النبيون أجمع ، وكتابه الكتب وزيادة ..

تبتدىء السورة بنداء الرسول رمزياً بـ « ن » علها تعني « النبي » كأن النبوة تختصه وهو مختص بها ! وشاهداً عليه هنا الخطاب اللاحق : « مـا أنت .. » ومن تفسير أهل البيت قول باقر العلوم عليه السلام : إن « ن » من أسمائه المذكورة في القرآن[١] وبا له من إيحاء لطيف : أن النبوة تختصه لحدّ أصبحت من أسمائه ، فهو كيانه النبوة ، وكله نبأ الغيب ، لا يحمل من الأرض إلا الجسد، وهو أيضاً تبدّل نوراً لحـدّ أصبح ألطف من أرواحنا وعقولنا ، ومن أرواح الملائكة ! وكما يروى أنه (ص) لم يكن له ظل .

نراه يخاطَب في القرآن - أكثر ما يخاطب - بـ : النبي ، الرسول، فهنا «ن» لأن النبوة وهي الرفعة ، إنها مرتبة شامخة من الرسالة، فليس كل رسول نبيـاً مهما كان نبيناً .

وإذ قد نرى أحاديث عدة أن « ن » نهر في الجنة جعله الله مداداً يكتب به ما هو كائن إلى يوم القيامة « وهو الكتاب المكنون الذي منه النسخ كلها »[٢] فهي ترمز إلى موقف النبي(ص) في علمه المكنون، كأنه النهر المداد الذي نسخت عنه كتابات الوحي كلها ، وهي النعمة الوحيدة ، والكرامة الفريدة التي اختص بها بين العالمين من النبيين والملائكة وكافة الروحانيين !

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٣٨٧ في الخصال عن الباقر (ع) قال : ان لرسول الله (ص) عشرة اسماء ، خمسة في القرآن وخمسة ليست في القرآن ، فأما التي في القرآن : محمد وأحمد وعبدالله ويس ون».

(٢) نور الثقلين ٥ : ٣٨٧ عن تفسير القمي عن الصادق ( ع ) .

ف « ن » هو النبي ، وهو النهر المداد ، فهو النبيون أجمع ، وقرآنه هـو الكتب أجمع .

« والقلم وما يسطرون » : قسماً بالقلم : آلة الكتابة أياً كانت ، وبما سطر به من وحي على لوح قلبك المنير ، وعلى حد تعبير الرسول (ص) نفسه في الآية : « لوح من نور وقلم من نور يجري بما هو كائن إلى يوم القيامة »[1] ، وقسماً بأقلام أنوار الوحي كلها ، وأقلام الإلهام التي تكتب الإيمان والتأييد في قلوب المؤمنين : « أولئك كتب في قلوبهم الإيمـــان وأيدهم بروح منه » ، وأقلام الرحمة الرحمانية العامة للعالمين، وكالأقلام الضوئية والصوتية، وأقلام التصوير في الأرحام، وأقلام القضاء والتقدير ، وأمثالها من أقلام تسطر ما يصدر عن مصدر الوحي : تكويناً وتشريعاً ، تـكليفاً وسواء .

ثم الدرجة النازلة من القـــلم هي أقلام الكُتّاب منا ، وهي من أكبر النعم الإلهية ، والكتابة عنصر أساسي في النهوض بهمة القيـــادة الصالحة الرشيدة ، يقسم الله هنا ـ ضمن ما يقسم ـ بقلمها بين الأقلام ، فبمن ؟ في الأمة التي لم تكن آنذاك تتجه إلى التعلم عن هـذا الطريق ، وكانت الكتابة فيها متخلفة نادرة ! وفي الدور المقدّر فيه للرسالة الإسلامية: نقل هذه الأمانة الكبرى وما يقوم عليها من مناهج الحياة إلى أرجاء البسيطة !

ففيه تنويه مليح بقيمة الكتابة ، وإيحـاء بنفي تهمة الكتابة والاكتتاب عن محمد الأمي : « وما كنت تتلو من قبـله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون » ، فدفع تهمة الإستكتاب والاستنساخ واجب مبدئي لهـــذه الرسالة السامية ، فأميته قبلها ، هي من فضائله ، وإن كان أخـــذ يكتب ويقرأ منذ الرسالة إلى أن قضى نحبه !

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٥٠ عنــه (ص) في قوله تعالى « ن والقلـم وما يسطرون » .

قسماً بهذه العطية الربانية التي مـا لها من فواق ، وهي تشهد لوفور عقلك ورجاحته على عقول العالمين :

« ما انت بنعمة ربك بمجنون » : ان النبوة المحمدية وهي أعظم النعم الروحانية الإلهية، إنها برهان على أنك العقل كله،فكيف يفترى عليك بالجنون، فمهما كانت النبوة بذاتها خفية ، ولكن آثارها المسطورة بأقلام الألسن وسواها، تدل عليها ، فهل يا ترى إن عقـل الوحي يجن ؟ ومن رشحاته تكمل العقول الناقصة ، وتتكامل العقول الراجحة ! وعلى أضوائه يعرف الغث من السمين ، والخـائن من الأمين ! .. « مـا أنت بنعمة ربك » : بسببها أو مصاحبتها : « بمجنون » فنعمة الوحي لا تصاحب الجنون ولا تسببه .

فهل هذا من حكم العقل السليم : أن نعمة النبوة تسبب الجنون أو تصاحبه ، فهل يا ترى إن التحلل عـن وحي السماء يمنع الجنون ويسبب العقل ؟ فما نسبة الجنون إلى صاحب الوحي إلا نسبته إلى الوحي ! فهـل الله أيضاً مجنون ؟. وما هذا الهُراء إلا كالقول : إن صاحب المليار فقير ، وحامل العلم جاهل !

عجباً من هؤلاء الذين كانوا يرون محمداً قبل النبوة أعقل العقلاء ، فلما اتصل عقله بخالق العقل وحياً قالوا : إنه لمجنون ، ولكي ينفّروا الناس عنه .

إن المعجب ليأخذ كلٌ من درس عن سيرة الرسول (ص) شيئاً ، من تقوّلهم هذا عنه : « مجنون » وهم الذين عرفوه برجاحة العقل بينهم حتى حكموه في رفع الحجر الأسود قبل النبوة بأعوام ، ولقّبوه بالأمـين ، ولكنما الحقد يعمي ويصم ويقذف بالفرية دون حساب .

« وان لك لأجراً غير ممنون » : غير مقطوع عنك ولا ممنون عليك ، رغم المنة الإلهية في نعمة النبـوة على النبيين وعلى الخلق أجمعين ، ولكن أجـرك — وهو فوق أجور الخلائق — لا يمن بـه عليك ، ولأنك صبرت على الأذى ، واستقبلت كل لظى في سبيل الدعوة ، بخلق عظيم ، وليس عدم المنة عليه لأنه

يستحق أجر الرسالة ذاتياً ، وإنما هو اكرام له ثان بعد الأجر الأبـد ، فانقطاع الأجر بنقصه ، والمنة عليه بنغـّصه ، وأجر الرسول غـير الممنون من الجهتين ، كرامة تختصه دون سواه من حملة الرسالات الإلهية ، وإنه إيناس خاص كتعويض فائض غامر ، عن كل حرمان وجفوة وبهتان يرميه بهـا المشركون ، فلو حرم عطف المشركين ، فقد زوّد بعطف رب العالمين بمـا لا مثيل له في ملأ العالمين ، فالله تعالى هو أجره ، ورحماته غير المحدودة هي أجره وهما غير مقطوعين عنه في في كافة مراحل حياته .

« وانك لعلى خلق عظيم » لأنك تخلقت بأخلاق الله العظيم وتأدبت بآدابه : فيا أحسنه وأحلاه أن تكون خلق الرسول محمد عظيماً عند الله ، ولا عظيم فيمن سواه تعالى إلا وهو صغير بجنبه ! وما أحراه (ص) أن يستعظمه ربه في خلقه ، ولأنه رباه : « أدّبه فأحسن أدبه ، فلمـا أكمل له الأدب وانتهى بـــه إلى ما أراد ، قـــال له : « إنك لعلى خلق عظيم »[1] إذاً فخلق الرسول هو منتهى ما أراد الله من أول العابدين ، ولو كان بالإمكان أن يزيد لزاد .

فالرسول محمد (ص) بكيانه ككل ، هـــو منتهى الرحمة والنعمة الإلهية ، الممكن إيتاؤها لمن سواه ، وما أحلى ما وصفه به سليمان عليه السلام : « وكُلُّو محمديم » : وكله في غاية المحمودية »[2] !

ولتامية خلقه العظيم ولأنه أفضل أو تمام ما أتى به النبيون ، يقول (ص) : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٣٨٩ – عن الكافي عن الامام الصادق (ع) قـال : رواه فضيل بن يسار عنه (ع) وروى اسحاق بن عمار اضافة « وانتهى به الى ما اراد » .

(٢) راجع كتابنا ( رسول الاسلام في الكتب السماوية ) .

« إنك لعلى » : لا يقول إن لـك خلقاً عظيماً ، فقد يملك الإنسان أمراً ثم يفقده ، بل « إنك لعلى خلق عظيم » : فـ « على » توحي بعلوه على خلقه المعظم ، علواً مؤكداً لا يزول ، كما توحيه حرفـا التأكيد « إن ـ ل » فقد مزجت الخلق العظيم ذاته لحد لن تنفصل عنها ، بعصمة وعناية خاصة ربانية ، فلقد كان خلقه القرآن مزيجاً بقلبه المنير ، ظاهراً في أعماله بقلبه وقالبه ، فهو هو القرآن الناطق « أنا القرآن والسبع المثاني . وروح الروح لا روح الأواني » فكيف لا تكون خلقه عظيماً وقد تجلى الله لسره بأنوار أخلاقه كما يمكن لممكنات ، وقـــد بعث ليتمم مكارم الأخلاق ، فليكن هـــو على تمامها قبل تتميمها للناس ، فلم يبق بعد هذه البعثة الأخلاقية سفساف أخلاق أبداً إذ أبان لنا عن مصارفها كلها .

وبما أن مادة الخُلق من الخَلق ، فلتكن كا الخلق ، كأنها من كيان الإنسان ، مخلوقاً معها ، وليست إلا بسعيه الجميل ، بـــين عنايتين إلهيتين ، فطرة الحق ، وتأييد الله لمن يتبنا الفطرة في استزادة من الخلق الطيبة ، ثم عـــلوه (ص) على هذا الخلق ، كأنه يجعله أعمق من ذاته وأبقى ، كأنه هو الخلق العظيم لا غيره .

وإن سيرة الرسول الأقدس ، المجيدة ، تتجاوب تماماً والثناء الفريـــد ، شهادة من الله ، في ميزان الله ، لعبد الله : أول العابدين « وإنك لعلى خلق عظيم » تتردد هذه الشهادة الإلهية في الملأ الأعلى بين النبيين والملائكة ، في كلمة لا يعرف مداها وصداها إلا قائلها ومن ألقيت عليه !

وهل يا ترى إن محمداً يفقد توازنه في هذا الثناء المجيد ؟ كلا ! ولأنه على خلق عظيم ، أو ترى انه تتأرجح شخصيته وتضطرب تحت وقعه ، ويتبهّج بـه ، وينسحق تحت ضغطه الهائل فيرضى عن نفسه ويطمئن لها وإليها فيلهو ؟ كلا ! ولأنه على خلق عظيم ، فمن هذا الإنسان الذي يستطيع حمل هذه الرسالة الصعبة ويتحمل أعباءها ووزرها ، إلا محمداً العظيم ، الذي هو على خلق عظيم ؟ أجل : انه محمد وحده الذي يرقى إلى هذا الأفق المبين .

ثم نجد لهذه الكلمة اللفتة دلالة باهرة على تمجيد عنصر الأخلاق في ميزان الله، وأصالته، كأنه الكل من الحقيقة الإسلامية، ولذلك يعلن: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، كأنما الرسالة المحمدية لا تعني إلا تتميم مكارم الأخلاق.

ليست هـــذه مبالغة، طالما الأخلاق تشمل الفضائل العقائدية والأعمالية والأقوالية، ومن ثم: فردية وجماعية، ثم بين الإنسان ونفسه، وبينه وبين ربه، وبينه وبين مجتمعه، فهل بعث النبيون إلا لهذه، طالما اختصت لغة الأخلاق الحسنة بزاوية خاصة منها هي تحسين العشرة؟ وهي السجايا الفاضلة: المدركة بالبصيرة، ومن ثم: الظاهرة بالبصر.

فللأخلاق معنى عام، وآخر خاص، والأول هو المعني من غـــاية البعثة المحمدية تكميلاً.

«فستبصر ويبصرون. بأيكم المفتون»: مهما كنت بصـــيراً بجمالك القدسية، وانك كل العقل وكلك عقل، وإن مناوئيك كل الجنون وكلهم مجانين، فأنت أنت تبصر دونهم «فستبصر ويبصرون»: في المستقبل مـــع بعض، يبصرون كما تبصر «بأيكم» العقل «المفتون»: المبتلى بالجنة، وبأيكم العقل المتحلل عما يحجبه، المتفتح بما يشرحه ويكشفه، فسوف يكون الإبصار ملياً يوم الدنيا لمن يبصر، وعالياً يوم البرزخ إذ يكشف الغطاء، وأعلى يوم الحشر إذ لا يبقى خفاء، ولات حين مناص.

إن تقولاتهم المجنونة ليست عن جنون خلقي يرفع التكليف، إنما بما جننوا أنفسهم وختم الله على قلوبهم: «فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم».

«إن ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين»: فما أجهل من يحسب المهتدي الهادي ضالاً، ويحسب نفسه الضالة مهتدياً، وما أحلى من يعلم الضال عن المهتدي، مهما أخطأ أحياناً في قدرهما أو مواضعهما، وما أعظم علم الله بهما وبكل شيء، إذ لا يعزب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء! فالضال

عن سبيل الله هـو المجنون إذ يتجاهل أو يجهل خـــيره عن شره ، والمهتدي هو العاقل .

« فلا تطع المكذبين . ودوا لو تدهن فيدهنون » :

الطاعة المنهي عنهـا هنا هي مداهنتهم في الدين كما ودوها : « لو تدهن » : تداريهم وتماريهم تاركاً جدّ الدعوة إلى الملاينة والمصانعة « فيدهنون » : يمارونك ويدارونك ، بقسمة البلد بلدين ، بمحاولة أنصاف حلول ، وإن هـذا إلا مكر يمكرونه دون أن يرجع بالضرر إلا إليك ، لو انهم أنصفوا كما يعدون ، ولكنهم كاذبون ، فلا تصلح لهم إلا القول : « لكم دينكم ولي دين » فليست الديانة تجارة تقبل الإلتقاء في منتصف الطريق ، إنهـا عقيدة تمازج لب الإنسان وعمقه ، والتنازل عنها تنازل عن لب الإنسان ، والهوة بينها وبين الجاهليات ليست بالتي تعبر ، أو تقام عليها قنطرة .

إن الرسول (ص) كان – وكان عليه أن يكون – ألين الناس وأدهنهم فيما لا يمس من كرامة العقيدة والدعوة ، وهو أصعبهم تصلباً في الدين ، لا يـداري ولا يماري أحـداً ، وهكذا يجب أن تجابه الجاهليات أبداً ، بالنضال الفصال الذي لا مداهنة فيه ولا دلال ، صموداً صارماً واصباً في دين الله ، دون تمحّل فيه ولا تمهّل ، وإنما تُنكّل بالأعداء المحـــاربين ، السافرين في عدائهم والمنافقين ، ولم يكن الرسول يدهن ، وكما توحيه حرف الامتناع « لو » .

« ودوا لو تدهن » : تبدأ أنت بالمداهنة والتنازل عن بعض الشيء من شريعة الله : « فيدهنون » كما يزعمون ويدعون ، وان رزقهم من شريعة الحق هـــو التكذيب به : « أفبهذا الحديث أنتم مدهنون . وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون » ( ٥٦ : ٨٢ ) .

« ولا تُطِعْ كُلَّ حَلّافٍ مَهِينٍ . هَمّازٍ مَشّاءٍ بِنَمِيمٍ . مَنّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أثِيمٍ . عُتُلٍّ بَعْدَ ذٰلِكَ زَنِيمٍ » :

نهي ثان يعم كل من فيه هذه الصفات التسع، وهي رؤوس رذائل الأخلاق، وقد نزلت بشأن ألعن الشانئين برسول الله : الوليد بن المغيرة ، إذ وقف وقفته العنيدة ضد الدعوة الإسلامية ، وكما نزلت في الآيات في « المدثر » : ذرني ومن خلقت وحيداً .. إنه كان لآياتنا عنيداً . سـأرهقه صعوداً .. سأصليه سقر .. حملات منقطعة النظير ضد هذا الوحيد في كفره وفسقه .. ثم وتشمل الآيات كل من حذا حذوه في هذه الملعنات ، الصفات التسع الموبقات :

فهو « حلاف » : يحلف كثيراً ، ودون ضرورة ومواربة ، مما يكشف عن كثرة كذبه ، وعدم اكتراسه واحتراسه بساحة الربوبية .

و « مهين » : حقير الرأي والتدبير لا يثق بنفسه ولا يثقون بـــه ، ولذلك يحتاج إلى الحلف الكثير في كل جليل وحقير .

و « هماز » : عياب طعّان يلوي شدقيه في أقفية الناس ، يعيش همز الناس وكأنه هو وحده بريء !

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وفي الحديث : « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس » : شغلاً عن همزهم وتعييبهم ، لا عن نهيهم ، بالحكمة والموعظة الحسنة فإنه فرض .

« مشاء بنميم » : يمشي بـين المتحابين بعداثهم لبعض ، وبـــين المتعاندين ليزدادوا عداء .

« مناع للخير » : يحاول دائباً لصد سبل الخـــير على الناس ، وكان للوليد عشرة من البنين وأموال غزيرة ، يهددهم وسائر أقاربه ، من تبع منكم دين محمد لا أنفعه شيئاً أبداً .

« معتد » : يجاوز الحق ، ويتجاوز على أهل الحق .

« أثيم » : كثير الإثم : وهو كل مبطىء عن الخـــير والثواب ، وكأن الإثم أصبح لذاته لزاماً لا يستطيع تركه !

« عتل بعد ذلك زنيم » : والعتل هو الأخذ بجامع الشيء وجره بقهر ، والعتل هو كثير الأخذ هكذا ، فهو الآخذ بجامع الرذائل ، يجرها إلى نفسه وإلى مجتمعه بعنف ، لفظة تخبر بجرسها عن مدى معناها في العتل السوء ، وجره وجمعه : فهو الغليظ الجافي المريد ، الشره المنوع العتيد ، الأكول الشروب الحريص العنيد ، اللئيم « الزنيم » : الذي لا أصل له وهو زائد في قومه ، الدعي الملحق بمن ليس هو منه « زنيم ليس يعرف من أبوه - بغي الأم ذو حسب لئيم » ويا لها من رذائل قلما تجتمع في شخص واحد ، اللهم إلا وحيداً : « ذرني ومن خلقت وحيداً » ! وكل هذه الميوعة والرعونة :

**« أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين »** :

أساطيرهم وخرافاتهم ، رغم أنها آيات الله ، تدل بنفسها أنها إلهية وليست بشرية ، ولو من أعقل العقلاء ، فضلاً عن الرجعيين الخرافيين !

**« سنسمه على الخرطوم »** : سنعلمه بعلامة يعرف بها على خرطومه : أنفه ، إذ بلغ في استكباره لحد كأن له الخرطوم ، والفيل يباهي بخرطومه ويفتخر ، وكذلك هذا الزنيم يشمخ بأنفه : أن كان ذا مال وبنين ؟

إن خراطيم المستكبرين موسومة بالحق يوم الدنيا ، يعرف وسمتها ووصمتها العارفون ثم يوم البرزخ والرجعة[1] والقيامة . تبرز الوصمة وتعلم ، ولكي يعرفهم المحشورون معهم أجمع : « يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام » .

ولقد وسم الله وحيداً على خرطومه « أنفه » يوم بدر إذا صاب أنفه جراحة فادحة بقيت علامتها كما قيل ؛ ووسمه الله يوم البرزخ ، وسوف يسمه يوم القيامة شر وسمة ووصمة يعرف بها بين أهل الجمع أنه الوحيد الشرير الأثيم الزنيم .

---

(١) القمي في آية الوسم : قال قال (ع) في الرجعة اذا رجع امير المؤمنين (ع) ورجع اعداؤه فيسمهم بميسم معه كما توسم البهائم على الخراطيم : الانف والشفتان .

اقول : وهذا من باب الجري على بعض المصاديق المختلف فيها .

«إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا
مُصْبِحِينَ ١٧ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ١٨ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ
وَهُمْ نَائِمُونَ ١٩ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ٢٠ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ٢١
أَنِ ٱغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ ٢٢ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ
يَتَخَافَتُونَ ٢٣ أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ ٢٤ وَغَدَوْا
عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ٢٥ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ٢٦
بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ٢٧ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا
تُسَبِّحُونَ ٢٨ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ٢٩ فَأَقْبَلَ
بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ٣٠ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا
طَاغِينَ ٣١ عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا
رَاغِبُونَ ٣٢ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ
كَانُوا يَعْلَمُونَ ٣٣ ..»

* * *

مشهد من مشاهد التخلف والتمرد يحمل طرفاً من بلوى الدنيا لمن أجمل عن ذكرهم بـ «أصحاب الجنة»: بستان ملتف الأشجار، يجن بعضها بعضاً، لحدّ استحق اسم الجنة التي قلما تعني الدنيوية.

هذا المشهد يصور جانباً من اللؤم البشري : « اللاَّ إستثناء » فيما رزقهم الله من نعمته ، تعامياً عن حقوق الفقراء ، تفانياً في جمع المال لمّاً .

**« انا بلوناهم كما بلونا اصحاب الجنة اذ اقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون » .**

« انا بلوناهم » : هؤلاء الكفار المتهمين لك بالجنون ، فابتلوا بعذاب الدنيا وبلائها قبل الآخرة[1] « كما بلونا أصحاب الجنة » : البستان الملتف الأشجار ذات الثمار « اذ أقسموا » : بالله تعالى حلفاً به سبحانه « ليصرمنها مصبحين • ولا يستثنون » : لا استثناء بمشيئة الله في صرمهم ثمارهم مصبحين ، ولا استثناء لحقوق الفقراء بعد صرمهم ، ويأله من حلف خاطيء لا يلزم عليهم شيئاً إلا ازدواجية الاثم : بحق الخالق والمخلوق ، فقد قرّ رأيهم هكذا على أن يصرموا : يقطعوا — ثمارها عند الصباح الباكر ، مُبيِّتين هذا الكيد اللئيم إذا ناموا ، ولكي يفاجئوا الفقراء بصرمهم ولا يستثنون لهم شيئاً ، فقوبلوا بمفاجأة العذاب الصارم قبل صرمهم ، فصرم الله ثمارهم قبل صرمهم ، « فطاف عليها » : الجنة « طائف من ربك » : طائف رباني يذكر الغافلين التائهين : أن الصرم بالصرم ، والجُرم بالجُرم ، جزاءاً وفاقاً ! « وهم نائمون » كما احتالوا في حرمان الفقراء النائمين .

« فأصبحت كالصريم » : كالمقطوعة ثمارها ، المقطوع عنها كل خير ، كالرملة المنقطعة عن الرمال ليس فيها نبات ، أصبحت كالليل المظلم في سوادها بصرمها ، فقد صرم الطائف الرباني كل خيراتها فأصبحت قفراً لا ماء فيها ولا كلاء ، وكل هذه يشملها الصريم .

« فتنادوا مصبحين أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين » تواصياً في حماس وحرص وحراس « فانطلقوا » : مروا متخلفين

---

(١) القمي عن الباقر (ع) في الآية : ان اهل مكة ابتلوا بالجوع كما ابتلي اصحاب الجنة وهي كانت في الدنيا وكانت باليمن يقال له الرضوان على تسعة أميال من صنعاء .

كأنهم يفرون من أسد» وهم يتخافتون » : تخافتاً في الإقدام وفي الكلام ، وتخافتاً في وطء الأقدام ، سداً لباب الإطلاع ، وصداً عن دخول المساكين : « أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين » : الذي أسكنه العدم عن حركات الحياة ، فلا يتحرك إلا بغية تحصيل بلغة العيش ولقمته ، فهؤلاء اللئام يحتالون هذه الحيلَ ، كيلا يفاجئهم مسكين ، ففاجأهم قبل صرمهم صرم من رب العالمين ، فأصبحت كالصريم ! « وغدوا على حـــرد قادرين » : غدوا أمام أملهم الوحيد « على حرد » : منع عن حدة وغضب ، ممتنعين من تناول الثمر وصرمه اذ وجدوه صريماً ، « قادرين » : لم يمكنهم صرمه وهم قادرون عليه لو كان ، فلم يمنعهم عجزهم عن صرمه إلا انصرامه قبلهم فماذا يصرمون ؟ ، وقادرين على منع الفقراء بهذه الحيلة لولا الصرم الإلهي ، فهم على قدرتهم في الصرم وفي منع الفقراء ، امتنع لهم صرم الثمرة بانتفاء الموضوع ! « وغدوا على حرد » منع للمساكين – «قادرين» : مقدرين أنهم سيصرمونها ويمنعونها المساكين ، « فلما رأوها » : الجنة « قالوا انا لضالون » : عن الصواب في غدوِّنا هكذا ، أو ضللنا عن طريق جنتنا ! اذ لم تكن تشبه جنتهم ولا أية جنة ! ثم نظروا إليها ثانية فتأكدوا أنها هي ، ولكنها – ويا للعجب – صريمة خاوية على عروشها ، فعدلوا عما احتملوا من ضلال الطريق ، إلى ضلال الصراط ، وهو الحرمان الإلهي عما أملوا : « بل نحن محرومون » هذا هو الخبر اليقين ، وقد حاقت بهم عاقبة البطر والمكر ، ثم حاق بهم التنديد الشديد من أوسطهم : أعدلهم وأعلمهم في الرأي ، بين مفرطهم ومفرطهـــم :

« قال أوسطهم : ألم أقل لكم لولا تسبحون » : وهنا يفتحـــون الآذان للناصح وقد فات الأوان ، « لولا تسبحون » : ولم يكن منهم من عدم التسبيح إلا ترك الإستثناء في حيلة ومحاولة حمقـــاء ، فتنزيه الرب تعالى في صفاته ، من لزامه الإتكال عليه ، والإستثناء بمشيئته : « إن شاء الله » فعدم الإستثناء بالمشيئة استقلال لمشيئة العبد ، وشركة مع الله في المشيئة المستقلة ، وتنزيهه تعالى فيما سن من أحكام العدل ، وتطبيقه ، ومنه الإستثناء للفقراء ، فعدمه شركة معـه في

التشريع ، ومحاولة لعدم تطبيقه ، صـــداً عن نفاذ حكمه من ناحيتين : عدم استثناء لهم ، وعدم فسح المجال لهذا الإستثناء على أية حال ! إذ انطلقوا مصبحين الى حرثهم غادرين ، فراراً عن تحقق حكم الله !

وهنا لم يكن الا الاعتراف بنزاهة الرب وظلمهم أنفسهم : « قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظـالمين » : منتقصين حق الفقراء ، وبحق الرب تعـالى اذ حاولنا الفرار عن حكمه ، فباغتنا بطائف منه فأصبحت كالصريم .

وإنهم على حد تعبـير الرسول الأقدس (ص) : « قد حرموا خير جنتهم بذنبهم »[1] .

« فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون » : كلٌّ يوجه اللوم إلى الآخر ، قبل أن يوجهه إلى نفسه ، ولكنهم تنبهوا أخـيراً أنهم ملومون أجمع ، مهما كان اللوم مزدوجاً على من ضل وأضل ، وفرداً على من ضل ، أو تماشى مـع الضالين كأوسطهم ، فاعترفوا جميعاً بطغيانهم : « قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين » : طاغين على ربنا في هــذا التدبير الماكر فراراً عن حكمه ، وعلى المساكين فراراً عن دخولهم جنتنا ، وأخيراً طاغين على أنفسنا أن خسرنا الجنة بأسرها : في ظلمات ثلاث ! فهل من مجـير ؟ أجل - وما دامت المهلة باقية ولما يأت الأجل ، ومن أوليات الواجبات على التائبين الإعتراف بالذنب ، راجين رحمـة رب العالمين ، وقد فعلوا :

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٥٣ عن ابن مسعود قال : قال رسول الله (ص) : اياكم والمعاصي ، ان العبد ليذنب الذنب فينسى به الباب من العلم ، وان العبد ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل ، وان العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقا قد كان هيىء له ، ثم تلا رسول الله (ص) « فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فاصبحت كالصريم » قد حرموا خير جنتهم بذنبهـم .

**« قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين. عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون »** :

فالرغبة إلى الرب – وفي توبة نصوح – هي التي تستجلب توبـة الرب على العبد ، ما لم تكن خوفَ العذاب ، وإنما رغبة الرضوان والثواب ، فالإيمان عند رؤية البأس لا يفيد : « فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون » ( ٤٠ : ٨٥ ) .. هـذا ! اللهم إلا إذا كان إيماناً صادقاً وإن كان عند رؤية البأس كما في قوم يونس: « فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحيـاة الدنيا ومتعناهم إلى حين » ( ١٠ : ٩٨ ) .

هذا – ولكنما العذاب في أصحاب الجنة كان عليها لا عليهم إلا في جنتهم ، ولكي ينتبهوا ، وقد فعلوا قبل حلول الأجل ، فعلّهم مغفور لهم .

**« كذلك العذاب »** : عذاب التدمير والتذكير في الدنيا ، **« ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون »** وإنمـا عذاب الدنيا مهما تفاقم ، نمـوذج ضئيل عن عذاب الآخرة .

* * *

« إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ٣٤ أَفَنَجْعَلُ
الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ٣٦ أَمْ لَكُمْ
كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ٣٧ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَخَيَّرُونَ ٣٨ أَمْ لَكُمْ
أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ٣٩
سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ٤٠ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ

إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ٤١ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ٤٢ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ٤٣ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ٤٤ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ٤٥ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ٤٦ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ٤٧ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى رَبَّهُ وَهُوَ مَكْظُومٌ٤٨ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ٤٩ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ٥٠ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ٥٢ ».

* * *

« إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم » : إنها ليست عندية مكانية إذ ليس له مكان ، وإنما عندية من حيث القرب المعرفي ، والثواب ، وكما يوحيها « ربهم » : ربوبية الثواب والمعرفة جزاءً وفاقاً ، بما اتقوا ، كما المجرمون لهم النار بما طغوا ، وهذا هو الحكم العدل ، وسواه عادل عن الصراط .

« أفنجعل المسلمين كالمجرمين » : برهان عقلي لضرورة المعاد الحساب بصيغة السؤال : أتسوية بين المسلمين لله والمجرمين ؟ فنعذب المسلمين كالمجرمين ! أو نعفو عن المجرمين كما عن المسلمين ، أو نثيب المجرمين كما نثيب المسلمين ، أو لا نحيي المسلمين كما المجرمون على حدّ زعمهم !.

نستوحي من الآية وأشباهها أن هناك زعماً خاطئاً من المجرمين . يزعمونهم كأنهم الأصل في المعاد الحساب واللامعاد : ان الله يعامل المسلمين كما يعامل المجرمين سواء : « أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون » ( ٣٢ : ١٨ ) « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » ( ٣٨ : ٢٨ ) كان صناديد يرون وفور حظهم في الدنيا وقلة حظوظ المسلمين فيها ، فقاسوا بها الآخرة قائلين : إن صح انا نبعث كما محمد يزعم، لم تكن حالنا إلا كحالهم سواء ، أو أحسن ، فخطئهم الله فيه .

ففي قصة الجزاء ضروب شتى من أفكار خاطئة :

١ – إن الله سوف يجعل المسلمين كالمجرمين سواء ، فالإسلام هو اللاشيء في حساب الحق ! فما يستحقه المجرم فالمؤمن يستحقه سواء أكان اللاحساب ، أم الحساب السوء ، أم العفو ، أم الإثابة ، والمجرمون هم الأصول على أية حال، وهذا من أضل ما يتقول حول الحساب !

٢ – إن الله سوف يعفو عن المجرمين كما عن المسلمين ، بما اختلقوا من فلسفات توحي كأن العذاب لا دافع له إلا الوعد الإنذار !

٣ – أو يجعلهم كالمؤمنين في الثواب أيضاً : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون » ( ٤٥ : ٢١ ) .. وما إلى ذلك من تقولات نبحث عنها في طيّات الآيات التي تحملها .

فهنا وهناك تأتي الأسئلة الإستنكارية تلو بعض دون جواب ، ولأنه واضح يعرفه كل من له أدنى مسكة :

« مالكم كيف تحكمون » ؟ أيحكم العقل أو العدل يسوى بين الفريقين ؟ كلا ! « أم لكم كتاب فيه تدرسون » ؟ : هكذا حكم خاطيء ، لا يقبله عدل ولا عقل ، ولو كان فهو كتاب بجنون ظلوم يحكم : « أن لكم لما تخيرون » : كما تهوون ، « أم لكم إيمان بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون » : أن الله حلف لكم بحريتكم في هكذا حكم لا يمضيه عقل ولا عدل ؟

« سلهم أيهم بذلك زعيم » : يزعمه عن الله لنفسه . أو عن العقل أو كتاب من الله ، وهو تهكم ساخر عميق،أنيق بليغ يذيب القلوب حرجاً .. وإذ ليس هذا الحكم لا إلهياً ولا بشرياً ، فهل هو من شركاء لهم : « أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين » ! شركاء لهم عندهم براهين أخرى على هذه الدعوى الزور الغرور ؟ أم شركاء يزعمونهم أنهم آلهة من دون الله يسوون بينهم وبين المسلمين ؟ أم شركاء يزعمونهم شفعاء عند الله يشفعون لهم في هذه التسوية الظالمة غير العادلة ، فليأتوا بهم إن كانوا صادقين في دعواهم ، صادقين في كيان الشركاء وصدقهم ، وأنى لهم ذلك !

فهكذا حكم لا يملك من صنوف البراهين أياً كان ، وإذ لا ينتبهون هنا فسوف يعلمون :

**« يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون . خاشعة ابصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون » :**

من عادة الناس أن يشمروا عن سوقهم عند الأمور الصعبة ، التي تتطلب المعاركة ، ويفزع عندها إلى المانعة ، فتشمير الذيول حينذاك أمكن للقراع ، وأصدق للمصاع ، كذلك واحرى عند هول الأمر وشدته ، وعظم الخطب وفظاعته ، وعلى حد تفسير الإمام الصادق عليه‌السلام في الآية: « أفحم القوم ودخلتهم الهيبة وشخصت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر شاخصة أبصارهم ترهقهم ذلة

وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم ظالمون »[١] .

ففي هـذا اليوم العصيب هؤلاء الأوغاد يدعون إلى السجود ، استمرارية التكليف ليوم ليس فيه تكليف ، فرعاً طبق الأصل وعنه ، فـلا يستطيعون السجود ، إذ تركوه يوم الدنيا ، فـلا يستطيعونه يوم الدين ، فمستطاع الطاعة وواقعها يوم الدنيا ، مستطاع يوم الدين ، وتركها رغم الاستطاعة هنا ، ترك لها هناك : « وقـد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون » ففقدوا سلامتهم هناك لتركهم الاستسلام لله هنا ، ومرض اللااستطاعة للطاعة لزمهم ليوم الدين ، ولكي تكون لهم عذاباً فوق العذاب : عـدم استطاعة الطاعة إذ ظهرت لهم الحقائق كلها ! وكما عن الرسول (ص) : « يؤذن للمؤمنين يوم القيامة في السجود فيسجد المؤمنون ، وبين كل مؤمنين منافق فيتعسر ظهر المنافق عن السجود ويجعل الله سجود المؤمنين عليهم توبيخاً وصغاراً وذلاً وندامة وحسرة »[٢] .

« خاشعة ابصارهم ترهقهم ذلة .. » : تغشاهم ذلة بقهر ، ولأنهم لم يذلوا أنفسهم يوم الدنيا طوعاً ، فليذلوها قهراً يوم الدين : « وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون » فالآن وهم مرضى بما افتعلوا ، لا يستطيعون السجود .

وقد يعني الكشف عن الساق كشف الحجاب فظهور الحقائق ، وعلى حـد تفسير الرسول الأقدس (ص) : « يكشف عن نور عظيم فيخرون له سجداً »[٣] وعن حفيده الرضـا عليه السلام : « حجاب من نور يكشف فيقع المؤمنون سجداً وتدمج أصلاب المنافقين فلا يستطيعون السجود »[٤] .

فساق الحشر يكشف ، وساق المحشورين يكشف ، وليس لله ساق يكشف ،

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٣٩٦ في كتاب التوحيد للصدوق عنه (ع).
(٢) الدر المنثور ٦ : ٢٥٥ عن قتادة قال : ذكر لنا ان نبي الله قال:
(٣) الدر المنثور ٦ : ٢٥٤ عن ابي موسى عن النبي (ص) .
(٤) نور الثقلين ٥ : ٣٩٥ عيون اخبار الرضا (ع)

رغم المختلقات الزور ، الوثنية والإسرائيلية : ان ربنا يكشف عن ساقه[1] اللهم إلا أن يعني بها ساق الآخرة وحجابها وعذابها .

« **فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون** » : وعذاب الاستدراج يعم المكذبين بآيات الله :« والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » ( ٧ : ١٨٢ ) .

هل يكذب هذا الحديث ، الذي تصدقه كافة براهين الصدق ، حديث الله وطاعته ومحشره وحسابه ؟!

ثم مالك وهذا الكذاب الأشر ؟ ذرني وإياه : أنا الخالق الجبار الكبير الكبير ، وهذا المخلوق المستكبر الهزيل الصغير المسكين الفقير ، هذه الهباءة المنثورة ! هذا العدم ! فما حاله إذاً أمام جبروت القهار العظيم .

انا انا استدرجه نحو العذاب بتواتر النقمة ، التي يحسبها له كرامة ، وأمهله على نعمته ولا أهمله : « ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار » « ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين » ( ٣ : ١٧٨ ) .

إنه الأمان في ظل النعم المتواترة تلو بعض ، ولكنه الفخ الذي يقعون فيه

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٥٤ عن النبي (ص) « يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياءً وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقا واحدا » .

اقول : وقد خيل الى من لا يعقل انه ساق ربنا سبحانه وكما في الدر المنثور ٦ : ٢٥٥ عن سعيد بن جبير انه اجاب عن سؤال الآية بعد ما غضب غضبا شديدا : ان اقواما يزعمون ان الله يكشف عن ساقه ! وانما يكشف عن الامر الشديد .

وفي نهج البلاغة : انه من وسع عليه في ذات يده فلم ير ذلك استدراجا فقد امن مخوفا .

مغرورين ، استدراجاً لهم إلى أسوء مصير ، واستنزالاً لهـم إلى أسفل سافلين شيئاً فشيئاً بما ينعم عليهم مرة بعد أخرى وهم يزدادون عتواً ونفوراً، يحسبونهم على حق وانهم يحسنون صنعاً ، وإلا فلماذا تواتر النعم عليهم وتوتُّرها على المسلمين، وهذا هو عذاب الاستدراج .

« واملي لهم ان كيدي متين » : والإملاء والكيد المتين من رب العالمين هـو من أسباب الاستدراج ، أن يتدرج إلى الأسوء فالأسوء نتيجة الإملاء والإمهال وهذا هو كيد الله المتين، ليس لأنه ضعيف،وإنما جزاء كيده بكيد متين لا هوان له ولا علاج ، خلاف سائر الكيد من غـيره تعالى ، وعلى حد تفسير الإمـام الصادق (ع) :« إذا أراد الله بعبد شراً فاذنب ذنباً تبعه بنعمة لينسيه الاستغفار ويتمادى به، وهو قول الله عز وجل: « سنستدرجهم من حيث لايعلمون» «بالنعم عند المعاصي »[1] .

ويا لها من وخزة بعد اخرى ، إلى أن يأخذه الله نكال الآخرة بعد الأولى ! وان ذلك بمـا كسبت يداه وأن الله ليس بظلام للعبيد ، فقد كذبوا من حيث يعلمون ، فالله يستدرجهم من حيث لا يعلمون ، جزاءً وفاقاً !

وانه لشر العذاب يوم الدنيا ، الاستدراج بالاملاء والامهال ، بكيد متين لا مفر عنه ولا منجى ، وكما نرى المكذبين هكذا يستدرجون، تدرجاً إلى العتو والضلال ، على تدرُّج النعمة والدلال ، أعاذنا الله منه بحق محمد والآل .

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٣٩٧ في كتاب علل الشرايع عنه (ع) :

وفي روح البيان ج١٠ ص ١٢٤ عن أمير المؤمنين علي (ع) « من وسع عليه دنياه فلم يعلم انه مكر به فهو مخدوع عن عقله » وروي ان رجـلا من بني اسرائيل قال : يارب كم اعصيك ولم انت لم تعاقبني ؟ فاوحى الله الى نبي زمانه أن قل له : كم من عقوبة لي عليك وانته لا تشعر كونهـا عقوبة : جمود عينك وقساوة قلبك استدراج مني وعقوبة لو عقلت .

«ام تسألهم اجراً فهم من مغرم مثقلون» ؟ : تتمة أسئلة الاستنكار على المجرمين المسوين أنفسهم بالمسلمين : هل تسألهم أجراً على الرسالة وهم مثقلون متثاقلون من مغرمها ، فهم لا يقبلونها أو يُقبلون إليها فضلاً عن أن يفكروا في أجرها ، وليس أجر الرسالة في حساب الرسول إلا المزيد من تحقيقها وتطبيقها ، دون الأجور المادية وحاشا الرسول عنها ! : «قل لا أسألكم عليه أجراً إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً» ( ٢٥ : ٥٧ ) فليتخذ الرسول (ص) سبيلاً إلى ربه ، ثم أبواب الرسول : «قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى» ( ٤٢ : ٢٣ ) وليس هذا أجراً، فإن المودة في قربى الرسول تقربهم إلى الرسول فإلى الله زلفى : «قل ما سألتكم من أجر فهو لكم» ( ٣٤ : ٤٧ ) إذاً فلا أجر يُسأل : لا مادياً ولا معنوياً ، إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً ، أجر يرجع لصالح المعطي دون المستعطي ، إلا صالح نشر الدعوة وتطبيقها ، المشترك بين اصحابها .

«ام تسألهم اجراً» : فإذ لا مانع من الإيمان عقلياً وواقعياً ، ولا دافع إلى الكفر والتكذيب من هنا وهناك ، فلا يبقى من الموانع إلا ثقل الأجر ، وأنت لست بسائله : «فهم من مغرم مثقلون» : ولكي يثقلهم عن الإيمان ثقل المغرم الأجر ، وبدلاً من سؤال الأجر ، أنت تمدهم اجر الدنيا والآخرة ، فليس هناك من مغرم يثقلهم عن الإيمان ، ويدفعهم إلى الكفر ، لا مادياً ولا معنوياً ، وإنما شهواتهم وحرياتهم في حيوناتهم هي التي تردهم إلى اسفل سافلين وبئس للظالمين بدلاً!

«ام عندهم الغيب فهم يكتبون» : فتلك شهودهم الخاطئة المارقة الماردة ، فهل عندهم الغيب غير الخاطيء فهم يكتبون منه هذه التقولات الزور ؟ فما لهذا الغيب – إذن – يغيب عن العدل المعقول ، وواجبه الحفاظ على المعقول وتوجيهها إلى المعقول ؟.. كلا فلا شهود يفيدونهم ولا غيب يشهد لهم ، وهم على حالهم المزرية صامدون في التكذيب ، ثابتون على التأنيب ، فلا سلاح يكافحون به إلا الصبر لحكم الله ان يكفيك بأسهم وتعسهم :

**« فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت. إذ نادى ربه وهو مكظوم. لولا ان تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم. فاجتباه ربه فجعله من الصالحين »:**

يا حامل الرسالة الخالدة، عليك ان تصبر في بلاغها، صبراً صامداً، دون فشل ولا فرار عمن ارسلت إليهم مهما كلف الأمر، فاثبت حتى يأتيك امر الله وانت صامد وهم فاشلون « ولا تكن كصاحب الحوت »: ولا كأي من حملة الرسالات الذين غُلبوا على أمرهم وقل صبرهم، فهذه وأمثالها من تجارب مضت في الأدوار الرسالية وحقولها، إنها لك زاد ورصيد، لتكون انت صاحب الحصاد الأخير، والزاد والرصيد الأخير، فتعينك على العبء الثقيل الكبير في هداية البشرية جمعاء، في كافة القرون والأجيال، نبراساً تنير به الدرب على المستنيرين، ومتراساً تكافح به المتخلفين.

فلقد حمل صاحب الحوت – يونس بن متى – رسالة جزئية مؤقتة إلى قوم خصوص، فلم يتحمل أذاهم، وانكفأ اناء صبره فدعى عليهم وخرج من بينهم فحبسه الله في بطن الحوت، لماذا هذه العجلة في ترك الرسالة، والمرسل إليهم؟ وكما يروى عن الرسول الأقدس (ص) قوله:

« كان رجلا تعتريه الحدة، وكان قليل الصبر على قومه والمداراة لهم، عاجزاً عما حمل من ثقل أوتار النبوة وأعلامها، وانه يتفسخ تحتها كما يتفسخ البعير تحت حمله .. »[1].

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٣٩٧ في تفسير العياشي عن ابي عبيدة الحذاء عن ابي جعفر (ع) كتب امير المؤمنين (ع) قال: حدثني رسول الله (ص) ان جبرائيل حدثه ان يونس بن متى بعثه الله الى قومه وهو ابن ثلاثين سنة، وكان رجلا تعتريه الحدة وكان قليل الصبر على قومه والمداراة لهم، عاجزا عما حمل من ثقل حمل اوتار النبوة وأعلامها، وانه يتفسخ تحتها كما يتفسخ البعير تحت حمله، وانه اقام فيهم يدعوهم الى الايمان

وإلى تفصيل حاله في بعثته ورسالته : « وان يونس لمن المرسلين. إذ أبق إلى الفلك المشحون . فساهم فكان من المدحَضين . فالتقمه الحوت وهو مليم . فلولا انه كان من المسبحين. للبث في بطنه إلى يوم يبعثون. فنبذناه بالعراء وهو سقيم.

---

بالله والتصديق به واتباعه ثلاثا وثلاثين سنة ، فلم يؤمن به ولم يتبعه من قومه الا رجلان ، اسم احدهما روبيل والآخر تنوخا ، وكان روبيل من اهل بيت العلم والنبوة والحكمة ، وكان قديم الصحبة ليونس بن متى من قبل ان يبعثه الله بالنبوة ، وكان تنوخا رجلا مستضعفا عابدا زاهدا منهمكا في العبادة ، وليس له علم ولا حكم ، وكان روبيل صاحب غنم يرعاها ويتقوت منها ، وكان تنوخا رجلا حطابا يحتطب على راسه ويأكل من كسبه ، وكان لروبيل منزلة من يونس غير منزلة تنوخا لعلم روبيل وحكمته وقديم صحبته . فلما راى ان قومه لا يجيبونه ولا يؤمنون ضجر وعرف من نفسه قلة الصبر ، فشكا ذلك الى ربه ، وكان فيما شكى ان قال : يارب انك بعثتني الى قومي ولي ثلاثون سنة فلبثت فيهم ادعوهم الى الايمان بك والتصديق برسالتي واخوفهم عذابك ونقمتك ثلاثا وثلاثين سنة فكذبوني ولم يؤمنوا بي وجحدوا نبوتي واستخفوا برسالتي وقد توعدوني وخفت ان يقتلوني ، فانزل عليهم عذابك فانهم قوم لا يؤمنون ، فأوحى الله الى يونس : ان فيهم الحمل والجنين والطفل والشيخ الكبير والمرأة الضعيفة والمستضعف المهين وانا الحكم العدل سبقت رحمتي غضبي لا اعذب الصغار بذنوب الكبار من قومك ، وهم يا يونس عبادي وخلقي وبريتي في بلادي وفي عيلتي ، احب ان اتأناهم وارفق بهم وانتظر توبتهم ، وانما بعثتك الى قومك لتكون حيطا عليهم تعطف عليهم سخاء الرحمة الماسة منهم ، وتتأناهم برحمة النبوة ، فاصبر معهم بأحلام الرسالة ، وتكون لهم كهيئة الطبيب المداوي ، العالم بمداواة الدواء ، فخرجت بهم ولم تستعمل قلوبهم بالرفق ، وتسسهم بسياسة المرسلين ، ثم سالتني مع سوء نظرك العذاب لهم عند قلة الصبر منك ، وعبدي نوح كان اصبر منك على قومه واحسن صحبة واشد تأنيا في الصبر عندي ، وابلغ في العذر ، فغضبت له حين غضب لي ، واجبته حين دعاني ، فقال يونس : يارب انما غضبت عليهم فيك ، وانما دعوت عليهم حين عصوك ، فوعزتك لا انعطف عليهم برأفة ابدا ، ولا انظر اليهم بنصيحة شفيق بعد

وأنبتنا عليه شجرة من يقطـين . وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون . فآمنوا فمتعناهم إلى حين » (٣٧ : ١٤٨) «وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات ان لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت مـن الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين » ( ٢١ : ٨٨ ) .

إنه أبق إباق العبد من مولاه،أبق من تكميل الرسالة وتتميم الدعوة، مغاضباً مع قومه ، فظن ان لن يقدر الله : يضيق الله :عليه في هذا الاباق ، فساهم فكان من المدحضين ، فالتقمه الحوت وهو مليم نفسه أن كان من الظالمين : المتقصين في بلاغ الرسالة، ولولا ان تداركه من ربه نعمة التسبيح للبث في هذا السجن إلى يوم يبعثون ، فنبذه بالعراء لما سبح ، وأرسله ثانية إلى قومه : إلى مـائة الف أو يزيدون ، فآمنوا فمتعهم الله إلى حين : « فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين » ( ١٠ : ٩٨ ) .

« **فاصبر لحكم ربك** » : حكم الاستقامة في الدعوة : « فاستقم كما امرت ومن تاب معك » ( ١١ : ١١٢ ) « فاصبر كما صبر اولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم » ( ٤٦ : ٣٥ ) : هذا — وحكم الله في هؤلاء الماردين يوم الدنيا ويوم الدين ،

---

كفرهم وتكذيبهم اياي ، وجحدهم نبوتي ، فانزل عليهم عذابك فانهـم لا يؤمنون ابدا ، فقال الله : يا يونس انهم مائة الف او يزيدون من خلقي، يعمرون بلادي ، ويلدون عبادي ، ومحبتي ان اتأناهم للذي سبق من علمي فيهم وفيك وتقديري وتدبيري غير علمك وتقديرك ، وانت المرسـل وانـا الرب الحكيم ، وعلمي فيهم يا يونس باطن في الغيب عندي لا تعلم منتهاه، وعلمك فيهم ظاهر لا باطن له ، يا يونس قد اجبتك الى ما سالت ، انزل العذاب عليهم وما ذلك يا يونس باوفر لحضك عنـدي ولا احمـد لشانـك وسيأتيهم العذاب في شوال يوم الاربعاء وسط الشهر بعد طلوع الشمس فاعلمهم ذلك فسر يونس ولم يسؤه ولم يدر ما عاقبته .

اقول : وفيه ان الله رفع عنهم العذاب لما آمنوا ، وسجن يونس في بطن الحوت وكما في الآية « لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي » (١٠ :٩٨).

يوم في حريق الحروب كما كان حينها منذ الهجرة، ويوم في حريق النار يوم القرار ولا فرار!

«ولا تكن كصاحب الحوت»: يونس صاحب السجن الحي السابح في اليم، «إذ نادى ربه» فيه «وهو مكظوم»: مكظوم الغضب عن قومه لما عرف خطأه في التعجيل، وتركه واجب التأجيل «لولا أن تداركه نعمة من ربه»: أن كظم غيظه وغضبه، ووفقه للتوبة والتسبيح «لنبذ بالعراء وهو مذموم» ولكنه سبح ربه وتاب فنبذ بالعراء وهو ممدوح، فلقد كان بانتظاره عذاب دائب يوم الدنيا: «ولولا انه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون» دون نبذ بالعراء مذموماً أو ممدوحاً، لو انه ترك كل الواجب قديماً وفي السجن، ولكنه كان من المسبحين هنا وهناك، ولقد نجاه تسبيحه أن نبذ بالعراء، وكان يبقى عليه الذم لو لم يكمل التسبيح بما أنعم عليه ربه من الاعتراف بالظلم، ومن التوبة النصوح، وكظم الغيظ، فنبذ بالعراء ممدوحاً «فاجتباه ربه وجعله من الصالحين»: لتكميل الرسالة: «فنبذناه بالعراء وهو سقيم. وأنبتنا عليه شجرة من يقطين. وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون. فآمنوا فمتعناهم إلى حين» (٣٧ : ١٤٨).

**«وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون وما هو إلا ذكر للعالمين»:**

الإزلاق هو إزلال القدم حتى لا يستقر على الأرض، والإزلاق بالبصر كناية عن غاية المقت والابغاض عند النزاع والخصام، كأن هؤلاء الكفار — وعند سماع الذكر الذي لزامه التذكير — كأنهم من كثرة بغضهم يكادون ليستفزوه من الأرض بأبصارهم الحاقدة، وليمسوا من كرامته بألسنتهم الناقدة: «ويقولون إنه لمجنون» رغم أن كيانه ذكر العالمين «وما هو إلا ذكر للعالمين» وهل يعقل انه بنعمة ربه مجنون، وهم بنقمته عقلاء، فما لهم كيف يحكمون؟

ثم وهل للعين تأثير عفوي ، دون محاولة خارجية فيما يراد ؟ علّه يكون أحياناً ، ولكنه لغير المؤيدين المدركين بالعصمة الإلهية ، فقد كاد الكفار ليزلقوه ولن يزلقوه ، حيث العصمة الإلهية ترقب الرسول الأقدس عن كل محاولة تمس من كيانه الرسالي، مهما كادوا له كيداً ومادوا عليه ميداً، وكادوا ليزلقوه بأبصارهم، فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين !

هذا كله ، رغم أن : « العين حق »[١] و « العين تدخل الرجل القبر والجمل القدر »[٢] و « أكثر من يموت بعد قضاء الله وقدره بالعين »[٣] ، كما يروى عن الرسول الأقدس (ص) تأثيرات نفسانية سيئة تبتدىء بالعين ، وكما لسائر المحاولات الشريرة آثار ، إلا أن يشاء الله غيره « وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله » !

« ويقولون » قولتهم الكافرة المجنونة : « إنه لمجنون » فهل لأنه لا يمشي بمشاهم ولا يهوى هواهم ؟ « وما هو » : قرآن محمد ومحمد القرآن « إلا ذكر للعالمين » : كل العالمين مهما كانوا في هذه المعمورة أم سواها من كواكب عامرة ، فالعالمون العقلاء هم المعنيون بهذا الذكر ، ولكي يعقلوا عنه الكثير الكثير من متطلبات الحياة العقلية ، ويرفضوا به الكثير الكثير من خرافات الحياة المجنونة المنفصلة عن وحي السماء .

إنها في هذا الوقت المبكر والضيق المستحكم تعلن عن عالميتها ، دون أن

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٥٨ اخرج البخاري عن ابن عباس ان رسول الله (ص) قال :

(٢) الدر المنثور ٦ : ٢٥٨ اخرج ابو نعيم في الحلية عن جابر ان النبي (ص) قال :

(٣) الدر المنثور ٦ : ٢٥٨ اخرج البزاز عن جابر ان النبي (ص) قال:

تكون هذه الصفة جديدة عليها حين انتصرت في المدينة ، وإنما كانت ثابتة في صلب الدعوة منذ بدأت في أيام مكة الأولى ، وكذلك تستمر إلى الأيام الأخرى ، لو أن حملتها لم يهملوها ويمهلوا أعداءها للنيل منها ، إنها لم تعرضها معارضات من دواخلها وخوارجها ، فإن هذه الدعوة مستمرة مستزادة في ذاتها ومعطياتها .

فمهما تقولوا عليها فرية الجنون ، لكننا العقلاء سوف يعرفون مدى عقلها على تقدم العقل والعلم ، ومدى جنون المفترين عليها الزور !

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

□ □ □

## سورة الحاقة ـ مكية ـ وآياتها اثنتان وخمسون

« بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . ٱلْحَاقَّةُ ١ مَا ٱلْحَاقَّةُ ٢
وَمَا أَدْرَاكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ ٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِٱلْقَارِعَةِ ٤ فَأَمَّا
ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِٱلطَّاغِيَةِ ٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ
عَاتِيَةٍ ٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى
ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُمْ
مِنْ بَاقِيَةٍ ٨ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَٱلْمُؤْتَفِكَاتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ٩
فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ١٠ إِنَّا لَمَّا طَغَى
ٱلْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ ١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا
أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ١٢ .. »

* * *

« الحاقة » : من أسماء القيامة الكبرى ، ذات الدلالة على حقيقتها وحقيتها ، دلالة مزدوجة : بصيغة الفاعل وتاء المبالغة ، حـاقة بالأدلة والآيات الآفاقية

والأنفسية ، حاقة لمن يعرفها بثوابها ، وحاقة على من ينكرها بعذابها ، بأحوالها الواقعة وأهوالها ، وحاقة بكل ما يحق عقلاً وعدلاً في قسطاس الإله العدل المتعال ، تحقق لكلّ عامل سعيه ، خيراً وشراً ، إظهاراً للحق المجهول والمتجاهل عنه يوم الدنيا ، ليوم الدين ، يوم يقوم الناس لرب العالمين .

« ما الحاقة » ؟ سؤال استعظام وإجلال لأمر الحاقة .

« وما أدراك ما الحاقة » ؟ إعظام ثان لأمرها : إنك ـ وأنت الرسول ـ ما كنت تدري ما هي لولا أن الله عرّفك وأدراك بها !

« كذبت ثمود وعاد بالقارعة » : ثمود هم قوم صالح من الثمْد وهو الماء القليل الذي لا مادة له ، فهم وعاد قوم هود ألمن حماقى الطغيان ، وقد كذبتا ـ فيما كذبتا ـ بالقارعة ، القيامة القارعة ، التي تقرع الكون وتدكّه ، تضرب الناس بفنون الأهوال وجنون الأحوال ، والسماء بالإنشقاق والانفطار ، والأرض والجبال بالدك والنسف ، والنجومَ بالطمس والإنكدار ببعضه ، فلما كذّبتا بها حقت عليها القارعة التي تقرعهم بالحق فيما تقرع .

« فأما ثمود فأهلِكوا بالطاغية » : بالصيحة الطاغية « وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في دارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود ( ١١ : ٦٨ ) » وبالرجفة الطاغية « فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين » ( ٧ : ٧٧ ) صيحة ورجفة خلّفتا صاعقة : « .. فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون » ( ٤١ : ١٧ ) « فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون » ( ٥١ : ٤٤ ) .

إنهم أهلكتهم قبلكم الطاغية بطغواهم .. طاغية بطاغية : « كذبت ثمود بطغواها » ( ٩١ : ١١ ) ولقد اختُصِرت تلكم الحادثة هنا ـ في الحاقة ـ بحق الأمر الواقع من العذاب : « الطاغية » فائضاً بالهول المناسب لثورة السورة ، تطويهم طياً ، وتطغى عليهم بما بغوا وطغوا « فهل ترى لهم من باقية » ؟!

« وإنه أهلك عاداً الأولى . وثمود فما أبقى » ( ٥٣ : ٥١ )[1] .

« وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية » : « صرصر » بالغــة في الصّر والبرد ، عاتية : شديدة الهبوب والغَلَب وعلى حدّ تفسير الرسول الأقدس«ص»: «غالبة » [2]، عتت على خزانها . وكما يروى عنه «ص» «: ما خرجت ريح قط إلا بمكيال إلا زمن عاد فانهـــا عتت على خزانها ، فخرجت في مثل خرق الإبرة فأهلكت قوم عاد » [3] كذلك . وعتت في غَلَبها عليهم فلم يجدوا عنها محيصاً ، وعتت عليهم كما عتوا عن أمر ربهم ، عاتيــة في كافة مراحلهــا إلا عُتو البغي ، « وأن الله ليس بظـّلام للعبيد ».

إنها كانت ريحاً عقيماً لا تخلّــف إلا عقم الحياة بفور الممات : « وفي عاد إذ أرسلنـا عليهم الريح العقــيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلتــه كالرّميم » ( ٥١ : ٤٢ ) : « ريح عذاب لا تلقح شيئاً من الأرحام ولا شيئــاً من النبات ، وما خرجت إلا على قوم عاد » [4] .

« سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيهـا صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية » :

هذه الريح الصرصر العاتية العقيم ، سلطت على هؤلاء الأوغاد في مثل هــذه الليالي والأيام الحسوم: حسوماً بصرصرها، إذ حسمت وقطعت وأزالت كافة آثار الطغيان وكما تحسم المكواة بكرورها آثار الفوضى في الثياب ، فقد حسمت الريح الصرصر العاتية فوضويين طغاة مكابرين « فهل ترى لهم من باقية » ؟ .

---

(١) ذكرت ثمود في ٢٦ موضعا من القرآن مع طغاة كامثالهم ، كما ذكرت عاد ٢٤ مرة .

(٢) الدر المنثور ٦ : ٢٥٩ – ابن عباس قال : قال رسول الله(ص) في حديث قال الله تعالى : بريح صرصر عاتية ، قال : غالبة .

(٣) نور الثقلين ٥ : ٤٠١ من لا يحضره الفقيه » قال رسول الله(ص).

(٤) نور الثقلين ٥ : ٤٠١ عن روضة الكافي باسناده الى الباقر (ع)وهو حديث طويل .

وحسوماً بتواصلها في أيامها الحاملة العذاب الصرصر « فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ... » (٤١:١٦) أيام كأنها في تواليها يوم واحد : « إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر » ( ٥٤ : ٢٠ ) .

« فترى القوم فيها صرعى » : في هذه الأيام النحسات، وفي صرصرها العاتية تراهم ميتين في مصارعهم « كأنهم أعجاز نخل خاوية » : خالية جوفاء ملقاة على أعجازها . كـ « نخل منقعر » : والنخل الخاوية الأعجاز ، المنقعرة المصرومة ، أشبه شيء بالموتى الصرعى .

« فهل ترى لهم من باقية » : لا حاضراً إذ لا خبر واقع عنهم ، إلا باقية باغية مزرية ، ولا غابراً إذ لم تبق لهم حتى جثثهم : والريح الصرصر العقيم هي التي جعلتهم مندثرين ، إما قذفاً لأجسادهم أو رمادهم في اليم ، أو نثرها عبر الهواء. « فهل ترى لهم من باقية » ؟ كلا : لا نفوس باقية ولا آثار من جثثهم الجهنمية ، فقد اجتثوا من جذورهم ، بأنفسهم ونفائسهم : « فأصبحوا لايرى إلا مساكنهم» ( ٤٦ : ٢٥ ) ، فلم يبق منهم من يتحدث عنهم ولا حتى قبورهم اللهم إلامساكنهم الخالية الخاوية .. فياله من تعبير عديم النظر يرسم لنا مشهد التدمير كأننا الآن نشهده ، فهنا عاصفة مزمجرة،وهناك ضحايا الزمجرة ، صرعى كأنهم اعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية ؟ .

**« وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية » .**

« وجاء فرعون » موسى « ومن قبله » من فراعنة التاريخ بهوامش الضلالة : « وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية واعتدنا للظالمين عذاباً أليماً. وعاداً وثمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً. وكلا ضربناله الأمثال وكلا تبرنا تتبيراً » ( ٢٥ : ٣٩ ) .

وجاءت «المؤتفكات»: الأقوام المفترية على الله ورسله، كقوم لوط وأضرابهم.
جاؤا « بالخاطئة » : الحيـــاة الخاطئة ، بالأفكار والتصرفات الخاطئة ، خطأ متعمداً في حياة جهنمية مريرة .

« فعصوا رسول ربهم » : كتلة الضلالة عصت كتلة الهداية التي تجمعها رسالة إلهية واحدة ، ولأنهم أجمع من إله واحد ، وباتجاه واحد ، مهما اختلفت فروع جزئية من شرائعهم صوريا لا جذريا ، لا فحسب أنهم واحد ، بل وأمتهم أيضاً واحدة : « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بمـا تعملون عليم . وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون . فتقطعوا أمرهم بينهـم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون » ( ٢٣ : ٥٣ ) ، فشخصية الرسل واحدة ، وشخصيـة الأمم التابعة لهم صدقا واحدة ، مهما كان الأشخاص والامم عـدة ، فتكذيب رسول واحد تكذيب للرسل أجمع ، لأنه تكذيب للرسالة الإلهيـة : « لا نفرق بين أحد من رسله » في الاتجاه نحو إله واحد ، ولقد كان نتيجـــة تكذيب تلك الاقوام الرسالة الإلهية هي الأخذة الرابية :

« فأخذهم أخذة رابية » عالية ضامرة غامرة تربو على قبيح أعمالهم : « أخذاً وبيلا » ( ٧٢ : ١٦ ) « إن أخذه أليم شديد » ( ١١ : ١٠٢ ) كيف لا ! وهو «أخذ عزيز مقتدر » .

أجل ــ وانها أخذة تعلوهم كما استعلوا وعتوا عن أمر ربهـم ، دون أن تربو على عتوهم « إن الله ليس بظلام للعبيد » فقد ينقص العذاب عن الاستحقاق دون أن يربو عليه ، وإنما الثواب هو الذي يربو على الاستحقاق . بل ولا استحقاق.. إلا مغفرة من الله وفضلا .

« إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية . لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية»

لقد طغا الماء في طوفان نوح عليه السلام في طمو أمواجه وارتفاع أثباجه كالرجل الطاغي الذي علا متجبراً ، وشمخ متكبراً ، طغا الماء على الطغاة ، وكثر على ضبّاطه وخزانه ، فلم يضبطوا مدى الخارج منه كثرة .

فكيف طغا الماء ؟ وما هي الجارية ؟ وكيف حملتنا ولم نكن وقتئذ وإنما كان أجدادنا ؟ .

طغا الماء كما أراد الله : « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر . ولقد تركناها آية فهل من مدكر » (٥٤ : ١١).

ولقد سميت سفينة نوح بالجارية لأنها كانت تجري في اليم المحيط ، وتسمى السفن جواري : « وله الجواري المنشآت في البحر كالأعلام » (٥٥ : ٢٤) .

وأما كيف حملتنا ؟ إنها حملتنا ونحن ذرية في اصلاب آبائنا المحمولين فيها ، فقد حُملنا بما حملوا ، رحمة مزدوجة من ربنا : لنا ولهم ، فكما يمنّ عليهم كذلك علينا وأحرى إذ حملنا ولم نكن شيئاً مذكوراً ، إلا ذرية ، وهو آية للرحمة والقدرة الإلهية : « وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون » (٣٦ : ٤١) فليست «ذريتهم» ـ وهم الموجودون حين نزول الآية ـ إنها ليست أبناءهم، كيف ولم يكونوا موجودين وقتذاك فضلاً عن أولادهم ، ولا أجدادهم ، لأنهم ليسوا ذرية في أية لغة واصطلاح ، وإنما « ذريتهم » هم أنفسهم إذ كانوا ذرية ( اضافة الشيء إلى نفسه اعتباراً بالحالة المسبقة ) كما يقال : نطفتك ـ ميتتك ـ جيفتك ، والمعنى فيها « أنت حينما كنت نطفة ، وحين تكون ميتة وجيفة » كذلك الحال في « ذريتهم » فهم أنفسهم إذ كانوا ذرية في أصلاب آبائهم ، ولئن كان هذا المعنى خفياً في البداية ، فقرينة آية الجارية : « حملناكم في الجارية » وكذلك نفس آية الذرية [1] ، فيها الكفاية التامة لحصر معناها في إضافة الذرية إلى نفسها : « ذريتهم » حملناهم إذ كانوا ذرية ، وما أحسنه تعبيراً عن الحالة المسبقة الضئيلة للانسان ، ولكي يتنبه نعمة الله عليه إذ لم يكن شيئاً مذكوراً .

---

(١) إذ لا يمكن أن يراد منها الابناء والاجداد .

« لنجعلها لكم تذكرة » : لنجعل الجارية التي حملتكم في أصلاب أجدادكم ، نجعلها لكم تذكرة : تذكرة في نعمتها لحملكم ، وتذكرة في جريانها عبر التاريخ بآثارها الخالدة وأنقاضها الباقية بعد جريانها عبر البحر المحيط : « ولقد تركناها آية فهل من مدّكر » ( ٥٤ : ١٥ ) : إذ ظلت باقية حتى الآن : « فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين » ( ٢٩ : ١٥ ) وبما يحملها من بشارة :

فهي آية في أنقاضها ، وآية في الآيات المكتوبة عليها باللغة السامانية التي تصرح باسم الخمسة الطاهرين من أهل بيت الرسالة المحمدية « محمد (ص) . علي . فاطمة . الحسن . الحسين عليهم السلام » وكل ذلك واقع ، فالسفينة آية في غابرها وحاضرها ، في أنها نجاة للمؤمنين من قوم نوح ولذريتهم في الحياة الجسدانية إذ أنجتهم من الغرق ، وفي الحياة الروحانية إذ حملت بشارة الغيب : أسماء الطيبين الذين أقسم بهم نوح ( ع ) حتى نجاه الله من الغرق .

سفينة نوح والبشارة المحمدية على أنقاضها :

« في تموز ١٩٥١ عثر على قطع متناثرة من أخشاب قديمة متسوسة وبالية ، اكتشفها جماعة من العلماء السوفييت المختصين بالآثار القديمة ، إذ كانوا ينقبون في منطقة بوادي قاف ، مما دعاهم إلى تنقيب أكثر وأعمق ، فوقفوا على أخشاب أخرى متحجرة وكثيرة كانت بعيدة في أعماق الأرض ، ومن بينها عثروا على خشبة مستطيلة الشكل طولها ١٤ سنتيمترا وعرضها ١٠ ، سببت دهشتهم واستغرابهم ، إذ بقيت سليمة غير متناثرة بين الأخشاب الأخرى ! .

وفي أواخر ١٩٥٢ أكمل التحقيق حول هذه الآثار الغريبة ، فتبين أن اللوحة وسائر الأخشاب هي أنقاض سفينة نوح ( ع ) التي استوت على الجودي حسب القرآن ، وقد ظلت عليها حتى القرن الحاضر .

وقد شوهد على هذه اللوحة بعض الحروف التي تعود إلى أقدم اللغات ، وللكشف عنها ألفت الحكومة السوفييتية لجنة قوامها سبعة من علماء اللغات

القديمة [١] وبعد ثمانية أشهر من الدراسة لهذه اللوحه والكتابة المنقوشة عليهـا ، أجمعوا أنها من نفس الخشب الذي صنعت منه سفينة نوح ( ع ) وأنه وضعها في السفينة للتبرك والاستحفاظ بعد أن تحققوا أن‌تلك الحروف كانت باللغة السامانية أو السامية : لغة نوح ( ع ) وقد ترجمها العلماء الروس المعنيون باللغات القديمـة إلى اللغة الروسية ، ثم العالم البريطاني ( اين ايف ماكس ) أستاذ الألسن القديمـة في جامعة ( مانشستر ) ترجمها إلى الانجليزية [٢] ، وهي بالعربية :

(١) وهم : سولي نوف ـ استاذ الالسن القديمة في جامعةموسكو ، و ( ايفاهان خنيو ) عـالم الالسن القديمة في كليـة لولوهان بالصين ، و ( ميشانن لوفارند ) مدير الآثار القديمة ، و ( تانمول غورف ) استـاذ اللغات في كلية كيفزو ، و ( دي واكن ) استاذ الاثار القديمة في معهـد لينين ، و ( ايم احمـد كولاد ) مـدير التنقيب والاكتشافات العـام ، و ( ميجركولتوف ) رئيس كلية ستالين » نقلتهم مجلة البذرة النجفيـة في العددين : الثاني والثالث ـ شوال وذي القعدة :

٢ ) ترجمتها باللغة الانجليزية كالتالي :

| | |
|---|---|
| يا الهي ويا معيني | O my God my helper |
| برحمتك وكرمك ساعدني | Keep my hands with mercy |
| ولاجل هذه النفوس المقدسة | And with your holybodies |
| محمد | Mohamed |
| ايليـا | Alia |
| شبر | Shabbar |
| شبير | Shabbir |
| فاطمة | Fatma |

They are all biggest and honourables

هم جميعهم عظماء ومكرمون

The world established for them

العالم قائم لاجلهم

ساعدني بحق اسماءهم

Help me by their names you can reform to right.

انت تستطيع ان توجهني الى الطريق الصحيح .

يا إلهي ويا معيني ، برحمتك و كرمك ساعدني ، ولأجل هذه النفوس المقدسة محمد – ايليا – شبر – شبير – فاطمة . الذين جيمهم عظماء ومكرمون ، العالم قائم لأجلهم . ساعدني بحـــق أسمائهم ، أنت تستطيع أن توجهــني إلى الطريق الصحيح .

ولقد بقي هولاء العلماء في دهشة عظيمة أمام هذه اللوحة باسمائها حيث توسل بها نوح وبقيت حتى الآن ، واقع التصديق للقرآن « وجعلناها آية للعالمين » ، وهذه اللوحة موجودة الآن في متحف الآثار القديمة في موسكو وفي خبر أن المسلمين رأوها من ذي قبل (١) .

ولما اكتشفت هذه البشارة المحمدية نشرتها المجلات والجرائد المهمة العالميــة : الروسية والبريطانية والقاهرية(٢) .

وإليكم صورة اللوحــة الفوتوغرافية باللغـــة الآرامية كما نشرت في الجرائد والمجلات وبعض الكتب ككتاب ايليا ، وأصل اللوحة موجودة الآن في متحف الآثار القديمة في موسكو :

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٦٠ : عن قتادة في الآية قال : عبرة وآيــة ابقاها الله حتى نظرت اليها هذه الأمة ، وكم من سفينة غير سفينــة نوح صارت رمما » .

(٢) –١– مجلةروسية شهرية تصدر في موسكو تشرين الثاني ١٩٥٣، ٢– مجلة ( ويكلي ميرر ) الاسبوعية اللندنية العدد الصادر ٢٨ كـانون الاول ١٩٥٣ ، ٣ مجلة ( استار ) اللندنية ، كانون الثاني ١٩٥٤ – ٤جريدة ( سن لايت ) الصادرة في مانجستر ٢٣ كانون الثاني ١٩٥٤ ، ٥– جريدة ( ويكلي ميرر ) اللندنية في ١ شباط ١٩٥٤ ، ٦ جريدة ( الهدى)القاهرية في ٣٠ مارس ١٩٥٣ » والمصادر الاربعــة الاخيرة نقلت ترجمة العالــم البريطاني ( ان اف ماكس ) استاذ الالسن القديمة في جامعة مانجستر. ٧ ومن المصادر كتاب ايليا من منشورات دار المعارف الاسلامية بلاهور باكستان برقم ٤٢ – اللغة الاردية .

وقد ترجمت كما سبق كالتالي :

« يا إلهي ويا معيني ، برحمتك وكرمك ساعدني ، ولأجل هذه النفوس المقدسة : محمد – إيليا – شبر – شبير – فاطمة ، الذين جميعهم عظماء ومكرمون العالم قائم لأجلهم ، ساعدني بحق أسمائهم ، أنت فقط تستطيع أن توجهني إلى الصواب .

ولقد سبق نوحا ادريس النبي عليه السلام في ذكر أسمائهم باللغة السريانية « بارقليطا – ايليا – طيطه – شبر – شبير » [١] .

(١) التفصيل في كتابنا ( رسول الاسلام في الكتب السماوية ) .

« لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية » الأذن التي تعي الحقائق الناصعة إنها تعي آية سفينة نوح ، بما على لوحتها من آيات ، وأوعى الآذان آذان النبيين ، وأوعاها بينهم جميعاً أذن الرسول الأقدس محمد ﷺ . فحياته وعي للحقائق دون نسيان ، ويخلفه في وعيه الشامل أذن علي عليه السلام . وعلى حد قوله (ص) لما نزلت آية الأذن ، « سألت ربي أن يجعلها أذن علي قال مكحول فكان علي يقول : ما سمعت من رسول الله (ص) شيئاً فنسيته » [١] وعن علي ( ع ) : ضمني رسول الله (ص) وقال : أمرني ربي أن أدنيك ولا أقصيك وأن تسمع وتعي [٢]

« فإذا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ١٣ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ١٥ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ١٦ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ١٧ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ١٨ »

« فاذا نفخ في الصور نفخة واحدة » هي الأولى من نفختي الإماتة والإحياء والواحدة توحي بنفاذها وسرعتها وشدة مفعولها دون مهل ولا فشل، نفخة وصرخة تسمع أعماق الكائنات وتصرعها وتمحقها كأن لم تكن ، وعلى أثر هذه النفخة المدمرة :

« وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة » : نفخة واحدة تخلق دكة واحدة ، واحدة في عدها ، مزدوجة في شدها ومدها : « كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً » ( ٨٩ : ٢١ ) : يسمع منها صوت الدكداك : أشد الدق الذي يسحق ويبدل الشيء إلى أجزاء دقاق كالدقيق .

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٦٠ ، وقد اخرج في غاية المرام ستة عشر حديثا مثله عن طريق الفريقين .

(٢) رواه ابو نعيم في الحلية والواحدي في اسباب النزول عن بريدة وابو القاسم بن حبيب في تفسيره عن زر بن حبيش عن علي (ع) ورواه في تفسير روح البيان ج ١٠ ص ١٣٦ .

« فيومئذ وقعت الواقعة » : واقعة الاماتة والتدمير وتتلوها واقعة الإحياء والتعمير ، ومن الأولى : « وانشقت السماء فهي يومئذ واهيـــة .. ومن الثانية : « يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية » اعتبرت الثانية كأنها الأولى أو من الأولى لاتصالها : « يومئذ » إذ دكت الأرض والجبال ووهت السماء .

« وانشقت السماء فهي يومئذ واهية » : مسترخية بشد رباطها بعـــد شد قماطها ، فلقد كانت سبعاً شداداً : « وبنينا فوقكم سبعــاً شداداً » (٧٨ – ١٢) فهذه السبــع الشداد سوف تسترخي وتوهى : « يوم تبدل الأرض غــير الارض والسماوات» (١٤:٤٨) تصبح السماء غير السماء مغايرة في الصورة والماهية ، والمادة الاصلية هي نفس المادة ، بانقلابها وانسلاخها عن ناموس العيار الى ناموس البوار .

« والملك على ارجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية »

إن الملك ـ عند انفراط الكون وتغيره بأرضه وسمائه ـ يخرج عن ميدان النضال الموت إلى الأرجاء : الجوانب ، فراراً من الموت ، إلى تحقيق أمر الله ، بأمر الله ولعلهم ملائكة خصوص ممن شاء الله . إذ يصعق وقتئذ من في السماوات ومن في الأرض : « .. والأرض جميعاً قبضته يوم القيـــامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون . ونفخ في الصور فصعـــق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيــام ينظرون » ( ٢٩ : ٦٨ ) فعلهم هـــؤلاء الخصوص الذين شاء الله ألا يصعقوا ، ولاسيما إذا كان « الملك على أرجائها » حالاً من انشقاق السماء ووهيها ! ويؤيده المروي عن النبي (ص)[1] أو علهم كمن سواهم ممن هم قيام ينظرون في نفخة الإحيــاء ، ولكنه يبقى الـسؤال : لماذا على الأرجاء ؟ أقول : ولكي يُحملوا مع العرش ، يحملهم الثانية « ويحمـــل

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٠٣ عن ارشاد المفيد عن النبي (ص) قـــال : ان الناس يصاح بهم صيحة واحدة فلا يبقى ميت الا نشر ، ولا حي الا مات ، الا ما شاء الله . ثم يصاح بهم صيحة اخرى فينشر من مـــات ...

عرش ربك فوقهم»: الملك الذين هم على الأرجاء «ثمانية»: «الذين يحملون العرش ومن حوله» (٤٠ : ٧) فهم المحمولون مع العـرش، ولكي يساعدوا الحملة في تحقيق أمر الله.

فإذ «ليس في طبقات السماوات موضع إهـاب إلا وعليه ملك ساجد، أو ساع حافد»[١] فكونهم وقتئذ على الأرجاء، وباقي السماء منهم خلاء، ليس إلا أن منهم من صعق في الصيحة فانتهى دوره ومنهم من لحـق حملة العـرش على الأرجاء، وهم ممن شاء الله ألا يصعقوا.

**ما هو العرش هنا ومن هم حملة العرش؟ :**

إن لله عروشاً عدة، منها عرش الخلق والتدبير، ومنها عرش العلم، ومنها كما هنا ـ عرش التربية : جسدانية، ونفسانية روحانية، يعني به أعلى المقامات في أعلى الملإ، يحمله من خلق الله الملأ الأعلى ملائكية وبشرية أم ماذا؟!.

فهو على أية حال ليس عرشاً كعروشنا يتكأ عليه، ثم خلقه يحملونه على عرشه، فيصبح في ازدواجية الحمل : محمولاً مرتين! وإنما العرش خلق من خلق الله يحيط بسائر الخلائق من مصادر الأمر العليـا بشأن الكون، في تدبيره جسدانياً وروحانياً.

فيوم الدنيا، لعرش العـلم الإلهي حمـلة بين الخلق هم النبيون وأهلوهم المعصومون، ولعرش التدبير حملة منهم ومن الملائكة المدبرات أمراً بإذن الله، والله خالقهم وخالق العرش، وهو من ورائهم محيط

لقد ذكر العرش في واحد وعشرين موضعاً من القرآن والكرسي في واحد، منها آيات استوائه تعالى على العرش، حينما كانت المـادة الأولية دون أرض ولا سماء : «هو الذي خلق السماوات والأرض في ستـة أيام وكان عرشه على

---

(١) نهج البلاغة عن علي عليه السلام.

على الماء ( ١١ : ٧ ) ومنها ما في استوائه عليه بعد ما خلق الأرض والسماء : « الرحمن على العرش استوى . له ما في السماوات وما في الأرض وما تحت الثرى » ( ٢٠ : ٦ ) عرش الالوهية والملك المطلق ، ومنها ما يعنى به عرش التدبير : « ثم استوى على العرش يدبر الأمر » ( ١٠ : ٣ ) ومنها عرش العلم : « ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير » ( ٥٧ : ٤ ) .. وما إلى ذلك من عروش تناسب وساحة الالوهية والربوبية ، والحامل الأول والأخير لهذه العروش هو الله تعالى ، وقد يحملها من خلقه من يشاء ، يحملونه باذنه وكما يريد من مصالح الخلق ، وكما في الحملة الثمانية :

آيات ثلاث تحمل ذكر الحملة الثمانية ، ثانيتها : « وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين » ( ٣٩ : ٧٥ ) تعني العرش يوم قيامة الإحياء والحساب .

وآخرها : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم » ( ٥٠ : ٧ ) وهي كذلك تعني يوم الحساب

ثم عرش الحاقة يمتاز بأمور عدة : منها ذكر العدد «ثمانية» ومنها اختصاصهم بيوم الحساب « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » فهل لأنهم أقل منهم يوم الدنيا فزادوا يوم الدين ، أم كانوا أكثر فقلوا ؟

ثم الملائكة الحافون حول العرش ليسوا كلهم حملة ، فمنهم محمولون «الذين يحملون العرش ومن حوله » ولا ان الحملة هم الملائكة فحسب ، كما أن آيتي الحمل لا تختصانه بهم : « الذين يحملون العرش » « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » فمن هم الثمانية ؟ وهل كانوا يوم الدنيا أقل أو أكثر ؟ .

نقول : هنا عرش قبل خلق السماوات والأرض ، وعرش بعدهما يوم الدنيـا وعرش يوم الدين ، كل حسب ما يتطلبه الخلق من حاجاتهم إلى الله فيما يصدر من لدنه تعالى ، ولعل لكل عرش حملة ، وآية الحاقة تصريحة لحملتهيوم الدين «ثمانية» وتلويحة لهم يوم الدنيا ، لا ندري الآن عدتهم .

ثم الثمانية يوم الدين : هل هم أشخاص أم أصناف ثمانية ؟ أم طوائف ثمـان ، تأنيث العدد يوحي أنهم أشخاص ، إذ الطوائف ثمان لا ثمانيـة ! ولابد للاصناف من دلالة زائدة ، وإذا كانوا أصنافا فلا دليل أنهم كلهم حملة العرش .

وبما أن العرش هو المقام العلي الذي ترجع اليه أزمة جميع التدابير التكوينية والتشريعية ، فلتكن فيـه جميع الوقائع والحـوادث ، إلا ما يستثنى لله تعالى ، الخاص بساحة الالوهية والربوبية ، فليس العرش الذي تحمله ثمانية ، هو الذي استوى عليه الرب ، إنما قدر منه يقدر على حمله اصفياء من خلقـه لتحقيق أمره فيكونوا على مستوى عظمة العرش ، ومعنى الحمـل للعرش .

فحملة عرش التربية والعلم هم العلماء الربانيون من الأنبيـاء المرسلين والملائكة الكروبيين، حملة الوحي إليهم ، والمدبرين أمر الخلق بأمره .

وبما أن القيامة فيها خلاصة النشأة الأولى وزيادة ، فليكن حملة العرش فيها أكثر منهم يوم الدنيا ، ويصدّق هذا الإيحاء ، إضافة إلى « يومئـذ » الدال على اختصاص العدد بيوم القيامة ، يصدقه المروي عن الرسول (ص) : « يحمله اليوم

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

أربعة ويوم القيامة ثمانية »[١] وروايات عدة أخرى تحصر الثمانية بيوم القيامة كالمروي عن الصادق عليه السلام قال : حملة العرش – والعرش العلم – ثمانية : أربعة منا وأربعة ممن شاء الله »[٢] لو عني بـ « منا » الحملة البشر ، أو حملته يوم الدنيا .

وبالنسبة لهؤلاء الأربعة لو نظرنا من زوايا عدة إلى نبوات عدة أصيلة كان الأربعة هم «نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد (ص)» فإن موسى والمسيح لم يحملا إلا رسالة واحدة هي التورات ، فهما إذاً واحد[٣]!

ولو نظرنا إلى القمة المقسّمة على حملتها في الرسالة المحمدية الشاملة للرسالات كلها ، المضيئة عليها كلها ، كان الأربعة هم « محمد وعلي والحسن والحسين »[٤] وعلى أية حال هؤلاء هم حملة العلم والتربية الإلهية تحقيقاً وجزاء .

وعن الإمام أمير المؤمنين علي (ع)[٥] : إذ سأله الجاثليق فقال: اخبرني عن الله عزوجل

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٦١ – ابن جرير عن ابن زيد قال : قال رسول الله (ص) : وفي التفسير الكبير ( ج ٣٠ ص ١٠٩ ) عن النبي (ص) : «هم اليوم اربعة فاذا كان يوم القيامة ايدهم الله باربعة آخرين فيكونون ثمانية».

(٢) نور الثقلين ٥ : ٤٠٦ عن الصادق (ع) .

(٣) راجع كتابنا « المقارنات العلمية وتفسير سورة الجن في هذا الجزء » .

(٤) نور الثقلين ٥ : ٤٠٦ عن تفسير القمي قال: حملة العرش ثمانية: اربعة من الاولين واربعة من الاخرين ، فاما الاربعة من الاولين فنوح وابراهيم وموسى وعيسى ، واما الآخرون فمحمد وعلي والحسن والحسين ، ومعنى يحملون يعني العلم .

(٥) نور الثقلين ٥ : ٤٠٥ – عن اصول الكافي عدة من اصحابنا عن

يحمل العرش أو العرش يحمله ؟ فقال : الله عز وجلّ حامل العرش والسماوات والأرض وما فيها وما بينها وذلك قول الله عز وجلّ : « إن الله يمسك السماوات والأرض ان تزولا ولئن زالتا إن أمسكها من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً» قال : فأخبرني عن قوله « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية : فكيف ذاك؟ وقلت : إنه يحمل العرش والسماوات والأرض ! فقال أمير المؤمنين عليه السلام : « إن العرش خلقه الله من أنوار أربعة : نور أحمر منه احمرت الحمرة ونور أخضر منه اخضرت الخضرة ، ونور أصفر منه اصفرت الصفرة ، ونور أبيض منه ابيض البياض ، وهو العلم الذي حمّله الله الحملة ، وذلك نور من نور عظمته . فبعظمته ونوره أبصر قلوب المؤمنين، وبعظمته ونوره عاداه الجاهلون، وبعظمته ونوره ابتغى من في السماوات والأرض من جميع خلائقه إليه الوسيلة بالأعمال المختلفة ، والأديان المتشتتة ، فكل شيء محمول يحمله الله بنوره وعظمته وقدرته، لايستطيع لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياتاً ولا نشوراً ، فكل شيء محمول والله تبارك وتعالى الممسك لهما ان تزولا : والمحيط بهما من شيء ، وهو حياة كل شيء ونور كل شيء ، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً، قال له فأخبرني أين هو ؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام هو هيهنا وهيهنا وفوق وتحت ومحيط بنا ومعنا وهو قوله : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا » فالكرسي محيط بالسماوات والأرض وما بينها وماتحت الثرى ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ، وذلك قوله : « وسع كرسيه السماوات والأرض ولايؤده حفظها وهو العلي العظيم » فالذين يحملون العرش هم العلماء الذين حمّلهم الله علمه، وليس يخرج عن هذه الأربعة شيء خلقه الله في ملكوته ، وهو الملكوت الذي

---

احمد بن محمد البرقي رفعه قال: سال الجاثليق امير المؤمنين (ع) فقال له : اخبرني عن قوله : « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » فكيف قال ذاك ، وقلت : انه يحمل العرش والسماوات والارض ! قال (ع) :...

أراه الله اصفياءه وأراه خليله فقال : « و كذلك نري ابراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين » وكيف يحمل حملةُ العرش اللهَ ؟ وبحياته حييت قلوبهم ، وبنوره اهتدوا إلى معرفته » .

اقول : علّ الاركان الثلاثة الأول هي مقـادير التقدير والتدبير والإبرام في سائر الكائنات تكوينا ، والركن الرابع هو زاوية العـلم : تشريعاً وتكويناً وما أشبهها .

ثم الأربعة الآخرون يوم القيامة ، علهم من الملائكة الكروبيين بالخصوص ، اوانهم هم لاسواهم ، إذ لو كانوا من الحملة يوم الدنيا لانتفى دورهم يوم الدين !

وهؤلاء المكرمون الثمانية – ايا كانوا – هم فوق الخـلائق أجمع ، ويحملون عرش الرب فوقهم اجمع : « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » .

وعلهم – كما احتملنا مسبقاً – ثمانية صفوف أو صنوف ، فلتشمل كافة حملة الرسالات الإلهية ، وحملة أمر الله تعالى : يوم الدنيـا ويوم الدين ، منقسمين إلى صفوف أو صنوف ثمانية ، وانما ذكرت الروايات اولي العزم من الرسل لأنهم القمة فيما يحَمّلون ، والائمة فيما يحمِلون .

وأخيراً ما أروعه وأعمقه حديثاً عن العرش يروى عن الصادق عليه السلام ، إذ يسأله حنان بن سدير عن العرش والكرسي فقـــال : ان للعرش صفات كثيرة مختلفة ، له في كل سبب وضع في القرآن صفة على حدة ، فقوله : « رب العرش العظيم » يقول : رب الملك العظيم ، وقوله: « الرحمان على العرش استوى » يقول: على الملك احتوى ، وهذا علم الكيفوفية في الأشياء ، ثم العرش في الوصل مفرد عن الكرسي لانهما بابان من أكبر أبواب الغيوب ، وهما جميعاً غيبان ، وهما في الغيب مقرونان ، لأن الكرسي هو الباب الظاهـــر من الغيب الذي منه مطلع البدع ، ومنها الأشيـاء كلها ، والعرش هو الباطن الذي يوجد فيه علم الكيف والكون والقدر والحد والأين والمشية وصفة الإرادة وعلم الالفـاظ والحـركات والترك وعلم العدد والبدء ، فهما في العـلم بابان مقرونان ، لأن ملك العرش سوى

ملك الكرسي، وعلمه اغيب من علـم الكرسي فمن ذلك قال : «رب العرش العظيم» ، أي : صفته أعظم من صفة الكرسي ، وهما في ذلك مقرونان ، قلت: جعلت فداك ، فلم صار في الفضل جار الكرسي ؟ قال عليه السلام : إنه صار جاره لأن علم الكيفوفية فيه وفيه الظاهر من أبواب البداء وأنيتها وحد رتقها وفتقها ، فهذان جاران احدهما حمل صاحبه في الصرف ، وبمثل صرف العلماء، وليستدلوا على صدق دعواهما ، لانه يختص برحمته من يشاء وهو القوي العزيز[1] .

«**يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية**» : تعرضون على الله بشهود الأعمال، عرضاً حاضراً حاذراً مشهوداً ، بعد ما كنتم معروضين عليه يوم الدنيـــا غير مشهود، ثم ذلك عرض للحساب ، وهنا عرض العلم ، وفي ذلك العرض الشهادة الحساب «لا تخفى منكم خافية» : خافية النيات والعقائد والاعمال والسرائر ، مهما حاولتم في اخفائها ، إخفـــاء عن الله ؟ كلا ! «وعرضوا على ربك صفا» ( ١٨ : ٤٨ ) «يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء» (٤٠ : ١٦) بارزون لأنفسهم وسواهم ، فكيف يخفى على الله منهم شيء ، ولا تخفى عليه خافية ! .

وما أخطره هول المطلع والعرض وما أفظعه وأصعبه ، ألا إنه ليوم عصيب أصعب من دك الأرض ومور السماء : وقوف الانسان عريان الجسد ، عريان النفس ، عريان الضمير ، عريان الحاضر والغابر ، عريان الآمال والاعمال ما ظهر منها وما استتر ، أين ؟ امام تلك الحشود الهائلة من خلق الله ، وامام عظمة الله وجـــلاله ! ألا انه حقاً لأمرٌ أمرٌّ من كل أمر وأدهى ، فليحسب له الإنسان حسابه ، وليعدَّ له عُدَّته ، سبحان الغفار العظيم !

«فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيَهْ ١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ٢٣ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ٢٤ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ

(١) التوحيد للصدوق باسناده عن حنان بن سدير :

يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ٢٦ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ٢٧ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ ٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ٢٩ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ٣٠ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ ٣٢ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ٣٤ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ٣٦ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ٣٧ .

يوم العرض الأكبر إذ يظهر لأهل الجمع كل ما ستر ، يؤتى الأخيار والاشرار كتبهم : كتب الاعمال ، فالحساب ، فالسقوط أو النجاح ، كتب تتناسب في التدليل على مواقف أصحابها ، ولعلهم قبل الكل تؤتام كتب الشريعة :

**« فأما من أوتي كتابه بيمينه »**: تدليلاً على أنه ناجح بما عاش يمين الحياة بيمين الكتاب الإلهي على ضوء تطبيقه **« فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه »** : يقولها في فرحة غامرة بين الحشر تملأ الفرحة كيانه ، وتظهر على لسانه هاتفاً أهل الجمع : « هاؤم » : هاكم « اقرؤا كتابيه » : كتاب الأعمال والحساب والنجاح . **« إني ظننت أني ملاق حسابيه »** .

والظن هذا أعم من ظن القلب الذي يساور يقين العقل الذي يدفع للصالحات فإن من يقين العقل ما لا يدفع للصالحات فضلاً عن ظنه - واعم من ظن العقل ، فإن من المحشرين من يدخل الجنة بلا حساب ومنهم من يدخلها بحساب، فهو يظن نفسه من الآخرين متهماً نفسه تخضعاً لله ، فاذا هو من الأولين وكما عن الصادق عليه السلام في ظن الشك الممدوح[1] ، وعن أمير المؤمنين (ع) في ظن اليقين[2] ولفظ الآية يتحملها

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٠٧ القمي في الآية قال الصادق (ع) كل امة يحاسبها امام زمانها - الى قوله - فيعطوا اولياءهم كتابهم بيمينهم فيمروا الى الجنة بلا حساب .. فاذا نظر اولياؤهم في كتابهم يقولون لاخوانهم: « هاؤم اقرأوا كتابيه اني ظننت اني ملاق حسابيه » .

(٢) المصدر في الاحتجاج للطبرسي عن امير المؤمنين (ع) واما قوله: « ورأى المجرمون النار فظنوا انهم مواقعوها » يعني : تيقنوا انهم داخلوها ، وكذلك قوله : « اني ظننت اني ملاق حسابيه » واما قوله للمنافقين : « وتظنون بالله الظنونا » فهو ظن شك وليس ظن يقين ».

معاً حيث الظن يشملها هنا لفظياً ومعنوياً : اني ايقنت لقاء الحساب وظننت انني ادخل الجنة بحساب ، فاذا بي ادخلها بلا حساب ! ، وتشمل الآية أيضاً من يدخل الجنة بحساب فيختص بالوجه الأول .

فهذا الكتاب يحمل حسابي بعلامة النجاح « **فهو في عيشة راضية** » : عيشة بالغة في أنها مرضية لحد كأن الرضا أدغمت في ذاتها فأصبحت راضية ، كما يقال: شعر شاعر وليل ساهر وسحر ساحر ، مبالغة في كمالها وجمالها ، راضية يوم الدين كما كانت راضية يوم الدنيا : صورة طبق الأصل ، وتفضله هناك لظهوره تامة فيها ، ولمزيد الرحمة الإلهية المضافة اليها .

« **في جنة عالية** » : عالية في المكان والمكانة ، وفي الرحمات الجسدانية والروحانية « فيها ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » « **قطوفها دانية** » : أثمارها التي تقطف دانية إلى طلابها ، لا تتكلف القيام ولا التوسل بأية وسيلة .

« **كلوا واشربوا هنيئاً بما اسلفتم في الأيام الخالية** » : اكلا وشرباً هنيئاً سائغاً لا تنغيص فيه في الحلقوم ، وذلك بما أسلفتموه من الصالحات في الأيام الماضية : أيام التكليف يوم الدنيا .

« **واما من أوتي كتابه بشماله** » : علامة السقوط « **فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه** » : فانه عذاب فوق العذاب وقبله « **ولم أدر ما حسابيه** » فانه يدخل النار بحساب ، ودراية الحساب أيضاً قبل العذاب عذاب فوق العذاب ، فإتيان الكتاب بالشمال عذاب ، وعرفان الحساب عذاب ، ثم بعدهما واقع العذاب بقدر الحساب .

«**يا ليتها**» : القارعة المسبق ذكرها «**كانت القاضية**» :علي ، الماحقة لوجودي بعد الموت فحسب ، دون أن تتلوها قارعة العذاب بعد صيحة الإحياء في حياة الحساب ، وهي تشبه مقالة الكافر : « يا ليتني كنت تراباً » .

«**ما أغنى عنى مالية** » : ما لي وما، لي : ما ادخرت من أموال ، وما كنت

املك من طاقات جسدانية ونفسية كنت احسبها تغنيني ، ومن أعوان وأنصار تكفيني ، كل هذه ما أغنت عني يوم الفقر الأكبر ، الذي لم أحسب له حساباً .

« هلك عني سلطانيه » : فلا ما'له بقي ولا ما 'له وقد هلكا ، ولا السلطان والقدرات فما بقي لها نفع ، فسلطان الطاقات ، وسلطان الأعوان والصداقات ، وسلطان الجاه والمـال كلها كانت قوى وهمية وواهية ، انها هلكت وبقيت لي فقط سيئات الأعمال ، وليس المـآل الا أمر الله المتعال :

« خذوه فغلوه » : كما غل نفسه يوم الدنيــا باغلال الشهوات ، واستغل معطيات الحياة كلها للحيونات « ثم الجحيم صلوه » : أوقدوه ناراً شديدة التأجج ، فبوقوده تتأجج فيحرق حوامش الضلالة « ثم في سلسلة ذرعهـا سبعون ذراعاً فاسلكوه » : الغل الأكبر بعد الغل المسبق قبل الجحيم ، والسلسلة السبعون تسلكه ، وبعد ماذا ؟ بعد ما يصدر من العلي الأعلى الامر بأخـذ هذه الحشرة الصغيرة المكروبة المذهولة ، فيبتدر لتحقيق أمر الله الملائكة الغـلاظ الشـداد ومعهم من معهم من المنتدبين للتنفيذ ، تدور السلسلة حوله فتقيدة ، ولو كان هناك مجال لأصبحت السلسلة ملايين الأمتار لتسابق النادبين في سلكه بالسلسلة ، لكنما المغلول محدود هكذا ، وأمر الله محدد بالسبعين ، علّه مقصود لحده ، وعلّه كناية عن طوله ومده بالكثرة الكثيرة ، و« لو أن حلقة من السلسلة التي طولها سبعون ذراعاً وضعت على الدنيا لذابت الدنيا من حرها »[1] ولماذا هذا العذاب الشديد؟

« إنه كان لا يؤمن بالله العظيم » : كأن كيانه بشر". أصبـح تأبيا عن الإيمان بالله « كان » مستمراً معانداً دائباً «لايؤمن بالله العظيم » الذي ترى عظمته في الخلق أجمع ، وفي ضمير هذا الصغير ! وأقل جزاء له هذا العذاب الشديد .

« ولا يحض على طعام المسكين » : فقد قطع حبلاً من الله إذ لم يؤمن به ،

---

(١) نور الثقلين ( ٥ : ٤٠٩ ) الحديث ٤٤ : عن محمد بن ابي عمير عن ابي بصير عن ابي عبدالله (ع) .

وفي الصافي ص ٥١١ روي نفس الحديث عن القمي عن الصادق(ع)

وحبلاً من الناس إذ لم يحرض على طعام المسكين : لا خير فيه لنفسه ولا لسواه فأصبح صفر اليدين عما يفلح الانسان يوم الدين ، لا ايمان بالله ينجيه ، ولا رحمة على عبادة تغنيه ، إذ تركها إلى الاضداد ، فأصبح أسيره بما قدم .

« فليس له اليوم ههنا حميم » « الا حميماً وغساقا . جزاءاً وفاقاً »(٧٨:٢٥) والا «شراب من حميم وعذاب أليم » (١٠ : ٤) و « يصب من فوق رؤسهم الحميم » (٢٢ : ١٩) ثم ان لهم عليها لشوباً من حميم » (٢٧ : ٦٧) « فليس له اليوم هاهنا حميم » الا ما يحمُّه من عذاب أليم ، فهو يستحم في الجحيم ، رغم ما كان له يوم الدنيا ،فحميمه ينقلب عليه عدواً : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين (٤٣ : ٦٧ ) ولو بقي له حميم ، ف « لا يسأل حميم حميماً » ( ٧٠ : ١٠ ) ، فالذي كان يحم له ويستحم يوم الدنيا ، سوف يبرد عليه يوم الدين ، ولأن حمّه كان على غير هدى ولا تقوى ، وانما على ضلال وطغوى ، فيوم تبلى السرائر وتنكشف الضمائر وتستقر الحقائق ، في هذا اليوم العصيب تتبدل هنا الحمّ الخاطىء إلى برودة ، كانهم لايعرف بعضهم بعضاً ، اللهم إلا عداء وبغضاً ! .

« ولا طعام إلا من غسلين » وهو من الضريع الذي يضرعه ويعذبه ، بدل أن يلذه ويشبعه ، والغسلين : غسالة أهل الجحيم من قيح وصديد ، وهو يلائم قلبه المقلوب الخاوي من الإيمان بالله ومن الرحمة لعباد الله « لا يأكله إلا الخاطئون » : خطأً معمداً معانداً .

« فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ٣٩ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ٤٠
وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ٤٢
تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٤٣ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ٤٥
ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ٤٦ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ٤٧ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ٤٨
وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ٤٩ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ٥٠ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ٥١
فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ٥٢ » .

« فلا اقسم بما تبصرون . وما لا تبصرون » الّلا قسم هنا عام يشمل

الكائنــات كلها ، إذ لا تخلو بما تبصرون وما لا تبصرون ، منعطفاً إلى حقيقة ناصعة في ذاتها ومعطياتها : « إنه لقول رسول كريم » فالقرآن بذاته شهادة على مصدره الرسالي الإلهي ، دون حاجة إلى براهين منفصلة عنه تدل عليه ، فاللاقسم هنا تأديب وزجر للمرتابين ان يفكروا في القرآن نفسه فيستدل كلٌّ بزاويتــه الخاصــة التي تهمه ، إذ القرآن معجزة خالدة في كافة جوانبه وزواياه ، فليجل جال بصره وليقصر ناظر نظره إلى القرآن نفســه هل يرى فيه شعراً أو كهانة وسحراً ، إلا تنزيلاً من رب العالمين ، تلمس فيه ربوبيته العالمية .

« إنه لقول رسول كريم » : قول رسول لا يقــوله إلا عن مرســله دون أن يتقول عليه الأقاويل ، وهو كريم ليس على غيب الوحي بضنين، هو واسع صدره متفتح قلبه ، لا يخون أمانة الوحي كالسماء ذات الرجع لا تخــون « والسماء ذات الرجع. إنه لقول فصل . وما هو بالهزل » ( ٨٦ : ١٢ ) إنه أمــين كريم ليس كيانه في حياته إلا الرسالة الإلهية وبلاغها .

« وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون » «وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين » ( ٣٦ : ٦٩ ) يبـين بذاته أنه ذكر وليس شعراً وخيالاً موزوناً ، رغم ما يتقولون عليه دون برهــان انه شاعر : « بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر » ( ٢١ : ٥ ) « ويقولون أئنـا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون » ( ٣٧ : ٣٦ ) « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون » ( ٥٢ : ٣٠ ) هل هو شاعر ؟ « والشعراء يتبعهم الغاوون ... إلا الذين آمنوا » ( ٢٦ : ٢٢٤ ) فقد ينشد الشاعر عن إيمان وصدق ، وأحياناً كثيرة عن الخيـال واللا إيمان ، وهما مشتركان في زخرفة المعنى بموسيقى القول ، ما يزيد المعنى لمعاناً لو كان صادقا ، وما يريه حقاً لو كان باطلا ، وحاشى الرسول الكريم أن يزخرف الوحي بما ليس منه ! ولماذا ؟ فهل ليزيد في نضارة القرآن، وهــو فوق القمم في فصاحة التعبير وبلاغة التنسيق ! ..

ثم لا نجد أياً من أوزان الشعر وأوهامه وأساطيره في هــذا الذكر المبين ،

فكيف يتقول على قائله : انه شاعر ، أو عليه : انه شعر ، أهكذا كذب واضح وفرية فاضحة ؟ .

إن هذا القرآن ليس شعراً ولا نثراً نتعوده ، إنما هو بدع في التعبـيـر ، عديم النظير ، لم يصدر ولن يصدر من أي مصدر إلا الله ، ولأنه خاتمة الوحي ، فريد في موسيقاه ، فريد في معناه ، يوحي من كل زواياه ، انه ليس بقـول بشر ، ولا أي مصدر غير الوحي ، منهج منقطع النظير ، تفرد به اللطيف الخبـيـر ، وبين كتابات الوحي أيضاً ، فضلاً عما سواها ممن سواه ! .

إن المذاهب الأدبية أجمع ، والمذاهب الفكرية أجمع ، والمقاييس الموسيقيـة أجمع ، إنها كلها ومعها كافة المذاهب طوال التاريخ، هي فاشلة أمام المذاهب التي سلكها القرآن ، منهزمة في صراعها العنيد الشديد ، يعرف بذلك أهلوها شاءوا أم أبوا ، وإنما يلقون دعايات يلغون فيها ويزخرفونهـا ، علهم يضلوا جهـالاً كأمثالهم ،ولكنما العلماء العقلاء لا يضلون .

فليست القولة الجاهلة : إنه قول شاعر ، إلا نتيجة عدم الإيمان ، لا أن لهم برهاناً على ما يتقولون « قليلاً ما يؤمنون » ! .

« ولا بقول كاهن » يؤخذ عن الجن والشياطين « قليلاً ما تذكرون » فلوكان قول كاهن لم يرد فيه شتم الشياطين الذين يؤخذ منهم في الكهانة ، ثم اناقه القول وعمق المعنى يحيده من أن يكون من غـيـر الله ، بل قليلاً ما تذكرون حقائق تعرفونها من أصولها .

« تنزيل من رب العالمين » : تنادي بهذه الحقيقة الناصعـة آياته البينـات فربوبيته العالمية باهرة فيها ، ظاهرة لمن يتدبرها ويتذكرها وأراد الإيمان .

« ولو تقول علينا بعـض الأقاويل » : الأكاذيب ... « لاخذنا منه باليمين ... » .

لا هو فحسب ، بل هذه السنة الإلهية ثابتة في رسله : ان لو تقولوا لفضحهم

وأخزاهم — ولن يتقولوا — يخزي المتقول لكيلا يخزي الوحي والرسالة الإلهية ويضل الناس فتكون حجة لهم على الله ، كما لو لم يبعث رسولاً بل وأقوى: فالعقل هنا يستقل بما يوحيه النقل من ضرورة الأخذ بيمين القدرة الإلهية . من يتخلف من الرسل عن الرسالة الإلهية .

**بشارة توراتية بحق الرسالة المحمدية :**

تصرح التوراة — فيما تصرح — من عشرات البشارات بحق الرسول الأقدس محمد (ص) هنا بوجه عام — بعد تخصيصه بالذكر — أن المتقول على الله يؤخذ بأخذة قوية إلهية تفضحه كما في الأصل العبراني التالي :

« نابىء آقيم لاهِمْ مِقِرِبْ إحِيْحِم كَمُوشَهْ وِنَاتَتِّي دِبارِي بِفِيو وِيدبِرْ الوهِيمِ إتْ كالْ أشِرْ أصَونُو[١٧] :

نبي أقيم لهم : (بني اسرائيل) من أقرباء أخيهم ، كموسى وأضع كلامي في فمه لكي يبلغهم جميع ما آمره به[١٧] .

« وِهَايَاه هـا إيش أشِر لوه يِيشْمَع إلْ دَبَاري إل أشِرْ يِدَبِرْ بِشْمي آنوحي إدْرْ وِشْ معي مو »[١٩] :

وأي انسان لم يطع كلامي الذي يتكلم به باسمي فإني أحاسبه عليه[١٩] .

« أخ هنـابِيء أشِر يازِيـد لِدَبِرْ دابار بش مِي إت أشِـر لوه صوييبو لِدَبِر وأشِر يِدَبِر بِشِم إلوهِيم اجريم ووميت هنابِيء هَهُو »[٢٠] .

وأي نبي تجبر فقال باسمي قولاً لم آمره أن يقوله أو تنبأ باسم آلهـة أخرى فليمت[٢٠] .

« وِخي تومر بيل بابخا إخاه ندع إت هـدابار أشر لوه ديـبرو ادوناي أشِر يدبر هنابِيء بشم ادوناي ولؤيِهيه هدابار ولوه يابوء هـوء هدابار أشر

لوء ديبرؤ ادوناي بدادون ديبرو هنابيء لوء تاغُور ميمنو » (٢١ ـ ٢٢) :

فان قلت في نفسك كيف يعرف القول الذي لم يقله الرب (٢١) فإن تـكلم النـــبي باسم الرب ولم يتم كلامه ولم يقـــع فذاك الكلام لم يتـكلم به الرب بل لتجبره تـكلم به النبي فلا تخافوه (٢٢) .

هذه الآيات البينات تبشر أن الله تعالى وعد العالم أن يقيم نبيـاً كموسى من أقرباء أخوة بني اسرائيل ، فاخوتهم بنوعيص كما تقول التورات (تثنيه ٢٨ : ٨) فأقرباءهم هم بنو اسماعيل . فهو الرسول الأقدس محمد الاسماعيلي الذي هو كموسى في استقلال شرعته ، لا المسيح الذي هو تبع لموسى في شرعتـه .

ثم تتهدد الآية (١٩) هؤلاء الذين يتخلفون عن هـــذا الرسول العظيم ، ثم تعزيزاً وتثبيتاً لموقفه الرسالي ـ ومعه سائر المرسلين ـ يحـــكم بالموت : الموت الروحاني وموت الدعوة ، على المتجبرين المتقولـين على الله الأقاويل (٢٠) . ثم الآية (٢٢) تأتي بميزان لصدق مدعي النبوة انه وقوع كلامه كما يخبر[1] .

والقرآن يصدق هذه الآيات أن :

« ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين » أخـذنا منه الرسالة والوحي واسترجعناه منه بيمين القدرة « ثم لقطعنا منه الوتين » : قطعاً لوتين الوحي حيث لا رجعة فيه ، وقطعاً لوتين العقل إذ يقول ما يفضحه ممـا يطارده العقل ، موتاً مزدوجاً يفضحه أمام العقلاء النابهين ، فليس يعني به وتين الجسم ، وهو عرق رئيسي في القلب يمد شبكة العروق في الجسم ، وإنما وتين قلب الروح الممدود به شبكات الروح .

---

(١) تجد تفصيل البحث حول الآيات في كتابنا ( رسول الاسـلام في الكتب السماوية ) .

كما الموت المهدد به حسب التورات ليس موت الجسم فانه لايخص الكاذبين ، وكثير منهم يعيشون حياة الكذب طويلاً ، وإنما هو موت الروح الرسالية بأن يتبين كذبه في فلتات لسانه وصفحات وجهه وسقطات تصرفاته ، وفي تناقض أقواله وتهافت أحواله ودحض حججه في محكمة العقل والفطرة .

فكما ان يمين القدرة الإلهية هي التي وفقته للرسالة وعصمته عن الضلالة ، كذلك هي التي تسترجعها لو تخلفت عن جهات اشراعها ! ولكن حرف : « لو » تحيل على الرسول الاقدس (ص) تقوّل الأقاويل ، كما العقل يحيله إحالة مزدوجاً : أن الله اصطفاه وهو يعلم مستقبله كما علم ماضيه ، وانه يعصمه عصمة لأمانة الوحي وكرامة الرسالة ، وما استرجاع المناصب إلا نتيجة جهل الناصب وضعفه « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

« فما منكم من أحد عنه حاجزين » : لا يحجزه أحد عما يريد ، وهو الحاجز عما نريد .

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

« وإنه لتذكرة للمتقين » : الذين يتقون الجهل والتجاهل والعناد ، فهم المتذكرون بهذه الذكرى ، وأما الذين كفروا معاندين فهي عليهم عمى ! . وهم في ضلالهم يعمهون .

« وإنا لنعلم أن منكم مكذبين » : لهذه الرسالة السامية « وانه لحسرة على الكافرين » : ان تكذيبها حسرة عليهم يوم الدنيا ويوم الدين ، لأنها تملك من براهين الصدق ما لايملكه سواها :

« وانه لحق اليقين » : ان القرآن ونبي القرآن ، إنه لحق اليقين ، لا علم اليقين فحسب أو عين اليقين ، فحق الوحي القرآني حق اليقين ، ذاته اليقين : لا ريب فيه هدى للمتقين ، فبامكان من يعيش قلبه القرآن ، ويسري في وتين قلبه روح الإيمان وفي نياطه القرآن ، فيعيش القرآن قلبه ، بامكانه أن يعرج إلى أعلى معارج

اليقين : حق اليقين ، فعلم القرآن كما يحق هو علم اليقين، وعينه عين اليقين ، وحقه حق اليقين ! عميق في الحق وعميق في اليقين كأعمق ما يمكن .

« فسبح باسم ربك العظيم » : سبحه باسمه الحق عما لا يليق به « فلله الأسماء الحسنى فادعوه بها » ، وسبح كتابه باسمه عن أن يكون شعراً أو كهانة أو أي تقوّل ، فربوبيته العظيمة لائحة في طياته ، بارزة في آياته ، والسلام على من اتبع الهدى ، وجانب الردى.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

□ □ □

## سورة المعارج ـ مكية ـ وآياتها أربع وأربعون

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ١
لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ٢ مِنَ اللهِ ذِي الْمَعَارِجِ ٣ تَعْرُجُ
الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ
سَنَةٍ ٤ فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً ٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً ٦ وَنَرَاهُ قَرِيباً ٧
يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ٨ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ٩ وَلَا يَسْأَلُ
حَمِيمٌ حَمِيماً ١٠ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ
يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ١١ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ١٢ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ١٣ وَمَنْ
فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ ١٤ كَلَّا إِنَّهَا لَظَى ١٥ نَزَّاعَةً لِلشَّوَى ١٦
تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ١٨

« سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع » فمن هـذا السائل ؟ ولماذا سأل العذاب ؟ وهل نزل عليه ما سأل ؟

تقول كثير من روايات الفريقين إن السائل هو النضر بن الحارث الفهري[1] : « انه لما شاع قصة الغدير في البلاد أتى ابن الفهري رسول الله (ص) فقـــال : يا محمد ! أمرتنا عن الله بشهادة ان لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله (ص) وبالصلاة والصوم والحج والزكاة فقبلنا منك، ثم لم ترض بذلك حتى رفعت بضبع ابن عمك ففضلته علينا وقلت : « من كنت مولاه فعلي مولاه » فهـذا شيء منك أم من الله ؟ فقال رسول الله (ص) والذي لا إله إلا هو ان هـذا من الله ، فولى ابن الفهري يريد راحلته وهو يقول : اللهم ان كان ما يقول محمد حقـــاً فامطر علينا حجارة من السماء أو أئتنا بعذاب أليم ، فما وصل الى راحلته حتى رماه الله بحجر فسقط على هامتـه وخـــرج من دبره فقتله . وحينئـذ نزلت الآية « سأل سائل بعذاب واقع » [ ( وفي شرح الأخبـــار ) نزلت : أفبعذابنا يستعجلون[2] ] .

**اقول : مكية السورتين قد تنافي الروايتين اللهم الا ان تكونا نازلتين بعد الغدير مسجلتين في سورتيهما النازلتين قبل الغدير وكم له من نظير ! .**

(١) الدر المنثور ( ٣ : ١٨١ ) : اخرجه ابن جرير وابن ابي حاتم عن سعيد بن جبير ، وابن جرير عن عطاء ، وفي : ( ٦ : ٢٦٣ ) اخرج الفريابي وعبد بن حميد والنسائي وابن ابي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس وابن المنذر عن زيد بن اسلم وابن جريج ، وابن ابي حاتم عن السدي ، وفي بعض الروايات انه الحارث بن علقمة ، وفي بعض : نعمان بن الحارث .

(٢) ذكره ابو عبيد والثعلبي والنقاش وسفيان بن عيينـة والـرازي والقزويني والنيسابوري من اخوانـــا ، في تفـاسيرهم ، واصحابنـا كذلك أجمع .

والقرآن يذكر السائل هنا والسائلين : « وإذ قالوا اللهم إن كان هـذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم .وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون»( ٨ : ٣٢) « وقالوا ربنا عجل لنا قِطنا قبل يوم الحساب » ( ٣٨ : ١٦ ) « أفبعذابنا يستعجلون » ( ٢٦ : ٢٠٤ ) .

وقد يكون السائل في المعارج غير السائلين في سواها كياناً وسبباً ، وقد يكون منهم ،ولكنه عجل قِطّه :نصيبه بسؤاله ،قبل يوم الحساب ،والباقون أجلوا ليوم الحساب ، علّه لكون الرسول أماناً ما دام فيهم أو يستغفرون ، أو لأنهم استغفروا ، وانما أصيب واحد منهم ذكرى لهم لعلهم يحذرون .

وعلّ السؤال لم يكن ليختص بهامة الغدير ، فقبلها هامات أتم وأعم ، كالأصول الإسلامية التي كانوا ينكرونها ، إذاً فالروايات المفسرة لها بقصة الغدير هي من باب الجري والتطبيق ، أو أنها من ضمن ما سألوا له العذاب ، كما تظافرت به الروايات .

ثم السائل هنا ـ الذي ابهم عن اسمه ـ انما سأل العذاب الواقع تحدياً على الحق وعلى وقوع العذاب ، توهيناً للرسالة والمرسل ، فلقد كانت الحقائق الإسلامية عسيرة الادراك والتصديق على من عاشوا الخرافات والأساطير والهرطقات ، وقد لقيت منهم معارضة نفسية عميقة ، فكانوا يتسمعونها بكل دهشة واستغراب، وينكرونها أشد الانكار، متحدين الرسول بألوان التحديات ولو تعرضوا للخطر ، كهذا السائل الغبي ! :

« سأل سائل بعذاب واقع للكافرين»: إنه سأل ما لم يكن بحاجة الى سؤال لأنه واقع للكافرين والسائل منهم .

« عذاب واقع للكافرين ليس له دافع » : واقع للكافرين ليس له دافع من الله»

للكافرين فقط ليس له دافع ، واما غيرهم فلهم دوافع عنه من توبة وغفران وشفاعة واضرابها من دوافع العذاب .

« من الله ذي المعارج » : سأل من الله ، بعذاب من الله ، ليس له دافع من الله « ذي المعارج » الذي له معارج الرحمة ومعارج العذاب ، يعرج خلقه في أيٍّ منها يوم الدنيا ويوم الدين ، ولكننا الأغبر الغبي يسأل العذاب ، لأنه في تباب ، وذاته تباب ، وكيانه عذاب .

وان حق المعارج لله هو معارج الرحمة ومعارج الحساب :

« تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » :

فما هذا اليوم ؟ هل هو يوم القيامة؟ فلا نهاية له ! أم هو يوم من أيامها ؟ فما هي تلكم الأيام ؟ أم من أيام الدنيا ؟ فهذا خرق لنظام الكون! ولا تعرج الملائكة والروح عن مناصبهم الى الله والدنيا قائمة ، وانما ذلك ليوم الدين إذ تقطعت الأسباب وقضي الأمر ورجعت الكائنات كلها الى الله كما بدأت .

ان اليوم حسب القرآن - وفي وجهة عامة - يعنى منه مطلق الزمان ، من واحد الزمان كما نعرف وفوق ما نعرف ، ومن مجموعة الزمان ، وبينهما متوسطات .

فمن واحد الزمان إلهيّاً ما فيه شأن الخلق من الله العلي القدير : « كل يوم هو في شأن » ( ٥٥ : ٢٩ ) يعنى كل آن ليس فوقه آن ، فان الشأن الآلهي لا يخلو منه أقل آن ، فلا بد أن يعنى هنا بالآن أقل الآنات في حساب الله .

ومنه اليوم النهار مقابل الليل : « سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام » ( ٦٩ : ٨ ) « فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر » ( ٢ : ١٨٥ ) .

ومنه اليوم : بليلة ونهارة : « فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام » ( ١١ : ٦٥ ) .

ومنه يوم خلق السماوات والأرض : « ان عدة الشهور عند الله اثنى عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض .. » ( ٩ : ٣٦ ) .. وهو مجموعة زمان خلقها ، وقد عدت في آيات ستة أيام : « ان ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام » ( ٧ : ٥٤ ) .

منها يومان لخلق الأرض ، ويومان للسماوات السبع ، ويومان عليها : لخلق الدخان السماوي وخلق الأنجم في السماء الدنيا ، أم ماذا ؟ سوف نوافي بحثه في الآيات من فصلت وان المعني من اليوم هنا الدور .

ومن اليوم ألف سنة مما تعدون : « يدبر الأمر من السماء الى الأرض ثم يعرج اليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون » ( ٣٢ : ٥ ) « ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وان يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » ( ٢٢ : ٤٧ ) .

ومنه خمسون ألف سنة مما تعدون ، « فاصبر صبراً جميلا » لنرى ما هو واحد الزمان الربوبي وما هو الألف والخمسون الف ؟

اقول : انه ليس اليوم الألف ولا اليوم الخمسين الف هو الزمان المنطبق على الحدين ، وإلا كان حق التعبير « في الف سنة » و « في خمسين الف سنة » واليوم زائد ، ولكان « عند ربك » زائداً ، لأن الزمن « اليوم » : الالف والخمسين الف لا يخصه .

إذاً فليكن المعني من اليوم واحد الزمان بحساب سرعة السير الملائكي في آية المعارج ، وسرعة نفاذ التدبير الإلهي نازلاً من السماء وراجعاً اليها في آيتي الحج

والسجدة ، وعلى سير المعراج للنبي الأقدس هو كسير المعارج وعلى حـد قول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « انه اسري به من المسجد الحـرام الى المسجد الاقصى مسيرة شهر ، وعرج به في ملكوت السماوات مسيرة خمسين الف عـام في أقل من ثلث ليلة حتى انتهى الى ساق العرش[١] » وهذه المسيرة هي في واحد الزمان ، لا في ثلث الليل .

فهل إن واحد الزمان في سير المعـارج ثانية في حسابنا المألوف ؟ أم ٥٠,٠٠٠/١ منها في حساب أدق وهو الزمن الالكتروني[٢] ٥٠,٠٠٠ضعف الزمن الأرضي ؟ أم أقل منها في دقـة ثانية : ان نحسب كل دورة الكترونية سنة ثم نقسمها بحساب الثواني[٣] ، أم وأقـل منها أيضاً لأن الزمن في حساب الله يختلف عما عندنا .

ثم الخمسين الف هل هو حساب السنين الضوئية ؟ التي هي ــ على أقل التقدير ــ ١٨٠ مليون ضعفاً بقياس السير العادي ؟ أم فوق الضوئيـة وعلى حساب أكثر السرعة في سيرنا المتصور المقدر ؟ .

ثم المسافة الى العرش ، الى السدرة المنتهى ، ليست مسيرة يوم هكذا ، انما هذا قياس السرعة الملائكي وفي معراج الرسول (ص) في واحد الزمن الربوبي ،

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٤١٣ في كتاب الاحتجاج للطبرسي روى عـن موسى بن جعفر عن آبائه عن الحسين (ع) ان امير المؤمنين قال ــ وقـد ذكر النبي (ص) ــ :

(٢) لان الالكترون يدور حول شمسه البروتوني في الذرة ٥٠,٠٠٠ مرة في الثانية الارضية .

(٣) اذ ان كل دورة الكترونية وهي ٥٠,٠٠٠ ثانية ارضية ، تعتبـر سنة الكترونية ، اذا نقتسم هذه السنة كذلك الى الثواني ، فكـل ثانية منها نعتبرها واحد الزمن الربوبي في سير المعارج .

والرسول اجتازها في أقل من ثلث الليل ـ أربع ساعات ـ وهل تعرجها الملائكة والروح في نفس الوقت أم أكثر ؟ لا ندري !

وحسب الحساب الدقيق الذي نعرفه حتى الآن تصبح المسافة المجتازة في المعارج ، في واحد الزمن الربوبي — كالتالي :

٥٠,٠٠٠ — الثانية الالكترونية × ٤٣٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ بتحويل الثانية الالكترونية بحساب ١/٥٠,٠٠٠ منها : سنة ، الى ٥٠,٠٠٠ ضعفاً ثم بحساب سرعة الضوء تضرب في ٣٠٠,٠٠٠ والنتيجة :

٦٤,٨٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ هذا المقدار هو السير المعارجي في واحد الزمان الربوبي كما نعرفه ، ولكنه بحساب الله أكثر بكثير ، لأن واحد الزمان هو واحد الحركة في المادة الأولية وليست هي الالكترون حتى نحسبه بحسابه ، ثم انه في ثلث الليل : أربع ساعات يصبح العدد المسبق مضروباً في / ٨٦٤٠٠ ، فالسير المعراجي أيضاً يصبح : / ٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠, ٥,٥٧٨,٧٢٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ ضعفاً بالنسبة لسيرنا في ٥٠,٠٠٠ سنة : ، والحاصل ان اليوم المعراجي والمعارجي هو واحد الزمان الذي هو من مظاهر واحد الحركة ، واذا كان سير الرسول (ص) في معراجه في واحد الزمان قدر خمسين الف سنة مما نعده ، ولا سيما اذا عددناه حسب السنين الضوئية حينئذ يفلت حسابه عن عدّنا وتصورنا [1] .

وأما ان هذه السرعة الهائلة تخلق حرارة هائلة تذوب وتتحول فيها العناصر الى أبسطها ، ثم الى كم ؟ لا ندري ، فكيف عرج الرسول هكذا سليماً ورجع

---

(١) من قوله تعالى : تعرج ، نستوحي أن هذا السير انما هو بحساب سرعة العروج لاز منه ، في « كان مقداره » اي مقدار السير في سرعته لا في زمنه .

سليماً ؟ فالجواب . ان المعراج خـارقة إلهية خـــرق فيها الكثير من القوانين الطبيعية العادية ، كما النار أصبحت برداً وسلاماً ، فلتكن معجزة عدم تحـــول الجسد المحمدي الى غيره ، كمعجزة أصل المعراج الى الأفق الأعلى قلبـاً وقالبـاً ، وتـكملة البحث تجدها في النجم والإسراء انشاء الله تعالى .

« تعرج الملائكة والروح اليه[1] » : الى عرشه ، والى قمة الكون وكاهله ، لا الى ذاته المقدسة ، فليس له تعالى مكان ! وانمـا الى حـول العرش كما شرحناه مسبقاً في الحاقة ، ولأنهم قضوا ما كان عليهم يوم الدنيا ، ومضوا فـيما أمروا وقضي الأمر فإلى الله ترجع الأمـــور ، وليقض بينهم الحق : « وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيـــل الحمد لله رب العالمين » ( ٣٩ : ٧٥ ) .

الملائكة والروح ـ وهو أعظم منهم وليس منهم بقرينة قرنـه بهم[2]ـ انهم يعرجون هكذا للعرض والحساب ، وكما المكلفون أجمـع يعرضون على الله ، سواء .

« فاصبر صبراً جميلاً » .

الصبر : منه عليل كليل ومنه عظيم جميل جليل ، فالجميل منه ممدوح والعليل مقدوح ، والجميل مـا يحمل صاحبه وسواه ، بتحمل المكاره والأذيات في سبيل الله لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ، كما حدث أمر الله الجليل لهكذا صبر جميـل

---

(١) ان اختلاف حساب الزمن لايختص بالزمن الربوبي والخلقي ، فان العلم اليـــوم أثبت الاختلاف بين زمن الارض وسائر العوالم السماوية ، والكتاب والسنة أثبتا اختلاف زمن الدنيا عن البرزخ وهو عن الحشر .

(٢) راجع سورة القدر في ج ٣٠ - ص ٣٨٢ .

لأهله الصالحين. فهو من عزم الأمور: «ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور» ( ٤٦ : ٣٥ ) «ولئن صبرتم لهو خير للصابرين» ( ١٦ : ١٢٦ ) ، صبر ابتغاء وجه الله : «والذين صبروا إبتغاء وجه ربهم ... أولئك لهم عقبى الدار» ( ١٣ : ٢٢ ) «الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون» ( ١٦ : ٤٢ ) ومن هؤلاء الأئمة الدعاة الى الله : «وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا» ( ٣٢ : ٢٤ ) فمجال الصبر هو ان يكون ابتغاء وجه الله واتكالاً على الله، ورضى برضى الله ، وانتظاراً لحكم الله : «واتبع ما يوحى اليك واصبر حتى يحكم الله» ( ١٠ : ١٠٩ ) : وكما صبر يعقوب عليه السلام إذ قال : «فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون» ( ١٢ : ١٨ ) ولكن الرسول الأقدس عليه أن يجمع في سبيل تنفيذ هذه الرسالة الخالدة ، يجمع صبر أولى العـــزم وهممهم : «فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم» ( ٤٦ : ٣٥ ) .

«إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً» : فهم يرون العذاب الواقع يوم الحساب، ويرون الحساب : بعيداً عن العقل والواقع ، ونراه قريباً حسب العقـل والواقع بحكم العدل ، وكل آت قريب ! ثم علّه قريب حلوله أيضاً : «ومـا يدريك لعل الساعة تكون قريباً» ( ٣٢ : ٦٣ ) وكيف لا وقد جاء اشراطها ؟! «فهـل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جـــاء اشراطها» ( ٤٧ : ١٨ ) فبيننا وبين الساعة أقرب مما بيننا وبين بداية الخلقة لو انها القيامة الأولى ، أو من بداية خلقنا أو خلق كوننا الحاضر ، لو أنها غير الاولى ، فقد مضى ــ على اية حـال ــ اكثر الزمن وبقي اقله ، وكفاه قريبـــا للساعة ، فلئن يشك الرسول الأقدس في قربها فهو بحساب آخـر : «وإن أدري أقريب أم بعيد مـا توعدون» ( ٢١ : ١٠٩ ) : قرباً أو بعداً بالنسبة لزمن نزول القرآن ، لا قياساً الى ما قبله ، وعلى هذا القياس : «وما يدريك لعل الساعة قريب» ( ٤٢ : ١٧ ) .

فهنا للساعة قرب مؤكد بحساب العقل والعـــدل ، ومؤكد بحساب الواقع

قياساً إلى ما مضى ، ومجهول لأنه في علم الغيب قياساً إلى ما يأتي : أبعد سنة أو آلاف أو ملايين ؟ لا ندري .

وإذا كانت الساعة قريبة فهي تسلي النبي في صبره الجميل على الأذى ، إذ نرى من هنا كيف يجب على مناوئيه أن يصبروا على اللظى « نزاعة للشوى . تدعو من أدبر وتولى » .

فأمره بالصبر ، وقرنه بقرب الساعة ، هما تثبيت لقلبه المنير على ما يلقى من عنت المناوآت ، فهو ضروري لثقل العبء ، وعثاء السفر وبعد الطريق وغور النضال ، حفظاً لهذه النفوس النفيسة وجعلها متماسكة راضية ، متمسكة بحبل من الله ، موصولة بالهدف البعيد ، متطلعة إلى أبعد الآفاق .

ومن مشاهد هذا اليوم الرهيب العصيب في أغوار النفس ومجالي الكون أنه : « **يوم تكون السماء كالمهل . وتكون الجبال كالعهن** » هذه الحرب المعلنة الشعواء تجعل من السماء مهلاً ومن الجبال عهناً ، ما يبرهن على انهزام تام للكون أجمع ! تحت رحمة الواقعة القارعة والطامة الكبرى ، ويومئذ يتذكر الإنسان ما سعى .

والمهل هو دردي الزيت المغلي وهو « كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم » « فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » ( ٥٥ : ٣٧ ) وهو المهل بعينه ، وعلّ منه عكر القطران والفضة المذابة ، فالمهل ــ أيا كان ــ لا يمهل ولا يهمل وإنما يغلي ويغلي ، وهذه من الحالات المستقبلة للسماء ذات الرجع ، وعلّه إلى حالتها الأولى الدخانية .

ومن المهل المعادن المذابة ، فهل الأجرام السماوية مؤلفة من معادن منصهرة إلى الدرجة الغازية الدخانية ، وعلى حد تعبير علماء الطبيعة والفلك ؟ فترجع إلى نفس الحالة في رجعها ، أم إن السماء كلها مخلوقة من غازات أولية ، مهما انقلبت

إلى معـــادن وســـواها من السماويات ، كما القرآن يقـــول ، فتنقلب إلى ما كانت وفي أوساط الطريق إلى المهل ؟ : دردي الزيت ؟ فهذا أتم وأعم ، ولم ينظر العلم إلاإلى زاوية منه محدودة .

والعهن هو الصوف المصبوغ وعله هنا صبغتان : صبغة أولى هي من الجبـال أنفسها فإنها ألوان : «ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود» ( ٣٥ : ٢٧ ) وثانية هي من أثر الدكة الواقعة التي تحمرُّ منها عين السماء وكلها عين ! ثم هذا العهن ينفش : « وتكون الجبال كالعهن المنفوش » .

فيوم السماء والمهل والجبال العهن ، سوف يصبح الإنسان عهناً ومهلاً، سواء .

« ولا يسأل حميم حميما » : سواء كان له حميم كالأخلاء المؤمنين ، أولم يكن: «فليس له اليوم ههنا حميم»(٦٩:٣٥) كغير المتقين ـ ف«الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين» ، فلقد زال التساؤل بين الأحمة وسواهم، ف«كل امرىء بما كسب رهين » و « لكل امرىء منهم يومئـذ شأن يغنيه » ( ٨٠ : ٣٧ ) فكيف يسأل حميم حميماً ولمـاذا ؟ والسائل والمسؤول كلٌّ في شأنه الشائن أم سواء ! وسواء أكانت حمّة القرابة أو الصداقة أم أيا كان ، أجل ! ولأنهم كلهم في همٍّ شاغـل ، فلقد قطع الهول المرّوع جميع الوشائج وتعطلت الأسباب ورجعت الأمور إلى الله لا تتعداه إلى سواه « يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولاهم ينصرون (٤٤: ٤١)

فلا هناك تساءل استخبار عن أحوال ، ولا شفاعة ولا أيا كان من أي ولأي صا لحاً أم طالحاً إلا مَن أذن الله أن يَشفع أو يشفَّع له دون سؤال .

« يُبَصَّرونهم » : يعرَّفونهم فيعرفونهم تماماً ، فعدم التساءل من عدم المعرفة لوقعة الطامة ، ولكنهم يعرفونهم بعد ما جهلوهم، ولكنما المتقون سوف يتساءلون واما المجرمون :

« يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئـذ ببنيه . وصاحبته وأخيـــه وفصيلته التي تؤويه . ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه » .

فهذه المعرفة في يومهم العصيب لا تغنيهم إلا أملا ليس بواقـع ، يأمل الكل على تحسر : لو يفتدي ويستبدل من عذاب يومئذ بمن يملك أمـره ومن لا يملكه ، لو يفتدي بأعز الناس عليه ، ممـن كان يفتديهم بنفسه يوم الدنيا ، فهـو يبتدىء في زعم الإفتداء من بنيـه الى صاحبته وأخيه ، وهم الأحِبَّـة الأقارب ، ثم الى فصيلته : أمه التي فصل عنهـا وفصلت هي عنه وهي مع ذلك تؤويه ، ثم الى جماعة فصيلة عنه تؤويه عن مهالكه ، مما يجعلهم كالأحبة ، ثم يبلغ به هذا الأمل المحال الى الإفتداء بغير الأحبة والفصائل والى من في الأرض جميعـاً لكي ينجيه ، فلهفته على النجاة في هوله الحائل بينه وبين عقلـه ، انهـا تفقده الشعور ، صورة للهفة الطاغية والفزع المذهل تجننه وتخبطه لهـذا الحـد : ان لو يفتدى بمن في الأرض جميعاً ، مما يصور لنا ثقل العذاب الهائل الذي يفقد الشعور عن أهـله أو يضطرهم الى هذه الآمال المجنونة الفوضى !.

كلا ! ليس هنا دافع من عذابه ولا فدية مالية : «فلن يقبل منهم ملء الارض ذهباً ولو افتدى به» ( ٣ : ٩١ ) ولا فدية نفسية ولا ما في الارض جميعـاً من نفس ونفيس : «والذين لم يستجيبوا لو أن لهم ما في الأرض جميعـاً ومثله معه لافتدوا به» ( ١٣ : ١٩ ) ولو كان لهم ما تقبل منهم : «ان الذين كفروا لو ان لهم ما في الارض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تُقُبِّل منهم ولهم عذاب أليم» ( ٥ : ٣٦ ) وليست الفـدية المنفيـة تختص بالذين كفروا : «فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا» ( ٥٧ : ١٥ ) ، ولأن الفدية من الرشوة وليس في حكم الله رشوة ، وأنها ظلم بحق المفتدى به ، وسمـاح عمن يستحق العذاب وكلاهما خارجان عن نجد الصواب .

**«كلا انها لظى ، نزاعة للشوى ، تدعوا من أدبر وتولى ، وجمع فأوعى» :**

«كلا» ! ليست جهنم مما تقبل الفدية ، فـ «انها لظى» : لهب خالص يتوقد ويلهب عـن كفرخالص،من وقودهـا الكفار الذين يصلونها موقـدين

«نزّاعة للشوى»تقتلع بشدة واعتياد، للشوى:جلدة الرأس والكوارع والاطراف ما عدا المقتل لكيلا يُقتل ، فهي تنزع ما شوته وأحرقته ثم ترجع هي جلوداً غيرها ، فهي هي وهي غيرها باختلاف الصورة والمادة : «كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب» ( ٤ : ٥٦ ) .

ولأنها لظى : لهب خالص متوقد من أنفسهم الجهنمية ، لذلك ليست لتقبل بدلاً وفدية ، وانما تدعو وقودها لا سواه ، فهل يا ترى ان النار تدعو وقود غيرها؟ كذالكم هؤلاء الذين هم حطب جهنم ووقودها لا تدعو نارها إلا إياهم ولا ترضى بسواهم ، اصطحاب العلة والمعلول ! .

« تدعوا » : تجذب الى نفسها دون رادع « من أدبر » عن الحق « وتولى » دعوة لإيقادها وصليها :«فأنذرتكم ناراً تلظى . لا يصلاها إلا الأشقى ، الذي كذب وتولى » ( ٩٢ : ١٦ ) « وجمع فأوعى » جمع المال للإيماء دون فائدة شخصية ولا جماعية ، ودون تفهّم ووعي لعوائدها ، وانما ايماء للأموال كأنها هي الغاية ، تبديلاً للوسيلة الى الغاية ، ثم تجميداً للغاية ، وتوقيفاً لرحى الإقتصاد والحركة العمالية والتجارية ، فهؤلاء خطر على البشرية مادية ومعنوية ، وهم وقود لنيران الضلالات والفشل والبتل الاقتصادي ، فلذلك لا تقبل منهم فدية ، وانما يدعون الى ما كانوا جزاء وفاقا .

فمن الناس من يُقبل الى الحق بكلا جزئية : نفسانياً وجسدانياً ، ومنهم من يقبل بجزء ويدبر بالآخر ، ومنهم من يدبر بجسمه ويتولى بروحه عن الحق وهو « من أدبر وتولى » فالادبار عمل الجسم ، فكيانه المادي تأخير وتأخر عن الحياة المادية لإيمائه الثروات ، والتولي عمل القلب اذ يعرض به عن الحق ، فهو بقلبه وقالبه معرض عن الله الى اللهو ، فهو أشر الخليقة ، يصلى النار الكبرى وهو وقودها وهي زبانيته !.

«إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ٢٢ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ٢٣ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ٢٤ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ٢٥ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ٢٦ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ غَيْرُ مَأْمُونٍ ٢٨ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ٢٩ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ٣٠ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ٣١ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ٣٢ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ٣٣ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ٣٤ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ ٣٥»

«**إن الانسان خلق هلوعا**» جزوعا حريصا جبانا ضعيفا لا يصبر: و «خلق الانسان ضعيفا» (٤ : ٢٨) و «خلق الانسان من عجل» (٥ : ٥٧) : مني يعجل حين صدورها، فيعجل المخلوق من هذا العجل في صدوره وروده، فهل ان كونه هلوعا صفة ذم؟ وكيف يخلق الله مذموماً ثم يذمه كأنه من خلق الإنسان! وقد «أحسن كل شيء خلقه» (٣٢ : ٧) ؟!.

نقول: إن هلع الإنسان فيه جهتان: خير كما في تكوينه، وشر اذا عامله الانسان بغير وجهه، فالصالحون يهلعون الى الصلاح والإصلاح كما المصلون حسب الأوصاف المسرودة في هذه الآيات، والطالحون يهلعون ويهرعون الى الطالحات ويتغافلون عن الحسنات، فالصالح يتبنى الهلع المخلوق هو عليه لصالحه، يتبناه لاستكماله، والطالح يتبناه لشقوته، فلا يرجع الذم إلا الى كيفية معاملة الانسان في هلعه، وكما يمدح على حسن عمله في هلعه: «إلا المصلين ...» !

مبدئياً لا بد للإنسان – في سبيله الى الاستكمال – ان يكون هلوعا: حريصا لنفسه، جزوعاً بمس الشر لكي يفر منه، منوعاً عن الخير لكي يجلبه إليه ويمنع من يمنعه عنه، ولكنا هلع الانسان هذا لم يخلق إلا لصالحه ولصالح مجتمعه، ديناً ودنياً وعقبى، فليصرفه الى ما صرفه الله اليه، فليهلع إذا مسه شر في

دينه ، وليمنع من يمس من كرامته اذا مسه خير ، وليهرع مجداً مجاهداً في سبيل الله ، ولكي يتامع في حياته الجيدة المشرفة بلمعان الإيمان .

فالمستثنون المصلون هنا لم يُستثنوا عن أصل الهلع ، الذي هو من خلق الله[1] وانما عن طيش الهلع وفساده وحريته في حيونة الحياة ، وفيما اذا قيد بقيود الشرع والعقل ، واهتدى بهداية السمآء ، أصبح هلعه المخلوق لصالحه كاملا لامما .

« ان الانسان خلق هلوعاً » : هذا بيان الواقع في خلق الإنسان، « اذا مسه الشر جزوعاً واذا مسه الخير منوعاً » وهذا تنديد بالهلوع كيف يصرفه ويتصرف فيه لغير وجهه « إلا المصلين » وهذا تبجيل للهلوع على تصرفه الجميل ان يصرفه في سبيل الصلاح والإصلاح .

فالانسان بطبعه الاولي ، المتحلل عن وحي السمآء ، الهابط الى أرض الشهوات ، هذا الانسان يصرف نعم الله في نقمه ، ويبدل نعمة الله كفراً ، فيحل نفسه في دار البوار فـ « ان الانسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا .. » ولا يدفع خسره ، ولا يبدل عسره الى يسره إلا التمسك بحبل من الله ، والرباط العقائدي والعملي بوحي الله ، لا كلمة تقال باللسان ، ولا شعائر تعبدية ـ فقط ـ تقام ، انما حالة نفس ومنهج حياة تعيش الانسان ككل ويعيشها الإنسان .

فالانسان بما خلق هلوعاً ، وقبل الإستضائه بوحي السمآء : إن هلعه يرجع به الى ضلال :

---

(١) والا اصبح الخالق للهلوع غير الخالق لغير الهلوع ، او ان الخالق الواحد خلق البعض هلوعا مذموما ، والبعض الآخر غير هلوع ممدوحا ، وهذه قسمة في الخلق ظالمة ، ومس من كرامة العدالة الالهية.

« إذا مسه الشر جزوعاً » يتألم للذعته ، ويجزع لوقعته ، ويحسب انه دائم لا كاشف له ، مر مـداً مضروباً عليه ، لا يتوقع تغييراً ، ولا يرجـوا من الله تحويراً ، ولا لنفسه من أسر الشيطان تحريراً ، ومن ثم يأكله الجزع ، ويمزقـه الهلع، ولا يفكر : علّه شر أصابه كردة فعل من شره هو ، فليمسك شره لكي يأمن بأسه ، بدل ان يجـزع ، أو أنه شر أصـابه من الأشرار في سبيله الى ربه فليصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنه الذين لا يوقنون : « ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله » ( ٢٩ : ١٠ ) أو أنه امتحان من الله ليستكمله بما يمسه من الاتعاب ، يمتحنه بهـا دون امتهان ، فلماذا يجزع ؟ أو أنه شر أصابه من ظالمه وهو قادر على دفعه فليدفعه بما منحه الله من نعمة القوة ، فلمـاذا يجزع ؟ أم لا طاقة له به فليصبر وليحتسب عند الله عناءه ويطلب منه جزاءه ، فلماذا يجزع ؟ وعلى أية حال ليس الجزع إلا من الجهـل واللا إيمان وعدم الوثوق بالله ، واللاحساب فيما يجزع به .

« واذامسه الخير منوعاً » : يمنعه عن غيره كانه ملكه من كَدِّيده، فيحتجنه ويختزنه لنفسه ، وكأنه إله نفسه ورازقها ، فما يصيبه من خير ليس رزقاً من الله يمتحنه فيه، وانما من نفسه يحتجنه ، وهذه هي الفكرة الخاطئة القارونية المارده: « قال انما اوتيته على علم عنـدي » ( ٢٨ : ٧٨ ) . ولنفرض انه منك واليك ، فلتكن كريماً بما عندك لا تبخل فيه ، لو انك انت الذي حصلته بلياقة ولباقة ! ولكنه ليس منك ولا لك ، وإنما امانة سمي ملكاً وانت مستخلف فيها، لا تخولُ تعمل فيها ما تشاء : فـ « آمنوا بالله ورسـوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وانفقوا لهم أجر كبير » ( ٥٧ : ٧ ) .

فكيف لا تدرك حقيقة الرزق ودورك فيه ، ولا تتطلع منه إلى خـير عند ربك ، خاوياً قلبك من الشعور ، تهرع وتهلع إلى نفسـك ، كأنك انت فقط ولا مرزوق سواك ؟!

« إلا المصلين ... » : فهم منقطعون عن شر الهلع الى خـيره ، وليس من

الاستثناء المنقطع ، فإنهم أيضاً ممن خلق هلوعاً ، أجـــل « إلا المصلين » ولكن لا كل المصلين ، فكثير منهم يهلعون كمن قبلهم من المذمومين ، وانمـــا المصلين : « الذين هم على صلاتهم دائمون ... » والذين هم على صلاتهم يحـــافظون . أولئك في جنات مكرمون :

إنما الصلاة تذكر – فيما يذكر هنا من الصفات المنجية – مرتين : أولاً وآخراً ، مرة بدوامهم عليها ، وأخرى بحفاظهم عليها ، رعاية لها مرتين: في كمها و كيفها، وهذه هي الصلاة التامة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر : « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » وهي التي تدفع لعامة الخيرات ، وقد ذكر أهمها مع ما ذكر من ترك الفحشاء ، بين البدء والختم من ذكري الصلاة :

من الحفاظ على حق السائل والمحروم ، والتصديق بيوم الدين ، والإشفاق من عذاب الرب ، والحفاظ على الفروج ، وللأمانات والعهود ، والقيام بالشهادات : أركان سبعة للايمان تتوسط بين دوام الصلاة والحفاظ عليها، فالسبعة هي الدين، والصلاة هي عمود الدين ! عمود في البداية وعمود في النهاية ! .

ومن نظائر هذه الآيات ما في سورة المؤمنون [١] : وإليكم تعريفاً بهذه الخصائل الثمان ، وعلها تفتح علينا أبواب الجنـة الثمان :

١- « الصلوة » : « الذينهم على صلاتهم دائمون » : دواماً عليها لأوقاتها ، لا دواماً فيها فانه ليس فرضاً ولا بالامكان الدوام فيها ، وانما عليهـا ، بما يوحي بالسلطة الكاملة لهم لأداء الصلوات المفروضات في أوقاتها .

---

(١) قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فاولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون (٢٣ : ١١)

« والذينهم علىصلاتهم يحافظون» : فهم يحافظون علىشرائطها وأجزاءها ، على ظاهرها وباطنها ، وعلى سائر الواجبات فيها ولهـا ، فيقيمونها على وجهها ، لا يأتونها كسالى وسكارى ولا مثقلين متثاقلين ، بل خاشعين « وانها لكبيرة إلا على الخاشعين » .

فالصلاة هي صلات للعبد بربه ، وانفصال عن المحدود من هـذا الوجود الى اللا محدود من خالق الوجود، يتجرد فيها مقام الربوبية ومقام العبودية في صورة معينة معنية ، والدوام فيها هو الصلة المستمرة التي لا يقطعها كسل ولا فشل ولا بتل ، فانها ليست لعبة توصل أحياناً وتقطع أخرى ، وانما صفة الدوام صورة تمثل دوام العبودية والربوبية وكما في الحديث : « لا تترك الصلاة بحـال » ومن الدوام على الصلاة اتمامها اذا شرع فيها وكما يروى عن الرسول ﷺ : «خذوا من العمل ما تطيقون فان الله لا يمل حتى تملوا » وكان أحب الأعمال الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما دووم عليه وان قل ، وكان اذا صلى دام عليها ، قال الله: « والذين هم على صلاتهم دائمون[1] » .

٢- الحق المعلوم : « والذين في أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم » : هـذا الحق ليس هو الزكاة ، فانها لا تختص بالسائل والمحروم ، ولا انها واجبة على كل من سوى السائل والمحروم ، والآية تفرض فرض حق معلوم للسائل والمحروم على غيرهما ، تعلقت بما له الزكاة أم لا ، دفعها أم لا ، فهـذا من صفات المتقين : « إن المتقين في جنات وعيون ... وفي أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم » ( ٥١ : ١٩ ) وكما يروى عن الامام الصادق عليه السلام : « ان الله تعـالى فرض للفقراء في أموال الأغنياء فريضة لا يحمدون بأدائها وهي الزكاة ، بهـا حقنوا

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٦٦ ـ اخرج ابن حيان عن ابي سلمة عن عائشة عنـه (ص) :

دمـاءهم وبها سمُّوا مسلمين ، ولكن الله تعالى فرض في أموال الأغنياء حقوقاً غير الزكاة فقال سبحانه وتعالى : « والذين في أموالهم حق معلوم » فالحق المعلوم غير الزكاة ، وهو شيء يفرضه الرجل على نفسه في ماله ، يجب عليه ان يفرضه على قـدر طـاقته وسعة ماله ، فيؤدي الذي فرض على نفسه ان شاء في كل يوم وان شاء في كل جمعة وان شاء في كل شهر[1] » .

و « حق معلوم » يوحي : انه لأهليـــه شاء أم لم يشأ ، فليس له أن يصرفه لنفسه أو غير السائل والمحروم ، ولا له أن يعتبره فرعاً وفي هـامش النفقات ، بل هو أصل كغيره من أمواله المصروفه في حـــاجياته الضرورية ، فهما ـ اذا ـ شريكاه في أمواله ، عليه أن يدفع الحق المعلوم اليهما دون منٍّ ولا أذى .

وعليه أيضاً ان يدفع الحق المعلوم منذ حصول المال : « وهـــو الذي انشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه كلوا من ثمره اذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » ( ٦ : ١٤١ ) فحق المذكورات ثابت يدفع يوم حصادها ، سواء أكان زكاتاً كما في النخل وبعض الزرع ، أم غير الزكاة كما في غيرهما ، وعلى حد ما يفتي الفقهاء ، انه ليس فيها زكاة ، فليكن الحق الواجب هنا غير الزكاة ، وكما في صحيحة معاوية بن شريح في خصوص الزرع عن الامام الصادق عليه السلام : « في الزرع حقان حق تؤخذ به وحق تعطيه ، أما الذي تؤخذ به فالعشر ونصف العشر ، وأما الذي تعطيه فقول الله عز وجل : « وآتوا حقـــه يوم حصاده » يعني من حصدك الشيء بعد الشيء ، الضغث بعد الضغث » .

و « حق معلوم » : يعلمه صاحبُ المال وصاحبُ الحق ، فصاحب المـــال يعلمه كما يقتضيه الضمير الانساني المؤمن العطوف ، يقرر نصفاً أو ثلثاً أو مانقص

(١) نور الثقلين ٥ : ٤١٦ عن الكافي في الصحيـح ، ومثله مـع اختلاف يسير في الالفاظ ما رواه القمي عنـه (ع) وما في الكافي عـن الباقر (ع) .

أو زاد كما يستطيع ، وصاحب الحق يعلمه بما يعلم من صاحب المال أو من نفس المال أو أيا كان .

« للسائل والمحروم » : للسائل محروماً وغير محروم ، لحق السؤال ، فهو موضوع الحكم في السائل لا الحرمان ، والذي بذل من ماء وجهه أكثر بكثير من الذي يأخذ !

والمحروم سائلاً كان أم غير سائل ، محروم عن المال ومحروم عن السؤال ، أو محروم عن لقمة العيش ومع السؤال ، كل ذلك لحق الحرمان ، أو ومع السؤال ، فالسائل المحروم أسبق على أحدهما ، والمحروم أسبق على السائل غير المحروم وان تأخر هنا في الذكر ، وعله رعاية للوزن : « حق معلوم ، للسائل والمحروم » .

ومن المحروم « الفقراء الذين احصروا في سبيل الله يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف » ( ٢ : ١٧٣ ) فطالما السائل يبرز حاجته بسؤاله ، فكيف تبرز حاجة المحروم غير السائل ؟ فعلى صاحب المال أن يفتش صارماً دقيقاً رفيقاً علّه يجد محروماً هكذا فينفق عليه بلا منّ ولا أذى ، فما دام حق المحروم في ماله معلوماً ، لا يحق له التأخير عمن هو محروم ، طالما السائل هو يفتش عن صاحب المال ، وهكذا يجب ان يكون المؤمنون الأخوة يستخبر بعضهم عن بعض ، عله يجد ذا حاجة مدقعة مفقرة ، لا أن يكون هلوعاً ، اذا مسه الخير منوعاً ، يفر عن مظان الحاجة والسؤال ، وإذا حوصر به ينكر أنه ذو مال .

٣- التصديق بيوم الدين : « والذين يصدقون بيوم الدين » : لا تصديقاً عقائدياً لا يظهر في الأعمال ، وانما الذي تصدقه الأحوال والأعمال ، تصديق يشفقه من عذاب ربه :

٤- « والذين هم من عذاب ربهم مشفقون » : والإشفاق عناية مختلطة بخوف ، اذا عدي بمن كما هنا ، فمعنى الخوف فيه أظهر ، عكس ما اذا عدي بفي : « انا كنا قبل في أهلنا مشفقين » فالخوف مع الرجاء ، من عذاب الرب ، هو

من لوازم التصديق بيوم الدين ، ولا يأمن عذاب الله إلا الكافرون :

« إن عذاب ربك غير مأمون » : لا واقعاً ولا شعورياً ، لمن له الحساسية المرهفة ، والرقابة اليقظة ، والشعور بالتقصير في جنب الله ، والخوف من تقلب القلب و تفلته .

٥ - العفاف : « والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت ايمانهم فانهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » :

حفظ الفروج : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم » ( ٢٤ : ٣٠ ) والحفظ للفروج ، كما هنا وفي «المؤمنون» فحفظ الفرج عن ان ينظر اليه أو يلمس أو يفعل به ، والحفظ له عن أن يعمل به ما يرغب منه ويترقب له ، ومن التوليد وان كان دون لقاح ، كأن يؤخذ من نطفته فتزرق في رحم محرم عليه : من المحارم ومن المحرمات ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت ايمانهم .

فمن التعدي ألا يحفظ فرجه ولفرجه عن وراء الأزواج والإماء ، في أي من رغبات الفرج أو ما يترقب منه اطلاقاً ، كأن يسمح لزرق لطفته في ارحام غيرهن سواء لذوات البعل العقيمات أم للبنات العذارى أم محارمه ، فان الاستيلاد من أصول ما يرغب من الفروج ، دون اختصاص بالوطىء واللمس والنظر .

وآية التحريم أيضاً تعم دلالة على التحريم : « حرمت عليكم امهاتكم وبناتكم ... » ( ٤ : ٢٣ ) اذ إن المحرم منهن ليس ذواتهن ، وإنما ما يرغب منهن كنساء لا كأناسيّ ، إنما كنساء ، من النظر واللمس والوطىء والإستيلاد ، بأية طريقة حصلت .

لا نجد اطلاقات في الكتاب والسنة تلمح الى حلية زرق النطفة ، فلا سند لتحليله ، وهنا اطلاقات تمنع كما هنا وفي آية التحريم ، والآيات التي تمنع عما وراء الازواج وما ملكت الايمان ، والصور المتصورة من زرق النطفة كالتالية :

١ ــ زرقها في الأزواج بلقاح أو سواه، ولا بأس بالثاني عند الضرورة وإلا فالأحوط تركه، ويلحق بها الولد اطلاقاً وفي كافة الأحكام.

٢ــ زرقها في ارحام المحارم نسبياً أم سببياً وهو حرام قطعاً سواء بلقاح أم سواه، ولا يجوز للغير زرقها في ارحام محارم اصحاب النطفة، اذ منع عن المحارم اطلاقاً، وفي لحوق الولد بصاحب النطفة تردد، والأشبه عدم اللحوق للحصر المستفاد من الحديث «الولد للفراش وللعاهر الحجر»، والعهر من الموانع وليس المانع الوحيد، اذ ان الفراش هو الدافع الوحيد للحوق ولا فراش هنا.

٣ــ زرقها في ارحام النساء الأغارب، سواء العذارى أم ذوات البعل، وان كان البعل عقيماً، ولا يلحق الولد هنا بالبعل قطعاً وفي لحوقه بصاحب النطفة تردد أشبهه العدم لما تقدم، إلا عند الشبهة فيلحق.

كل ذلك لاطلاق المنع عما وراء الأزواج، الشامل للاستيلاد، بل هو أهم ما يرغب من النساء كنساء، ويجوز كل شيء بالنسبة لهن كبشر لا كنساء، فالممنوع معاشرتهن أو الاستفادة منهن فيما يرغب منهن كنساء وأهمه الاستيلاد.

ومن المؤيدات هنا ما عن الصادق عليه السلام قال: «ان أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجلاً أقر نطفته في رحم يحرم عليه[1]» والإقرار يعم اللقاح المنفصل وهو الزرق، والمحرم هو القرار الحرام سواءٌ أكان بفعل صاحب النطفة أم سواه.

وعن الرسول الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «لن يعمل ابن آدم عملاً أعظم عند الله

---

(١) وسائل الشيعة ج ٧ ص ٢٣٩ ب ٤ محمد بن يعقوب عن علي بن ابراهيم عن ابيه عن عثمان بن عيسى عن علي بن سالم عنه (ع) ورواه الصدوق في عقاب الاعمال عن علي بن احمد بن عبدالله عن ابيه عن جده احمد بن ابي عبدالله عن ابيه عن عثمان بن عيسى، ورواه البرقي في المحاسن مثله.

عز وجل من رجل قتل نبياً أو إماماً أو هدم الكعبة التي جعلها الله قبلة لعباده أو أفرغ ماءه في امرأة حراماً [١] » .

أقول : وهذا يعد من اغتصاب الفرج : « وقد سئل ابو جعفر الباقر عليه السلام عن رجل اغتصب إمرأة فرجها ، قال : يقتل محصناً كان أو غير محصن [٢] » .

ثم الازواج تعم الدائمات والمنقطعات وملك اليمين عيناً أو منفعة ، كالامة الموهوب وطئها مع شروطها .

وهكذا يريد الله للجماعة المسلمة أن تكون عفيفة ، تلبي دوافع الجنس دون فوضى ترفع الحياء ، قائمة على أساس الأسرة الشرعية ، فيها يعرف كل ولد والديه يغلق كافة أبواب الفجور والاتصالات الجنسية الفوضى ، في حين يفتح أبواب الزواج وملك اليمين على حدودهما الشرعية .

٦ و ٧ — الأمانة والعهد : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » : أماناتهم الإلهية كالعقل والتكليف لكافة العقلاء ، وعلوم الشريعة لحملة الرسالات والأمانات البشرية كالأموال المؤتمنة والأعراض المعروضة كأمانات .

وعهدهم : الذي عاهد اليهم الله : « ألا تعبدوا الشيطان » والذين يعاهدون الله ، وما يعاهدون عليه الناس وإن كانوا كافرين ، إلا إذا أخلفوا فلهم أيضاً أن يُخلفوا « واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء » ( ٨ : ٥٨ ) « فما استقاموا

---

(١) المصدر محمد بن علي بن الحسين عنه (ص) ورواه في الخصال عن محمد بن الحسن عن سعد عن القاسم بن محمد عن سليمان بن داود عن غير واحد من اصحابنا عن ابيعبدالله (ع) قال : قال النبي (ص).

(٢) المصدر ب ٨ ج١ محمد بن يعقوب عن علي بن ابراهيم عن ابيه وعن محمد بن يحيى عن احمد بن محمد جميعا عن ابن محبوب عن ابي ايوب عن بريد العجلي قال : سئل ابو جعفر (ع) ... اقول : والاغتصاب يوحي بان المراة كانت ذات بعل ، فالمغتصب يقتل محصنا ام غير محصن .

لكم فاستقيموا لهم » ( ٩ : ٧ ) فالمبدء الأصيل في العهد أن يوفى به إلا أن يخلف المعهود له فيخلف عليه جزاء وفاقاً .

إن رعاية الأمانات والعهود تبدأ من رعاية الأمانة الكبرى التي عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوماً جهولاً ، فهنا وفي آيات عدة يأمر الله الانسان الهلوع أن لا يحمل الأمانة خائناً فيها ، بل يؤديها ويراعيها .

٨ – القيام بالشهادات : « والذين هم بشهاداتهم قائمون » : قياماً بالشهادات الإلهية لحملة الرسالات، التي هي شهادات إلهية ، وقياما بالشهادات البشرية تلقياً والقاء لها ، أن يتلقوا الشهادات لـكي يلقوها إذا مادعوا ، ولا يقعدوا ويسكتوا عنها « ولا يأبى الشهداء إذا ما دعوا » (٢ : ٢٨٢) .

فحدود الله تقام بالشهادات ، والتخلفات عن شريعة الله تعرف بالشهادات ، والحفاظ على حقوق الناس وأعراضهم وعقائدهم تعرف بالشهادات ، فلابد من قيام الشهادة لله والقيام بها « وأقيموا الشهادة لله » حتى تقام وتنفذ شريعة الله .

فهذه أبواب ثمان إلى جنة الرضوان ، إلى حياة سليمة مسلمة يوم الدنيا ويوم الدين ، بها يكافح هلع الانسان السيء ، فيبدل إلى هلع صالح في تحصيل المحامد ، وتبنّي الحياة الجديدة المجيدة ، ولقد كرّرت فيها الصلاة دواماً وحفاظاً عليها ، قبل السبعه وبعدها ، كأنها المحافظة على هـــذه السبعة ، ولـكي لا تتبدل أبواباً جهنمية ، وهذا هو الحق يقال : « الصلاة عمـود الدين إن قبلت قبـل ما سواها وإن ردّت رد ما سواها » ، فغير المحافظ وغير المداوم على صلاته لا تأتي منـــه هذه الخيرات السبع ، وإن أتت فهي صور مجردة عن معانيها المعنيّة ، وطالما فرّعت هذه السبعة على الصلاة ، نعرف أنها من نتـائج الصلاة القائمـة والدائمة المحافظ عليها : « الا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمـــون ... والذين هم على صلاتهم يحافظون » :

« أولئك في جنات مكرمون » : جنـــات مزدوجة : نفسية وجسدانية ،

بعضها مع بعض دون فراق ، فالكرامة في الجنات جنة روحية ، إضافة إلى سائر الحظوظ الروحانية ، ونفس الجنات حظ جسداني .

«فمالِ الذين كفروا قِبَلكَ مُهطِعين ٣٦ عن اليمين وعن الشمال
عزين ٣٧ أيطمعُ كلُّ امرىءٍ منهم أن يُدخَلَ جنةَ نعيم ٣٨ كلا
إنا خلقناهم مما يعلمون ٣٩ فلا أقسم برب المشارق والمغارب
إنا لقادرون ٤٠ على أن نبدّل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين ٤١
فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ٤٢
يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نُصُبٍ يوفضون ٤٣
خاشعةً أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون ٤٤»

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

« فمال الذين كفروا قبلك مهطعين » ما لهم على كفرهم بالله ويوم الحساب وبرسالتك ، قِبَلك : عندك حافين بك ، مهطعين : شاخصين بأبصارهم اليك : «مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم » « مهطعين إلى الداع » : شخوصاً بأعينهم اليك بغضاً وعدواناً وكفراً وطغياناً .

«عن اليمين وعن الشمال عزين» : جماعات في تفرقة إذا كانت من عزة ، وعلى حدّ المروي عن الرسول الأقدس (ص) (١) أو : متبصرين إن كان من عزاء ، أو

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٦٦ عن عبادة بن انس قال دخل رسول الله (ص) المسجد فقال مالي اراكم عزين : حلقا حلق الجاهلية ، قعد رجل خلف اخيه ، وعن جابر بن سمرة قال : دخل علينا رسول الله (ص) المسجد ونحن حلق متفرقون فقال : مالي اراكم عزين .

بالأحرى : جماعات متصبرين عليك في شخوصهم اليك بأبصارهم ، متفرقين في تصاميمهم السامة ضدك ولأن مبادئهم الضالة متضادة على ضلالها ! ومتفرقين في تجمعاتهم حسب عادة الجاهلية .

وقد يطمع كل امرىء منهم – على كفره – أن يدخل جنة نعيم ، أرجاء أن لو كانت واقعاً ، أو استهزاء بالرسول والذين آمنوا معه ، والهزء هنا يلمح من التنديد بنكرانهم حياة الحساب : « كلا انا خلقناهم مما يعلمون » !

« أيطمع كل امرىء منهم ان يدخل جنة نعيم » : تلمح الآية أنهم طمعوا ، ولكونهم كافرين نلمح انه طمع استهزاء ، وقد ورد انهم كانوا يقولون : « إن كان الأمر على ما قال محمد فان لنا في الآخرة عند الله أفضل مما للمؤمنين كما اعطانا في الدنيا أفضل مما اعطاهم » فلقد كان طمعاً منهم هازئاً ، لا رجاء بإيمان وتصديق.

« كلا إنا خلقناهم مما يعلمون » : كلا : لا يدخل امرؤ منهم جنة نعيم ، كلا : وليس كما يزعمون أن لاحياة بعد الموت ولاحساب ، فـ « انا خلقناهم مما يعلمون »: من نطفة قذرة لم تكن شيئاً مذكوراً ، فخلقناهم منها في أحسن تقويم ، وليس بعثهم أصعب من خلقهم أول مرة ، بل هو أهون : « أفعيينا بالخلق الاول بل بل هم في لبس من خلق جديد » ( ٥٠ : ١٥ ) .

ولقد قرأ النبي ﷺ الآيات ثم تفل على كفه ووضع عليها اصبعه وقال : يقول الله : ابن آدم ! أنى تعجزني ؟ وقد خلقتك من مثل هذا حتى اذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين ، وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أتصدق وأنى أوان الصدقة ! »[1] .

« فلا اقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون . على ان نبدل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين » : لا حاجة إلى القسم ، وحق برب المشارق والمغارب ،

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٦٧ – اخرج البيهقي في شعب الايمان عن بشير قال : قرء رسول الله (ص) هذه الآية ..

فبدون أي قسم بأي برهان ــ لأن أقسام القرآن براهين ــ إن القدرة الإلهية ظاهرة باهرة على ان له تبديلكم خيراً منكم ، أفلم يبدل النطفة انساناً في أحسن تقويم ؟ فله تبديل الخير ايا كان ، في الدنيا أن يذهبكم ويأتي بخلق جديد : « يا ايها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغني الحميد . إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد . وما ذلك على الله بعزيز » ( ٣٥ : ١٦ ) أو خيراً منهم في حياة الحساب ، بتبديل اجسادهم هذه إلى ما هي خير منها وأخلص وأثبت وأبقى كما هو الحق في حشر الأجساد : «وما نحن بمسبوقين على ان نبدل امثالكم وننشأكم فيما لا تعلمون » ( ٥٦ : ٦١ ) .

فله التبديل إلى خير ايا كان ، إلى خير في نفسياتهم كأن يبد لهم بمؤمنين ، أو خير في اجسادهم كأن يبد لهم بأمثالهم ، بأجساد لهم كاجسادهم ، مماثلة من جهة، وخيراً منها من جهة ثانية لكون الأجساد المعادة أخلص وانقى فهي ابقى . « برب المشارق والمغارب » : هنالك مشارق ومغارب كما هنا وفي الأعراف : « واورثنا القوم الذين يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها » ( ٧ : ١٣٧ ) ولكنما الاولى تعم مشارق الارض ومغاربها ، والثانية تخص الارض ، وفي الصافات المشارق فقط : « رب السماوات والارض ورب المشارق » .

وهناك المشرقان والمغربان : « رب المشرقين ورب المغربين » ( ٥٥ : ١٧ ) أو المشرقان فقط : « حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين وبئس القرين » ( ٤٣ : ٣٨ ) .

وهنالك المشرق والمغرب : « رب المشرق والمغرب لا إله الا هو فاتخذه وكيلا » ( ٧٣ : ٩ ) .

فكيف التوفيق بين هذه الثلاث في مشرق الشمس ومغربها؟.

اقول : المشرق والمغرب هما الجهتان المتقابلتان بما فيهما الأخريان : الشمال

والجنوب ،فبما أن شروق الشمس يكون دائماً من جهة مهما تجولت فيها، وكذلك غروبها ، لذلك وحد كل منهما في آيات .

واما المشرقان والمغربان فلأسباب عدة : منها ضم الجهتين الفرعيتين الاخريين اليهما ، الشمال في إحداهما والجنوب في الأخرى ، تغليبا للأصليتين في التعبير، ومنها أن لكل نصف من كرتنا الأرضية مشرق ومغرب خاص هما المشـرقان والمغربان ، ومنها أن لكل من الصيف والشتاء ، للشمس فيه غاية ارتفاع وغاية انخفاض هما المعنيان ، وفيما اذا ذكر أحدهما كما في الزخرف : « بعـد المشرقين » فالمقصود المشرق والمغرب تغليباً للمشرق ، تفضيلاً للشروق على الغروب .

ثم المشارق والمغارب ، ففي المطلق منها يعني ـ فيما يعـني ـ المشارق لكل الشموس والنجوم الشارقة ، وكذا المغـارب ، وفيما اختصا بالأرض فمشرق كل يوم ومغربه يدور على عدد أيام السنة ، وعلى حـد المروي عن علي عليه‌السلام لها ثلاثمائة وستون مشرقاً وثلاثمائة وستون مغرباً ، فيومها الذي تشرق فيه لا تعود فيــه من قابل » [١] ، وأكثر من ذلك ، لكل أفق الشمس على أرضنا شروق وغروب ، وبموجبه كان التكليف في أوقات الصـلاة حسب أوقات الشروق والغروب للآفاق كما في الحديث : « أنت مكلف لمشرقك ومغربك » .

ومما توحيه هـذه الآيات هو كروية أرضنا ، وإلا لم يكن لهـــا إلا مشرق ومغرب واحد .

« فلا أقسم برب المشارق والمغارب » : ليس الأمر بحاجة إلى قسم ، وإنما التلويح بذكرهما يوحي بعظمـــة الخالق وسعـــة قدرته ، إذ يشرق الأرض ويغربها حسب تدبير زمني محسوب بالآنات أثناء دوران الأرض حـــول نفسها أمام الشمس ، فهـــو أيضاً المشرق للأبدان بأنوار الأرواح ، والمغرب لهـــا بإزهاقها ــ سواء .

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٢٠ في كتاب معاني الاخبار رفعه اليه (ع) : ورواه في الاحتجاج عنه (ع) مثله .

« انا لقادرون على أن نبدل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين » : وكما بدلنا نطفهم خيراً منها إذ جعلناها في أحسن تقويم ، كذلك سوف نبدل اجسادهم البالية خيراً منها ، ما يناسب الخلود ، بتخليصها من بواعث الأمراض والأعراض المؤدية إلى الموت ، لحد لايقضى على أهل النار فيموتوا ، **لا يقضى عليهم فيموتوا** ومن خيرها أنها البدن الأصيل متحللا عن الزوائد من أبدان آخرين أو غيرها ، اذ إن في احيائهما مع غير ابدانها إبطالا لإحياء الآخرين وجزائهم الجسداني ، واحياء الزوائد من غير الابدان لغو لايفيد،لأن الهدف من إحياء الأجساد ايصال الجزاء إلى ارواحها العاملة بها ، ويكفيه البدن الذي عاشه طوال حياة التكليف أو حياته كلها .

ومن خيرها انها رقيقة كانها الهواء أو اخف والطف، وعلها الطينة التي خلقت منها ، وعلى حد المروي عن الامام الصادق عليه‌السلام حين « سئل عن الميت يبلى جسده ؟! قال : نعم ، حتى لا يبقى لحم ولا عظم إلا طينته التي خلق منها فانها تبقى مستديرة في القبر حتى يخلق منها كما خلق أول مرة »[1] .

وعل الآيات في خلق الأمثال يوم المعاد ، ترمي إلى هذه الأبدان الروحانية الصافية البراقة ، تذوق نعم الله في جنته ، أم نقمه في ناره : « وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون » ( ٥٦ : ٦١ ) نحن السابقون على القدرات لا مسبوقون على أن نبد لكم أمثالكم وهو الخلق الجديد : « بل هم في لبس من خلق جديد » وهو مثل الخلق القديم في الصورة ، لاعينها ، لاستحالة اعادة المعدوم ، وهو مثله في الجسم لا عينه في كله ، وانما كحالة تجردية كالبدن البرزخي، وكالنور، ومصدره البدن الذي عاشه حياته أو حياة التكليف .

وكذلك الآيات فيمثل الخلق الجديد انه كالبدء : « كما بدأكم تعودون »

---

(١) نبدل تطلب مفعولين ثانيهما مذكور وهو « امثالكم » فالاول هو « كم » وهو الخلق الجديد .

( ٧ : ٢٩ ) « كما بدأنا أول خلق نعيـده » ( ٢١ : ١٠٤ ) ولقد بدأنا بالنطفة فليعدنا بنفس النطفة التي خلقنا منها أول مرة ، ثم لا حاجـة إلى الزوائد يوم المعاد ، فانها بين ما لا تنفع ، وما تضر ، وسوف نفصل البحث عن كيفية الحشر معمقاً في مناسباتها الأخرى .

« فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون » :فاذ لا تنفع هؤلاء المناكيد الأوغاد ، أية حجة وذكرى ، فذرهم على ما هم فيه خائضون من نكران الحق والهزؤ به ، وذرهم يلعبوا بمغريات الحياة الدنيا ، حتى يلاقوا اليوم الموعود ، البـادىء بما بعد الموت يوم البرزخ ، ثم إلى يوم الحشر، ويعتبران يوماً واحداً اعتباراً بانقضاء التكليف وابتداء الجزاء بالموت [1] .

« يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون » : هنـا يختص يوم القيامة بالذكر من يومي الجزاء ، لأنه الأصل والبرزخ كتهيئة .

في هذا اليوم يخرجون بأجسادهم من اجـداثهم : قبورهم ، مسرعين ، كأنهم يسرعون إلى نصب منصوبة أعلاماً لمن لايعرف الطريق .

« خاشعة ابصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون » : « خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر » ( ٥٤ : ٧ ) « خاشعين من الذل » ( ٤٢ : ٤٥ ) ومن الرهبـة « إذ القلوب لدى الحناجر » « قلوب يومئـذ واجفة . ابصارها خاشعة » ( ٧٩ : ٩ ) فأبصار العيون والقلوب تخشع واجفة ، «ترهقهم»: تشملهم بقهر «ذلة » وتغشاهم ، « ذلك» اليوم العصيب الرهيب «اليوم الذي كانوا » طوال الرسالات وطول حياتهم « يوعدون » عنه وهم ناكرون، وقد كانوا يرتابون فيه ويكذبون به ويستعجلون .

---

(١) ولا يعنى هنا خصوص الحشر اذ لا يعقل استمرارية الخـوض واللعب اليه ، حيث الدنيا بما فيها تنقطع بالموت وبه تقوم القيامةالصغرى، و « حتى » تفيد استمرارية الخوض واللعب ـ تأمل .

## سورة نوح ـ مكية ـ وآياتها ثمان وعشرون

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ
أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١ قَالَ يَا قَوْمِ
إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ٢ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣ يَغْفِرْ
لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللهِ
إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٤ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ
قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً ٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً ٦ وَإِنِّي كُلَّمَا
دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ
وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً ٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً ٨ ثُمَّ
إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً ٩ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا
رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً ١١
وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ

أَنْهاراً ١٢ مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلّهِ وَقاراً ١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ
أَطْواراً ١٤ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً ١٥
وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً ١٦ وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ
مِنَ الأَرْضِ نَباتاً ١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها وَيُخْرِجُكُمْ إِخْراجاً ١٨
وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِساطاً ١٩ لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلاً فِجاجاً ٢٠
قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ وَوَلَدُهُ
إِلاَّ خَساراً ٢١ وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً ٢٢ وَقالُوا لا تَذَرُنَّ
آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُواعاً وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً ٢٣
وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلا تَزِدِ الظّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً ٢٤ مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ
أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصاراً ٢٥
وَقالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيّاراً ٢٦
إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فاجِراً كَفّاراً ٢٧
رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِناتِ وَلا تَزِدِ الظّالِمِينَ إِلاَّ تَباراً ٢٨ ».

* * *

اولى الرسالات الفذة الإلهية يحملها اول الخمسة من اولي العزم من الرسل، نوح عليه السلام ، وقد ذكر بدعواته وما لا قاه بسببها من قومه ٤٣ مرة في القرآن ، منها مدى دعوته : « ولقد ارسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم الف سنة الا خمسين عاماً فاخذهم الطوفان وهم ظالمون » ( ٢٩ : ١٤ ) . وهو اللبث الرسالي لذكره هنا بعد الرسالة ، وقومه هم بنو الجن والانسان كافة [١] كما في اولي العزم كافة ، ولذلك حق له ان يدعو على من على الارض من الكافرين: « رب لا تذر على الارض من الكافرين دياراً » فلو لم تشملهم دعوته لم يحق له هكذا دعاء شامل ، ومن لطيف الأمر في دعوته الاليفة الرحيمة طوال قرونه العشرة ان القرآن يعتبره أخاهم : « إذ قال لهم اخوهم نوح ألا تتقون » ( ٢٦ : ١٠٦ ) فانها اخوة لهم فيما سوى الايمان : ان نشأ في البيئة التي نشأوا فيها فلم يتأثر بضلالها ، وعاشرهم ودعاهم إلى الله كأخ رحيم ، إلى ان تأكد بالوحي ان لا خير فيهم وفي أنسالهم ، فانما هم شر خالص : « إنك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً » فقد صبر على اذاهم المتواصل طول الدعوة علّهم يؤمنون ، فهل يصبر إذا انقطع الأمل وتفاقم العناد منهم في ضلالهم ضد الدعوة والمؤمنين بها ، إنه صبر على الظلم والضيم وعلى انتقاص شريعة الله وانتقاص دعوته ، ولا يرضاه العقل والعدل !

## الشريعة الأولى

هل إن شريعة نوح عليه السلام هي الاولى فلم تكن قبله شريعة من الدين مع أي من النبيين ؟ ام كان الوحي إليهم يحمل تقوية الأحكام العقلية دون أن يحمل احكاما شرعية ؟ ام لم يكن قبل نوح أنبياء ؟ لا سبيل إلى الأخير والأولان هما الأوليان .

فإن القرآن لايذكر من شرائع الدين إلا خمساً محتصرة : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٢١ عن الباقر (ع) فاما نوح فانه ارسل الى من في الارض بنبوة عامة ورسالة عامة .

أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » (٤٢ : ١٣) « انا اوحينا اليك كما اوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ... » ( ٤ : ١٦٢ ) .

واصحاب الشرائع الخمس هم اولوا العـزم من الرسـل : عزمٌ لهم في استقلال شرائعهم وثباتها إلى شريعة أخرى تنسخها تكميلا لها : « بعثوا إلى شرق الأرض وغربها وجنها وانسها »[١] وعزم لهم « في سبقهم الأنبياء إلى الإقرار بالله »[٢] وثباتهم على عهد الله المعهود اليهم : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما » (٢٠ : ١١٥) وعزم لهم في الصبر على وعثاء السفر واتعـاب السفارة الإلهية : « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم » (٤٦ : ٣٥) فقد « عزموا على الصبر مع التكذيب لهم والاذى »[٣] فهم « الذين دارت عليهم الرحى »[٤] رحى الوحي بشرائع الدين.

فهم عظماء ثابتون في عزمهم في انفسهم وعهودهم وشرائعهم وكتبهم ، وليس منهم آدم وادريس قطعا ، فلم يحملا اذاً شريعة من الدين ، وانما احـكاماً عقلية مؤيدة بوحي النبوة ، فشرائع الدين بحملتها الأصول ، ودعاتها الفـروع : النبيين الأتباع ، إنها ابتدأت بنوح بعد ما كان الناس أمة واحدة في الضلالة ، ولانقطاع دعوة النبيين عنهم ، عائشين في الفترة بين ادريس ونوح ، كما بين آدم وادريس : « كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيـه وما اختلف فيه الا الذين اوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدي من يشـاء إلى صراط مستقيم » (٢ : ٢١٣) « وما كان الناس إلا امة واحـدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون » ( ١٠ : ١٩ ) .

---

(١) ج١١ بحار الانوار ص ٣٣ ح٢٥ و ح٦١ عن الصادق (ع) .
(٢ و ٣ ) ج١١ بحار الانـوار ح٣٠ عن الباقر (ع) .
(٤) كما في احاديث عدة .

كانت الوحدة سائدة بين الناس قبل الرسالات ، فهل يا ترى انها وحدة في الهدى دون رسالة إلهية ، ولم تتحقق الوحدة الدينية مع الرسالات ؟ كلا ، انهم كانوا ضلاً لا أجمع ، لعدم شرايع الدين وقتذاك ، وتحللهم عن شريعة العقل المؤيد بوحي السماء .

ومهما كانت الضلالة سائدة على البشرية قبل شرائع الدين ، فانها ضلالة عن تقصير وقصور ، قصور زال بشرائع الدين ، وتقصير في التحلل عن شريعة العقل الوحيد ، أو عقل الوحي التي حملتها غير اولى العزم من غير أصحاب الشرائع ، كآدم وادريس ، يوحي بذلك ما يحمله نوح في مستهل رسالته :

« إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب اليم » :

فاذا لم تكن قبل نوح أية شريعة قاطعة للعذر ، داعية إلى الحق ، فما هو العذاب الاليم الذي يهددهم به نوح عليه السلام : وانذر قومك من قبل ان يأتيهم » فلولا الانذار من نوح - ايضا - لكان يأتيهم عذاب اليم ، ولكن الله يكمل حجته وانذاره باول شريعة من الدين ، بعد ما ثبتت الحجة بشريعة من العقل ، فشرائع العقل بالوحي وسواه ، وشرائع الدين ، هما متناصرتان في اثبات الحجة ومزيدها على الناكرين ، والقرآن يشير إلى رسل قبل نوح : « وقوم نوح لما كذبوا الرسل اغرقناهم وجعلناهم للناس آية » ( ٢٥ : ٣٧ ) ولو لم يكن رسل قبل نوح لما صدق تكذيبهم لجمع الرسل ، واقله اثنان أو ثلاثة ، وفي المروي عن الباقر عليه السلام انهم كانوا عشرة [١] .

فلا تخلوا - اذا - الفترات الرسالية ، من حجج بالغة ، الفترة قبل شرايع الدين ( بين آدم وادريس وبينه وبين نوح ) وبين شرائع الدين ( كما بين المسيح

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٢١ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسناده الى محمد بن الفضل عن ابي حمزة الثمالي عن ابيجعفر (ع) : كان بين آدم ونوح عشرة آباء كلهم انبياء .

ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم) مهما كانت الحجج ابلغ واقوى في غير الفترات الرسالية، فإنما يُذاقُ الله الناس في الحساب على قدر ما أوتوه، كما يقتضيه عدله وحكمته البالغة.

ونوح عليه‌السلام يحمل في مستهل الدعوة وفجر الرسالة، الدعوة إلى أصول ثلاثة هي خلاصة الأساس في الرسالات الإلهية كلها، مهما افترقت في التخطيط والتفريع والعمق والبساطه والشكليات المناسبة لكل جيل:

«قال يا قوم اني لكم نذير مبين. ان اعبدوا الله واتقوه واطيعون».

«إني لكم نذير» عن عذاب الله في الدارين، ان تركتم هذه الأصول «نذير مبين»: مبين لجذور الإنذار وأسبابه، مبين عملا واقعاً جزاء ترك الشريعة، ومبين كذلك من هنا نتائج تطبيقها.

«أن اعبدوا الله»: فعبادة الله وحدها، وكأوّل الفرائض، هي منهج كامل للحياة، تشمل التعرف إلى الوهيته والعمل لعبوديته، وانها الصلة الوحيدة العريقة بين العبد والمعبود، وينشق نظام الحياة عنها، وهي تشمل توحيده في سائر شئون الالوهية، وتطبيق الواجبات الشرعية تجاهه تعالى.

«واتقوه»: تقوى الله في عبادته فلا يُعبد معه سواه، وفي طاعته فلا يُطَع معه سواه، وفي حرماته فلا تهتك، انها هي الضمانة الحقيقية لاستقامة الإنسان على الثبات في عبادته، وعدم التلفت والتفلّت عنه أو الالتواء في تطبيقه.

«واطيعون»: وطاعة الرسول أولاً وأخيراً هي الوسيلة الوحيدة للتعرف إلى عبادة الله وتقواه المقصودة الصالحة، اذ لا تعرف إلا بالوحي ولا سيما الذي يحمله اولوا العزم من الرسل الذين دارت عليهم الرحى.

وهكذا نجد البرامج الرسالية طوال عهودها، تحمل هذه البنود البنـاءة كاصول الدعوة بالانذار والتبشير، ثم الفروع تتبناها مهما اختلفت باختـلاف المصالح والبيئات، وليبلوهم الله تعـالى فيما آتاهم: «لكلٍّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون» (٥: ٤٨).

والشرائع هي شرائع الدين وهو واحـد برغم اختلافها في شكلياتها ، فالدين هو الطاعة لله الواحد القهار ، مهما اختلفت صورها وسيرها : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا وما اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » (٤٢ : ١٣) اقيموا الدين الواحـد في شرائعه ، فالدين واحد والامة واحدة : « إن هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون » ( ٢١ : ٩٢ ) .

فهل توجد شريعة من شرائع الدين لا تتبنى كأصول ـ هذه الثلاثة؟والشاذة عنها أو عن واحدة منها ليست شريعة إلهية أو هي محرفة.

ونتيجة هامة عامة تنجم عن اعتناق هذه الثلاثة اضافة إلى سـائر نتائجها الدنيوية والاخروية أمران :

**« يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون » .**

غفر الذنوب ـ بعضها لا كلها ـ فان « من » يوحي بالتبعيض ، وهذا البعض ليس إلا مما سلف في زمن الكفر : « قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وان يعودوا فقد مضت سنة الاولين » ( ٨ : ٣٨ ) .

والبعض المغفور هو الحقوق الإلهية المضيعة زمن الكفر ، وذلك بشـرف الإيمان ، واما البشرية الضائعة فلا تغفر بالإيمان ، انما بالاصلاح وارضاء اصحابها ، مناسبة الحكم والموضوع ، فان الإيمان بالله ليس ليُضيع حقوق الناس .

وليس من العدل والحكمة في التشريع غفران الذنوب الآتية بسند الإيمان السابق ولو دام ، فان الإيمان لزامه الدفع للصـالحات ، لا أن يغفر صاحبه إذا تخلف عنها إلى الطالحات ، ولزام الغفران هكذا الغـاء التكاليف الإلهيـة بسبب حصول مبدء التكليف ودافعه : الإيمان .

اجل : « يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم » ( ١٤ : ١٠ ) « يا قومنـا اجيبوا

داعي الله وامنوا به يغفر لكم من ذنوبكم » ( ٤٦ : ٣١ ) وفيما يوحي بالغفر العام فهو بين مخصَّص بهذه الآيات ، وخاص بالذنوب وهي الصغائر المكفرة بالإيمـان وبترك الكبائر ، ومذكور فيه بواعث الغفران فيحدد بحـدودها كما توحيه : « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله باموالكم وانفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم . واخـرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين » ( ٦١ : ١٣ ) .

« ويؤخركم إلى أجل مسمى » : وهو المحتوم الثابت الذي لايؤخر ، وقبله الأجل المعلق على بواعث وحوادث للموت ، سواء من صاحب الاجل . مخيراً أم مسيراً ، ام من غيره ، ام من الله ، وكل من الله دون منافاة لخيرة الخلق .

والتأخير عن الأجل المعلق ببواعثها إلى الأجل المسمى المحتوم قد يكون نعمة ليكسب صاحبه فيها مزيداً من الإيمـان والعمل الصالح ، كما هنا ، جزاء الحسنى بالحسنى ، وكما في آيات تترى : « ثم توبوا اليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى » ( ١١ : ٣ ) « يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى » ( ١٤ : ١٠ ) .

وقد يكون نقمة لا تكسب إلا اثما وعذاباً مهيناً : « ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين » ( ٣ : ١٧٨ ) .

كما ان من التعجيل عن الأجـل المسمى نعمة كمن يقتل في سبيل الله ، ومن يعجل في موته كيلا يفوت عنه ما حصل من صـالح ، ولا يكسب في المستقبل ما يخسره من طالح .

« إن اجل الله إذا جاء لا يؤخـــر لو كنتم تعلمون » : وهذا التعليل يحمل بشارة وانذاراً ، بشارة لمن آمن فيؤخر إلى الأجل المسمى ليكمل ، وليس بمؤخره لولا إرادة الله ، فان اجل الله لا يؤخر ، لا محتومه اطلاقا ، ولا معلقه إذا جاء ، فلا مؤخـــر له إلا الله ، وليس هو بمؤخره رحمة إلا لمن تاب وآمن . ويحمل

انذاراً لمن بقي على الكفر، فان أجله المعلق إذا جاء لا يؤخر إلى المسمى.

فهنا الأجل كلا الاجلين ، وكون المعلق اجل الله اعتباراً بان الموت لايتحقق إلا بارادته مهما توفرت بواعثه ، وان الحياة لا تبقى إلا بارادته مهما توفرت عواملها ، فله التأجيل إلى الأجل المسمى فاذا جاء لايؤخرقط ، وله التعجيل عن المسمى ، فاذا جاء لا يؤخر إلا باذنه ، اذاً فلا منافاة بين عدم تأخير اجل الله ، وأنه يوخره إلى المسمى .

فلا يحسبن احد ان اجله بيده ، او ان له تأجيل أجله أو تعجيله، انما له تقديم دوافع الموت قبل أجله المحتوم ، ثم إذا شاء الله أماته ، وله تقديم دوافع التأجيل إلى المسمى كالايمان ، وقد يشاء الله تأجيله ان كان لصالحه .

**« قال رب اني دعوت قومي ليلا ونهاراً . فلم يزدهم دعائي إلا فراراً » .**

عرض نموذجي لما بلغه نوح من رسالات الله، وما لاقاه وعاناه من قومه طوال الدعوة مع ما كان منه من صبر على الوان الأذى طوال الف سنة إلا خمسين عاماً: « وقوم نوح من قبل إنهم كانوا اظلم واطغى » ( ٥٣ : ٥٢ ) .

هذه الدعوة كانت متواصلة ليل نهار دون ملل ولا كلل ولا خلل ، دون أن يمله عدم الاجابة، أو تكِلّه مواصلة الأذى ، يعرضها نوح في نهاية الأمد الطويل من دعوته ومستهل دعائه عليهم بعد الإياس من خيرهم والتأكد من شرهم ومَن في أصلابهم .

« فلم يزدهم دعائي إلا فراراً » : هل لأن دعوته كانت قاسية يُفر منها ؟ ام لانها كانت ناقصة لا تحمل حججا تقبلها الفطر والعقول ؟ ام لانهم هم كانوا اظلم واطغى ، ودعوة الحق لا تزيد دعاة الباطل العنيدين إلا ضلالاً بما يصرون في عتوهم ونفورهم ونكيرهم للحق الصراح : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا » ( ١٧ : ٨٢ ) إذ يخسرون فيها الدعوة والداعي ويبدلون الرحمة عذاباً وخساراً : « في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً

ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون » ( ٢ : ١٠ ) وانما زيادته بظهوره عند ظهور الحق ووفوره عند نكيره .

إنه لابد للدعوة الحق من زيادة ، إما في الهدى ، أو في الضـلال ، وأما ألا تؤثر لا إثباتاً ولا نفياً ؟ فلا ! ولابد من مواصلة الدعوة ليل نهار واثبـاتاً للحجة تنويراً للمهجة لكي تصبح نوراً للمهتدين وناراً على المعتدين جزاء وفاقاً .

إنهم كانوا يفرون عن دعائه وعن اجابة الحق ، ولكن نوحاً لم يكن ليذرهم يفرون إلا ويلاحقهم اينما كانوا ، فما استطاعوا بالفرار بُعداً عن دعائه ، لذلك احتالوا حيلاً أخرى ليفروا عن سماع الحق في فرارهم على قرارهم،بملاحقته اياهم :

« واني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا اصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم واصروا واستكبروا استكباراً » :

اصرار تلو اصرار واستكبار ، اصرار الداعيـة على دعـوة الحق في محاولة دائبة ، وتحيُّن الفرص لتبليغهم اياه ، واصرارهم تجاهه في ادبار واستكبار كأنهم يدعون إلى الموت ! وهو يدعوهم إلى الحيـاة ، ليغفر الله لهم ذنوبهم ويحييهم حياتاً طيبة ! .

ظلوا في محاولة عنيدة بغيضة كيلا يسمعوا نوحاً ولا يروه بطريقـة صبيانية حمقاء ، بسد الآذان عن سماع الحق ، وستر العيون عن رؤية داعية الحق ، برد الثياب ، وهذا منتهى الضلال .

لقد جرّب نوح كافة الأساليب في دعوتهم علهم يهتدون ، وهم قابلوه بكافـة أساليب التمرد والعصيان وظلوا معاندين .

فمن حيث الزمن : الف سنة إلا خمسين عاماً ، وفي مواصلة دعائهم ليل نهار ، وفي ملاحقتهم حالة الفرار لم يخل مجالاً ، وفي كيفيتها : إسـراراً ثم اعلاناً ، ثم إعلاناً وإسراراً :

« ثم اني دعوتهم جهاراً » : فقد يوحي بسابق الإسرار ، وهو بطبيعة الحال

مستهل الدعوة : فلو ابتدأت جهاراً واجهت حملة جماهيرية قاضية ، فلابد من الإسرار أولاً كي تجد جواً صالحاً وركيزة تتركز عليها الدعوة في المارقين .

ثم إذا واجهت قبولاً ولو قليلاً ، ام لم تواجه ، فالإعلان ، علّها تثير عطف الجماهير وتحرك فِكَرهم وتنير فِطَرهم على فيهم من يَقبل ويُقبِل .

ثم أخيراً لابد من الجمع بين الإعلان والإسرار ، كلٌ في مجاله المناسب وجوّه اللائق :

« **ثم إني اعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً** » : إسراراً ليدخل شغاف القلوب وعلى القابل يقبل فيلحق دون خجل من الجماهير العنيدة ، وإعلاناً لتعزيز كلمة الحق ، ولتظهر القابليات على رؤوس الأشهاد ، ولقد حملت الدعوة – فيما حملت – ترغيبهم بالحق فوعدتهم بمتطلبات الحياة الدنيا ، رغم انها ليست دار جزاء ، وتحريكاً لعقولهم وعواطفهم وضمائرهم ، وتنديداً بهؤلاء الذين قلوبهم قلوب الشياطين فلا يعرفون أو يفهمون كلمة الحق ! :

« **فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً** » : لايذهب استغفاركم هباء ، لأن الله تعالى غفار في سنته الإلهية منذ بدء الخلق ، فاستغفروه لأنه ربكم : المالك المدبر لكم ، ولأنه معدن الغفران : « إنه كان غفاراً » .

ومن آثار غفرانه في الدنيا انه يفتح لكم بركات من السماء والارض :

« **يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم باموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهاراً** » : « ولو أن اهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فاخذناهم بما كانوا يكسبون » ( ٧ : ٩٦ ) .

هذه البركات الموعودة هي مما تنتج عن الإيمان والتقوى وليزيدوا من الصالحات ويعيشوا بركات ، ولكنها ليست دائماً ناتجة عن الصالحات كالتي توفر على الكفار إملاء وامهالاً ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين ، فهي اذاً دركات لهم وليست ببركات ، وكما نشهدها اليوم في دولتين كبيرتين موسع عليها في الرزق ، ممكّن لها في الأرض: أمريكا الرأسمالية المستعمرة، روسيا الشيوعية المستحمرة،

والدرك الاسفل في الأولى هبوط المستوى الأخلاقي إلى اشـر دركات الحيوانية ، والحياة كل الحياة قائمة فيها على اغراءات المال ، وفي الثانية تهدر قيمة الإنسـان الروحية إلى أسفل دركات ، ويسـود التجسس ويعيش الناس في وجل دائم من المذابح المتوالية ، وليست هذه أو تلك حيـاةً انسانية ، ولا تعد بركاتهم إلا دركات ! : « الم يروا كم اهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وارسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجـري من تحتهم فاهلكناهم بذنوبهم وانشأنا من بعدهم قرناً آخرين » ( ٦ : ٦ ) .

وآية المدرار والإمداد بالأمطار الغزيرة والأموال والبنين توحي انهم كانوا في نقصان منها كلها ، فما يزيدها عليهم مجاناً ودون عمل دنيوي ، هو الإستغفار من الذنوب ومواصلة الطاعات ، إلا أنه ليس حتماً في كل الظـروف والحالات ، فقد تكون هناك عوائق نجهلها ، أو نحن نعملهـا ، وإنما الإستغفار لوخلي وطبعه يستتبع بركات من السماء والأرض كضابطة عامة تقبل الإستثناءات ولاسيما بالنسبة للأفراد ، فالحديث في هذه القاعدة عن الأمم لا عن الأفراد ، فما من امة قام فيها شريعة الله واتجهت اتجاها حقيقياً لله بالعمل الصالح والإستغفار المنبىء عن خشية الله إلا فاضت فيها الخيرات ونزلت عليهـا البركات من الأرض والسماوات ، وكما الآيات تحمل هكذا وعد للأمم لا للأفراد : « ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولا دخلناهم جنات النعيم . ولو انهم اقاموا التوراة والانجيل وما انزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت ارجلهم منهم امة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون » ( ٥ : ٦٦ ) اذا فالقـاعدة اممية لا فردية وإن كانت تعم الأفراد أحياناً .

والتقوى الجماهيرية بطبيعة الحال تقي جماهيرها عن التورط في دركات الحياة ، وتخلق جواً سليماً سالماً متحللا عن التطاولات المسببة للفوضويات ، وتبني صرحاً عالياً لرغد الأمن والعيش لمن يتقي الحرمات واللا أخلاقيات ، مما يؤهل لنزول مزيد البركات كنموذج فعلي للجزاء ، وتمام الجزاء ليوم الجـزاء : « ويا قـوم

استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين » ( ١١ : ٥٢ ) .

وارسال السماء مدراراً لايخص ماءه المدرار المكثار، إنما بركات السماء ككل، من نور شمسها وحرارتها ورياحها واشباهها .

والإمداد بالأموال والبنين ليس دائماً إلى خير، فمن الأموال ما لا تُمِدُّ وإنما تَمُد في خسار وبوار ، ومن البنين من لا يعدون إلا في غي وطغيان ، ومنهما ما يضر ديناً ودنياً ، فالإمداد الموعود فيهما هو الذي يأخذ بيد الإنسان إلى صالح النشأتين ، ويدفع عنه تبابها . « فرحم الله امرءاً استقبل توبته واستقال خطيئته وبادر منيته »[1] .

واكمل الاستغفار – على حد تعريف أمير المؤمنين عليه السلام إنه « درجة العليين وهو اسم واقع على ستة معان : أولها الندم على ما مضى والثاني العزم على عدم الرجوع اليه أبداً والثالث أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله عز وجل أملس ليس عليك تبعة والرابع أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدي حقها والخامس أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالاحزان حتى يلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد والسادس أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية فعند ذلك تقول : استغفر الله » .

« ما لكم لا ترجون لله وقاراً . وقد خلقكم اطواراً » : وأصل الوقار ثبوت ما يكون به الشيء عظيماً ، من الحلم والعلم اللذين يؤمن معهما الخرق والجهل ، ومن القدرة التي تؤمن عن العجز ، وأشباهها التي تثقل الكائن وتخرجه عن الخفة ، وبصيغة أخرى العظمة المطلقة .

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٢٣ عن نهج البلاغة بعد قوله (ع) وقد جعل الله سبحانه الاستغفار سببا لدرور الرزق ورحمة الخلق ( مستشهدا بالآية ) ...

والرجاء ظن يقتضي حصول ما فيه من المسرة، وكذلك هو خوف عما يؤمل المخافة، فأنتم أنتم الأوغاد المناكيد ما لكم: تقطعون عن ربكم وحق أمل الخير، أمل الوقار والعظمة، كمن يتأكد من ربه اللا وقار فيفـر منه وممن يدعو اليه، وإذا أنتم تعتقدون وقاره فلماذا لا تخافونه، رغم أن وقاره وعظمته، تصميمه وحكمته، عطفه ورحمته، علمه وقدرته، وكل مظاهر ألوهيته وربوبيته، إنها ظاهرة في خلقه لكم وللكون كله لو أنتم تشعرون، فهو الذي يجب رجاء وقاره وتوقيره: أن تخافوه لأنه الوقار كله، والوقور يُخاف لعدله وقدرته، وأن تأملوا من وقاره خيراً، فانه يؤمل فضله لرحمتـــه، وأن تأملوا من انفسكم له وقاراً فتعبدوه وتوقروه وتعزروه. فقد يعتقد الإنسان ربوبية الله ولا يوقره جهالة وعصياناً، وقد لا يوقره ارتياباً في ربوبيته مع احتمالها، وقد لا يرجـو - أيضاً - وقاره، كأنه متأكد انه ليس إلهـاً، وهذا أحط دركات الكفر بالله، رغم ظهـــور آياته في الآفاق والانفس!.

«وقد خلقكم اطواراً» فلكلٍّ من اشخاصكم اطوار، ولكم أجمع اطوار، مما تنتفي عنه الصدفة العمياء، والخلق الفوضى:

فمنها الاطوار الجنينية من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى الهيكل إلى الخلق الكامل وإلى انشاء الخلق الآخر «الروح» فتبارك الله أحسن الخالقين.

ومن الأطوار الجنينية نفسها أن الجنين يشبه لأول مرة حيـوان الخليـّـة الواحدة، ثم بعد فترة يمثل شبه الحيوان المتعدد الخلايا، ثم شكل حيوان مائي، ثم حيوان ثديي، ثم المخلوق الإنساني، وإدراك هذه الاطوار الثانية، مهما كان بعيداً عن قوم نوح، فانه قريب الينا كما كشف عنه العلم حديثاً، والقرآن كتاب كل الازمان.

ومن الأطوار الأخرى بعد الخلق هي اطوار الحياة الدنيا، من كونكم طفلا وإلى الشيخوخة ثم إلى الأجـــداث وقد تجمع هذه الثلاثة آيةُ الخلق والبعث: «يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم

من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم، ومنكم من يتوفي ومنكم من يرد إلى ارذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئاً .. » ( ٢٢ : ٥ ) ومنها اطوار الحالات الجسمية والنفسية والألوان واشباهها .

ثم الاطوار الرابعة هي الجماعية ، فالقطاعات البشرية ترى مختلفة في الألسن والعادات والأشكال والأحوال ، وليتعارفوا: « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » (١٣:٤٩).

فهذه الأطوار المقصودة في الخلق ، الدائبة فيه ، مما يجعل العقلاء الأحرار يأملون ويخافون ويرجون لله وقاراً ، لأنه الخالق ، وهو المدبر لا سواه ، وهو الرحمان الرحيم والمنتقم ، فما لكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم اطواراً ؟ ! ، والخلق المتطور يدل على الخالق المطوّر ، والتطور المتناسق اللامتفاوت دليل على وحدة المطور ، فكما لا خالق سواه ، كذلك لا مدبر ولا مطور إلا إياه،فليرج وقاره على اية حال .

**« الم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا . وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً » .**

هل الرؤية المسؤل عنها هنا هي الحسية ؟ أم العلمية التجريبية ؟ أم بالوحي ؟ وكيفية السبع الطباق مجهولة حتى الآن !

بديهي انها ليست رؤية حسية حين الخلق إذ لم يكونوا موجودين عنده : « وما أشهدتهم خلق السماوات » ( ١٨ : ٥١ ) ولا بعد الخلق ، كيف والعيون المسلحة حتى الآن لم تصل إلى عمق السماء الأولى ، سماء الأنجم ، فضلا عن واقع أو كيفية السبع الطباق ، وفضلا عن الانسان زمن نوح عليه السلام !

وكذلك الرؤية العلمية على ضوء العلوم التجريبية لم تتحقق حتى الآن .

وأما رؤية المعرفة الدينية من طرق الوحي فهي وان كانت حاصلة لقطاعات

من البشر المعتنقة وحي السماء ، ولكنها علم الواقع عن السبع الطباق بالوحي ، لا كيفية خلقها، اذاً فماذا تعني الآية، لاسيا والمخاطبون – وهم الكفرة من قوم نوح – لم يكونوا ممن يعتنق وحي السماء ليعرفوا ذلك بالوحي ! .

والحل أن معرفة كيفية خلقة السبع الطباق ليست بمستطاع الإنسان اياً كان، إلا من يوحى اليه فيريه الله ملكوت الكون كما اراه ابراهيم «وكذلك نري ابراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين» ( ٦ : ٧٥ ) .

فلتكن الرؤية المسؤول عنها معرفة واقع السبع لا حقيقتها وملكوتها ، ولا سبيل اليها أيضاً إلا عن طريق الوحي ، حيث العلم التجريبي قاصر حتى الآن عنها وحتى عن المعرفة الشاملة بالسماء الأولى، فالآية توحي انه كان هناك وحي قبل نوح ، بالامكان أن يتعرف به إلى أمثال هذه البدايع الكونية ، طالما كان قوم نوح مكذبي الوحي ، حين كان عليهم تصديقه ، لمزيد المعرفة بالله عبر التعرف إلى عظمة الخلقة .

أو أن الخطاب لا يخصهم ، وإنما المخاطبون هم الذين يخاطبون بوحي القرآن منذ نزوله وحتى القيامة ، فهؤلاء يمكنهم معرفة السبع الطباق ، بتصديق الوحي أم بالمحاولات العلمية التوسعية ، وان لم يصلوا بها حتى الآن .

أو أن رؤية السماء – أية رؤية كانت – هي في الواقع رؤية السبع الطباق سواء عرفوا السبع بما تعرف ، أم لم يعرفوا ، فلا أقل من رؤية هذه الأجواء الواسعة ذات القناديل البراقة الكوكبية والنجومية ، فليعتبروا بها ، بالسبع أم الجو الممتد مدّ البصر .

فمهما كانت الرؤية قاصرة عن السبع ، ولكنها ليست لتجعل واقع السبع غير واقعها ، فلينتبه الناظرون – ولو بأمثال هذه الآيات – ان ما يرونه فوقهم هو السبع الطباق ، والقرآن كما يخبرهم بها ، يحركهم نحو معرفتها والاستدلال بها على قدرة بادئها .

ولقصور الرؤية المتحللة عن الوحي : هنا يجعل القمر فيهن نوراً والشمس

سراجاً وهاجاً « وجعلنا سراجاً وهـاجاً » ( ٧٨ : ١٣ ) كل ذلك رغم آلاف الأقمار والشموس في سماء الا نجم ، وعلها في سواها أيضاً .

فبما أن المخاطبين هنا ـ فعلاً ـ هم سكنة الأرض ، وان كان معهم غيرهم ، ولا نور قمرياً ولا سراج شمسياً لهم في هـذه السماوات ، إلا هذا القمر وهذه الشمس لذلك يقول : « وجعل القمر فيهن نوراً » وجعل الشمس سراجـاً » أي جعلهـا لكم ، كما جعلها لغيركم من سكنة الكرات طالما لهم أقمار النور والشموس السراج ، ممـا يبرهن أن الشمس الضيـاء والقمر النور هما في السماء الأولى : سماء الأنجم ، لا فوقها : « تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً » ( ٢٥ : ٦١ ) .

والشمس السراج توحي أن نور القمر مكتسب منها ، ودليلاً واقعياً حسيّاً على أنه ليس له نور من ذاته ، وصـــول البشر إلى سطح القمر ، بينا تأكدت الاستحالة على أي المخلوقات الوصول إلى كوكب الشمس ، فلولا الشمس لكنا في ليل داج دائب ، فالقمر ليس سراجاً ، وإنما نور كما يستعمل لغرفة النوم ليـــلا « وهو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً » ( ١٠ : ٥ ) .

فالقمر إذاً ليس سراجاً ولا ضياءً بذاته ، إنما هو الشمس سراجنـا وضياءنا الوحيد في كل الأفلاك ، مهما كان في سماء الأنجم وسواها شموس وأقمار لمن سوانا من سكنة الكرات .

**« والله أنبتكم من الأرض نباتا . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا » :**

هل الإنسان من نبات الأرض ؟ أجل ولأنه نبت منهـا كسائر النباتات مهما اختلفت كيفية الإنبات ، فلنبات الإنسان من الأرض وسائل طائلة تخرجـه من صدق نبات الأرض عليه فيما يطلق ، فلا يصح السجود عليه لعدم صدق الأرض عليه ولا نباتها ، مهما كان نابتاً منها . فصدق الاستعمال والتعبير إيحاءٌ بحقيقـة كونية لا يصدق شمول اللفظة المطلقة على المستعمل فيه ، وحقيقـة الإنبات الظاهـــرة

من لفظه ، إنما هي فيما تطلعه الارض من نباتها ، وتخرجه عند ازدراعها، ولما كان الله سبحانه يخرج البرية من مضائق الاحشاء إلى مسافح الهواء، ويدرجهم من الصغر إلى الكبر وينقلهم من الهيئات والصور، كل ذلك على وجه الارض ومن الارض ، لذلك صح التعبير عنه بكونه نباتاً وان لم يشمله على الاطلاق .

أنت تبيع أحياناً ما عندك من البقل ، فأنت حقاً بايع البقل ، فهل أنت إذاً بقال ! .. انما البقال من شغله بيع البقل ، وكذلك النبات – حين اطلاقه – لا يشمل كل نابت من الارض ، وإنما لقرينة خاصة كما هنا .

فهذه الآية ونظائرها توحي بالوحدة بين أصول الحياة الارضية مهما اختلفت نشآتها وألوانها وأشكالها واسمائها ، وكلها من نبات الارض .

فالإنسان الأول نابت من تراب الأرض ، ثم نسله كذلك منها ، من ترابها ومائها وثمارها التي هي نتيجة التزاوج بين ما يخرج من بين الصلب والترائب ، ثم في الرحم ينمو بادواره واطواره بما يصله من الأرض ونباتها ، ثم يعيش – بعدما يولد – على هذه الأرض بما تنبت .

وانباته نباتاً دون إنباتاً ، خلاف ما يقتضيه بناء فعله ، علّه للإشارة إلى ازدواجية خلق الإنسان : من فعله تعالى : « الانبات» وهو الأصل في خلقه ، ومن فعل الأرض الذي هو أيضاً راجع إلى فعله : «النبات» فهو انبتكم منها ، فنبتم منها نباتاً بفعلها وتفاعلها ، وبما تزرعون وتأكلون فتولدون : فعل الله وفعل الخلق .

فالأرض الأم هي التي تلده بما تلده أمه ، ثم تعيده في رحمها بعد انقضاء أجله ، ثم تلده ثانية لحياة الحساب والجزاء .

ومن لطيف التناسب هنا أن السجود في الصلاة يفسر لنا عملياً هذه المراحل الثلاث ، فالسجدة الأولى لله أن انبتنا من الأرض نباتاً ، نسجد شكراً له وللنشر برفع رؤسنا عن السجدة الاولى ، إلى سبب الشكر : « أنبتكم من الارض نباتاً » ثم نسجد ثانية ، إشارة إلى الإعادة « ثم يعيدكم فيها » فالموت نعمة

تتطلب الشكر كما الحياة نعمه ، ثم نرفع رؤسنا ثانياً اشارة إلى الحياة والولادة الثانية والأخيرة التي نحاسب فيها فنجازى .

« والله جعل لكم الارض بساطا ، لتسلكوا منها سبلا فجاجاً » .

بما أن البسط هو النشر بعد القبض ، وان الجعل المتعدي لمفعولين هو جعل الشيء شيئاً آخر في كيفيته وصورته ، فجعل الأرض بساطا يوحي انها كانت منقبضة غير منبسطة ، ثم جعلها الله منشورة للعايشين عليها ، ولاسيما انسانها : « جعل لكم » فلم تكن بساطاً قبلئذ ، ولا صلباً ، إذ كانت محترقة مذابة ، ولا لها جو إذ كانت حارة محرقة ، دون أن يعيش فيها مواد الحياة من الماء واكسجين الهواء ، شرباً وتنفساً وإنباتاً .

إنها لم تكن لتسلك فيها سبل فجاج : الطرق الواسعة ، التي يهتدى بها إلى متطلبات الحياة: « وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون » (٢١:٣١) فالسبل الفجاج في الصحارى وبين الجبال ، إنما هي من حصائل بسط الأرض ونشرها ، فقد ذلت الأرض بعد شماسها لنمشي في مناكبها ونأكل من رزقه : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور » ( ٦٧ : ١٥ ) ذلولاً بعد شماس ، في ركوبها وسكنها وابتغاء الرزق فيها، وبصيغة عامة : الحياة المريحة عليها ، في فجاجها السبل التي ما كانت مسبلة حين شماسها.

ثم البساط — وهو النمط الذي يمد على الاستواء فيجلس عليه — إنه يوحي برياحة التنقل في الأرض كما يتنقل الإنسان على بساطه .

فيا نبات الأرض ، المفضل على كل نباتها ! المدلل إلى كل خيراتها وبركاتها ، المستنير بقمر السماء وشمسها ومطرها ، أنت كيف تسمح لنفسك أن تكفر بربك رب العالمين ولا تستطيع التحلل عن نعمه ابداً ؟ .

« قال نوح رب انهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً »

رب انهم — على طول الدعوة وبعد هذا العناء الطويل والتنوير الوفير ،

والانذار والتبشير ، بعد هذا كله ـ إنهم عصوني في عبادتك وتقواك وطاعتك ، واتبعوا الخاسرين المخسرين ، الذين لم تزدهم نعمة المال والأولاد إلا خساراً لسوء تصرفهم فيها ، وغرورهم بها : « الم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار » ( ١٤ : ٢٩ ) .

**« ومكروا مكراً كبّارا . وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودّاً ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا . وقد اضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين إلا ضلالا » .**

.. مكراً كباراً : متناهياً في الكبر ، مستعملين فيه كافة أساليب التدجيل فقالوا ما قالوا .. « وقالوا لا تذرن آلهتكم » اضافوا الالهة اليهم إثارة للنخوة الكاذبة والحمية الحمقاء ، كانهم يُدعون إلى إله غريب عنهم ، دخيل في آلهتهم ، فلينكروه حفاظاً على الكرامة ، وليتمسكوا بآلهتهم ابقاء للقديم على قدمه واستدامة لعادة الآباء والجدود ، ففي تخليهم عنها والإيمان بإله نوح ، رفض لكيانهم وخروج عن كونهم حملة التراث ، وأنهم أبناء آبائهم .

فاثارة الحميات والقوميات والطائفيات والعنصريات ، لها دور كبير في المتمسكين بها ، المتقيدين بأسرها ، المفتخرين بها ، بين المتحللين عن المثل العليا الأخلاقية ، المفاخرين بما لغيرهم من اللا اخلاقيات ، الماشين مشاهم على العمياء .

والنص يلمح لدرجات ثلاث بين آلهتهم ، أهمها « ود وسواع » إذ خصصا بالعطف بعد التعميم ، ثم يغوث ويعوق ونسر ، المذكورة في عطف وردف واحد ، ثم بقية الآلهة الداخلة في عموم اللفظة .

طبقات في الآلهة هي معبودة طبقات[1] ، فالنظام الطبقي العارم بين الوثنيين كان سائداً بين آلهتهم أيضاً ، ظلمات بعضها فوق بعض !

---

(١) في تفسير علي بن ابراهيم : كان « ود » صنما لكلب و « سواع » صنما لهذيل وكان « يغوث » صنما لمراد وكان يعوق صنما لهمدان ، وكان نسر لحصين .

كما وحدة الإله بين الإلهيين ازالت النظام الطبقي بينهم مهما كانوا درجات : حسب المساعي والخلقة ، فشريعة التوحيد تأمرهم بحياة تضامنية أليفة تحكمها روح التوحيد والحنان والمحبة ، كانهم شخص واحد رغم اختلاف الأعضاء .

هذه الأصنام الخمسة - ومعها غيرها - كانت تعبد زمن نوح وحق الرسالة الأسلامية التي قضت عليها فاجتثت من جذورها ، إلا التي افلتت منها أو نبش قبرها بعد الرسالة أو بعدها ، في القطاعات التي تحكمها الطواغيت .

ولقد تناصرت نعرات الجاهلية الأولى والقرن العشرين ، في الحفاظ على الوثنيات وعبادة الطواغيت لكي يبقى الشيطان على كرسي الضلالة مهيمناً .

«وقد اضلوا كثيراً» حول الأصنام : أخشابا وأحجاراً واشخاصاً وأفكاراً، للصد عن شرعة التوحيد ، بهذا المكر الكبار .

« ولا تزد الظالمين الا ضلالا » ضلالا كجزاء لضلالهم ، جزاء وفاقاً ، ضلالا في قلوبهم بما ضلوا وزاغوا : « فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم » وضلالا في سعيهم : « الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ويحسبون انهم يحسنون صنعاً » وضلالا في في الآخرة إذ يضلون سبيل الجنة إلى النار وبئس القرار ، وكل هذه ردة عادلة لما ضلوا واضلوا « وان الله ليس بظلام للعبيد » ؟.

**« مما خطيآتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله انصاراً » .**

من خطيئاتهم تلك اغرقوا في الخسران ومنه غرقهم في الطوفان ومن ثم في النيران يوم البرزخ : الفترة بين الموت والقيامة .

« اغرقوا فادخلوا ناراً » ففاء التفريع تفرع دخولهم ناراً على غرقهم بخطيآتهم ومضي الفعل « أدخلوا » يصرح بسابق دخولهم النار ، فلا يعني مستقبله يوم الحشر ، وانما بعد الموت دون فصل ، فهذه الآية من آيات الحياة البرزخية بعذابها وثوابها ، مع العشرات الأخرى من آياتها .

وفيما إذا سئلنا كيف تجتمع النار والماء ، فهم غرقوا في الماء وأدخلوا في .

النار ؟ فهل الماء يحمل النار ، لا سيا تلك النــار التي لا تبقي ولا تذر فكيــف لم يغل الماء ؟!

فالجواب : ان المعذب في البرزخ ليس الروح ببدنها الدنيوى الظاهر انما ببدنها البرزخي الذي يساور الروح، فناره أيضاً برزخية غير ظاهرة، كثوابه، ولكلٍّ من العالم الظاهر والباطن حكمه ، والثواب والعذاب البرزخيان ، هما من الباطن بالأسباب الباطنة غير المحسوسة ، ولكنها مدروسة حسب الوحي .

وشاهد علمي على ذلك أن المــادة ايا كانت ، إنها تحمل الطاقات الحرارية ، وحسيا : الشجر الأخضر الذي تطلح منه نارفاذا أنتم منه توقدون : «الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون » ( ٣٦ : ٨٠ ) .

فهذا الشجر يحمل خشب الوقود ، وماء الإطفاء ، ونار الايقاد ! رغم انحصار مفعوله في الدنيا، أفليس الذي يقدر على ذلك بقادر على إحراق الأجساد البرزخية بالنار البرزخية الكامنة في الماء وفي كل شيء مع اختلاف العالمين ؟ .

وانما يحمل السائل المتعنت المستنكر على هكذا سؤال ، جهله بالبدن المثاب والمعذب في البرزخ ، وبماذا يثاب وبماذا يعذب ؟ ثم تجاهله وإنكاره لهذه الشواهد الحسية والعلمية .

« فلم يجدوا لهم من دون الله انصاراً » : فمن ينصـــرهم من بأس الله بعد إذ غرقوا واحرقوا ،وإذ لم يكن انصارهم بمنجيهم عن غرق الدنيا،فكيف ينجونهم من غرق البرزخ ولا تنال منه قدراتهم ؟ فأين من أضـلوهم وآلهتهم ؟ ولينصروهم إذ هلكوا في سبيل الصمود على طاعتهم ، ومعصية الله رب العالمين ! .

ثم في آخــر المطاف من دعوة نوح الطويلة ــ وبعد انقطــاع الأمل عن إيمانهم وخيرهم، وحتى عما يخلفون من امثالهم، وبعد التأكد انهم مضلون كما هم ضالون ــ هناك يدعو :

**« وقال نوح رب لا تذر على الارض من الكافرين دياراً . انك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا ».**

فان صالح الانسان في صلاحه أو صلاح نسله ، فاذا فقد الجانبين إلى الاضلال فيها ، لم يبق لبقائه إلا فساد على فساد وسبحان الله عن هكذا إبقاء !

فقد لمح الوحي إلى نوح بمستقبلهم وذريتهم سنداً لما عرف عنهم في ماضيهم : « إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون » (١١:٣٦) فـ « لن» تنفي ايمانهم ابداً ، ولزامه أن لا يلد وا إلا فاجراً كفارا ، وكما عن باقر العلوم عليه السلام[1] .

فقد كانت الأرض بحاجة إلى الإحياء بعد موتها ، وإلى التطهير بعد قذارتها من الشر العارم الذي انتهى اليه القـــوم في زمنه ، ولم يبق علاج في تطهيرها إلا تدميرهم ، إذ إن في بقاءهم إضلال القلة القليلة ممن آمن معه ، طوال ألف سنة إلا خمسين عاماً .

وفيما إذا سئلنا : كيف لايلدون إلا فاجرا كفارا ، والإنسان اياً كان لا يولد كافراً مهما كان ابواه كافرين ، وإنما الكفر والإيمان منذ التكليف لا الولادة ؟

فالجواب: ان خبث النطفة اضافة إلى خبث الجو والبيئة ، لايلدان إلا فاجراً كفارا ، فان الجو الفاسد الذي أوجدوه ، والبيئة الضـــالة التي خلقوها ، انهما يوحيان بالكفر من الناشئة الصغار ، فلا توجد فرصة لترى الناشئة نوراً ، وقليل هؤلاء الذين يولدون من الظلمات ويعيشونها ، ثم يخالفونها إلى النـــور ، وقد ولد هذا القليل في هذه المدة الطائلة ولم يبق منهم أحد وفي أنسالهم أيضاً ، فلا يعنى من ولادة الفاجر الكـفار أنها منذ الولادة ، إنما من حين التكليف، وإن كانت الولادة الخبيثة والجو الخبيث لها دورهما الفعال في الكفر والفجور ، فالولادة عن هكذا كفار ، ثم ولادة ثانية تولدهم البيئة الكافرة لحد التكليف ، ثم عفوياً الولادة الثالثة

(١) القمي بسنده عن صالح بن ميثم قـــال قلت لابي جعفر الباقر (ع) ما كان علم نوح حين دعا على قومه : انهم لا يلدوا الا فاجرا كفارا ؟ فقال: اما سمعت قول الله لنوح : « انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن » .

منذ التكليف، الناتجة عن الولادتين، هذه وتلك ليست إلا ولادة الفاجر الكفار: «لا يلدوا إلا فاجرا كفارا».

حينذاك كانت مناداة نوح ربه حقا وفي محله ومرضيا عند ربه: «ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون» (٣٧ : ٧٥) دون أن تكون مرضية للشيطان كما في مختلقات الروايات.

ثم يدعو للمؤمنين والمؤمنات مع نفسه ووالديه:

**«رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا».**

دعاء على الظالمين مرتين يوسط بينهم دعاءه لنفسه ولوالديه، ولمن دخل بيته مؤمناً، لما حان حين الغرق، فهم المؤمنون الجدد حينه وعند البأس، ثم للمؤمنين والمؤمنات طول الزمن، وهذا شعور عام بآصرة القربى على مدار الزمن واختلاف السكن دون أن يبعدهم بعد الزمان والمكان، كما الدعاء على الظالمين عام على طول الزمن.

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

## سورة الجن ــ مكية ــ وآياتها ثمان وعشرون

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ
نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً ١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ
فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً ٢ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا
مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَداً ٣ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ
شَطَطاً ٤ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللهِ كَذِباً ٥
وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الجِنِّ فَزَادُوهُمْ
رَهَقاً ٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ أَحَداً ٧ وَأَنَّا
لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً ٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ
مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً ٩
وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ
رَشَداً ١٠ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً ١١
وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللهَ فِي الأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً ١٢

وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ
بَخْساً وَلَا رَهَقاً ١٣ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ
فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً ١٤ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً ١٥
وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً ١٦ لِنَفْتِنَهُمْ
فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً ١٧ وَأَنَّ
الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً ١٨ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ
كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ١٩ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ
أَحَداً ٢٠ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً ٢١ قُلْ إِنِّي لَنْ
يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً ٢٢ إِلَّا بَلَاغاً
مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ٢٣ حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ
أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً ٢٤ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ
أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً ٢٥ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ
أَحَداً ٢٦ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ
يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ٢٧ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ
رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً ٢٨ .

هذه السورة تقرر حقيقة الجن وكيانهم وشعورهم نحو الشريعة ومشابهتهم الإنس في الأحكام إلا ما يفرقهم عنه افتراق الجنس، ثم هي تقف موقف الوسط بين الإغراق في الوهم ممن يزعمهم مسيطرين على الإنس، وبين الاغراق في الإنكار ممن ينفي حتى وجودهم، فتقرر ان لهم حقيقة موجودة، نتعرف اليها في طيات الآيات هنا وفي سائر القرآن، فمن ميزاتهم خلقهم قبل الإنس: «ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حماء مسنون والجان خلقناه من قبل من نار السموم» (١٥ : ٢٧) وانهم محجوبون عن الإنسان مبدئياً، يرونه ولايرام: «إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم» (٧ : ٢٧).

ومن ميزات الإنس استقلال الرسالة الإلهية فيهم دائماً دون تبعيـــة للجن، ولكنما الجن تتبع الإنس فيها وكما ندرسه في هذه السورة.

ثم هما مشتركان في التكليف، والبعث والعقاب: «قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار ...» (٧ : ٣٨) وأنّ فيهم الجنسين يتكاثرون بالتناسل كالإنسان: «وانه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا» (٧٢ : ٦) «افتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو» (١٧ : ٥٠) وفي غير ذلك.

وهل فيهم أنبياء منهم، أم هم دوماً أتباع لأنبياء الإنس؟ نتبين ذلك وكثيراً مثله في هذه السورة:

**«قل أوحي الي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا».**

فمن هؤلاء النفر؟ هل هم رسل الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى سائر الجن دون أن يوحى اليهم بشيء؟ أم هم رسل الله اليه ليستمعوا منه وحي القرآن، دون أن يستقلوا بوحي الرسالة الاسلامية ولو تبعاً للرسول، وانما اوحي اليهم ليستمعوا منه القرآن فيولوا إلى قومهم منذرين؟ قد يلمح القرآن إلى وحيهم هذا: «وإذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين. قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقا

لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم. ياقومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب اليم . ومن لم يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين » (٤٦:٣٢) .

فلا يعني صرف الله تعالى نفراً من الجن إلا وحيه اليهم أن ينصرفوا إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، ولو لم يكن الوحي والرسالة مختومين بالرسول محمد ، لجاز استقلال رسل الجن بالوحي ، كما قبل الاسلام تلميحا من الآية : «يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا .. » ( ٦ : ١٣٠ ) وتصريحاً من آيات تكليفهم وقد خلقوا قبل الإنسان ، فهل يا ترى كانوا قبلئذ مكلفين دون وحي ؟ أم بالوحي إلى اشخاصهم أجمع ؟ أم إلى بعضهم وهو الصحيح ، وآية المعشر تعمم الرسالة الإلهية لقبيلي الجن والإنس منذ كانوا ، فليكن منهم رسل قبل الانس ومع الانس ، فـ « منكم » الدالة على الجنس توحي بكون الرسل في كل منهما من نفسه لا سواه فلو كان رسل الجن هم من الانس لم يقولوا : « شهدنا » كما العكس أيضاً كذلك .

ثم بلوغ الحجة الإلهية لا يتم إلا أن يبعث لكلٍّ رسولٌ منهم ، مهما كانت رسالته أصيلة ، أم تبعاً لرسالة الإنس ، أم رسالة إلى رسول الإنس ليأخذوا عنه كما في الرسالة المحمدية .

لذلك نجد القرآن يحتج – فيما يحتج – على منكري رسالة البشر ، انها من دعائم الحجة عليهم ، فلو ارسل اليهم ملائكة لاعتذروا باختلاف الجنس : « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليه مايلبسون » ( ٦ : ٩ ) « قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً » (١٧:٩٥) «ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا » ( ٦ : ١١١ ) .

إذاً فمن المؤكد ان من الجن رسلا ولا سيما قبل خلق الإنس ، ثم بعده وقبل وحي القرآن على رسالة الجن كانت تبعية لرسل الإنس كما تلمح اليه آيات الاصطفاء:

« الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس » ( ٢٢ : ٧٥ ) واما مع الرسالة المحمدية وحتى القيامة فوحي الرسالة منقطع وحتى عن أهل بيت الرسالة فضلا عن الجن ، اللهم إلا وحيا يحمل الانبعاث إلى الرسول محمد ليحمل عنه رسل الجن ما حملوه من وحي القرآن ، فهم خلفاء الرسول في هذه الرسالة ، كما عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قول جني انساب إلى منبر علي عليه السلام فتطاول وسلم عليه عليه السلام وقال : أنا عمرو بن عثمان خليفتك على الجن ،قيل له عليه السلام : فيأتيك عمرو وذاك الواجب عليه ؟ قال : نعم »[1].

واما النفر من الجن المبعوثون من الله إلى الرسول ، فلم يكونوا أكثر من تسعة أنفار كما توحيه لغة النفر ، وان نفرهم هو انزعاجهم من الجو الطائش إلى أمان الوحي بأمر الله لينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون كما فعلوا ، وقد سماهم علي عليه السلام ، وانهم كانوا من أشرافهم[2] ولقد ناب علي عليه السلام

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٣٣ ح١١ عن جابر عنه (ع) وفيه عن ابي حمزة الثمالي عنه (ع) : هؤلاء وفد شيعتنا من الجن جاءوا يسالوننا عن معالم دينهم ( ح١٢ ) .

وفيه عنه (ع) اولئك اخوانكم من الجن أتوا يستفتوننا في حلالهم وحرامهم كما تأتوننا وتستفتوننا في حلالكم وحرامكم ( ح١٥ ) وكذلك ( ح ١٦) .

(٢) نور الثقلين ٥ : ٤٣٥ ح١٨ عن احتجاج الطبرسي روى موسى ابن جعفر عن ابيه عن آبائه عن الحسين بن علي (ع) أن عليا (ع) قال لبعض اليهود : ان الشياطين سخرت لسليمان وهي مقيمة على كفرها ، وقد سخرت لنبوة محمد الشياطين بالايمان فاقبل اليه من الجن التسعة من اشرافهم واحد من جن نصيبين والثمان من بني عمرو بن عامر من الأحجة ، منهم شضاة ومضاة والهملكان والمرزبان والمازمان ونضاة وهاصب وهاضب وعمرو ، وهم الذين يقول الله تبارك وتعالى اسمه فيهم : « واذ صرفنا اليك نفرا من الجن » وهم التسعة « يستمعون القرآن » .

الرسول في تعليمهم [١].

« فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا » والعجب ما لايعرف سببه ، وكل ما يقرأ على الإنسان ويسمعه يعرف سببه اللفظي والمعنوي ، وإذ لايعرف سبب هذا القرآن فهو اذاً خارق للعادة، وسببه غيب عن المعرفة والإكتناه، فانه الله الذي لايعرف بالذات مهما عرف بالآيات.

**« يهدي الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا احداً » :**

انه : قرآن ، عجب ، يهدي إلى الرشد ، أمور ثلاثة فيه تدفعنا إلى الإيمان به ، فما كل عجيب يهدي إلى الرشد فان الشعوذة والسحر أيضاً عجب مهما عرف سببه لأهله، وما كل مايهدي إلى الرشد عجب، ثم ليس كل هاد عجيب مما يقرأ، فهذا القرآن يجمع بين إناقة الظاهر وعلاقته قرآنا يلفظ ويسمع ، وبين العجب في كيانه قلباً وقالباً غير مألوف ، يثير الدهشة في القلوب ، ذو سلطان على المشاعر الحية ، وذوجاذبية غلابة ، وبين هدايته للرشد عقليا وفطرياً وأخلاقياً وعلمياً وثقافياً وفي كلما تتطلبه الحياة الانسانية الخالدة.

هذه الميزات للقرآن يتفرع عليها الإيمان : « فآمنا به » إيمان بمن أنزله، وكفر بمن سواه ، اللهم إلا من يدعو اليه كذريعة للايمان.

فالايمان بالقرآن ، فبمن انزله ومن انزل عليه ، إنه استجابة طبيعية مستقيمة لسماع القرآن وعياً في النفس، دون حاجة إلى حجة سواه ، بل هو حجة الحجج، تدل كالشمس في رابعة النهار ، دلالة رائعة فائقة العـــادة على من أنزله ومن أرسل به.

---

(١) المصدر ح ١٧ القمي في حديث : فجاؤا الى رسول الله (ص) فاسلموا وآمنوا وعلمهم رسول الله شرايع الاسلام ، فانزل على نبيــه « قل اوحي الي ..» السورة كلها ، فحكى الله قولهم وولى عليهم رسول الله منهم ، وكانوا يعودون الى رسول الله (ص) في كل وقت ، فأمــر رسول الله (ص) امير المؤمنين (ع) ان يعلمهم ويفقههم ، فمنهم مؤمنـــون وكافرون وناصبون ويهود ونصارى ومجوس وهم ولد الجان ».

واما انهم كيف اجتمعـوا بالرسول لاستماع القرآن ، هل الرسول ( صلى الله عليه وآله وسلم ) ذهب اليهم ؟ أم هم انصرفوا اليه؟ آية صرفهم وحضورهم توحي بالأخير : « وإذ صرفنا اليك نفراً من الجن .. فلما حضروه .. فلما قضي ولوا إلي قومهم منذرين » .

وهي تلمح أيضاً أن النفر هم وحدهم حضروه دون سواهم ، وتقول الروايات ان الملتقى كان بحراء ولم يكن معه من الإنس أيضـــاً أحد ، ملتقى خالياً عن الأغيـار [1] .

« وانه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً »

« وأنه » ضمير الغائب هذا للشأن ، وكما في الآيات التالية أيضاً : « وانه كان يقول سفيهنا » « وانه كان رجال » « وانه لما قام عبد الله » : استعراضات رسل الجن لقومهم بشأن الرسالة القرآنية ، وما كان منهم قبلها ، وكذلك قيام عبد الله ( أي النبي ) بهذه الرسالة السامية .

فـ « جد ربنا » فاعل لـ « تعالى » : جملة وصفية تعني : تعالى عظمة ربنا عن اتخاذ الشركاء ، لا : انه «الله» تعالى، جد لربنا ، رجوعاً لضمير الغائب إلى الرب، ليعني ان الله تعالى هو جد لرب الجن ، فربهم حفيده ، ولزامه اتخـــاذ الصاحبة للتوليد ، واتخاذ الولد ليولد الرب الحفيد ، وهم يصفونه بنفي الصاحبة والولد ! « تعالى جدّ ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا » .

(١) نور الثقلين ٤٣٠ : ٤ عن علقمة بن قيس قال : قلت لعبدالله ابن مسعود من كان منكم مع النبي (ص) ليلة الجن ؟ فقال : ماكان منـا معه احد ، فقدناه ذات ليلة ونحن بمكة فقلنا اغتيل رسول الله (ص) او استطير فانطلقنا نطلبه من الشعاب فلقيناه مقبـلا من نحو حراء فقلنـا يا رسول الله ! اين كنت ؟ لقد اشفقنا عليك وقلنا بتنا الليلة بشر ليلـة بات بها قوم حين فقدناك ، فقال : انه اتاني داعي الجن فذهبت اقرئهـم القرآن ، فذهب بنا فارانا آثارهم وآثار نيرانهم ، فأما ان يكون صحبـه منا أحد فلم يصحبه .

فهل ان رسل الجن ، المبعوثين من الله لحمل الرسالة الاسلامية إلى قومهم ،هل كانوا منحطين عقلياً لهذه الدرجة ، لكي يعتقدوا بأن الله جد لربهم ، في حين ينفون عنه الصاحبة والولد ، فالجد له صاحبة وولد وحفيد ، فكيف الجمع بين هذين المتناقضين ؟ وهم يحيلون الإشراك بربهم قبل هذا التقرير : « ولن نشرك به حداً » والله يقرهم على هذه التقارير ، وهم أنفسهم يسفهون جماعة منهم قالوا على الله شططا ، ومن أردئه أن لله صاحبة وولداً: « وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا» فما روي عن الصادقين عليهما الصلاة والسلام : « أنه شيء قاله الجن بجهالة »[1] إنه هو جهالة مفتعلة على الإمامين عليهما السلام ، ممن يجهلون معاني كلام الله ، وهنا نعرف مدى وجوب عرض الأحاديث على كتاب الله ليعلم الغث من السمين والخائن من الأمين .

ثم الجدّ لغوياً هو العظمة كما في الحديث « كان الرجل إذا قرأ سورة البقرة جدّ فينا » وهو القطع ، وسمي الفيض الالهي جداً ، وهو الحظ والغنى كما في الحديث « قمت على باب الجنة فاذا عامة من يدخلها الفقراء ، وإذا أصحاب الجد محبوسون » وهو الجلال كما في الحديث « تبارك اسمك وتعالى جدك » : اشعاعات عدة من هذه اللفظة الواحدة وكلها تناسب المقام .

فالله سبحانه متعالي العظمة عما يصغره بصاحبة وولد ، ومتعالي القطع ؛ منقطع عن مجانسة المخلوقين وقريب منهم بعلمه وقيوميته ،ومتعالي الغنى عما يفقره إلى الشركاء والأنداد والصواحب والأولاد ، ومتعالي الجلال عما يذلّله بصغار ، لا تبديل لجده إلى غير جد كالمخلوقين أيا كان جدهم ومهما كان فانهم صغار وإلى صغار .

فاتخاذ الصاحبة والولد والشركاء ينافي علو جده ، فما أحسن شعور رسل الجن باستعلاء الله تعالى عن اتخاذ الانداد والاضداد ،وما أقبح اللاشعور من مختلقي الأحاديث على الصادقين عليهما السلام أن هذه من جهالات الجن ! .

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٣٥ عن القمي والخصال عنهما (ع) ح١٩ ، ٢٠ ، ٢١ .

هنا الجن تكذب خرافة اسطورية جارفة هي أن الملائكة بنات الله جاءته من صهر مع الجن « وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً» (٣٧:١٥٨)، وكانوا هم أحرى أن يفخروا بهذا الصهر لو كان ، ولكنهم في هذه الآيات قذفوا هذه الخرافة المصدقة لتصورات المشركين ممن زعموا أن لله صاحبة وولداً ، وكما أن سفهاء الجن كانوا يتقولون على الله من هذه الترهات والشطحات .

**« وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا . وانا ظننا ان لن تقول الإنس والجن على الله كذبا » :**

والقول الشطط هو المفرط في البعد عن الحق ، كشط النهر حيث يبعد عن الماء بجافته، وما أبعد شطط هذه القطاعة السفيهة من الجن عن هؤلاء الرسل منهم في استبعادهم واحالتهم الكذب على الله من قبيل الانس والجن ، وهي عصمة في التفكير والعقيدة، وطهارة بالغة في القلب، ولكنها يجب أن تعدل بالوحي لكي لايضلوا بحسن الظن ، فكان لابد لهم من وحي القرآن ليدلهم على ضلالات الانس والجن ليجتنبوها ، كما يدلهم إلى صراط الحق ليسلكوه.

وقد يقال : إنهم قبل سماع القرآن كانوا يتبعون سفهاءهم في شططهم على الله، لحسن ظنهم بالانس والجن كافة ، ثم اتضح لهم كفرهم فآمنوا ، ولكنه يتنافى وابتعاثهم الإلهي رسلاً للجن ، وان الجن كانوا طرائق قددا « وانا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قدداً » « وانا منا المسلمون ومنا القاسطون » .

فهل ياترى أن الله تعالى انتجب لرسالة الجن غير الصالحين المسلمين مع من فيهم من الصلحاء ؟ كلا ! وانهم كانوا أصلح الصلحاء منهم ، على ظنهم ان لن تقول الإنس والجن على الله شططا ، وعلهم ما كانوا ليختلطوا معهم ، ثم بعد المخالطة عرفوا انهم على شطط وفي مقالة الكذب، وزادهم الوحي عرفاناً بالحق والباطل.

**« وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا » :**

« رجال من الجن » دليل أن فيهم نساء فلهم ذرية ، و « كان رجال » يوحي بعلمهم بسابق الرهق والتضليل في سفهاء الجن ، قبل أن يسمعوا القرآن ، فظنهم

ان لن تقول الانس والجن على الله كذبا ، انه يسبق هذه المعرفة ، فرسل الجن هؤلاء على طهارة قلوبهم وصفاء ضمائرهم في حياتهم ، لقد مضت عليهم حالات ثلاث :

١ — « انا ظننا ان لن تقول الإنس والجن على الله شططا » .

٢ — « انه كان يقول سفيهنا على الله شططا . وانه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا » .

٣ — « انا لما سمعنا الهدى آمنا به» « سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا احدا » .

فهم إذاً —طول حياتهم— كانوا بريئين من الشرك والشطط والكذب على الله.

ثم إن العوذ بغير الله هو اشراك بالله ، وانما يستعاذ بالله ممن سواه ، ولقد كان العوذة بالجن بين الجاهلين سنة ، زعم أن للجن قدرة مستقلة على النفع والضر،فهم محكّون في مناطق من العالم، فكان رجال من الإنس يستعيذون برجال من بأس أشرارهم وشرهم ، رغم أن هذه العوذة الجاهلة الملعونة ما زادتهم إلا رهقا واضطرابا وضلالا وحيرة وقلقا تنوش قلوبهم المقلوبة الراكنة إلى الأعداء الضالين: « فزادوهم رهقا » وهذا هو الضلال البعيد أن يستعاذ بالشرير من شره ومن أشرار حزبه ، ولا يستعاذ بالله الذي خلقهم وبيده ناصية كل شيء ! .

فالقلب حين يلجأ إلى غير الله طمعاً في نفع أو دفعاً لضر ، لاينا له إلا زيادة الضر والرهق « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

هذه العوذة العارمة ترهق المستعيذ والمستعاذ به « فزادوهم » : رجالُ الإنس رجالَ الجن وبالعكس ، وضميرا الغالب يتحملان كلا الاحتمالين ، فالمستعاذ به يغتر بهذه العوذة فيزداد ضلالا وإضلالا ، كما المستعيذ يزداد رهقا وعذابا.

**« وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا » :**

« وانهم » هؤلاء الرجال الضالون من الانس « ظنوا كما ظننتم » انتم الرجال

من الجن ، ضلال كضلال وظنٌ كظن : « يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً » ( ٦ : ١١٢ ) .

أو « أنهم » رجـال الإنس والجن الضالون السابقون « ظنوا كما ظننتم » أنتم الموجودين من القبيلين، خطاباً لهما من رسل الجن، عرفه الجن بما خوطبوا والإنس بما نزل به القرآن :

« أن لن يبعث الله أحداً » : لا بعث النبوة في حياة التكليف ، ولا بعث الحياة الأخرى في حياة الجزاء!! ترى كيف يجتمع الظن و « لن » وهي تُحيل البعث والظن يرجّح عدمه ؟ الجواب ان « ظنوا » يحكي عن واقع مـا في أنفسهم ، إذ لا سبيل لليقين بعدم البعث : « وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ومـا لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون » ( ٤٥ : ٢٤ ) و « لن » تحكي عما يدعون من العلم بعدم البعث ، وعما يشهد له واقع اعمالهم وتصرفاتهم كأنهم على علم عما يظنون ! وإن هم لا يظنون .

هذا ظنهم دون سناد إلى شيء ، فكما العلم بحاجة الى سبب كذلك الظن، وهناك العقل والنقل والفطرة تدلنا على ضرورة البعثين كما نراها في طيات آياتها.

**« وأنا لمَسنا السماء فوجدناها مُلِئَت حَرَساً شديداً وشُهُباً . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجـد له شِهاباً رَصَداً . وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الارض أم أراد بهم ربهم رشداً » .**

هنا رسل الجن يستعرضون لمسهم السماء للإستماع الى الملإ الأعلى، أنهم كانوا يقعدون منها مقاعد للسمع دون حرج ولا حظر ولا خَطَر ، فمن يستمع الآن يجـد له شهاباً رصداً ، فهل إن الحرس الشديد والشهاب الرصد شيء جديد ؟ آيات الشهب تقول إنهـا كانت منذ خلقت سماء الأنجم والشياطين الذين كانوا يستمعون الى الملإ الأعلى !

أم أنما حصل جديداً هو ملء السماء حرساً شديداً أو شهباً ، مهما كانوا

موجودين قبلذاك دون شدة و كثرة ؟ آيات الشهب لا تنفي الكثرة السابقة ، بل وقد تلوح اليها !: « ويقذفون من كل جانب . دحوراً ولهم عذاب واصب » !

إذاً فهل الجديد منع الجن عن السماء بعد ما كانوا يلمسونها ؟ آيات الشهب تصرح ان السماء بالملأ الأعلى كانت ممنوعة قبلذاك أيضاً ! فما هو التوفيق ؟

الجواب في كل الأطراف المعنية واضح وضح النهار ، من الآيات أنفسها : فآيات الشهب الثاقبة ، انما تختصها بدحر الشياطين المتسمعين للملأ الأعلى ، المسترقين السمع وليس لهم ، وأما الجن المؤمنون ولا سيما رسلهم الكرام فلا تمنعهم : « انا زيّنّا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظاً من كل شيطان مارد . لا يسّمعون الى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب . دحوراً ولهم عذاب واصب . الا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب » ( ٣٧ : ١٠ ) « ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم . الا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين» (١٥:١٨) « ولقد زيّنّا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير »(٦٧:٥).

فلا الجن المؤمنون المتسمعون للملأ الأعلى ، ولا الإنس الذين لا يقدرون التسمع ، لم يكونوا ممنوعين ومدحورين ، وقد كان لرسل الجن هؤلاء مقاعد خاصة في السماء عند الملأ الأعلى فيها يسمعون ، وكان حقاً لهم بما هم رسل يستمعون الوحي ثم يولّون الى قومهم منذرين ، فلما ابتعث خاتم المرسلين محمد ﷺ مُلِئت السماء كل السماء حرساً شديداً ومن الشهب الرصد ، السماء كل السماء ، وفي مقاعد الجن المؤمنين ايضاً ، ولأن الوحي ختم بعد النبي ، وفي وحي القرآن كفاية عما كانوا يستمعون ، وزيادة عما كانوا يأملون ، فكان ولا بد من ان تملأ السماء حرساً شديداً وشهباً تدحر الجن كافرين ومؤمنين .

فالذي حصل جديداً زمن النبي الجديد أن السماء مُلِئت حرَساً شديداً ، وفي مقاعد الجن المؤمنين ايضاً ، بعد ما كانت خالية عنهم آمنة من دحرهم ، وشهاباً رصداً لهم يمنعهم عن التسمّع الى الملأ الأعلى منعاً ، دون مس من كرامتهم ، أو عذاب لهم واصب ، أو شهاب ثاقب يثقبهم كما كانت لمردة

الجن الشياطين، إنما حرسٌ شديد وشهاب رصد لصدِّهم عن التسمّع الى أسرار الملإ الأعلى إذ عُوِّضوا عنها بوحي أعلى يصدرونه عن الرسول الخاتم محمد ﷺ .

هنـا الجن يقرّون أن الرسالة المحمدية منذ بزوغهـا هي التي ملأت السماء حرساً شديداً وشهباً ، لا منذ ولادته ﷺ إذ قالوا : « وانا كنا نقعد منهـا مقاعد للسمع » : قبل الآن « فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً » والآن هو آن استماعهم للقرآن لا آن ولادة نـبي القرآن .

هذا — ومن الجـائز كون تجنيد الحرس الشديد والشهاب الرصد ، منذ ولادة الرسول، كذلك وملء السماء وفي مقاعد الجن المؤمنين دون تعرُّض لهم، ثم منذ الرسالة ونزول القرآن أخذوا في تنفيذ الأوامر الباتة لدحر المتسمعين من الجن كافرين ومؤمنين سواء .

فالنيازك النـارية الراصدة بحرسهـا الشديد ، تحرق مردة الجن المسترقين السمع دائماً ، وتنبه المؤمنين منهم ، ولا ريب أنهم تركوا لمس السماء بعد إذ عرفوا أنهم ممنوعون ، تركوه بدافع الايمان ولا سيما أنهم مرسلون ، ثم سائر المؤمنين منهم مهما اخطؤوا في لمس السماء لاستماع اخبارها ، فعلّهم لا يثقبون بالنيازك الشهب كما تثقب مردة الشياطين ، وإنمـا يدحرون دحراً أو ينبهون مرة تلو الأخرى ، ولكي يختص الوحي وأخبار السماء بالرسول الختم ، ثم لا خبر ولا وحي بعد ارتحاله ﷺ والى القيامة الكبرى .

فحريٌ بهـؤلاء الرسل الكرام أن يحتاروا في أمرهم : « وانا لا ندري أشرٌ اريـد بمن في الأرض » إذ انقطع عنهم خبر السماء ووحيه ، وكانوا — كرسل — يصدرونه الى أهل الأرض من الجن ، أشر أريد بهم؟فظلوا في فتور الوحي أو فترته ؟ « أم أراد بهم ربهم رَشَداً » : بما علّه يعوِّضهم عنه بمـا فيه رشدهم وأكثر مما كان ، فليس انقطاع خبر السماء رشداً لأهل الأرض إلا إذا عوّض عنها بما هو أرشد وأحرى، وكما قالوا: « انا سمعنا قرآناً عجباً.. » فلم تكن أخبار السماء عجباً كما القرآن عجب،فقد أراد ربهم بهم فيه رشداً.

فما روته الرواة خلاف النص أو الظاهر من هذه الآيات نضرب بها عرض الحائط ، كما يروى انه « حيل بين الشياطين وبين خبر السماء »[١] ، وكما اختلق على علي عليه السلام أن الشياطين ما كانوا محجوبين عن السماء وإنما حجبوا عنها لما ولد الرسول محمد ﷺ[٢] : غلطاً على غلط حيث المنع كان منذ الرسالة لا الولادة، والممنوعون هم مؤمنوا الجن بعد ما كان لهم مقاعد للسمع، وأما كفارهم فقد منعوا منذ كانوا وكان الملأ الأعلى ! ، وعجيب من أصحاب الحديث كيف يسجلون هذه الاحاديث المخالفة للآيات كأنها وحي نزل ، وكأن القرآن فرع بها يؤوّل ، ونحن لا نذكرها إلا رداً لها على كتاب الله وليذّكر أولوا الالباب !.

## نكات على ضوء هذه الآيات :

١ ـ هناك في السماء ملأ أعلى هم أعلى محتداً ومنزلة، من سواهم من الخليقة ،

---

(١) رواه الواحدي باسناده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : ما قرأ رسول الله (ص) على الجن وما رآهم، انطلق رسول الله في طائفة من اصحابه عامدين الى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء فرجعت الشياطين الى قومهم فقالوا : ما لكم ؟ قالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء وارسلت علينا الشهب ، قالوا : وما ذاك الا من شيء حدث فاضربوا مشارق الارض ومغاربها ، فمر النفر الذين اخذوا نحو تهامة بالنبي وهو بنخل عامدين الى سوق عكاظ وهو يصلي باصحابه صلاة الفجر . فلما سمعوا القرآن استمعوا وقالوا : هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء فرجعوا الى قومهم وقالوا : انا سمعنا قرآناً عجباً يهدي الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا احداً ، فاوحى الله الى نبيه (ص) « قل اوحي الي انه استمع نفر من الجن » ورواه البخاري ومسلم ايضاً في الصحيح .

اقول مهما رويت هذه الرواية في الصحيح وسواه فهي غلط اذ تنافي نصوص القرآن ــ تأمل.

(٢) نور الثقلين ٥ : ٤٣٦ ح ٢٤ عن احتجاج الطبرسي عن امير المؤمنين (ع) : « ولقد رأيت الملائكة ليلة ولد تصعد وتنزل وتسبح وتقدس وتضطرب النجوم وتتساقط علامة لميلاده، ولقد هم ابليس بالظعن في السماء لما راى من الاعاجيب في تلك الليلة، وكان له مقعد في السماء الثالثة والشياطين يسترقون السمع ، فلما راوا العجائب ارادوا ان يسترقوا السمع فاذا هم قد حجبوا عن السماوات كلها وقد رموا بالشهب جلالة لنبوة محمد (ص) .

مُلِئوا من أسرار السماء ويتحدثون دوماً عنها ، كان الجن المؤمنون ، أو رسلهم بوجـه خاص ، يستمعون اليهم فيرجعون الى قومهم منذرين ، دون الجن الشياطين الذين لا يرجعون بما يسرقون إلا بكل تدجيل وتضليل .

٢ ـ إن في الجن رسلاً كما في الانس ، ولكنما الرسالة الأصيلة هي لرسل الإنس ، كما يوحي به انقطـاع وحيهم منذ الرسالة الإسلامية ، فـلو كانوا مستقلين فيها لكان منهم خاتم يحمل الوحي الخالد كما منا خاتم .

٣ ـ في حرمـان رسل الجن عن الوحي مع الأبـد ، منذ بزوغ وحي القرآن ، دلالة ناصعة أنه خاتمـة الوحي ، لا كتاب بعده ولا نبوة بعد نبوته ، وختم الوحي والرسالة هو الرَّشَد الذي أراده الله بمنع التسمع الى الملأ الأعلى عن رسل الجـن : « أم أراد بهم ربهم رشداً » .

٤ ـ السماء الملموسة لرسل الجن هي سماء الأنجم وهي الاولى من السبع ، حيث نُرى الشهب الثـاقبة والنيازك النارية ، ولا ريب انهـا في الاولى ، إذ ليس غيرها مرئية لنـا حتى الآن ولا بالعيون المسلحة ، ومن لمسهم السماء ودحرهم عنها نعرف أن سكنى الجن هي الأرض بجوّها، بخلاف الملائكة .

٥ ـ يوحي التنديد بالعائذين بالجن ، كما تفرضه حكمة الله وعدله : أن لا سلطان للجن على الانس ولا من شياطينهم إلا كيداً : « وان كيد الشيطان كان ضعيفاً » فمن الظلم أن يفسح المجال للجن ان يؤذوا الإنس وهم لا يرونهم، ولا حيلة لهم في الدفع عن أنفسهم وأعراضهم ، وليست فكرة تدخّل الجن في البعض من أمور النـاس وحالاتهم وتخبّلهم بهم إلا خرافة أسطورية قضى القرآن على أمثالهـا .

٦ ـ الحرس الشديد الجديد عند بعث النبي الجديـد ، يوحي بأن الحراسة ما كانت قبلئذ بتلك الشدة ، إذ كان الجن المؤمنون يستمعون الى الملأ الأعلى في مقاعد لهم خاصة ، وكانت مردة الشياطين منهم يسترقون شيئاً ممّـا مها لاقوا من دحر وعذاب ، لكنما الرسالة المحمدية الختمية اوجبت حصر الوحي

به ودحر من سواه ، سواء أكان استماعاً حرّاً كما كان للمؤمنين ، أم استراقاً كما للشياطين ، فالكل محرومون عن كل أسرار السماء إلا من طريق الرسالة المحمدية ، حيث الجن الرسل يُصدون عنه .

فالأجهزة الدفاعية السماوية من الشهب النيازك النارية والحرس الشديد ، تنفذ أمر الله تعالى والى يوم القيامة الكبرى ، فمن ادعى بعد الوحي المحمدي وحياً وبعد رسالته رسالة وبعد كتابه كتاباً فهو دجال كذاب .

٧ ـ لا ندعي أن أهداف الشهب تختص بدحر الجن ، وإنما هو من اهدافها التي كنا نجهلها كما جهلنا الجن ، وكما يجهل العلماء حتى الآن اهداف هذه الشهب،فهل من العقل انكار المجهول من أسرار الكون وأكثره مجهول؟!

ان المتفلسفين الذين يحاولون تفسير هذا الكون وارتباطاته في كافة زواياه ومجالاته ، انهم ظلوا يتعثرون كالاطفال الذين يصعدون جبلاً شاهقاً لا غاية لقمته ، محاولة حل لغز الوجود ، وهم لم يتقنوا بعدُ أبجدية الهجاء من كتاب التكوين الغامض الفائق المعقول .

لقد ظلوا مرتكسين في تصورات لهم مضحكة حين نقرنها الى التصورات الواضحة البديعة الجميلة التي ينشئها القرآن ، فتلك منهم مضحكة بعثراتها ومفارقاتها وتخلخلها وقزامتها الى عظمة الوجود ، وهذه عريقة عميقة الى غير الحدود ، فانها من خالق الكائنات ، سبحان الخلاق العظيم !

**« وأنا منا الصالحون ومنادون ذلك كنا طرائق قدداً » :**

علّ الصالحين هنا هم الصالحون تماماً دون فساد وهم رسلهم ، و « دون ذلك » يشمل دون الصلاح الشامل ، من الصلاح الخليط بالفساد كمن دون الرسل من مؤمنيهم ، والفساد التام دون صلاح كشياطين الجن ، وفي كل من هؤلاء الثلاثة أيضاً صنوف ، يوحي بهذا التقسيم « كنا طرائق قدداً » فلم يقل طريقين ليكون تقسيم الصالحين ودون ذلك ثنائياً كما يُزعم ، إنما « طرائق قدداً » .

وبما ان الطرائق جمع طريقة ، والقِدَدَ جمع قِدة وهي المستمرة بالقَدّ في جهة واحدة ، المشقوق طـولاً ، نستوحي أنهم كانوا ولا يزالون في مبادىء متباينة ، كلٌ يباين الآخر ، كما المقدود يباين بعضه البعضَ ، وبما أن أقل الجمع ثلاثة فطرائقهم المبـاينة إذاً : رسلهم ومردة الشياطين وبينهما المؤمنون على شتات درجاتهم ، فلا رسل الجن يكفرون أو يفسقون ، ولا شياطينهم يرسلون او يؤمنون ، ولا المتوسطون يشيطنون، وان كان المرسلون يصطفون من بينهم ولا بدّ ، ونرى القرآن هكذا يقتسم الجن الى هؤلاء الثلاث ومنهم الشياطين وهم ذرية الشيطان الأكبر وذريتهم أيضاً ، هم قِدة مستمرة في الكفر لا يؤمنون كأنهم من صنف آخر : « أفتتخذونه وذريته أوليـاء من دوني وهم لكم عدو » ( ١٨ : ٥٠ ) وهذه ميزة أخرى بين الجن والإنس ، إذ لا نجد من الإنس من هم قـــدة مستمرة في الكفر بذرياتهم ، فقد يولد مؤمن من كافر أو كافر من مؤمن .

هنا نكرر براءة رسل الجن عما ينسب اليهم أنهم كانوا ذيولاً لسفهاءهم قبل سماع القرآن ، سناداً الى تفسير رديء لقولهم « وانا ظننا ان لن تقول الانس والجن على الله شططاً » ، رغم انه يطهرهم للغاية كما اسبقناه ، ثم هذه الآية تجعلهم من الصالحين تمامـــاً منذ كانوا ، مما يذود عنهم وصمة الغواية عن جهالة .

فهؤلاء الرسل الكرام ، القدة الصالحة ، مرسلون الى من هم دون ذلك، الى شياطينهم وسفهائهم لإلزام الحجة ، والى من بين القدتين لايضاح المهجة ، ولئلا تكون لهم حجة على الله بعد الرسل ولله الحجة البالغة .

وما أجمـــل هذا التقرير عن مصير الجن في بيئتهم : ازدواجية الطبيعة والاستعداد لكلا النجـدين : الخير والشر ، إلا من تمحّض منهم للشر وهو ابليس وقبيله بذريتهم ، ومن تمحض للخير كرسل الجن ، تمحضاً بالطبع والسعي معـاً ، رغم التصور الغـالط عندنا وحتى بعض الدارسين : ان الجن يمثلون الشر أياً كانوا! وأن الانسان وحده بين الخليقه هو ذو طبيعة مزدوجة،

كلا ! إنهم كأمثالنا طالما اختلفوا عنا فيما استوحيناه مسبقاً ، مما لا يجعلهم سابقين علينا ومسيطرين فينا ، ولا شريرين تماماً ، فهم مكافون كما نحن ، وهم طرائق قِدَداً كما نحن إلا في شياطينهم الثابتين على قدتهم ، فقد شبّه سبحانه اختلافهم في الاحوال ، وافتراقهم في الآراء كالسيور المقدودة التي تتفرق عن أصلها وتتشعب بعد ائتلافها ، حيث اختلفوا منذ الخلقة إذ خلقوا من نار ، ثم اختلفوا قِدَدَ النور والنار وبينهما متوسطات .

**« وانا ظننا أن لن نعجز الله في الارض ولن نعجزه هرَباً »**

« وأنا ظننا » : ظن القلب الذي يساور اليقين ، لا ظن العقل الذي لا يغني ، ولا يُقبَل من المؤمنين ، و : « لن » المكررة هنا مرتين ، الدالة على استحالة مدخولها ، إنها أثبت قرينة أنــه ظن القلب ، فظن العقل ، بل ويقينه ـ أحياناً ـ يتحمل فكرة تعجيز الله بأيّ معنىً كان ، كما نلمسه ممن يدّعون الايمان ، وظنُّ رسل الجن عمــا يُحيل هذه الفكرة ، فليكن يقيناً عقلياً راجحاً .

وإنما يقتصر هنا بالظن ، وجماعةٌ من رسل الجن هم من أهل اليقين في قلوبهم ؟ لأنهم درجات، يجمعهم ظن القلب، مهما اختص البعض منهم بيقينه!

« .. ان لن نعجز الله في الأرض » : يوحي انهم مــن سكنة الارض ، وان كان باستطاعتهم صعود السماء ، وهنا يعترفون ـ رغم أوهــام المشركين الظانين ان الجن شركاءُ الله وانسباؤه ـ يعترفون انهم يعرفون قدرة الله عليهم في الارض ، فلن يعجزوه فيها ، بل « ولا هرباً » : هرباً من الحياة الدنيا ، فانهم ينتقلون بعد الى برزخ الحيــاة وهم في قبضة الحي القيوم ، أم هربــاً من حياة الارض الى السماء فالى أين يهربون إلا الى ملكه وسلطانه : « يا معشر الجن والانس ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السماوات والارض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان » ( ٥٥ : ٣٣ ) فلنفرض ان هنــاك منفذاً من أقطار السماوات والارض ، فالى أين بعدُ ؟ فهل إلا الى سلطان الله وملكه ؟

فهؤلاء - وهم رسل الجن - اقواهم بينهم - يعترفون بعجزهم عن الهروب من سلطان الله والإفلات من قبضته، والفكاك من قدرته، شاعرين بسلطان الله عليهم أينما كانوا، وعلى الخلق أجمع، فكيف بشياطينهم!

وعلى أثر هذا الاعتراف الصادق النابغ، النابع من قلوبهم الصافية الضافية، أصبحت حياتهم تحسساً وتجسساً عن الحق الصراح، النازل بوحي السماء:

«**وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً**».

إنهم سمعوا القرآن «قرآناً عجباً يهدي الى الرشد فآمنا به» وسمّوه هدىً وهو هدى مزدوج، يهدي المتحسسين عن وحي السماء، الى أنه وحي السماء، ثم يهديهم الى رشد الحياة، فالايمان به إذاً ايمان مزدوج، وليس تقليدياً، وإنما عن برهان، ايمان بوحيه وهداه.

«فمن يؤمن بربه» والايمان بالقرآن ايمان بمن انزله، فانه تعالى تجلى بعلمه وهداه في قرآنه، فالناكرون القرآن إنما ينكرون الله او يكذبونه لو كانوا يعقلون.

ثم هكذا ايمان متين مسنود الى برهان مبين يزيل عن صاحبه كل خوف، «فلا يخاف بخساً ولا رهقاً»: بخساً: نقصاً على سبيل الظلم أو كل نقص ولا رهقاً: شمول الاضطراب.

لا يخاف في حياة الايمان وسبيله واقع البخس ولا توقّعه، في مال أو جاه أو نفس، فهي كلها فداء في سبيل الله، تجارة مربحة لا بخس فيها ولا نقص، ولأن الايمان يؤمن الانسان عن المخاوف ويُطَمْئنه عن الإرهاق، وعلى حد المروي عن الامام الرضا عليه السلام: «من خاف الله أخاف الله منه كل شيء ومن لم يخف الله اخافه الله من كل شيء».

ولا يخاف - كذلك - رهقاً: اضطراباً يشمله ولماذا يضطرب؟ ألفقد مغريات الحياة الدنيا وزخرفاتها؟ فما هي إلا متاعاً لتجارة لن تبور! يستبدل

بها المؤمن مرضاة الله ورحماته في الدارين ، فذكر الله تعالى يُطمئن القلوب « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » فضلاً عن الايمان المازج القلوب ، التي أصبحت ذكراً لله إذ عاشت ذكره ، داحرة داحرة مَن سواه .

إنهم مهما شملهم بَخْسٌ أو رَهَق في الحياة الدنيا في سبيل الله ، فلا يخافون ، لأنهم الراجون يوم الدين ، فلن يبخس المؤمن حقه الثابت ولن يرهق ، ومن ذا الذي يملك بخسه وإرهاقه وهو في حماية الله ورعايته ، وحرمانه عن ملذات الحياة الدنيا ومغرياتها ليس بخساً ولا رهقاً يجنب ما يكسبه من رضوان الله والحياة الآخرة ، فهو في راحة في ضميره ونفسه دنياً مهما ضحى بنفسه ونفيسه ، وفي راحة شاملة في الآخرة : لا يخاف بخس الدنيا ورهقها ، الواقع ـ لا محالة ـ للسالكين في هذه السبيل ، يوم الدنيا ، ولا يخافها يوم الدين إذ هما لغير المؤمنين .

**« وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحرّوا رشداً . وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً » .**

يُلمح من تقسيمهم الى المسلمين والقاسطين أن الجمع هنا : « أنّا » يشمل الجن أجمع ، لا خصوص المؤمنين أو الرسل منهم ، فـ « انّا » هنا تختلف عن « أنّا » هناك ، بين خاصة برسلهم كـ « إنا سمعنا قرآناً عجباً » وعامة للمؤمنين منهم وعلّه : « وأنا لمسنا السماء .. » وعامة للجن اجمع « وأنا منا الصالحون ومنادون ذلك كنا طرائق قِدَداً » فـ « أنا » هنا وهناك وهنالك طرائق قِدَد في الشمول والخصوص كما الجن طرائق قِدد ! .

ولئن سئلنا ما هو الفرق بين « الصالحون » و « دون ذلك » وبين ما هنا « المسلمون والقاسطون » ؟

فالجواب ان « الصالحون » كما مضى هم رسل الجن ، ودون ذلك يشمل كلا القاسطين ، والمتوسطين بينهما من المؤمنين بدرجاتهم ، ولكنما « المسلمون » يعم رسلهم والمؤمنين ، و « القاسطون » يخص شياطينهم « وأما القاسطون

فكانوا لجهنم حطبـاً » ، فالمؤمن مهما كان فاسقـاً ليس لجهنم حطباً ، وإن أحرق بوقوده قليلاً أم كثيراً ، ولكنه خارج عنها الى رحمة الله، لايمانه ، فلا يضيع الله ايمانهم ولا يسوي بينهم والشياطين .

وبما أن التحري هو التعمل في قصد حَرَى الشيء وجانبه ، نعرف ان مسلمي الجن إنما أسلموا فاحصين قاصدين الايمان المفصل بالوحي بعد أن كانوا مؤمنين الايمان المجمل بمقولهم الصافية وقلوبهم الضافية ، فقد تحروا رشداً حتى جاءهم الرّشد بوحي القرآن فآمنوا به غير مسيّرين ولا ناكرين ولا راغبين بالايمان مالاً ولا منالاً، وإنما رشداً ، كانوا يتحرونه حياتهم ، وكلٌ نال رَشده وهداه قدر سعيه ولباقته ولياقته ، بين من أوحي اليه وحمل رسالة السماء على هامش رسل الانس ، وبين المؤمنين بدرجاتهم ، بما أرسل اليهم رسلهم إذ « ولوا الى قومهم منذرين » .

فالإسلام ـ أيا كان ـ بحاجة الى التحري والتفكير الصحيح للوصول اليه، دون الضلالة فانها تتحرى الانسان وهي قائمة على كافة الدروب ، دون حاجة الى ان يتحراها الانسان ، فالضـلالة والقسط تخبّط عشوائي ، ولا إنسانية بغير إدراك ، والإسلام والإقساط اهتـــداء الى الرشد في إنسانية التحري والتفكير ودحر الجهالات والتعصبات .

والقسط ـ خلاف الإقساط ـ : أخذُ نصيب الغير ظلماً ، خلاف إعطائه عدلاً ـ كالضرب والإضراب ـ فالإسلام يتضمن الإقساط ، إعطاء كل ذي حق حقه ، حق الخالق والمخلوق ، وحق المسلم نفسه ، مستسلماً في هــــذه الحقوق لحكم الله ، والقسط تجاوزٌ الى حقوق الغير وأخذها ظلماً وعتواً ، ويرجع الى هدر الحقوق جماعية وفردية ، خَلقية وخالقية ، ولصاحب القسط قسط عظيم من قسطه ، يكدّر حياته وهو يحسب أنه يحسن صنعاً !

« وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً » : « كانوا » لا « سوف يكونون» فهم حياتهم حطب جهنم ، يؤجّجون نيران الخلافات والحرمانات والظلامات،

في الحياة الدنيا ، وبذلك سوف يكونون حطباً لجحيم الآخرة ، تستدام النار بدوامهم ، فكل نار لا بد لها من حشاش يحشها ووقود يقودها .

فالقاسط نارٌ عبر حياته هنا وهناك ، والمُقسط جنة عبرهـا هنا وهناك « وان ليس للانسان إلا مـا سعى ، وان سعيه سوف يرى » .

والجن مهما كانوا مخلوقين من نار ، فالقاسطون منهم يحرقون ويحرّقون في جحيم النار بمـا يوحيه النص القرآني الذي نستمد منه تصوراتنا الايمانية ، فالتصورات الشاردة الماردة التي تُحيل أو تستبعد عذاب الجن بالنار ، ليست صادرة إلا عن أفكار مادية ضيقة تعارض النصوص القرآنية والواقع الملموس ايضاً ، أن كثيراً مما أصله النار يُحرق بالنار ، والنار الأقوى كذلـك تحرق الأضعف او تزداده حرقاً ، إضافة الى ان الجن لم يظلوا ناراً وإنما خُلقوا من نار ، كما الإنسان المخلوق من التراب يقتله الحجر المخلوق من التراب ، فهل من المستحيل ـ إذاً ـ أن مادة أقوى تصطدم مـادة من جوهرها هي اضعف منها ، مهما بقيت على حالتها ، أو ـ بأحرى ـ تغيرت ، كما الجن خلقوا من مارج من نار وليسوا الآن ناراً ، ولو بقوا ناراً فنار الجحيم هي أقوى ، وعلى أقل تقدير تزيد في ناريتهم فتحرقهم مهما لا تحرقهم نارهم الاصيلة، وكما في الإنسان ايضاً نار هي من شروط حياته ، فلو زادت أصبحت النار نفسها من بواعث مماته كالحمى البالغة ذروتها ، المجمدة للدم .

ثم من بعد ذلك فعدل الله وفضله وكلمته البالغة تفرض التسوية بين الجن والانس ، مؤمنين وكافرين ، الى الجنة على سواء والى النـار على سواء ، وكما تدلنا عشرات الآيات مصرحات ، ومثبـتات شاملات ، فالحظائر الممـدة بين الجنة والنار لمؤمني الجن وفساق الشيعة، المروية عن باقر العلوم(ع)هي مكذوبة مزورة عليه عليه السلام ، مكتوبة بأيدي الجهل في البعض من كتب الحديث [1].

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٣٧ القمي وسئل العالم عن مؤمني الجن ايدخلون الجنة ؟ فقال : لا ـ ولكن لله حظائر بين الجنة والنار يكون فيها مؤمنوا الجن وفساق الشيعة ! .

فآيات الجنة في سورة الرحمان تشمل الانس والجان صريحة : « ولمن خاف مقام ربه جنتان . فبأي آلاء ربكما تكذبان » ( ٥٥ : ٤٦ ) .

ولقد أوحى التعبير في هذه الآيات انها تحمل مقالات واعترافات رسل الجن ، مزيجة من وحي العقل والايمان ووحي السماء ، ثم الله يؤيدهم في أن الاستقامة على طريقة الاسلام تسقيهم ماءً غدقاً يحييهم في عوالم الحياة كلها ، فليس الاسلام المنقطع الفاشل بالذي ينجيهم ، وإنما الإسلام المستقام :

**« وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم مـــاء غدقاً . لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صَعَداً » .**

ونرى هكذا تتمة السورة انها من كلمات الله تأييداً لرسالة الجن وتكميلاً لها في وحيها الأصيل الى رسلهم ورسول الانس محمد ﷺ .

وان في ترادف آياته تعالى بمـا ينقله عن رسل الجن دلالة لطيفة على مدى تصديقه لهم في مقالاتهم النابعة عن وحي الايمان ووحي السماء، وانها مصدَّقة كوحي القرآن لانها نابعة عنه .

« وان لو استقاموا » المسلمون من الجن وسواهم « على الطريقة » المثلى التي تحروها ، دون تزعزع وفوضى ، وإنما الاستقامة : طلب القوام والقيام فيها من أنفسهم وسواهم « لأسقيناهم ماء غدقـاً » غزيراً : يمطر عليهم من سماء الرحمة روحانية وجسدانية : « ولو ان أهـــل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » ( ٧ : ٩٦ ) « ولو أنهم اقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت ارجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما كانوا يعملون » ( ٥ : ٦٦ ) .

إن الماء الغَدَق هناك ، والبركات هنا ، لا يخصان مـــاء السماء وبركاتها المادية فحسب ، فانهـــا تعم المستقيمين وسواهم ، وان كانت لهم رحمة ولمن

سواهم ابتلاء ونقمة ، فهي تعم ماء الحياة الروحانية وبركاتها التي تخص المتقين المستقيمين دون سواهم ، فلا تختص عوائد الايمان وفوائدها الحياة الاخرى ، بل إنها تعمها والحياة الدنيا ، والآخرة خير وابقى ، فالبركات الروحية هي أولى وأحرى أن تسمى ماء غدقاً وبركات إذ لا تخالطها دركات : « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون » (٤١ : ٣٠) لذلك نرى الامام جعفر الصادق عليه السلام يفسر الماء الغدق بالعلم الكثير ، تفسيراً بما هو أحرى مصاديقه [١] .

ثم الماء الغدق المادي وبركاتها ، هو جزاء المستقيمين من جهة ، وفتنة لهم من أخرى ، وكما جُعِلت غاية للإسقاء : « لنفتنهم فيه » فالمستقيم في الفتنة الذي لا تغريه بركات الدنيا ومغرياتها ولا تنسيه وتعرضه عن ذكر الله ، هذا المستقيم تزداده الفتنة رحمة وإيماناً ، وقليل ما هم الصامدون على الإستقامة في التَرَف والتَرَح، ولذلك لا يعم الله سعة الارزاق للمستقيمين اجمع ، فأكثرها لمن يستقيم ، ثم يجانبهم المعرضون عن ذكر الله الذين يبدلون نعمة الله كفراً ويُحلّون قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار ، هؤلاء الذين حياتهم هي الغفلة ويعيشون التخلفات ، فالماء الغدق والبركات تصبح لهم دركات وتسلكهم عذاباً صعداً « ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعداً » ينفذه عذاباً صعباً .

من المؤمنين غير المستقيمين في الايمان ، والمستقيمين ما داموا فقراء فإذا سقوا ماء غدقاً بغوا ونسوا الله، ومن القاسطين المستقيمين في القسط والبغي، هؤلاء شركاء في سلك العذاب الصَعَد نتيجة الإعراض عن ذكر ربهم ، كل على قدره ـ أعاذنا الله منه ـ فهم في العذاب الصعد فقراء وأغنياء ، رؤساء ومرؤسين،وليس املاؤهم في أعمارهم وإمدادهم باموال وبنين خيراً لأنفسهم،

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٣٩ عنه (ع) معناه : لأفدناهم علماً كثيراً يتعلمونه من الأئمة .

« ولا يحسبنّ الذين كفروا أنما نملي لهم خيراً لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب أليم » (٣ : ١٧٨) فإملاء المؤمن المستقيم هو لازدياد الايمان ، ثم هو لغيره لازدياد الإثم فالعـذاب الاليم ، فحياته ومعيشته ضنك أينما حل : « ومن اعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة اعمى » ( ٢٠ : ١٢٤ ) مهما لم يحس أم لم يبرز ضنك المعيشة في الدنيـا ، ولكنها في الآخرة محسوسة بارزة .

إن الحياة الدنيا كلها بكافة حالاتها ووجهاتها فتنة ، فمنها خير ومنها شر : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون » ( ٢١ : ٣٥ ) ففتنة الخير تقدم الإنسان نحو الأكمل فالأكمل في الخير : « ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من بعدها لغفور رحيم » ( ١٦ : ١١٠ ) وفتنة الشر تدفعه نحو الأشر : « ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه » ( ٢٠ : ١٣١ ) .

فالمؤمن المستقيم يفتن بالماء الغدق والبركات ليزداد ايماناً ، وسواه يفتن بها احياناً وبسواها أخرى ليزداد إثماً وله عذاب أليم ، ويا لفتنة المؤمن بالبركات صعوبة صعداً ، ثم تكون له ولمن معه رحمة .

فالابتلاء بالنعمة بحاجة ملحة ملحة الى يقظة مستمرة تعصم من شر الفتنة ، فنعمة المـال كثيراً ما تقود الى فتنة البطر والإعراض عن ذكر الله ، ونعمة القوة كثيراً ما تقود الى فتنة الطغيان والعصيان على الخلق والخالق ، والتهجم على الحرمات والتجهم على بركاته ، ونعمة الجمال كثيراً ما تقود الى فتنة الخيلاء ، ونعمة الذكاء كثيراً ما تقود الى فتنة الغرور والاستخفاف بالآخرين ، فلا تكاد تخلو نعمة من الفتنة السوء إلا من استقام فذكره الله فعصمه الله .

وكل ذلك بخلاف فتنة النعمة وابتلائها ، الممتحن بهـــا كثير من المؤمنين المستقيمين ، فهي اخف من ابتلاء النقمة بكثير .

والعذاب الصَّعَد الصاعد في الصعوبة لحدّ كأنه نفس الصعوبة والصَّعَد ، انه يخص المعرضين عن ذكر الرب، لا المؤمنين المستقيمين الذين يتلهون أحياناً بالبركات والماء الغدق ، ما لم يصل الإلتهاء الى الإعراض عن الله ، ولا سمح الله ، وكرامة الايمـــان ـ أياً كان ـ تمنع عن دركات الإعراض والعذاب الصَّعَد ، والله من وراء القصد .

يختص الماء الغدق هنا من بين البركات لأنه أصل البركات ، فاوّل أسبابها توافر الماء ، فما تزال الحياة تجري على خطوات الماء ، وما يزال الرخاء يتبع خطوات الماء حتى هذا العصر الذي انتشرت فيه الصناعة ، فالمـاء له اهميته الحيوية والعمرانية عبر الحياة في عصورها .

ثم الإرتباط بين حياة الإستقامة والرخاء حقيقة ملموسة لا تنكر ، واذا كانت هناك أمم غير مستقيمة على طريقة الله ثم تنال الوفر فانها معذبة بآفات وعاهات أخرى هي أشد من الفقر ، آفات في أمنيتها وأمنيتها، في انسانيتها وقيمها وكرامتها ، التي تسلب عن ذلك الغنى والوفر حقيقة الرخاء ، وتحيل الحياة فيها لعنة مشؤومة على كافة معاني الإنسانية ومُثُلها ، كما أسلفناه في سورة نوح .

« وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » عطف على الآية السابقة ، المعطوفة على « قل أوحي إلي .. » فما هي المساجد هنا ، التي لا يدعى بهـا أو فيها مع الله أحد ؟

المساجد جمع المَسجَد والمِسجَد والمَسجِد: ان تكون على الترتيب مصدراً ميمياً بمعنى السجدة ، واسم آلة هي آلة وذريعـة السجدة وسببها المؤول الى الأدلاء على الله والهادين الى مرضاة الله وعبادته ، واسم مكان وهو ما يسجد فيه : « محال العبادة » ومـا يسجد عليه : « محال السجدة من الجبهة » وما يسجد به « من مواضع السجدة » واسم زمان: «المَسجَد والمَسجِد» : زمان السجدة ، فهي كلهـا لله ، والمساجد هنا في كلام الله تتحمل هذه كلهـا .

فكما السجدة ــ وهي غاية الخضوع ــ خاصة بالله ، لا تعدوه إلى سواه، كذلك المواضع السبعة التي تسجد بها : من الجبهة والكفين والركبتين وإبهامي الرجلين، لا يسجد بها الا لله ، ولا تقطع في أية جريمة إلا ما شذ ، وكذلك بيوت الله المعدة للصلاة ، إنها لله ، فلا يدعى فيها مع الله غيره ، ولا تتخذ لغير عبادة الله ، كذلك والراسخون في العلم المعصومون فلا يدعى معهم غيرهم أحد حيال دعوتهم إلا من يدعو بهم ، وكذلك أزمنة السجدة المفروضة ، المحددة فرضاً وندباً ، إنها لله « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً » .

وقد تتأيد هذه الاختصاصات بآيات بينات ، كالتي تحصر السجود في الله ، فالسجدة بما أنها غاية الخضوع لاتحق إلا للخالق الذي في غاية الرفعة ، لا يشاركه فيها أحد حتى يشاركه في السجدة : « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون» ( ٤١ : ٣٧ ) « ولله يسجدمن في السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم » ( ١٣ : ١٥ ) وآيات السجود لآدم لا تعني انه المسجود ، وإنما سجدة الشكر لله لأجل آدم معلم الملائكة كما نسجد لما رزقنا الله وأنعم علينا وليس الرزق هو المسجود له ، انما هو الله والرزق مسجود لأجله ، والتفصيل إلى سورة البقرة .

وبما أن الراسخين في العلم يفسرون القرآن تدليلا على معانيه الخفية غير الظاهرة لنا أحياناً ، نجد هنا أحاديث **متظافرة** عنهم عليهم السلام ان المساجد هنا هي مواضع السجدة السبعة [1] وأنها منها ، ومنها الأئمة استفادة لطيفة

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٣٩ عن تفسير العياشي عن ابي جعفر الباقر (ع) انه سأله المعتصم عن السارق من اي موضع يجب ان يقطع ؟ فقال: ان القطع يجب ان يكون من مفصل اصول الاصابع فيترك الكف ، فقال: وما الحجة في ذلك ؟ قال : قول رسول الله (ص) : السجود على سبعة

أنيقة من الآية إذ يتحملها مع سائر المساجد. ولكنها خفيـة بينها، والآية إذن تحمل بيان أحكام شرعية إيجابية وسلبية.

١ ـ «وان المساجد لله» غاية الخضوع قلباً وقالباً تختص بالله، بكافة انحائها وأنواعها «فلا تدعوا مع الله احداً» فلا تسجدوا لأحد من دون الله إذ لا أحـد يملك ما لله من عز الألوهية والكبرياء، فلا أحد مع الله يدانيه أو يساويه فكيف يسجد له، أتسوية له بالله فهي ضلال مبين: «تالله إن كنا لفي ضلال مبين. إذ نسويكم برب العالمين» (٢٦: ٩٨) فالتسوية بالله في أية مرحلة من مراحلهـا، إنها ضلال مبين، إذ ليس مع الله أحد في ألوهيته ذاتاً وصفات وأفعـالاً حتى يسوى به أية تسوية، وإن كانت سجدة ظاهرة يقصد بها الاحترام، فاحـترام رسل الله وأوليائه بالسجدة أو الركوع، احترام لكرامة الربوبيـة وضـلال من جهتين: ترفيع العبد إلى مرتبة الرب، وتنزيل الرب إلى منزلة العبد وهو ضلال مزدوج يعتذر عنه الضُّلال: تالله إن كنا لفي ضلال مبين. إذ نسويـكم برب العالمين» وقد تضافرت الأحاديث عن الرسول الاقدس وأهل بيتـه الكرام ان السجود خاص بالله لا يعدوه إلى سواه[1].

٢ ـ بيوت الله المعدة لعبادته، إنها خاصة بالله، فلا تدعوا أحـداً إلا إياه، وأنتم معه في بيته، فطالما تذكرون غير الله في بيوتكم وسواها، فاتركوه إلى ذكر الله في بيته، اللهم إلا ذكراً لأولياء الله متذرعين به إلى ذكر الله، فانه أيضاً من ذكر الله، فلا تجعلوا مساجد الله نوادي لما ليس لله فيـه نصيب، ولا متاجر وأسواقاً، إنما عبادة الله وما يرجع اليها وتقصد منه.

---

اجزاء الوجه واليدين والركبتين والرجلين، فاذا قطعت يـده من الكرسوع او المرفق لم يدع له يد يسجد عليها، وقال الله: «وان المساجـد لله» يعني به هذه الاعضاء السبعة التي يسجد عليها «فلا تدعوا مع الله احدا» وما كان لله فلا يقطع.

(١) نور الثقلين ٥: ٤٣٩ عن اصول الكافي عن ابي الحسن (ع) في قوله تعـالى: «وان المساجد لله فـلا تدعوا مع الله احدا» قال: هـم الاوصيـاء.

٣ ـ مواضع السجود ، ما أعدت للسجود لله ، فلا تصرف لمن سواه ، ولا تقطع ، وإنما يبقى منها ما يسجد بها لله ، فالسارق لا تقطع يده الا اصابعه لا كفه ، فانه من المساجد ، ولا رجله الا اصابعه فانه من المساجد ، وفيما اذا تقطع الأيدي والأرجل من خلاف ، فانما المصلحة الراجحة الجماعية والحفاظ على كرامة المسلمين تقتضيه ، وبالنسبة لمن لا يعرف السجود لله أم لا يعتقد ، جزاء المحاربة لله وعيث الفساد في الأرض ، جزاء وفاقا، تقطع يده ورجله من خلاف لخلافه وتخلفه : « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم » ( ٥ : ٣٢ ) .

---

= احمد بن حنبل في مسنده ٤ : ٣٨١ ان معاذا لما قدم من اليمن سجد للنبي (ص) فقال : يا معاذ ! ما هذا ؟ قال : ان اليهود تسجد لعظمائها وعلمائها ورايت النصارى تسجد لقسسها وبطارقتها قلت ما هذا ؟ قالوا : تحية الانبياء فقال (ص) : كذبوا على انبيائهم ، وعن الثوري عن سماك بن هاني قال دخل الجاثليق على علي بن ابي طالب فاراد ان يسجد له فقال علي (ع) : اسجد لله ولا تسجد لي ، والجصاص ج١ ص ٣٥ عن عائشة وجابر بن عبدالله وانس ان النبي (ص) قال : ما ينبغي لبشر ان يسجد لبشر ولو صلح لبشر ان يسجد لبشر لامرت المراة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها ، ورواه ابن ماجد واحمد بن حنبل في ٤ : ٣٨١ و ٦ : ٧٦ و ٥ : ٢٢٨ من مسنده وروى ما في معناه أبو داود في سننه نكاح ٤٠ . وفي تفسير البرهان ج١ ص ٨١ عن الامام الحسن العسكري قال : قال رسول الله (ص) : لما عرف الله ملائكته فضل خيار امة محمد وشيعة علي وخلفائه واحتمالهم في جنب محبة ربهم مالا تحتمله الملائكة ابان بني آدم الخيار المتقين بالفضل عليهم ثم قال فلذلك فاسجدوا لآدم لما كان مشتملا على انوار هذه الحقائق الافضلين ولم يكن سجودهم لآدم ، انما كان آدم قبلة لهم يسجدون نحوه لله عز وجل وكان بذلك معظما مبجلا ولا ينبغي لأحد ان يسجد لأحد من دون الله ، يخضع لـه خضوعه لله ، ويعظم به السجود كتعظيمه الله ، ولو امرت احدا ان يسجد هكذا لغير الله لامرت ضعفاء شيعتنا وسائر المكلفين من شيعتنا ان يسجدوا لمن توسط في علوم وصي رسول الله (ص) .

٤ – حملة الرسالات الالهية لله ، يدعون إلى الله وعبادته وسجوده بإذنه ووحيه دون جهل أو خطأ ام سهو أو نسيان فيما حملوه ، واشراك غيرهم بهم وتسويتهم بهم ليس إلا دعوة مع الله سواه « فلا تدعوا مع الله احداً » فكما لا يسجد إلا له لا سواه ، كذلك لا يعبد إلا بتدليلهم لا سواهم ، إلا من يحمل عنهم ماهو منهم .

٥ – أزمنة السجود لله ، صحيح ان الزمان كله لله ، ولكنه تعالى حررنا في غير ازمنة الصلاة ان نفعل ما نشاء كما يشاء ، فاختص زمن الصلاة بنفسه ، فلا يجوز ان يحلها غيرها من اشغال .

وحقاً ان الآية تتحمل هذه المعاني كلها ، والأحاديث المشار اليها ارشدتنا اليها وكما نفسر القرآن على ضوء هذه الإرشادات والدلالات اللطيفة الأنيقة العميقة من اهل بيت الرسالة المحمدية صلوات الله عليهم اجمعين .

ثم ان بيوت الله المعنية فيما تعنيه الآية ، انها معدة لعباد الله من الجن والانس والملائكة وسواهم سواء ، فما يروى ان الآية نزلت منعاً للجن المؤمنين ان يشهدوا مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الصلوات الخمس في مسجده [1] لا تأويل لها إلا ضربها عرض الحائط ، فإن الآية تختص المساجد بالله لا بمؤمني الإنس ، وتمنع عن أن يدعى مع الله احد ، لا ان يدعوه الجن مع الإنس في مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم !

وقد يعني من كون المساجد « بيوت الله » لله ، عدم اختصاص الصلاة ببعضها وإنما المهم ان يسجد فيها لله دون سواه [2] .

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٧٤ – أخرج ابن ابي حاتم عن الاعمش قال قالت الجن يا رسول الله ائذن لنا فنشهد معك الصلوات في مسجدك فانزل الله « وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله احدا » يقول : صلوا لا تخالطوا الناس .

(٢) المصدر اخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال قالت الجن للنبي (ص) كيف لنا ان نأتي المسجد ونحن ناؤون عنك او كيف نشهد الصلاة ونحن ناؤون عنك فنزلت : وان المساجد لله الآية .

وهنا نلمس التوحيد الخالص إذ يتوارى كل ظل لكل أحد ، ولكل قيمة ، ولكل اعتبار ، ويتفرد الجو ، عبادة ووسيلة لها ومكاناً وزماناً واعضاء للسجود: يتفرد ويتمحض لله الواحد القهار .

**« وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً »**

اللِّبَد هي لبد الشَّعر ، وهي طرائقه وقطَعه التي يركب بعضها بعضاً ،جمع لبْدة من لبدة الأسد وهي الشعر المتراكب على مناكبه ، وذلك أبلغ ما شبهت به الجموع المتعاضلة، والأحزاب المتآلفة الذين كادوا يكونون عليه لبداً ـ إذ قام عبدالله في عبادة الله ـ لبد الخير والشر .

« لما قام عبد الله » : الرسول الأقدس محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وما أحلاه وصفاً له بعبد الله وهو أول ما نشهد له من مكارمه ثم تتلوه الشهادة بالرسالة: « وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » فانه لم يحمل الرسالة الإلهية إلا بعد أن استكمل شرف العبودية لله ، فقد كان قيامه للتعريف بأنه وسواه من الخلق عباد الله ، وأن عليهم أن يعبدوا الله .

« لما قام عبد الله يدعوه » : قيام الرسالة منذ بزوغها ، والقيام بما تتطلبه ، والقيام بالصلاة التي هي خير موضوع منها ، قيامات هامات وكأنها طامات، ومن شدة وطأتها وسموها وصمودها :

« كادوا يكونون عليه لبداً » واللبدة الاولى هم المشركون ، جموعهم المتلبدة المتكاثرة المتظاهرة التي كانت تجمّع عليه متلبدة متألبة ، راكبة مترادفة ، متآلفة ضده كأنها لبد الأسد ، فمهما كانوا لبداً فعبد الله كان أسداً ضرغاماً مغواراً لا تهمه لبده ، ولا تمنعه مهمته ، مهما حاولوا منعه ! : « فمال الذين كفروا قبلك مهطعين . عن اليمين وعن الشمال عزين » (٧٠ : ٣٧) يتسمعون في دهش ولا يستجيبون ، بل ويوقعون به الأذى ويعصمه الله منهم [١] .

---

(١) الدر المنثور ـ اخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن في

ثم اللبدة الثانية هم المؤمنون الأوّلون الذين كادوا يراكبونه كاللبد تراحماً عليه، وتدانياً اليه، واحتذاء لمثاله، واستماعاً لمقاله [١].

ثم الثالثة هم رسل الجن إذ سمعوا القرآن حيث قام بقراءته عليهم، فأخذوا ودهشوا وتجمعوا على عبد الله ورسوله، بعضهم ، لصق بعض، كلُبَد الأسد [٢].

فمهما كانت لبده فهو الأسد، على الكافرين إذ لاينهزم من حشودهم، وللمؤمنين إذ يقوم لصالحهم، أسد في الخير والشر، لايعرف الجبن والخوف طوال رسالته وهكذا يجب أن يكون المؤمنون به لكي يسودوا الأمم.

**« قل انما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً. قل اني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً ».**

---

الآية قال: لما قام رسول الله (ص) يقول لا اله الا الله ويدعو الناس الى ربهم كادت العرب تلبد عليه جميعا، واخرج عبد الرزاق وغيره عن قتادة في الآية: تلبدت الانس والجن على هذا الامر ليطفئوه فابى الله الا ان ينصره ويظهره على من ناواه.

(١) الدر المنثور ٦: ٢٧٥ اخرج عبد بن حميد والترمذي والحاكم وابن حرير وابن مردويه والضياء في المختار عن ابن عباس في الآية: لما اتى الجن على رسول الله (ص) وهو يصلي باصحابه يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده فعجبوا من طواعية اصحابه فقالوا لقومهم « لما قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً ».

(٢) الدر المنثور ٦: ٢٧٤ اخرج ابو نعيم في الدلائل عن ابن مسعود قال: خرج علينا رسول الله (ص) قبل الهجرة الى نواحي مكة فخط لي خطا وقال: لا تحدثن شيئا حتى آتيك ثم لا يهولنك شيء تراه، فتقدم شيئا ثم جلس فاذا رجال سود كانهم رجال الزط وكانوا كما قال الله تعالى « كادوا يكونون عليه لبدا ». وعن ابن عباس قال: لما سمعوا النبي (ص) يتلو القرآن كادوا يركبونه من الحرص لما سمعوه يتلو القرآن ودنوا منه..

« قل » لمن كادوا يكونون عليك لبداً : إيماناً وكفراً : « إنما أدعو ربي » : قيامي في الدعوة طوالها ، إنما هو لربي وإلى ربي « ولا أشرك به أحداً » : إشراكا في دعوته أو ربوبيته ، أو في عبادته أن أرائي فيها ، وإنما أدعو ربي بقلبي ومقالي وحالي وأفعالي « ولا أشرك به أحداً » حتى نفسي ، فلست وكيلاً عنه ولا كفيلاً لكم ، فهو الذي بيده ناصية كلّ شيء ويملك الضر والرشد « قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً » ، لا ضراً في أرواحكم ولا في أجسادكم لا في دنياكم ولا في أخراكم ، ولا في دينكم ولا في أيّ من أحوالكم ، كذلك « ولا رشداً » : لا لنفسي ولا لكم ، اللهم « إلا بلاغاً من الله » :

**« قل اني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً . إلا بلاغاً من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها أبداً . حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً » .**

لا فحسب «اني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً » بل ولا لنفسي أيضا ، فـ « لن يجيرني من الله أحد » لو أراد بي ضراً « ولن أجد من دونه ملتحداً» وإن كان لي مجير وملتحد فهو ليس إلا هو ، وما أنا إلا رسول لا أملك وحق رسالتي ، فلا أملك فيما يُملك إلا بلاغا من الله ورسالاته ، ملكا منه وبإذنه ، فلو شاء لذهب برسالتي وبلاغي وكما يمتني : «ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لاتجد لك به علينا وكيلا » ( ١٧ : ٨٦ ) .

هنا وهنالك نجد الرسول الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم يؤمر أن يتجرد - نافضا يديه - من كل ادعاء لشيء هو من خصائص الربوبية ، ناقضا جارفا كافة الخصائص المزعومة لأنبياء الله وسواهم من قبل ، حاصرا كيانه في « بلاغا من الله ورسالاته » وبذلك يتجرد الجن - وأحرى - عما يتقول لهم من المقدرة على الخير والشر ، وتتفرد الذات المقدسة الإلهية بهذه التصرفات ، ويستقيم التصور الإيماني على هذا التجرد الصريح .

ثم يختم (ص) تصريحاته تلك بتصريحة رهيبة مروعة جادة

انه لا يملك حتى البلاغ الإلهي سلبا وإيجابا ، فكما لا يملك لكم ضراً ولا رشداً ، إلا بلاغاً من الله ، كذلك : لن يجيره من الله أحداً ولن يجد من دونه ملتحداً « إلا بلاغاً من الله » فقيما يملك البلاغ ، لا يملك سلبه ولا إيجابه إلا من الله ، فانها ليست تطوعاً يتقدم به صاحب الرسالة ، وإنما تكليف صارم جازم لا محيد عنه ولا مفر من أدائه ، فالله من ورائه .

فالبلاغ البالغ اللائق من الله ، قلباً وقالباً ، عقيدة وعملاً ، تضحية وفداء : هذا البلاغ يجيره من الله ، وهو ملتحده من الله ، وهو الذي يملكه من الله بما ملكه إياه ، فلو عصاه في بلاغ الرسالة لعذب في المعذبين :

« ومن يعص الله ورسوله » عصى الله في محكم كتابه ، وعصى رسوله في سنته الجامعة ، فعاش حياة العصيان المزدوج « فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً » .

فمجير الرسول وملتحده هو بلاغه من الله ، وملتحد غيره ومجيرهم طاعة الله ورسوله ، وقد تلمح الآيات أن جماعة من لبد الكفر والشر طلبوا منه ترك البلاغ أو تخفيف وطأته فيضمنوا له الإجارة من الله وملتحدة ، فيبتدر بجوابه الحاسم : لا . وحقاً لا ؛ « الا بلاغاً من الله ورسالاته » :

« بلاغاً من الله » : بلاغ التعريف بتوحيده وربوبيته لمن جهله أو تجاهل عنه أو عانده ــ و « رسالاته » لإخراج الناس من الظلمات إلى النور وهديهم إلى صراط العزيز الحميد ، دون خشية ولا مسايرة « الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيبا » .

« حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً » : تنديد شديد وتهديد عتيد لمن يبلغه هذا الأمر ثم يعصي ، فاذا يركن العاصون إلى عَدد وعُدد ، ويستصغرون قوة صاحب الرسالة بجنب قوتهم ، فسيعلمون غداً من أضعف ناصراً وأقل عدداً ، وأي الفريقين أحق بالامن ، ولكن متى ؟ إذا رأوا ما يوعدون ، وذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب مهين ؟

**« قل إن أدري أقريب ما توعدون ام يجعل له ربي أمداً » .**

تلمح الآية أنهم سألوا الرسول متعنتين مستهزئين، عن زمن العـذاب ، كأنه يعلم من غيب الله شيئاً ، فيؤمر أن يتجرد نافضاً يديه من غيبه ايضاً ، كما تجرد عن كل اختصاصة من اختصاصات الربوبيـــة ، : قل إن أدري أقريب العذاب على الأبواب ، أم يجعل له ربي أمداً في الأولى ، أم الأمد العام لكل نفس لدى موته ، ـفمن مات فقد قامت قيامته ـ أم أمد القيامة ، ولا علم لي لا بقربه ولا أمد من آماده الثلاثة ، فانه من الغيب :

**« عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحـــداً إلا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً . ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً » .**

« عالم الغيب » من اختصاصات الألوهيـة علم الغيب ، لا الغيب الذي يظهر بالتعلم أو التفكير أو الارتياضات النفسانية ، فإن بابه مفتوح لكل من دقه حقَّه ، وإنما هو ما لا ينال بأية وسيلة غير إلهية ، وهذا الغيب منه مكفوف عمن سوى الله ، وحتى ملائكة الوحي ورجالاته ، فهو الغيب المطلق الذي لا يَظهر ، ولا يُظهر الله عليه أحداً ، ومنه مبذول لمن ارتضى من رسول ، يبـذله لهم بالوحي دون أن يبذله لغير المرتضين « فلا يظهر على غيبه أحـــداً إلا من ارتضى من رسول »[(١)] .

والإظهار على الغيب هو التغليب عليه ، إما تعـليما كسائر الوحي في الكتب المنزلة على رجالات الوحي ، وحي الاحكام ووحي الوقائع : الغـابرة والحاضرة

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٤٢ عن الباقر (ع) ان لله عز وجل علميـن علم مبذول وعلم مكفوف فاما المبذول فانه ليس من شيء تعلمه الملائكة والرسل الا نحن نعلمه واما المكفوف فهو الذي عند الله عز وجل في ام الكتاب اذا خرج نفـذ .

والمستقبلة، كلٌّ حسب منزلته الرسالية فان الرسل درجات « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » فمراحل الوحي هذه من إظهار الغيب علمياً .

وقد يكون تغليباً على الغيب عملياً، علمه الرسول أم لم يعلمه، كسائر المعجزات، فمنها ما يظهر الله عليه رسوله علماً بمافيه وعمل الواقع كمعجزة القرآن، تجري على لسانه، ويعيها قلبه، ويطبقها بأركانه، ومنها ما لا ينال الرسول إلا عمله، فلا يملك علمه وحقيقته، كإحياء الموتى وقلب العصا حية تسعى، فانها من الغيب الخاص بالله، يظهر عليه البعض من رسله عملاً للتدليل على رسالتهم الإلهية، فمعجزاتهم هي أفعال الله تجري بهم حجة لهم، فمنهم من يعلمها كما يفعلها كابراهيم « .. رب أرني كيف تحيي الموتى .. » إذ طلب من ربه أن يريه ويظهره على حقيقة إحياء الموتى، ومنهم من لا يعلمها كما نفصله في آيات المعجزات ومنها « ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل انما الغيب لله فانتظروا إني معكم من المنتظرين » ( ١٠ : ٢٠ ) تعني أن الآيات المعجزة هي من غيب الله، لا تعدوه إلى سواه، والرسل لا يملكون إلا إظهارها باذن الله، دون علمها إلا من أراه الله كإحياء الموتى لابراهيم وكالقرآن لمحمد (ص) .

فعلم الغيب مبدئياً خاص بالله، والآيات التي تحصره بالله تعني العلم الذاتي بالغيب فلا تنافي علم من ارتضى من رسول، فانه أيضاً من علمه لا منهم كبشر، وآية الاظهار هذه تغنينا من القيل والقال، وتريحنا عن تفتيش الأقوال ونقدها، فالتي تختص علم الغيب بالله اطلاقا، هي بين ما تعني العلم الذاتي « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو » ( ٦ : ٥٩ ) وقد يعلّم البعض منها من ارتضى من رسول « وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء » ( ٣ : ١٧٩ ) .

وبين ما تعني مطلق العلم بالغيب ذاتياً وعرضياً « ويسألونك عن الساعة ايان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو .. يسألونك كأنك حفيٌّ عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون . قل لا أملك لنفسي

نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » ( ٧ : ١٨٨ ) « ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت ان الله عليم خبير » ( ٣١ : ٣٤ ) .

فالغيب الواجب إظهاره للرسل هو المعجزات والشريعة ، وقد يخبرهم بمغيبات أخرى تؤيدهم في رسالاتهم ، وأما التي لا تمت بصلة للرسالة الإلهية ، وهي من شؤون الألهيه ، فلا يجب اظهار الرسل عليها ، وهي خاصة بالله تعالى ، وهي المعنية بالآيات التي تختصها بالله : « .. ولا أعلم الغيب .. ان اتبع إلا ما يوحى إلي » ( ٦ : ٥٠ ) والوحي كما نعلم من علم الغيب الواجب إظهاره للرسل ، لأنه كيان الرسالة .

من هنا وهناك نستوحي ان ليس الغيب الإلهي مبذولاً للرسل دون حد ، وإنما هو الغيب الكافل لحجة الرسالة وبلاغها ، وكما تفيده آية الاظهار : « فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم ان قد بلغوا رسالات ربهم .. » فهو يظهر الغيب الداخل في شؤون الرسالة ، لا الخاص بشأن الألوهية ، وكما كان غير المرسلين محرومين من غيب الوحي كذلك المرسلون محرومون من غيب الربوبيه ، وكما هم وسط بين الخلق والخالق في الرسالة ، كذلك هم وسط في علم الغيب .

فالرسل الذين يرتضيهم الله لتبليغ دعوته ، يطلعهم على جانب من غيبه ، ما يتعلق بموضوع رسالتهم ، دون المتعلق بشأن الربوبية ، إنما ما هو حجة بالغة لرسالاتهم ، وما هو المقصود منها من شرائعهم ، وآيات الغيب ترمي الى هذا الاختصاص المبدئي بالله ، والتعميم العرضي للرسل في حدود رسالاتهم ، ما يعاونهم على تبليغ دعوته ، يكشفه لهم منذ الرسالة وطوال الدعوة ، وهو مع ذلك يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً :

« فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم ان قد بلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً » فان الله يسلك : يُنفذ ـ من بين يديه : يدي الغيب والمرسل إليه بالغيب ، ومن خلفه ، ينفذ من هنا وهناك : رصداً ليعلم :

هنا النص يوحي كيف يتنزل الغيب بالوحي على الرسل المرضيين ، من البداية وحتى النهاية وهي إبلاغ الرسل غيب الوحي للمرسل اليهم :

فبما أن الرسل بشر وأن الشيطان يلقي في امنياتهم ، فهم بحاجة الى حفظ وعصمة إلهية في تلقي الوحي وإلقائه وتنفيذه من عدة جهات « وما أرسلنا من رسول ولا نبي إلا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يُحكم الله آياته » ( ٢٢ : ٥٢ ) كما وأن « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » ( ١٣ : ١١ ) .

فالله تعالى ينفذ الوحي الغيب إلى من ارتضى من رسول ، وينفذ من بين يديه ـ قبل وصوله الى أن يوصل ـ رصداً : رقباء يحفظونه من خلط ودس الشياطين ، وليبلغ الى الرسل سليماً ، وينفذ من خلفه : بعد البلوغ والبلاغ أيضاً ، رصداً ليسدوا عن الرسول القاءات الشيطان ، وليراقبوه في إبلاغ الرسالة وتنفيذها : ازدواجية العصمة للرسل المرضيين من جهتين : الرسل الرصد من بين يدي الرسول ومن خلفه ، وروح العصمة التي ترصد الرسل في دواخل ذواتهم ، ارصاداً من الداخل والخارج لكي يصل الوحي الغيب الى الهدف الأخير : اقامة المرسل اليهم على الهدى ، دون تدخل للشيطان ، ودون تخبط وخلط وشبهة في هذه السبيل ، وبذلك ليس للشيطان سبيل على الرسل على طول الخط في تلقي الوحي والقائه وتنفيذه ، فتمني الرسل ليس الا تنفيذ الرسالة الإلهية ، والقاء الشيطان في امنية الرسل ـ كما تقول الآية ـ ليس إلا في واقع التنفيذ ، ان الشيطان يخلط الرسالة على المرسل اليهم ، والله ينسخ هذه الإلقاءات ويحكم آياته واقعاً كما أحكمها في وحيها الى حملة الرسالات : « فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين » « انه ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين » فالمرسلون المرتضون

ليسوا من الغاوين حتى يلقي الشيطان في قلوبهم وأفكارهم ووحيهم ، وهواش السلطان والغواية الكبرى ! وهم من عباد الله المخلصين ، فيلغي شمول آية الالقاء عن ساحة المرسلين ، الى المرسل اليهم ، والله ينسخ عنهم أيضاً إلقاءات الشيطان ثم يحكم آياته .

كل ذلك علامة لمن لا يعلم : أن قد أبلغوا رسالات ربهم « ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً » :

ليعلم الله ، من العَلَم بمعنى العلامة ، لا العِلم ، فانه يعلم السر وأخفى ! : «وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً» فهو إذ يحيط بما لدى الرصد والرسل ، وإذ يحصي كل شيء عدداً ، إذاً كيف تكون الغاية من سلك الرصد أن يعلم الله سبحانه ؟ أعن جهل وهو المحيط المحصي ؟ كلا ! انه عَلَمٌ وليس عِلماً ، انه تعالى يجعل الرصد على طول الخط في بلاغ وتنفيذ الوحي ، ويجعلهم علامة لهم ولملك الوحي ، وللتبين « ان قد أبلغوا رسالات ربهم » .

وكما ليس « ليعلم » من العِلم ، كذلك لا يرجع ضميره الى الرصد فانهم جمع وهو مفرد ، ولا الى محمد صلى الله عليه وآله وسلم إذ لم يسبق له ذكر « إلا من ارتضى من رسول » وهو جمع يعم الرسل أجمع ، ولأن وحدة السياق تحكم أن صاحب الضمير في الأحوال الثلاث « يعلم ـ أحاط ـ أحصى » واحد ، وهو الله الذي أحاط بما لدى الرسل وأحصى كل شيء عدداً .

فهو الذي يسلك بين يدي الغيب والرسول ومن خلفه ، رصداً مراقبين ، ليجعل هذه الرقابة الشديدة على غيب الوحي علامة : ان قد أبلغوا رسالات ربهم : حال أنه احاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً ، فليس هو بحاجة إلى علامة البلاغ ، وإنما رسله الملائكة والبشر و كذلك المرسل اليهم .

« ليعلم ان قد أبلغوا رسالات ربهم » : « يعلم » غاية لسلك الرصد ، و « أبلغوا رسالات ربهم » يلمح لحدود الغيب الإلهي الذي يظهر عليه رسله ، انه ليس إلا للبلاغ ، بلاغ الرسالة بغيب المعجزات ، وبلاغ الرسالات بغيب

التشريعات ، دون أن يصبح علمهم بغيب الله أو غلبتهم به عمليـاً ، يصبح من الكمالات الذاتية والحظوظ العقلية والعلمية ، فلا تعني الآية ظهور الرسل على كل غيب ، ولا الغيوب التي لا تمت بصلة لرسالتهم ورسالاتهم ، وإنما التي تهمهم كرسل مبلغين عن الله ، لا كمرتاضين يخبرون عن الغيوب المـادية لحظوظ نفسانية وغايات تجارية وسباقات في ميادين المفاخرات .

فلئن سئلنا ـ إذاً ـ لو كان الظهور على غيب الله خاصا بمن ارتضى من رسول فكيف يعلمه المرتاضون غير المرسلين ، مرضيين وغير مرضيين ؟ وكيف يعلمه الأئمة المعصومون وهم ليسوا بمرسلين ؟

والجواب كما لمحنا اليه مسبقاً ، ان المعني من غيب الله ما لا يحصل بأي سبب من تعلم وارتياض إلا بالوحي ، وليس غيب المرتاضين من غيب الوحي ، فهو يحصل بصناعة الارتياض للمؤمن والكافر سواء .

واما الأئمة المعصومون فليس غيبهم بالوحي وإنما بما أودعهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من غيب الوحي(١) ، وهم ابواب علمه واستمرار لكيانه الرسالي ،

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٤٢ عن الامام الصادق (ع) قال : ان لله عز وجل علمين : علما عنده لم يطلع عليه احدا من خلقه ، وعلما نبذه الى ملائكته ورسله ، فما نبذه الى ملائكته ورسله فقد انتهى الينا .

اقول : وهذا الحديث متواتر معنويا عنهم عليهم السلام . راجع المصدر .

## سورة المزمل ـ مكية ـ وآياتها عشرون

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ١ قُمِ اللَّيْلَ
إِلَّا قَلِيلاً ٢ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ
الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ٤ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ٥ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ
هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً ٦ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً ٧
وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ٨ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ
لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ٩ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ
هَجْراً جَمِيلاً ١٠ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ١١
إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيماً ١٢ وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً ١٣
يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً ١٤
إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
رَسُولاً ١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً ١٦
فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً ١٧ السَّمَاءُ

مُنفَطِرٌ بِهِ كانَ وَعدُهُ مَفعُولاً ١٨ إنَّ هَذِهِ تَذكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ
اتَّخَذَ إلىٰ رَبِّهِ سَبيلاً ١٩ إنَّ رَبَّكَ يَعلَمُ أنَّكَ تَقُومُ أدْنىٰ مِنْ
ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصفَهُ وَثُلُثَهُ وَطائِفَةٌ مِنَ الَّذينَ مَعَكَ وَاللهُ يُقَدِّرُ
اللَّيْلَ وَالنَّهارَ عَلِمَ أنْ لَنْ تُحصُوهُ فَتابَ عَلَيْكُمْ فَاقرَءُوا ما
تَيَسَّرَ مِنَ القُرآنِ عَلِمَ أنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرضىٰ وَآخَرُونَ
يَضرِبُونَ فِي الأرْضِ يَبتَغُونَ مِنْ فَضلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقاتِلُونَ
فِي سَبِيلِ اللهِ فَاقرَءُوا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا
الزَّكاةَ وَأقرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً وَما تُقَدِّمُوا لِأنفُسِكُمْ مِنْ
خَيرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ هُوَ خَيراً وَأعظَمَ أجراً وَاستَغفِرُوا اللهَ
إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٢٠.

* * *

« يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا »

يؤمر نبي الله (ص) — بعد أمره بقراءة الوحي : « إقرأ باسم ربك » وبعد حمله الرسالة الكبرى — يؤمر هنا بالقيام ليلا وبالسبح الطويل نهاراً ، ويؤمر في المدثر بقيام الإنذار وتكبير الرب ، وعلّ القيام الثاني هو

السبح الطويل نهاراً ، والقيام الأول لتهيؤ الثاني: «إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قيلاً * إن لك في النهار سبحاً طويلاً » فليعش الرسول الأقدس حياته قياماً دون فتور ، وسبحاً في بحر المجتمع المتلاطم ، لينجّي الغرقى فانه سفينة النجاة .

يوحي النص « المزمل » بأنه كان متزملاً حين الأمر ، ولماذا ؟ وفي رمضاء الحجاز ! لا بد وأنه من وطأة وفجأة ، أو َطأة الوحي الثقيل الذي بزغ له قبل قليل؟ كما قيل [1] أم الحملة العنيفة السافرة في وجهه من صناديد قريش؟ [2] كما توحي له آيات من السورة : « واصبر على ما يقولون .. ذرني والمكذبين » فتزمل من رعشة الوطئة ، فأمر بالقيامين في المزمل والمدثر ، قياماً لتنفيذ الرسالة ومجابهة عراقيلها ، دون أن يتزمل ويتدثر .

« قم » إنه لا يناسبك التزمل والتدثر ، فليكن دثارك القيام وزميلك الإقدام ليلك ونهارك ، « قم الليل إلا قليلا » قدر الضرورة الذي يساعدك في قيامك ، فليكن مبدؤك القيام حتى في أوقات المنام رغم أن الناس نيام .

أنت تتلفف بثوب لتنام دفعاً لهمّ الإيذاء ، رغم الاستهزاء ، وتخفيفاً من وقعة

---

(١) ادركته رجفة الوحي حتى جثى وهوى الى الارض وانطلق الى اهله يرجف يقول « زملوني . دثروني » ففعلوا وظل يرتجف مما به من الروع واذا جبرائيل يناديه « يا ايها المزمل . يا ايها المدثر » .

(٢) الدر المنثور ٦ : ٢٧٦ ـ اخرج البزار والطبراني في الاوسط وابو نعيم في الدلائل عن جابر قال اجتمعت قريش في دار الندوة فقالوا: سموا هذا الرجل اسما تصدر الناس عنه فقالوا : كاهن ـ قالوا ليس بكاهن ، قالوا : مجنون ـ قالوا : ليس بمجنون ـ قالوا : ساحر ـ قالوا: ليس بساحر ـ قالوا : يفرق بين الحبيب وحبيبه فتفرق المشركون على ذلك فبلغ ذلك النبي (ص) فتزمل في ثيابه وتدثر فيها فأتاه جبرائيل فقال: يا ايها المزمل يا ايها المدثر .

الوحي ؟ لا ! بل عليك القيام ، والإستعانة بالصبر والصلاة ومكافحـة الكروب العظام ، والنوائب الجسام .

« قم الليل إلا قليلاً » قم للأمر العظيم والقول الثقيـل الذي سيلقى عليك ، والعبئ المهيأ لك، قم فقد مضى وقت النوم ، قم فأنت لست لتعيش لنفسك ، ولقد عرف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هذا الأمر مسبقاً من ملامح الوحي وقدّره، فقال لخديجة رضي الله عنها ــ وهي تدعوه أن يطمئن وينام ــ : «مضى عهد النوم يا خديجة » ! .

أجل ــ انه مضى وما عاد منذ اليوم إلا السهر والتعب والجهاد الشاق والسبح الطويل في بحر المجتمع المتلاطم .

**« قم الليل إلا قليلاً . نصفه او انقص منه قليلا . او زد عليه » :**

يخيَّر نبي الله هنا في قيام الليل ونومه بين مقادير أربعة : ١ ــ قيام الليــل إلا قليلاً : ثلثيه فما فوق ، فأكثر القليل منه ثلثه ثم أقل وأقل [(١)] ٢ ــ نصفه ، وهو ليس قليلا من الليل ، وإنما نصفه عدلاً بين قيامه ونومه إذا احتاج اليه ، ٣ ــ أقل من النصف ، أن ينقص من نصف القيام قليــلا ، ــ أكثر من النصف أن يزيد على نصف القيام ، فأكثر الواجب في قيامه من ثلثي الليل وما فوقها ، وأقـله أقل من النصف قليلاً ، وبينها متوسطات ومنها نصفه .

نرى التركيز هنا وهناك على قيـام الليل ــ أيا كان ــ دون تصريح بنومه إلا إيحاء الضمائر : « قم الليل إلا قليلاً » ابتداء بقيام ثلثي الليـل ، ثم « نصفه » أو قم نصفه « أو انقص منه قليلاً » : انقص من نصف القيام قليلاً « أو زد عليه» :

---

(١) فما يروى ان القليل المستثنى من الليل هو نصفه خطأ او جهـل من الرواة لا المروي عنه كما رواه في المجمع عن الصادق (ع) قـــال : القليل النصف .

زد على نصف القيام ، فنصيب النقص ليس إلا قليلا ، ونصيب الزيادة لا حد له إلا قدر المستطاع .

فطالما الليل سكن ونوم للناس لاستراحة البدن، ولكنه قيام لرسول الله إلى الناس ليشد وطأه ويقيم قيله، تأزيراً لقوة القلب والروح ، وتقويماً لنطق اللسان.

فعلى رسول الله قيام الليل قدر المستطاع ، كله أحياناً وأكثره أخرى ونصفه أحياناً وينقص منه قليلاً أخرى، ولكنما الزيادة على النصف قدر المستطاع هو المرغوب الأصل « أو زد عليه » .

فأكثر الواجب إذاً قيامه ثلثي الليل « قم الليل إلا قليلاً » كما ويؤيده « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه » فليكن الواجب مخيراً بين ثلثيه ونصفه وثلثه » فأقله ثلث الليل « أو انقص منه قليلاً» فنقص القليل من النصف ثلث النصف ، فيبقى ثلث الليل [1] .

« او زد عليه ورتل القرآن ترتيلا » ولماذا ثلثا الليل ، ولماذا الزيادة على النصف والنصف أيضاً، ألصلاة الليل ولا تشغل إلا سويعات ؟ كلا ـ وإنما الزيادة لترتيل القرآن ، تخلقاً بأخلاق الله في تنزيله : « وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً » ( ١٧ : ١٠٦ ) وفي ترتيله : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً » ( ٢٥ : ٣٢ ) .

وترتيل القرآن هو ارساله بسهولة واستقامة ، سهل التعبير ، مستقيم المعنى وكما يروى عن النبي (ص)« إذا قرأت القرآن فرتله ترتيلا وبيّنه تبييناً ، لا تنثره نثر الدقل ولا تهذّه هذّ الشعر ، قفوا عند عجائبه وحرّكوا به القلوب ، ولا يكونن همّ أحدكم آخر السورة » [2] .

---

(١) نفرض أن الليل ١٢ ساعة فنصفه ٦ ساعات فاذا نقص منها ساعتان يبقى اربع ساعات وهي نصف الليل المفروض .

(٢) الدر المنثور ٦ : ٢٧٧ اخرجه الديلمي عن ابن عباس مرفوعا عنه (ص) . واخرجه العسكري في المواعظ عن علي (ع) عنه (ص) .

أقول : وهذا من مقربات الفهم ومجذبات الإتباع ، فقد فرق الله القرآن طوال البعثة دون أن ينزله جملة واحدة ، ليثبت به فؤاد الرسول وليقرأه على الناس على مكث ، ورتله عليه بتسهيل التعبير والمعنى ليرتله هو أيضاً ترتيلا ، وهو يعم اللفظ والمعنى تعبيراً وأداءً وسبكا وكيفية (١) ، كل ذلك لسهولة الإلقاء والتلقي متحللاً عن كافة الصعوبات هنا وهناك ، وهذا هو معنى الإعجاز في فصاحة التعبير وبلاغة المعنى ، فليس التشابة في بعض الآيات من قصور الدلالة ، وإنما من قصور المستدل ونبوغ المعني ، وعلى حد تعبير الامام الرضا عليه السلام « المتشابه ما اشتبه علمه على جاهله » .

« إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلا » فما هذا القول الثقيل الذي سيلقى عليه ، ولكي يتلقاه عليه أن يقوم لياليه مصلياً مرتلا للقرآن ؟ .

هل هو القرآن ولو بعضاً منه ؟ وقد نزل عليه بعضه وأمر بترتيله ! أم هو البعض الباقي : أكثره ؟ فما هو الفرق بين قليله وكثيره ، وكله ثقيل بأي معنى قيل ! أم هو القرآن المحكم النازل عليه ليلة القدر ، بين هذه السورة وبينها أقل من شهرين ؟ علّه هو ، إضافة إلى باقي القرآن المفصل ، ففي القرآن المحكم النازل عليه دفعة واحدة ، الملقى عليه ليلة القدر ، ان فيه ثقلا ليس في مفصله النازل عليه نجوماً طوال البعثة ، ثم يتلوه ثقل الباقي من مفصله وهو أكثره ، وفي وحدة القول هنا « قولاً » وانه يلقى « سنلقي » شاهدٌ لفظي على أنه القرآن المحكم ، إضافة إلى القرينة المعنوية المسبقة .

---

(١) وعن الامام الصادق (ع) ان الترتيل هو ان تتمكث فيه وتحسن به صوتك، وفي الدر المنثور ٦ : ٢٧٧ عن النبي (ص) قال : يقال لصاحب القرآن يوم القيامة اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فان منزلتك عند آخر آية تقرؤها وفيه سئل (ص) اي الناس احسن قراءة ؟ قال: الذي اذا سمعته يقرأ رأيت انه يخشى الله .

ان القرآن قول ثقيل لعظم قدره، ورجاحة فضله، وخلوده، دون أن يمسه نسخ أو تحريف، وقد يثقل الأمة المتمسكة بحبله، المنفذة لأحكامه، ولذلك سماه الرسول(ص) أكبر الثقلين وأعظمها وأطولها وأتمها فيما تواتر عنه، وسمى عترته الثقل الأصغر.

ولقد كان القرآن ثقيلا لدى الله في أم الكتاب «وانه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم» (٤٣ : ٤) فعلوّه هناك وحكمته: ثقله، ثم نزل ليلة القدر دفعة، ثم طوال البعثة نجوماً، نزل ثقيلا على الرسول (ص) حيث يقول: «فما من مرة يوحى إليّ إلا ظننت أن نفسي تقبض»[1] «فانه كان يتغير حاله عند نزوله ويعرق، وإذا كان راكباً تبرك راحلته ولا تستطيع المشي»[2] وهذا ثقله في القرآن المفصل، ثم القرآن المحكم المجمل النازل ليلة القدر يزداده ثقلين ١ ـ نزوله دفعة دون تفاصيل ٢ ـ القاءه عليه دون وساطة ملك الوحي، إذ لم يكن بينه وبين الله أحد، إذا فالقول الثقيل الذي سيلقى عليه هو القرآن المحكم، إضافة إلى باقي المفصل النازل عليه مفصلا: ثقلا على ثقل.

هذا ثقله في وحيه وقبله، ثم هو ثقيل في ميزان الحق ـ فان موازينه ثقيلة لا تخف أبداً ـ ثقيل في تطبيقه، ثقيل على الاخفاء الناكرين له، فلا بد من ثقله في قلبه المنير لحدّ يفرغ قلبه عما سواه من مقال كما فرغ عمن سوى الله، ولقد أثر في قلبه هكذا ولحدّ كان يثقل على قالبه، فصاحب هذا القلب بحاجة في تلقي هذا الفيض الثقيل إلى مراس في تزكية قلبه بقيام لياليه بترتيله وذكر الله.

هذا هو القول الثقيل، فإن القرآن ليس في معناه ثقيلا ولا في تفهمه وتذكره: «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر» فقوله ـ إذاً ـ ثقيل من حيث المقول، وكيفية إلقائه، وعرقلات تنفيذه.

---

(١) الدر المنثور (٦ : ٢٧٨) عن عائشة عنه (ص).
(٢) نور الثقلين (٥ : ٤٤٧) عن عبدالله بن عمر.

إنه لا بد للرسول إلى الناس كافة ـ وكثير منهم من النسناس ـ أن يحمل هذا القول الثقيل، لأن التعامل مع الحقائق الكونية الكبرى ثقيل، والإستقامة على هذه الرسالة الشاملة الأخيرة وراءَ المواتف والجواذب والمعوقات والعراقيل، إنها لثقيل ثقيل، فلا بد له في ميادين الكفاح من حمل هذا القول الثقيل، فليتزود من قيام الليل لتلقي هذا الثقيل، ولكي يسبح في نهاره الطويل سبحاً طويلاً.

«إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً» ثقيل المصدر والصدور، ثقيل المحتد والدوام، ثقيل المنزل والنزول، ثقيل التنفيذ مستحيل الأفول، على سلاسة تعبيره، ونفاذ أمره وعبيره.

**«إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلاً».**

فرض عليك ـ كرسول إلى الناس كافة ـ قيام الليل لدوافع ومنافع عدة: ١ ـ «إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً» فلا بد له من التهيؤ ٢ «إن لك في النهار سبحاً طويلاً» لا يبقى لك معه مجال القيام بالصلاة وترتيل القرآن ٣ ـ «إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلاً»: فناشئة الليل هي العبادة التي تنشأ بعد العشاء، نشوءَ النور في الظلام، فالعبادة التي هي وليدة الليل وناشئته، تفضل على عبادة النهار من حيث الوطء والقيل، ولقد كان قيام الرسول (ص) بعد العشاء بسويعات منامه القليل، وهو اذ أمر بقيام الليل كان أمراً بقيامه: عن النوم، وبالعبادة، تهجداً في أثنائه، وترتيلاً للقرآن في آنائه.

«هي أشد وطأ»: مواطاة: يواطيء فيها السمعُ القلبَ، واللسانُ العمل، لقلة الشواغل العارضة، واللوافت الصارفة، ولأن البال فيه أجمع، والقلب أفرغ، فالقراءة فيه أقوم، والصلاة اسلم.

هي أشد مواطأة هكذا، ولأنها أشد وطأة: أوعث مقاماً وأصعب مراماً، فان مغالبة هتاف النوم وجاذبية الفراش، بعد كدّ النهار وسبحه الطويل، لها وطأتها وشدتها التي لا يطيقها إلا المخلصون، فناشئة الليل ووطأته أشد.

« وأقوم قيلا » لأن قيله ثقيل إلا على الخاشعين ، وأنه يصدر من لباب القلب وخالق القلب أعلم بمداخله وأوتاره، وما يتسرب اليه ويوقع عليه ، وأي الأوقات يكون فيها أكثر تفتحاً واستعداداً ، فللصلاة فيها خشوعها ، وللمناجاة شفافيتها ولترتيل القرآن نورانيتها : إذاً فوطأتها أشد ، وقيلها أقوم ، فإعدادها لسبح النهار ـ الطويل ـ أتم .

« إن لك في النهار سبحاً طويلا » ولا يناسب السبح إلا في غمرات المياه المضطربة الواسعة الفسيحة ، فان لك اضطراباً في غمرات المجتمع ، وتقلباً في جهاته ، ومتصرفاً ومتسعاً ، ومذهباً منفسحاً ، تقضي فيه أوطارك ، وتبلغ مآربك، وتنجي الغرقى من ورطات الغمرات العميقة، وتحارب أمواجه الضاربة في الأعماق ، المضطربة ، فهذا السبح الطويل في نهارك ، بحاجة إلى تسبيح طويل في ليلك ، تسبيح بعدك للسبح ، ولكي تنجو من ورطاته ، وتنجي الناس جميعاً من غمراته ، فانك سفينة النجاة ! .

« واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا » : فقيامه (ص) يشمل ناشئة الليل، بصلاته وترتيل القرآن ، وذكر اسم الرب ، والتبتل اليه تبتيلا، وليأخذها زاداً في سبحه الطويل .

« واذكر اسم ربك » : ولأنك تحمل في رسالتك بلاغ الربوبية والتربية الإلهية ، فعليك أن تذكر اسم ربك بقلبك ، فهو مصدر الذكر ومورده أولاً وبقالبك : بلسانك وجوارحك وفي كافة تصرفاتك ، ذكر القلب الحاضر مع اللسان الذاكر ، وأكمله الصلاة فأنها كلها ذكر الله وتحميده وتمجيده وتعظيمه بالأقوال والأفعال والإشارات .

«وتبتل اليه تبتيلا» .. هكذا ذكر شامل كامل يبتّلك إلى ربك،فالانقطاع إلى الله على قدر الواقع من ذكر الله ، والتبتل إلى الرب هو الانقطاع الكلي عما سواه والاتجاه التام اليه ، والإنفلات من كل شاغل وخاطر، لكننا المرجو من تبتلك أن يحمل معه التبتيل « وتبتل اليه تبتيلا » لا «تبتلا » تبتلا لك يحمل

تبتيلا لمن أرسلت اليهم ، فكما كان قيامك بالليل تهيـؤاً لتلقي القول الثقيل، ولتسبح نهارك الطويل ، كذلك ليكن تبتلك للتبتيل .

فليس الإتيان بالتبتيل هنا لمجرد رعاية الوزن والتجميل «طويلا. تبتيلا» فالقرآن كتاب معنى قبل أن يحمل الوزن في التعبير ، وقـد يناسب وزن المعنى وزن التعبير كما هنا « وتبتل اليه تبتيلا » تبتلا ينحو في طياته منحى التبتيل لتنقطع إلى الله ، لك كمحمد ، وللمرسل اليهم كرسول ، فكما على الرسـول أن يتبنى شخصه ليصلح لحمل الرسالة ضمن صناعة نفسه كعبد شكور ، فعليه ـ كرسول ـ أن يتبنّى المجتمع الذي أرسل اليهم .

ثم هناك نكتة أخرى هي أدق وأرق: أن المنقطع إلى الله مشغول عما سواه والمنقطع إلى ما سوى الله مشغول عن الله ، فالجمع بين التبتل ـ وهو الاشتغـال التام بالله ـ وبين التبتيل ، وهو الاشتغال بغير الله ليقطعهم عما سوى الله : ان هذا الجمع لصعب مستصعب ، لكنما الرسول يؤمر في تبتله بالتبتيل ، ففي حين انه مشتغل بالله عما سواه، إنه يشتغل بما سواه لتوجيههم إلى الله ، وهذا هو مقام الجمع في الوحدة والوحدة في الجمع ، يسبح نهاره طويلا في الدعوة إلى الله، ويلاقي الصعوبات والحرمانات في الله ، وهو متبتل إلى الله ومبتّل سواه عمـا سوى الله ، فذكره ذكر واحد ، وعمله واحد ، طالما يختلف في صور الصلاة وترتيل القرآن وذكر الله ، وفي الجهاد والدعوة إلى الله ، فإنه ينحو في هذا السبح الطويل منحى الله ، فتبتّله تبتيل ، وتبتيله تبتّل ! .

ولطيفة ثالثة : هي أن التبتل هو تقبل للبتْل ، والتبتيل هو فعله ، فقد يعني بالأول قبوله العصمة الإلهية في انقطاعه إلى الله ، وبالثاني محاولته لانقطاعه ومَن سواه إلى الله ، والنتيجة أن انقطاعه الخاص إلى الله ليس من فعـله هو فحسب ، وليس تسييراً إلهياً فحسب ، وإنما هو أمر بين أمرين، جذبة إلهية متممة لمحاولة الانجذاب والانقطاع إلى الله ، وكما العصمة في كافة مراحلها ليست إلهية خالصة ولا بشرية خالصة ، إنما هي سعي حسب المستطاع من المعصوم في البـداية ، ثم جذبة الهية ، ثم سعي ثان يوافق ويساير تلك العصمة الخاصة الإلهية .

فحاصل المعنى من الآية أنه (ص) أمر بتبتل التبتيل: ينقطع إلى الله على ضوء توفيق الله، وسعيه هو كما يناسب تبتل العصمة ، وفي نفس الوقت يبتّل غيره الى الله ، ثم لا يشغله الاشتغال بغير الله في رسالته ، عن الله ، معان ثلاثة هامة تعنى من كلمات ثلاث « وتبتل إليه تبتيلا » .

وليكن كذلك « واذكر اسم ربك » : انه ذكره تعالى في نفسه وأعماله وعلاقاته الشخصية مع الله « واذكر ربك في نفسك » وذكره في نفس الوقت لمن أرسل اليهم « وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً » ( ٤ : ٦٣ ) دون تفاوت بين الذكرين ، فانهما ذكر واحد لله ، كما ان تبتله واحد لله .

« رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا » .

لئن سئلت : لماذا التبتل اليه وحده لا سواه؟ فالجواب أنه « ربك » لا فقط بل و « رب المشرق والمغرب » : العالم كله بما أنه لا يخلو من شارق وغارب أياً كان ، فالكون كله بين مشرق ومغرب ، لا يخلو عنها أي كائن ، ولأنه رب الكائنات أجمع . فـ « لا إله إلا هو » ولربوبيته المطلقة وألوهيته الوحيدة « فاتخذه وكيلا » فالتوكل عليه هو التوكل على القوة الوحيدة في الكون كله ، وهو وحده الثمرة المباشرة للاعتراف بوحدانيته ، والرسول المنادى بالقيام وبالسبح الطويل نهار الدعوة ، إنه في حاجة ماسة لعبئه الثقيل في طريقه الشاق الطويل ، إلى تبتل إلى ربه وتوكل عليه ، ولكي يكافح كافة العراقيل في سبيله .

بديهي أن الانسان وكل كائن أياً كان ، لا يستطيع أن يحيى حياة سعيدة ويُحيي غيره بها ، بطاقاته الشخصية ، فلا بد له من وكلاء واعون ، وبما أن من سوى الله كيانهم الفقر إلى الله ، لا يملكون إلا ما ملّكهم الله ، فلا غنى في توكيلهم مهما كانوا أقوياء ، فهم بين قاصر ومقصر ، فكيف يتوكل عليهم ، وإنما الله وحده هو الذي يحق أن يُتخذ وكيلا ، ولا يَتخذ هو وكيلا ، وبينما نحن موكِّلون وموكَّلون ، لم يكن الله إلا وكيلا ، فيما اتخذناه وكيلا وما لم نتخذه

وكيلا ، فالوكالة هي الاعتماد ـ فيما تقصر عنه القدرة والعلم والحياة ـ على من له هذه القدرات أكثر من الموكل ، أو ما يقصر عنه الوقت لكثرة الأشغال، والخلق كلهم قاصرون في هذه وتلك : مهما كان البعض أقوى من البعض ، ولذلك يتوكل الضعيف على القوي ، ولكنه لا غنى في هذه الوكالة القاصرة ، وإنما الوكالة الإلهية هي الكافية الكافلة لما نبغيه ، بعد ما كلّت مساعينا عن الوصول إلى المأمول ، ما لم يكن خلاف الحق والمصلحة : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً » ( ٦٥ : ٣ ) .

إن أسس الوكالة الناجحة غير الفاشلة ، لا توجد إلا في الله لا سواه : من سعة العلم : « وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا » ( ٧ : ٨٩ ) والعزة والحكمة : « ومن يتوكل على الله فان الله عزيز حكيم » ( ٨ : ٤٩ ) والحكم في التكوين والتشريع : «إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون » (١٢:٦٧) وانه المرجع للأمر كله : «وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه »(١١:١٢٣) ولحياته السرمدية : « وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده » ( ٢٥ : ٥٨ ) وبصورة جامعة لأنه الله لا إله إلا هو كما في عشرات الآيات ، وهو خالق كل شيء وبذلك هو الوكيل على كل شيء دون توكل ، وعلى ما نبغيه مما له نسعى وإياه نطلب بالتوكل : « خالق كل شيء فاعبده وهو على كل شيء وكيل » ( ٦ : ١٠٢ ) فلولا وكالته تعالى على كل شيء لخرجت إلى اللا شيء ، ولولا التوكل عليه لكلت المساعي دون الوصول إلى ما نبغيه من شيء .

إنه ليست هناك وكالة إلهية لأحد على أحد ولا للرسول : «إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل » ( ١١ : ١٢ ) اللهم إلا وكالات فاشلة جزئية لا غنى فيها عن الوكالة الإلهية ، ولا تعني وكالةُ الله بطلان المساعي والأسباب ، وإنما نقصانها ، ولذلك تتم الأسباب والمساعي بالتوكل على الله خالق الأسباب والساعين « وكفى بالله وكيلا » ( ٤ : ٨١ ) .

فالمسموح فيه هو السعي وتوكيل الغير بغية الوصول إلى المأمول ، والمحظور

هو التوكل على غير الله ، على نفسه أم سواها ، فالله يُوكَلُ ويُتوكَّلُ عليه ، ومَن سواه يوكل ولا يتوكل عليه ، وعلينا وكلاء وموكلين جميعاً أن نتوكل على الله في إطارات ثلاث : نتوكل عليه فيما نعمل رجاء النجاح ، ونتوكل عليه فيما نأمل من وكلائنا ، ويتوكل وكلائنا على الله فيما توكلوا فيه من موكليهم ، فإليه يرجع الأمر كله . وكفى بالله وكيلا .

**« واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا . وذرني والمكذبين أولي النَّعمة ومهلهم قليلا » .**

إن الصبر على تقولات الكافرين ، وهجرهم هجراً جميلا ، وتكذيبهم لهذه الرسالة السامية ، كل ذلك دليل أن المزمل نزلت بعد المدثر ، نزلت بعد ظهور الدعوة ومجابهتها العراقيل ونعرات الفشرية والتكذيب ، كما وان السبح الطويل نهاره ، دليل على أن المزمل نازلة بعد تطبيقه القيام السافر العام في المأمور به في المدثر ، وبذلك تؤيد الرواية الثانية أنه (ص) تزمل ذعراً ساخطاً على تقولات قريش في ندوتهم الكافرة : انه ساحر أو مجنون نتربص به ريب المنون .

فهنا يؤمر الرسول بالصبر والهجر الجميل والتمهيل القليل ، بدل الجزع أو المقابلة بالمثل أو التنكيل ، وانه صبرٌ لصالح الدعوة ، لا صبر المسايرة والاستسلام صبر يحمل كل جميل في الدعوة ، للداعي والمدعوين .

فالأمر بالصبر هنا يعني عدم الجزع الدافع الى الفرار عنهم : « فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت » ( ٦٨ : ٤٨ ) « .. إذ ذهب مغاضباً » ( ٢١ : ٨٧ ) خروجاً عن الدعوة وفراراً عن المرسل اليهم ، وكذلك عدم التزمل والوقوف عن الدعوة ، أو النقص فيها والتمهل عنها : « واتبع ما يوحى اليك واصبر حتى يحكم الله » ( ١٠ : ١٠٩ ) وعدم التحزن عليهم : « واصبر وماصبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم » ( ١٦ : ١٢٧ ) وعدم الاستعجال لهم بالدعاء عليهم : « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم » ( ٤٢ : ٣٥ ) وأن يكون استقامة في الدعوة واتكالاً فيها على نصر من الله : « واصبر لحكم ربك

فانك بأعيننا » (٥٢ : ٤٨ ) لا صبر المسايرة والطاعة لهم والانفلات عن الدعوة : « فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً » ( ٧٦ : ٢٤ ) .

وأخيراً الصبر عليهم نظرة النقمة الإلهية على الصامدين منهـم في الكفر : « فاصبر صبراً جميلا . انهم يرونه بعيداً . ونراه قريباً » ( ٧٠ : ٦ ) .

فالصبر منه جميل كهذا ومنه قبيح : كالصبر على هدر الأموال والنفوس وانتهاك الدين والناموس وجاه الظالمين ، والصبر على نقص الدعوة وانتقاضها عن المدعوين والصبر على الظلم والضيم ، والصبر على ما للانسان أن يدافع عنه : وإنمـا عليه الصبر الجميل والهجر الجميل والكلام الجميل والسكوت الجميل والنصيحة الجميلة التي تضم كل جميل في الدعوة ، وليس الهجر الجميل إلا هجراً عن الهجـر والتنكيل حتى يحكم الله ، والهجر في تقولاتهم اللاذعة ، عن المقابلة بالمثل ، ولا خروجاً عنهم وعن دعوتهم .

إن الرسول الأقدس (ص) لم يكن ليحارب المكذبين بداية الدعوة ، لقـلة العدد والعدّة ، ولما تكمل الدعوة ! ولذلك أمر بتأجيل الجهاد إلى زمن الهجرة ، حين تكمل العدة والعدة : « واتبع ما يوحى اليك حتى يحكم الله » ( ١٠ : ١٠٩ ) وقد حكم الله بالجهاد منذ الهجرة ، وحكم على الكافرين بالنار منـذ الموت وليوم القيامة ، ولقد كانت أخلاقه (ص) جميلة مع الناس كافة على طول الخط ، لحـد يعفو عن الكفار عند فتـح مكة المكرمة وهم في قبضته علهم يؤمنون ، أو يندمون على ما فعلوا وافتعلوا .

« وذرني والمكذبين أولي النعمـة » الذين يزدادون تكذيباً لأنهم مترفون: والنَّعمة هي التنعم مرة ، وهي هنا الحياة الدنيا ، والنِّعمة هي الحالة الحسنة الشاملة للحياتين « كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوماً آخرين » (٤٤ : ٢٨) ذلك لأنهم « بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار » وهذا هو تبديل النِّعمة نعمـة عليهم ونقمة « جهنم يصلونها وبئس القرار » ذرني وإيام ، فأنا حسبهم .

« ومهلهم قليلا » بينك وبين الهجرة الحاسمة جذورهم بالجهاد ، وبينهم وبين قتلهم أو موتهم إلى عذاب النار وبئس القرار .

فلقد كان صبره جميلا على طول الخط ، وامهاله القليل جميلا ، وكله بأخلاقه وتصرفاته جميلا أينما كان ، فحق له قول الله « وإنك لعلى خلق عظيم ».

فحمل الرسالة الإلهية وتنفيذها ببلاغها بحاجة إلى صبر جميل : صموداً واستقامة للوصول إلى المغزى في سبيلها الشاق الطويل ، فالصبر للرسول ـ هكذا ـ زاد وعتاد ، وجنة وسلاح ، وملجأ وملاذ ، بجانب ما عنده من وسائل الدعوة وتدابيرها ، صبراً مع النفس وشهواتها وانحرافاتها وضعفها وشرودها وعجلتها وقنوطها ، وصبراً مع أعداء الدعوة وكيدهم ، وصبراً مع المؤمنين ، على قلتهم ، وقلة صبرهم ، وكثرة استعجالهم ، وصبراً مع عامة النفوس التي لا تخلو من تسرعات في حق أو باطل .

« ومهلهم قليلا » ولو مهلتهم عمر الدنيا فهو قليل ، فكيف بأعمارهم التي ليست إلا قليلاً في قليل ، وكيف بإمهالهم إلى زمن الهجرة وهو أقل من القليل ، فلتصبر هنا وهناك صبراً جميلا، ولتمهلهم قليلا:

**« ان لدنيا أنكالاً وجحيما وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً » .**

فلدينا من أنكال ما ليس لديك مهما كان نكالك عليهم شديداً .

إن أنكال النار وقيودها وأغلالها هي هي التي قدموها لأنفسهم يوم الدنيا إذ كانوا انكالاً في سبيل الله، وكانت عليهم اغلال الشهوات فاثاقلوا إلى الأرض ورضوا بالحياة الدنيا من الآخرة ، فأكملت شهواتهم يوم الدنيا ، ثم ظهرت أنكالاً يوم الدين بجزاءً وفاقاً .

«طعاماً ذا غصة»: الذي يمزق الحلوق ويحرق الحناجر ،كما كانت حياتهم غصة وكان الحق شجى في حلوقهم، كما كانوا شجى في حلوق المؤمنين وقذى في اعينهم ، وبصيغة شاملة كانت حياتهم عذاباً أليماً على الدعوة والداعين والمدعوين ،

فانتقلت إلى عذاب أليم عليهم يوم الدين :

**« يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلا » .**

رجفة الأرض والجبال ـ هذه : هي الرجفة الأولى المدمرة لها ، ثم تتلوها الرجفة الثانية الرادفة لها ، المحيية لأمواتها : « يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة » ومواصلة الرجفتين تجعل الأولى كأنها الثانية ، ولأنها بداية القيامة ، فتعتبر الأولى ـ وهي رجفة الإماتة ـ كأنها يوم النكال ، والطعام ذو غصة والعذاب الأليم ، وهي كلها بعد الرجفة الثانية : الإحياء ! .

وعلى أثر هذه الرجفة المدمرة تصبح الجبال كأنها « كانت » منذ كانت « كثيباً مهيلا » : « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار » والكثيب المهيل هي الرمل المتراكم المنقلب أسفله أعلاه ، فكما تخرج أثقالها في زلزالها ، كذلك الجبال تقلب في ترملها وتدمّرها ، فتظهر قواعدها الأعماق رملا متراكما محترقاً .

فإذ تتفتت الأرض وتنهار ، وتكثب الجبال وتحتار ، فكيف إذاً تكون أحوال الناس المهازيل الضعاف في قبضة العزيز القهار؟

**« انا أرسلنا اليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً . فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلا » .**

« رسولاً شاهداً عليكم » : تلقياً لما تقولون وتعملون وتفكرون يوم الدنيا وإلقاءً لهذه الشهادة يوم الدين ، فكما أن لكل أمة شهيد هو رسول لهم : كذلك ـ وبأحرى ـ رسولنا شاهد عليكم بأكمل معاني الشهادة ، وشاهد كذلك على كافة الشهداء والمشهود عليهم يوم الدين : « ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء » ( ١٦ : ٨٩ ) فهو يتحمل شهادتهم يوم الدنيا ويؤديها كما تحمّل ، يوم الدين .

« كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً » فرسالة محمد (ص) أشبه برسالة موسى ممن

سواه، وكما تحكم بهذه المماثلة السامية آية توراتية تحمل بشارة مهمة للرسول الأقدس محمد (ص) وها هي باللغة العبرانية:

**«نابيء آقيم لاهِم مِقرِبْ إحيجِم كَمُوشِه وِنَاتَتِّي دِباري بِفيو وِيدَبِر إلو هيم إت كال أشِر أصَوّنو (سفر التثنية ١٨ : ١٧).**

«نبيٌ أقيم لهم من أقرباء أخيهم كموسى وأضع كلامي في فمه لكي يبلغهم جميع ما آمره به»[1].

وهذه المماثلة هي في استقلال الشريعة، وان كتابه من وحي الله لفظاً ومعنى وفيما أصيب محمد من كفار قومه كما أصيب موسى من آل فرعون، فأخذه الله أخذاً وبيلا: ثقيلا هو وابل العذاب كالمطر الجارف، وهذا الآية تتهدد العصاة الطغاة على الرسالة المحمدية بالأخذ الوبيل، يهزّ قلوبهم هزّاً ساحقاً، ويخلعها بعد رجفة الأرض وكثب الجبال المهيل، علهم يتذكرون ويحذرون من أخذة الدنيا والآخرة، فليأخذوا حذرهم بين الأخذتين في هذه الحياة القصيرة، فليتقوا هنا بأس الله قبل أن يأتيهم:

**«فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً . السماء منفطر به كان وعده مفعولا».**

ولنفرض أنكم اتقيتم عذاب الله يوم الدنيا، أم لم يأتكم فيها «فما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم» «فكيف تتقون إن كفرتم»، ومتم على الكفر «يوماً» يوم الرجفة الطامة التامة، من وقعته وشدته: «يجعل الولدان شيباً» فانه الهول الذي تنشق منه السماء وتخر الجبال هدّاً، فكيف بالولدان الضعاف، فتراهم كأنهم شيب من بياض نواصيهم وانحداب ظهورهم، وانكماش جلودهم، لا لخطيئة اقترفوها فانهم قاصرون، وإنما هذه طبيعة هذا اليوم التي ترتسم في الطبيعة

(١) التفصيل الى كتابنا «رسول الاسلام في الكتب السماوية» ص٣٣

الصامتة أيضاً ، ففي الانسانية الحية اولى ! وإذ يصبح الولدان شيباً وهمقاصرون فكيف بالكفار المكذبين وهم مقصرون ، فهناك وقعة تتقى هي عذاب الله،تتقى بالإيمان بالله ، ووقعة لا تتقى ، وليست هي عذاباً ، وإنما توحي بشدة بالغـة لا تبقي ولا تذر ، وهي رجفة الإماتة والتدمير ، فالولدان الذين هم أطفـال ، لو جاز أن يشيبوا لرائع خطب ، أو طارق كرب، لشابوا في هذا اليوم لعظـيم أهواله وفظاعة أحواله ، وإنها وقعـة هي كمذاب : « السماء منفطر به » تنفطر به السماء وتنشق وتكشط وترجع رجماً ، فكيف لا ينفطر هذا الإنسان الهزيل الذليل ؟ « كان وعده مفعولاً » لا هوادة فيه ولا رجعة منه ! :

« إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا » .

وإنها تذكرة بالغة لمن أراد أن يتذكر ، فمن شاء الإدّكار اتخـذ إلى ربه سبيلاً قدره ، ومن شاء أن يسلك سبيلاً إلى ربه فزادُه أن يتذكر ، إن السبل إلى الله كثيرة وكذلك إلى الشيطان : « وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » ( ٦ : ١٥٣ ) وأنجح السبل الى الله هـو صراطه المستقيم ، ثم ما دونه من السبل من حق اليقين وعين اليقين وعـلم اليقين والظن ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى .

« إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » .

تلمح هذه الآية – وهي الأخيرة من السورة – أنها نزلت بالمدينة ، وما قبلها مكية كلها ، فان حكم الجهاد والزكاة نزلا في المدينة ، وقد صبر الرسول على ما يقولون طول مقامه بمكة ، وهجرهم هجراً جميلا كما أمر ، حتى جاء حكم الله بالجهاد في المدينة ، وبما أن المزمل من أوليات ما نزلت على الرسول (ص) في مكة ، ولا أقل بعد ثلاث سنين من بداية الدعوة ، إذ أمر بالمجاهرة فيها ، وأن الآية الأخيرة فيها تتضمن الجهاد والزكاة وهما في المدينة ، من هنا وهناك نتأكد أو نرجح أنها نزلت بعد الآيات الأول بعشر سنين كما قيل ، والقول بسنة أو ثمانية أشهر – إذن – لا يوافقه الدليل .

**« إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه » .**

لقد خـيّر الرسول الأقدس في ظاهر الوحي الأوّل بين هـذه الثلاث فرضاً واجباً ولمـّح فيـه إلى ثلثي الليل كأنه الرابعة والمفضلة على الثلاثة ، وكأنه من أطراف الواجب وليس منه : « قم الليل إلا قليلا . نصفه ... » فلم يقل « أو نصفه » وإنما « نصفه » كأنه الليل إلا قليلا « أو انقص منه قليلا : ثلثه » « أو زد عليه » : على النصف ، بينه وبين الثلثين ، ولقد استمر الرسول بين الآيتـين عشر سنين بقيامه : « أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه » دون ثلثيه إلا قليلا ، فلم يترك واجبه التخييري ، وإنما لم يستمر في ثلثيه ولم يكن من أطراف الواجب أو كان ولم يكن مؤكداً ، بدليل عدم اداة التخـيـير بينه وبين الثـلاثة الأخرى « أو » .

ولأنه تعالى كان يعلم واقع اختياره(ص) كما يسمه « انك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه » لذلك لم يفرض عليه ثلثيه لكي لايذنب بتركه ، أو لا يكون تاركاً للأرجـح من أطراف الواجب التخييري ، ولقـد كانت صلاة الليل فريضة عليه دون المؤمنين ، أو انها قيام الليـــل الشامل لصلاته ، يدل على ذلك كونه نافلة له : « ومن الليل فتهجد به نافـلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً » وليست النافلة هنا هي الزائدة على الفرض لـكي تفسر بالمستحب المندوب ، وإنما « نافلة لك » : فريضة لك زائدة على فرض الأمة ، فقد أمر بالتهجـد هنا أمراً خاصاً ، ثم عدم إحصاء طائفة من الذين معه « علم ان لن تحصوه » دليل ثان أن قيام الليل هكذا لم يكن واجباً على الأمة ، فكيف يفرض عليهم ما لن يحصوا أوقاته ؟ « فتاب عليـكم » : تاب عليهم في فرضه فلم يفرضه عليهم ، فلم تكن التوبة عليهم عن عصيان في ترك الواجب ، وإنما عن فرضه عليهم ، فقد « علم أن لن تحصوه فتاب عليكم » وهذا قصور ذاتي يمنع عن هكذا تـكليف ، ثم قصور احياني :

**« علم ان سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من**

**فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرءوا ما تيسر منه** » لهذه الأعذار الذاتية والوقتية أبدل لهم قراءة ما تيسر من القرآن بقيام الليل .

من هنا وهناك نتأكد أن الآية تقسم إلى خطابين : موجّه إلى الرسول حاملا التخفيف له عن فرض القيام ثلثي الليل ، لأنه تعالى كان يعلم واقع المستطاع له (ص) «إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى .. » وابقاءً على التخيير الثلاثي المستطاع : « أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه » ولأن فعله هكذا واحصاءه كان في إمكانه ولو لم يكن يحصي الأقسام الثلاث ، لم يكن محصياً لليل ، ولو لم يلق اليه قول ثقيل ، ولم يكلف نهاره بالسبح الطويل ، لم يك قيام الليل واجباً عليه هـذا الطويل الطويل ، والثقيل الثقيل .

ثم خطاب ثان يوجّه إلى طائفة من الذين معه ، عفي لهم عن فرض قيام الليل وأبدل به قراءة ما تيسر من القرآن « وطائفة من الذين معك » وبما أن «طائفة » مرفوع ، لا منصوب حتى يعطف على المنصوب في « انك » نتبين أن قيام الأدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه لم يعطف لهم ، فلم يكونوا قائمين مثل الرسول ، وإنما « طائفة من الذين معك .. علم أن لن تحصوه فتاب عليكم » فالجملة الثانية خبر طائفة ، تخبر عنهم أنهم لن يحصوا الليل ، فلن يقدروا على تحقيق التخيير الثلاثي « فتاب عليكم » توبة عليهم في فرضه ، لا عن عصيانهم بعد فرضه [1] ، فكيف يفرض عليهم القيام الثلاثي ليلا وهم لن يحصوه ، إضافة إلى قصورهم الاحياني ـ مع القصور الذاتي العلمي ـ : «علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله » فكان

---

(١) فالتوبة وهي الرجوع قد تكون من العبد الى الله ، رجوعا الى طاعته بعد العصيان ، وقد تكون من الله على العبد وهي اما قبول للتوبة عن العصيان ، او رجوع بالرحمة على العبد بعد ماضيق عليه او كان بحيث يضيق عليه لولا مزيد رحمته ، وهي المعنية بتوبته تعالى هنا .

قيام الليل صعباً عليهم لهذة الأعذار ولو عفي عن التقادير المعينة الثلاثية فيه ، فأبدل لهم به قراءة ما تيسّر من القرآن .

وأما الرسول (ص) فبما أنه كان يحصي الليل ، ولذلك فرض عليه القيام المسبق ، فهو لا يعفى له عن قيامه ، وعليه تحمل العبء في قيامه ، وفي هذه الأعذار التي تعفي سائر المؤمنين عن فرض القيام ، ولأنه يحمل القول الثقيل والسبح الطويل ، فعليه ما ليس على غيره من التكليف الثقيل ، وليأخذ زاده وأهبته في هذا الطريق الشاق الطويل بعمره القليل القليل .

فقيام الليل ـ بصلاته وذكره ودعائه واحيائه ـ من المندوب اليه للمسلمين كأنه فرض ، وفرض على الرسول الأقدس (ص) وإنما عفي له عن ثلثيه وما زاد ، وعفي للذين معه عن فرضه إطلاقاً ولكنه يداني الفرض .

وبما أن قراءة ما تيسر من القرآن ليست خارجة عن المستطاع ، ولا أن شيئاً من الأعذار المسبقة تنافيها ، فلنا أن نثبت على ظاهر الأمرين فيهما ونستوحي الوجوب ، ليلاً قدر المستطاع ـ فـ « إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قيلاً » ونهاراً قدر الميسور ، فلنعش القرآن قراءة وتلاوة وتفهماً وتذكراً وتصديقاً وتطبيقاً ونشراً وسماعاً وإسماعاً ، وهكذا يجب أن يكون الذين مع هذا الرسول ، وليسبحوا معه نهار الدعوة سبحاً طويلاً في بحر المجتمع المتلاطم ، فيَنْجوا ويُنجوا الغرقى الهلكى ، فالقرآن لمن يحمله سفينة النجاة .

لقد ذكرت قراءة ما تيسر من القرآن هنا مرتين ، مرة بعد ذكرى القصور الذاتي عن القيام الثلاثي الليلي : « علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ماتيسر من القرآن » فنيابة القراءة عن القيام ليلاً ، لا تكون إلا ليلاً ، وأخرى بعد ذكرى الأعذار المتعبة للقيام : « علم أن سيكون منكم مرضى ... فاقرءوا ما تيسر منه » وعلها تخص النهار أو تعمه والليل ، فان هذه الأعذار تمانع قيام الليل بصلاة أو قراءة ، على الأكثر : فلا تكرار في الأمر بالقراءة هنا ، ثم يتلو

قيامَ الليل وقراءةَ القرآن ما ينتج عنها : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » وفي قرنها بقيام الليل المسموح عنه عن المؤمنين ايحاء انها لا تخفيف فيها ولا تتحمله إلا شكلياً كالصلاة ، أو كمياً كالزكاة فانها تتقدر بقدر المال المزكى ، وأما أن تبدل الصلاة والزكاة بغيرهما فكلا .

« وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً » .

فالأعمال كلها ـ من خير وشر ـ تقدم للعامل لا سواه ، فليس لله فيها مضرة أو منفعة ، ولا لمن سواه ؛ وإنما هي للعامل أو عليه ، فقدموا لأنفسكم مما يتقدم اليكم من صالح الأعمال ، فأنتم سوف تجدونها هي بأنفسها عند الله بما سجلتها المسجلات الإلهية ، من أعضائكم العاملة ومن الأرض بفضائها « هو خيراً » تجدونها خيراً مما كانت ، إذ تظهر بحقائقها وألبابها دون قشور تسترها ، وتظهر ليوم لا حاكم فيه إلا الله « وأحسن أجراً » فالله يزيد أعمالكم أجراً بفضله ورحمته « واستغفروا الله ان الله غفور رحيم » اطلبوا منه والتمسوا لكي يغفر ويستر ما قدمتموه من طالح الأعمال أو صالحها الناقصة ، ما دام المبدأ الأصيل في حياتكم ابتغاء مرضاة الله .

فالمؤمنون ـ إذاً ـ يلمسون التخفيف الندى يمسح على نَصَبِهم طوال سنين عشر من البعثة ، وقد انتفخت أقدامهم وتورمت من القيام الطويل ، مهما كانوا قاصرين عن قيام الرسول ، الثلاثي ، ولإحصائه الليل دونهم ، ووجوبه الأصيل عليه دونهم وحمله الثقيل وسبحه الطويل دونهم .

## سورة المدثر - مكية - وآياتها ست وخمسون

« بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ١ قُمْ فَأَنْذِرْ ٢
وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ٥ وَلَا تَمْنُنْ
تَسْتَكْثِرُ ٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ٧ »

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

* * *

إن المدثر من فواتح الوحي ، فهي بعد الآيات الخمس الأولى من العلق، وعلها بعد الحمد أيضاً ، وإذ تحتمل السورة - كالكثير من أمثالها - عدم نزولها دفعة واحدة ، لذلك فآيات التوعيد والتنديد بالوحيد ، الذي كان بآيات الله عنيداً ، والتي تتحدث عن سائر الكافرين ، بعد الآيات السبع الأولى من السورة ، إنها لا تتنافى وكون هذه السبع هي النازلة بداية الوحي المفصل ، بعد الخمس من علق والسبع المثاني من الحمد أيضاً .

« **يا ايها المدثر** » : لقد تدثر الرسول الأقدس(ص) إثر ما أوحيت اليه الخمس والسبع ، تدثر من وقعة الوحي المفاجىء الثقيل ، وعلى حدّ المروي عنه (ص) قال:« جاورت بحراء فلما قضيت جواري فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً

ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً ونظرت خلفي فلم أر شيئاً فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فجثثت منه رعبا فرجعت فقلت : دثروني فدثروني فنزلت « يا أيها المدثر »[1] . هذا وكما كان متدثراً عن قيام البلاغ منذ كان حتى زمن الرسالة ، فكان عليه ـ إذاً ـ دثاراً فوق دثار، فأمر بالتحلل عنهما إلى الإنذار .

إن الدثار ما يلبس فوق الشعار وأصل المدثر المتدثر تدثراً بثيابه لينام أو ليستدفىء، وما تدثره في الرمضاء ، إلا لما أخذته من رعشة الوحي وهيبته ، كأن زالت حرارته بغزارة الوحي ورعشته ، فتدثر وكان حقه أن يتدثر ، وبما أن مكوثه هكذا بداية الوحي ولو قليلاً ، يخيل أنه مسموح له الدثار نوماً أو تدفؤاً، يؤمر آنذاك بالقيام عنه إلى الانذار ، فلا عليه ولا له وهو رسول أن يكون نائماً دثوراً مستتراً مستدفئاً ، وإن كان من وقعة الوحي ، فليتعود القيام والإقدام طالما العراقيل تحول بينه وبين القيام ، وليمش القيام حياته : روحياً وجسدانياً وعقلياً وعلميا ، وبكل ما يملكه وما ملكه ربُّه من طاقات وإمكانيات ، فالعمر قصير ، والسير عسير ، ودافع القعود كثير ، فلا يسمح له إذاً ـ الدثار ـ أي دثار ، دثار الجسم والروح ، دثار الانذار والتبشير ، فليتجرد عن الدُّثر كلها ، إلى الانذارات كلها .

وقد تتحمل السورة كلها أنها أنزلت بعد ما شاعت دعوة الرسول وواجهته السفاسف والأقاويل السوء: أنه مجنون أو كاهن أو شاعر، وكل ذلك من طواغيت قريش : أبو جهل وأبو لهب وأبو سفيان والنضر بن الحرث وأمية بن خلف

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٨٠ عن جابر بن عبدالله الانصاري ، وفيه أن المدثر اول ما نزل من القرآن ـ اي : بعد الخمس من العلق ويلمح له قوله (ص) هنا « الذي جاءني بحراء » اذا فهذا مجيئه الثاني ـ وعلى الاول كان يحمل سورة الحمد اضافة الى الخمس كما تدل على البسملة بالبيان المسبق في سورة العلق .

والعاص بن وائل والوليد بن مغيرة الذي تسميه الآيات الآتية وحيداً ، وانتهى دور التكذيب اليه بما نقلته الآيات ، فلما سمع رسول الله (ص) ذلك اشتد عليه ورجع إلى بيته محزوناً فتدثر بثوبه فأنزل الله السورة .

فهذه دثر ثلاثة تتحملها الآيات : دثاره قبل البعثة ، ودثاره بداية الوحي من رعشته ، ودثاره إثر هذه الهجمات ، والرسول يؤمر في هذه الدثر الثلاثة أن يقوم بالانذار مهما كان الدثار ، قياماً يستصغر فيه كل دوافع القعود وعراقيل الإنذار :

« قم » فلقد مضى وقت القعود والدثار ، وحان زمن القيام والإنذار « قم » لله قانتاً بين الجموع المحتشدة الغالتة عن ذكر الله وطاعته « وقوموا لله قانتين » ( ٢ : ٢٢٨ ) وأقم الدين « ان أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » (٤٢ : ١٣) واقم الوزن أياً كان « وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » ( ٥٥ : ٩) «واقم الصلاة » ( ١١ : ١١٤ ) فانها عمود الدين ، قم وأقم واستقم « فادع واستقم كما أمرت » ( ٤٢ : ١٥ ) .

« فانذر » وليكن الانذار بداية القيام ، فانه ينفع قوماً لدّاً ، فان التبشير هو بعد الإنذار ، بعد ما تلين القلوب للايمان وتتقي : « فانما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لدّاً » (١٩ : ٩٧) «لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك » ( ٢٨ : ٤٦ ) فمن تأثر بالانذار فهو المنذَر المبشر « إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب » ( ٣٥ : ١٨ ) « انما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمان بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم » ( ٣٦ : ١١ ) .

فلئن أثر الانذار كان بعده ومعه التبشير ، وإلا فلماذا التبشير ؟ والانذار هو اظهر ما في الرسالات الإلهية ، تنبيهاً للخطر القريب الذي يرصد الغافلين الشاردين السادرين في الضلال ، علهم يخافون العذاب الأليم ، ومن ثم البشارة باللطف والعطف العميم .

« **وربك فكبر** » إن الفاء هنا توحي بشرطية مقدرة: « إن كان هو ربك

فكبره » فلزام الإيمان بربوبيته تكبيره كما يلائمها، وليس تكبيره فقط قول: الله أكبر فكثير هؤلاء الذين يقولونه ولا يكبرون الرب في عقول مصغريه المشركين به ولا في أعمالهم أنفسهم ، فتكبير الرب غير التكبير لفظياً للرب ، وإن كان يشمله قول « الله أكبر » كما يروى عنه (ص) [1] .

« وربك فكبر » ربك وحده ؛ فهو وحده الكبير المتعال الذي يستحق التكبير دون سواه ، يوحي بهذا الإنحصار تقديم المفعول « ربك » على فعله « كبر » فكل شيء بجنب الله صغير ، والله وحده هو الكبير ، وكل صغير يكبر عرضياً بالتكبير ، والله هو ذاته كبير ، وإنما الأمر بالتكبير يعني تعظيمه عند الجاهلين به أو المعاندين والناكرين له ، تكبيراً في عقولهم ، بياناً للواقع ، لا تكبيراً لواقعه ، وليستمد الرسول خوضه في هذه المعركة تصغيراً لكل كيد وكل حول وقوة وكل معاكسة وكل عقبة وعرقلة ، تكريساً لكافة الطاقات العقلية والمنطقية وسواها ، وليعلم الجاهلون بالله والمتجاهلون ، ان الله هو الكبير المتعال ـ فـ « لم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً »(١٧ : ١١١) : تكبيراً يليق بساحته ، ويصغر كل من سواه بجنبه ، تكبيراً في عقولهم وضمائرهم وفطَرهم وفكَرهم وواقع كيانهم في تفكيرهم وتصرفاتهم ، ولكي يرى ويلمس أنه الكبير المتعال في خلقه فيعيشوا ذلاً بجنبه وفي طاعته : « عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال » ( ١٣ : ٩) المتعالي عن أن يكبر عن صغر ، أو يتكبر عليه أحد ينازعه في ملكه ، أو يستقل عنه أحد في كيانه ـ فـ « هو العلي الكبير »

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٨١ ـ اخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قلنا يارسول الله (ص) كيف نقول اذا دخلنا في الصلاة ، فانزل الله «وربك فكبر» فامرنا رسول الله (ص) أن نفتتح الصلاة بالتكبير ـ اقول هذا هو النزول الثاني للاية ، فانها نزلت اولا بداية الوحي قبل الصلاة وقبل أبي هريرة ، وليس هذا الا من تطبيق الآية على ادنى مراحل التكبير .

(٢٢ : ٦٢) لا عن صغر مسبق ــ فـ « إن الله كان علياً كبيراً » (٤ : ٣٤) : كينونة أزلية كما في كونه ، لا يشاركه فيه أحد ، وكما لا يعني تكبير الله تعالى هنا أنه أكبر ممن سواه ،فلا كبير سواه حتى يكون هو أكبر منه ،وكذلك قول « الله أكبر » لا يعنيه ، فان كونه أكبر من غيره تصغير له ، وإشراك لغيره معه في الكبر ، وإنما يعني ــ على حد تعبير باقر العلوم عليه‌السلام ــ «أنه أكبر من أن يوصف » وإن كان يوصف أنه أكبر ممن سواه !

« وثيابك فطهر » : إن كانت هي ثيابك فطهرها : فالفطرة مجبولة على تطهيرها .

« ثياب ــ ك » و « ك » لا يختص البدن ، وإنما يعمه والروح ، والروح أحرى هنا ، ولا سيما أن الخطاب وجّه إلى الرسول (ص) ، والرسالة الإلهية هي روحانية المصدر والفعل والمفعول ، طالما تشمل الناحية الجسدانية أيضاً .

فلكل إنسان ثلاثة أثواب ١ ــ ثوب الجسد المتصل به ، شعاراً ودثاراً ، ٢ ــ ثوبه المنفصل عنه : زوجته التي اعتبرت لباساً كالعكس « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » ٣ ــ وثوب الروح وهو لباس التقوى « يا أيها الناس إنا أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير » (٧ : ٢٦) وهذه الطهارة الثلاثية للإنسان تجعله في قمة الطهارة والنزاهة ، فبإمكانه هجران الرجز كل رجز .

فمن طهارة الثياب تنظيفها عن الدنس والنجس ، وترتيبها بحيث لا تتعرض للأدناس ، كالثياب الطوال التي تجر الأرض فتتقذر هي ، وتقذر أيضاً خلق أصحابها إذ تخلق فيهم الخيلاء والكبرياء ، وهذا من تفسير الظاهر للآية وكما فسرها أئمة أهل البيت عليهم السلام « فطهر ــ أي فقصر » وكما أن من تطهيرها أيضاً لبسها بحيث لا تكون لباس الشهرة أو الهزء ، تطهيراً لأصحابها عن التعرض للبهت والغيبة ، وكذلك تطهيرها عن أن تكون من مصادر محرمة : سرقة أو خيانة أو بخساً أم أياً كان من وجوه الحرام .

ومنها تطهير الازواج فانهن لباس ، أمره الله سبحانه أن يستطهر النساء ، فيختارهن طاهرات من دنس الكفر ودرن العيب ، لأنهن مظان الاستيلاد ، ومضامُّ الأولاد ، ثم إذا اختارهن هكذا يلازم تطهيرهن عمّا لا يجوز قدر المستطاع فإن فلتت منهن فالتة — إذاً — فهي هي المسؤولة لا هو ، إذ أدى واجب الاختيار والتطهير .

ومنها تطهير النفس ، ان يعيش تطهيرها عما يرجزها ويدنسها ، فيزجرها عن الله ، يقال : فلان طاهر الثياب . أي : طاهر النفس والأفعال ، طاهر الضمير والأقوال « ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله » .

فكما للجسم ثياب يجب تطهيرها تنزيهاً للظاهر ، كذلك للروح ثياب تلبسها فتدنسها أحياناً وتطهرها أخرى ، فالفطرة السليمة والعقل السليم والقلب الواعي والعلم النافع ، التي تجمعها التقوى ، إنها لباس التقوى ، تقوى بها الروح وتعرج إلى قمة الكمال ، وكما أنها تقوى بالروح الصافية الضافية .

فهذه الطهارة هي الحالة المناسبة لتلقي الوحي ، والضرورية لملابسة الانذار والتبشير ، ومزاولة الدعوة في أوساط التيارات الجارفة ، والاهواء والمداخل والدروب ، ولكي ينقذ الملوثين دون أن يتلوث .

ومن ثم وبعد المراس الشاملة لهذه الطهارة الثلاثية ، التي تُطمْئنه إلى حياة الدعوة الدائبة ، يؤمر بالهجر عن كافة الاضطرابات فيها ودوافعها : **«والرجز فاهجر»** إن تعلمه رجزاً فاهجره ، فالفطرة مجبولة على هجر الرجز .

فأصل « الرجز » هو الاضطراب ، وناقة رجزاء إذا تقارب خطوُها واضطرب لضعف فيها ، فهو — إذاً — يشمل كل اضطراب وخروج عن اعتدال سبباً ومسبباً ، من العذاب وبواعثه ، فالخروج من اعتدال الفطرة والعقل رجز كما أن خلافه طهارة واعتدال ، وكما أن كافة المكارم داخلة في « وثيابك فطهر » كذلك التخلف عنها داخل في « والرجز فاهجر » فالرسول الأقدس (ص) أمر

في بداية الوحي وبزوغ الرسالة بالانذار وتكبير الرب بجناحي طهارة الثياب وهجر الرجز : تحلية بالمكارم ، وتزكية عن المحارم ، وليطمئن إلى الله متخلقاً بأخلاق الله ، ويُطْمئن الناس إلى الله ، هاجراً كل رجز واضطراب في عقيده ، أو عمل ، في دعوة أو عبادة ، ولذلك تسمى الأوثان رجزاً ورجساً ، كما يسمى العذاب المهين ـ المسبب عن عبادتها ـ رجزاً : « أولئك لهم عذاب من رجز أليم » ( ٣٤ : ٥ ) .

ذلك ! وإن كان الرسول (ص) عاش متطهراً هاجراً الرجز منذ ولادته إذ عافت فطرته السليمة كل انحراف وانجراف ، بما كان يسلكه ملك عظيم من ملائكة الله سبيل المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره ، على حدّ قول الامام علي عليه السلام فكان يهجر المعتقدات الشوهاء والسبل الشائكة ، ورجز الأخلاق والعادات ، فلم يعرف عنه ولم ينسب اليه أنه شارك في شيء من خوض الجاهلية ، ولكنما هذا التوجيه يعني ـ فيما يعنيه ـ إعلان المفاصلة والتمييز الذي لا هوادة فيه ولا مسايرة ، ويعني المداومة والمزيد من الطهارة وهجر الرجز منذ الدعوة بالعصمة الإلهية ، إضافة إلى ما يسعاه قبلها وبعدها ، لا انه كان عليه رجز ، فأمر بهجرها ، فما أكثر الحالات التي هو لابسها ويأمره الله بها ، إعلاناً عالمياً في إذاعة قرآنية أنه مؤمّر مطيع فلا يطمع فيه طامع للمهادنة والمسايرة ، وما أكثر المزريات التي عافتها فطرته السليمة ـ منذ كان حتى قبض ـ فينهاه الله عنها بهذا الدافع وأشباهه ، وليعلم العالمون أنه رسول مؤمر ، لا يستقل في حسناته وعبقرياته عن ربه إلى نفسه وإن كانت نفيسة قديسة ! فالقرآن ـ بجانب ما يذكره من مكارم الرسول ـ ينبهنا أنه رسول ، لا يملك لنفسه بجنب ربه ضراً ولا نفعاً « إلا بلاغاً من الله ورسالاته » .

من ثم وبعد نكران الرجز وهجره ، يوجه إلى نكران ذاته ، وعدم المن في معطياته ، كأن لم يعط شيئاً ، رغم تقديمه وبذله الكثير الكثير ، وجهده وعنائه العسير العسير في هذه السبيل الشاقة الملتوية :

« ولا تمنن تستكثر » صحيح أن الله يمن بك على المؤمنين : « لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً منهم .. » ولكنك ـ وأنت رسول ـ ليس لك المن عليهم استكثاراً لما تبلغ من رسالات ربك، واستكثاراً لرفعة المحتد عند الناس ، وإنما لك الاستكثار من فضل الله ورحمته ، دون ابتغاء أجر منهم أو شكور ، ولأن هذا التوفيق العظيم والفضل العميم يستحق الشكر لله وطلب المزيد من الله ، لا من الناس الذين لا يملكون، ولا لأنفسهم شيئاً ! وكما ليس له المن عليهم ان آمنهم بالله ، كذلك ليس لهم المن عليه أن آمنوا بالله : «يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي اسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان » (٤٩ : ١٧) فالمن لله أولاً وأخيراً دون سواه ، « ولكن الله يمن على من يشاء من عباده » (١٤ : ١١) .

إن تحقيق الرسالة الإلهية نعمة من الله فلا يستحق المنّ عليه ، وصدقة على المرسل اليهم وهي تبطل بالمن : « يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى » (٢ : ٢٤٦) .

مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي

ولئن سئلنا : إذا كان المن من غير الله محظوراً ، فكيف أصبح سليمان بينه وبين الإمساك مأموراً ؟ : « هذا عطاؤنا فامنن أو امسك بغير حساب » (٣٨ : ٣٩) والجواب أن المن هنا هو الإكثار من الإنعام كما يوحي به مقابله : الامساك ، من المن وهو الإكثار العملي ، لا المنة وهي الإكثار الاستكثار القولي ومنّ الرسول الأقدس (ص) كان أكثر المنن والعطايا بين الرسل ، ولكنه منع عن المنة والاستكثار ، اللهم إلا المن والإكثار .

وإن صور الاحتمال في المنّ كالتالي : بين مرغوب عنه ومطلوب ، ممكن ومستحيل :

١ ـ المنّ العملي على الله ، وهو محال ينافي ألوهيته تعالى ، وينافي أقل الإيمان فضلاً عن إيمان الرسول ، فلا يشمله النهي .

٢ — المنّ القولي على الله ، وهو على امكانيته مستحيل من الرسول البالغ في معرفة الله أقصاها الممكن ، فلا يشمله النهي ، اللهم إلا غيره .

٣ — المن العملي على الناس ، وهو الإثقال بالنّعمة عليهم والإكثار منها ، وهو من أوجب الواجبات الرسالية ، أن يعيش الرسول حياته عطاء للناس وهدى ورحمة لقوم يهتدون ، فلا يشمله النهي أيضاً .

٤ — المنّ القولي للايذاء ، ولم يكن الرسول ممن يؤذي الناس ، وإنما كان يتأذى في سبيل رفع الأذى عنهم ، فلا يشمله النهي .

٥ — المن القولي لتذكير النعمة ، وليس إلا من الله فإنه ولي النعم ، فقد يشمله النهي .

٦ —المن القولي حال الاستكثار ، وكما أن «تستكثرُ» هنا حال ، لمكان الرفع ، لا جزاء الشرط المقدر ، وقد يكون استكثاراً لمنّ الله عليه وعليهم فهو ممدوح لا يُنهى عنه .

٧ — وقد يكون استكثاراً لجهوده وجهاده في تبليغ رسالاته ، فهو المشمول للنهي ، فليستقل بلاغاتِه بجنب الله ، وليعرف أنه ما عبده حق عبادته وما عرفه حق معرفته ، ولذلك كان يستغفر ربه كل يوم سبعين مرة ، لا لذنوب يقترفها ، وإنما إعلاماً واعترافاً بالقصور عما يحق عليه لله ، إذاً فكيف يستكثر ؟ فهل يستكثر امتثاله لهذه الأوامر الإلهية من قيامه بالانذار ، وتكبيره ربه وتطهيره ثيابه وهجره الرجز ، ودعوته إلى ربه ؟ وهو عبد لايملك إلا ما ملكه الله ، فليستقل عمله بجنبه ، وليستكثر نعمه عليه ، دون أن يستكثر ما عمل من خير لله وكما عن الرسول (ص) نفسه [١] .

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٥٤ عن الصادق (ع) قال رسول الله (ص) في الآية : « تستكثر ما علمت من خير لله » .

٨ ـ وقد يكون استكثاراً لتعظيم الناس له ، ورفعة مقامه عندهم ، فمن هم الناس حتى يرجوا إكثارهم ، وهم لا يملكون ولا لأنفسهم شيئاً ، وهو المأمور « قل لا أسألكم عليه أجراً » ولا « جزاءً ولا شكوراً » فكيف يستكثر منهم وإنما عليه العطاء ، دون ابتغاء أجر ولا شكور ولا جزاء ، لا قليلاً ولا كثيراً ، إلا من الله العلي القدير .

٩ ـ وقد يكون استكثاراً من الله ، فما هي الصلة بين المنّ على الناس والاستكثار من الله ، إلا في المنّ العملي كما سبق ، فعليه أن يثقلهم بنعمة البلاغ وله أن يستكثر ربه الجزاء الوفاق .

١٠ ـ وقد يمن عليهم عمليا يستكثر اهتداءهم ، فبقدر ما يجاهد في سبيل الدعوة له أن يرجو انعطافهم الى الحق ، وهذا أمر مرغوب فيه .

فتلك عشرة كاملة في صور المن بين مستحيل ومأمور به ، ومنهي عنه .

فالله تعالى يريد من رسوله الكريم ألا يظل يستعظم ما يقدمه ويستكثره مهما كان بجنب الله أو الناس أم في نفسه ، فان هذه الدعوة لا تستقيم وتدوم في نفس تحس بما تبذل في سبيلها ، فعلى الرسول أن يتناسى ما يقدمه لكي يستجدّ العطاء دوماً كأنه أول العطاء ، فلا يمل من كثرة العطاء ومعاكسة المعطى لهم بالتخلف والغباء ، ولا يمن على المهتدين فيقطع عنهم العطاء ، وإنما عليه أن يعيش عناه في عطاء وابل دون انقطاع .

« ولربك فاصبر » تقديم الظرف يوحي بأن الصبر يجب أن يختص بدافع رضى الرب فلا يصبر لنفسه لأنها تستحليه ، ولا لغيره فيسترضيه ، إنما لربه فيرضيه لأنه ربه ، ثم الفاء توحي بسبب هذا الاختصاص ، أنه ربوبيته تعالى ، جزاء لشرط مطوي « إن كان هو ربك فله إصبر » فالصبر في سبيل الله وانحصاره بالله يتسببان من ربوبيته تعالى ، فان معركة الرسالة طويلة ضيقة ، والصبر هو زادها الاصيل ، وقد شرحنا مدى الصبر الجميل مسبقاً فلا نطيل .

«فإذا نُقِرَ في الناقور ٨ فذلك يومئذٍ يومٌ عسير ٩ على الكافرين
غيرُ يسير ١٠ ذرني ومن خلقت وحيداً ١١ وجعلت له مالاً
ممدوداً ١٢ وبنين شهوداً ١٣ ومهّدت له تمهيداً ١٤ ثم يطمع أن
أزيد ١٥ كلا إنه كان لآياتنا عنيداً ١٦ سأرهقه صعوداً ١٧
إنه فكر وقدّر ١٨ فقتل كيف قدّر ١٩ ثم قتل كيف قدّر ٢٠
ثم نظر ٢١ ثم عبس وبسر ٢٢ ثم أدبر واستكبر ٢٣ فقال إن
هذا إلا سحر يؤثر ٢٤ إن هذا إلا قول البشر ٢٥ سأصليه
سقر ٢٦ وما أدراك ما سقر ٢٧ لا تبقي ولا تذر ٢٨ لواحة
للبشر ٢٩ عليها تسعة عشر ٣٠»

« فاذا نقر في الناقور » آية عديمة النظير من حيث التعبير ، فما نرى الناقور إلا هنا ، وليس هو إلا عبارة أخرى عن الصور[1] ويزيد الناقور أنه قرع يفضي إلى النقر والثقب ، قارعة تقرع الكائنات لحد النقر ، قرع ينتهي لمداه ، فلا يبقي شيئاً ولا يذر في قيامة الإماتة ، ثم قرعة الإحياء حيث تنقر الميتات وتنقلها إلى الحياة ، ذلك لأنه ناقور : فاعول ـ مبالغة في النقر ، فليس إذا بوقاً ينفخ فيه ،

(١) راجع ج١ من الجزء ٣٠ ص ٣٥ ، ففيه إيضاح عن النفخ في الصور .

إنما نفخة وصرخة في الكائنات كل الكائنات ، فهي ناقور لهذا النقر ، وصور لهذا النفخ ، نفخ في الصور هو نقرٌ في الناقور ، وليس الصورُ الناقورُ إلا الكائنات بذواتها ، تدمّر بصيحة واحدة ، فإذا هم بالساهرة ، صيحة هي زجرة تنقر أعماق الذوات ، لحد تبدّل إلى غير ذواتها : « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار » (١٤ : ٤٨) .

« فذلك يومئذ يوم عسير . على الكافرين غير يسير »

هل إنها هنا نقرة الإحياء ، إذ يدركون عسره بالجزاء الوفاق ؟ ففي نقرة الإماتة يموت المؤمن والكافر سواء ، فالعسر يومئذ لهما سواء ! أم إنه النقرتان ؟ فطالما الموت بالنقرة لهما سواء ، ولكنما المؤمن يستحليه بما تعقبه من رحمات الله ونعمائه ، فهو له ـ إذاً ـ يوم عسير يسير « فإن مع العسر يسراً » يجعله يسراً ، ولكنما الكافر يستعسره بما تعقبه من نقماته عسراً على عسر ، فهو له ـ إذاً ـ عسير غير يسير .

فمن طبع يوم النقرة الصعقية أنه عسير على المؤمن والكافر سواء ، ولكنه رغم طبعه العسير ، على المؤمن يسير ، وعلى الكافر غير يسير ، لما يخلفه من نقرة الإحياء ، ومن ثم الحساب ، فما أجدر الكافرين أن يسمعوا للبشير النذير ، قبل أن يفاجئهم هذا اليوم العسير العسير .

« ذرني ومن خلقت وحيداً »

تقول الأحاديث أن المندّد به في هذه الآيات هو الوليد بن المغيرة المخزومي ، وكان شيخاً كبيراً مجرباً من دهاة العرب ، وكان من المستهزئين برسول الله (ص) حملته قريش على أن يفكر ويقدر لكي يعارض القرآن بما عارض « إنه سحر يؤثر » . و « وحيداً » هنا يتحمل كونه حالاً من مفعول « ذرني » ومن فاعل « خلقت » وهما الله وحده ، أم من مفعول « خلقت » المحذوف « ه » أو مفعولاً له ثانياً ، فالمعنى على الترتيب :

ذرني أنا وحيداً مع من خلقته ، فالخالق وحده كاف لخلقه أجمع ، في خيرهم وشرهم ، فلا تحاول لمجابهة كيد الوليد الوحيد وغيره ، إلا حول الله وقوته .

ذرني ومن خلقته أنا وحيداً ، لم يشاركني في خلقه غيري ، فلا يكفي شره غيري .

ذرني ومن خلقته حال وحدته ، بلا مال ولا بنين ، ثم جعلت له مالاً ممدوداً وبنين شهوداً ، فأنا المعطي وأنا الآخذ ، فأنا الكافي شره وبأسه .

ذرني ومن خلقته وحيداً عن مُثُل الإنسانية كلها ، وعن الأب أيضاً ، فقد ولد من زنا ولم يعرف له أب ، وكما عن الإمام الصادق ( ع ) « الوحيد ولد الزنا » .

ومن ألطف ما هنا في « وحيداً » أنه على الاخيرين يلمح إلى إسمه المستعار « وحيد قريش » إذ كان يسمى وحيدهم الفريد ، وكما ادعاه هو أيضاً [1] فهذا التلميح عما كان يفتخر به هو وقومه ، بعكس الأمر إلى التقبيح ، أنه الوحيد عن المثل وعن أب يعرف ، لا في الفضائل ، وإن كان وحيداً في المال الممدود والبنين الشهود ، فهو من خلق الله لا منه ، فبماذا يفتخر وفيم يغتر ؟ هل بما جعل الله له من مال وبنين إملاءً وابتلاءً ؟ أم بما تجرد في أصله عن أب يُعرف ، أو في حاله الجرداء عن كل معروف ؟ .

وعلى الاولين يلمح إلى صغره وضعفه وجاه خالقه العظيم ، فـ « ذرني ومن خلقت وحيداً » .

هذه المعاني الأربعة متضامنة ، قد لا تصلح واحدة دون أخرى ، فخلق الوليد وحيداً عن المال والبنين ، خلق يعم كل مخلوق ، وفيما إذا انضم إليه وحدته عن الأب ، فهو صفة ذم ، وبانضمام وحدة الخالق في خلقه ، يصبح الوليد

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٥٧ عن زرارة قال : ذكر لابي جعفر (ع) عن احد بني هشام انه قال في خطبته : انا الوليد الوحيد ، فقال : ويله ! لو علم ما الوحيد ما فخر بها ، فقلنا له وما هو ؟ قال : من لا يعرف له اب .

هزيلا ضعيفاً على ماله الممدود وبنيه الشهود، وبالنظرة إلى وحـــدة الخالق في كفايته بأس الوليد، يرتعش الحسّ من بأس الله ارتعاشة الفـــزع المزلزل، إذ يتصور انطلاق القوة التي لا حدّ لها، ففي هذه الوحــدات الأربع، ينسحق المخلوق أيّاً كانت قدرته وجـبروته، فماذا يصنع إذاً الوحيد الضعيف المسكين الهزيل الضئيل!.

ففيما يخيّل إلى الرسول (ص) أن لكيد الوحيد وأضرابه، تأخيراً للدعـوة وتأثيراً سيئاً على المدعوين، نرى المهيمن الجبار الواحد القهار، كيف يُطمئِنه (ص) ويريحه: أن الوحيد في خلق الوليد هو الوحيد الكافي عنه بأسه، كيف لا! وقد خلق وحيداً عن كل حول وقوة، مما يدل أنه لا يملك لنفسه شيئاً، فما له مع من يملكه ويملك كل شيء!.

وفيما إذا سئلنا عن رابـع المعاني المسبقة، هل إن خلق الإنسان من زنا، هو من الله؟ أو إن تجرده عن المثل الأخلاقية من الله؟.

فالجواب أن الله هو الذي يخلق الجنين، من نكاح كان أو من سفـاح، فولد الزنا من خلق الله كغيره سواء، وليست عملية الزنا أو النكاح إلا من الإنسان، و «خلقت وحيداً»: عن زنا دون أب يعرف، ليس إلا تنديداً بأصله المتخلف عن شريعة الله، وان لم يكن له هو دخل في هـذا الأصل، ولكنه مشى حياته التخلف، واستمر على ولادة الزنا ‹خلقاً›، دون أن يرجـع إلى فطرته، فاستحق الذم بكيانه ككل.

ثم الإنسان ـ أيّاً كان ـ يولد على فطرة سليمة طاهرة، فإذا انطلق منهـا انطلاقة الخير فهو السعيد بما سعى وهـداه الله، وإذا تخلف عنها حجبت فطرته بالشهوات والتخلفات، وتصبح في التردل إلى أسفل سافلين، يرده الله إليه بعد ما خلقه في أحسن تقويم، فكأنما ‹خلق هكذا أجرد، عن المثل العليا بمبادئها، إذ لا ‹يلمس فيه شيء منها ولا ندى، فكأنه ـ إذاً ـ خلق وحيداً عنها «ذرني ومن خلقت وحيداً» طالما كانت الوحدة عن تلكم المثل والتجرد عنها، كل ذلك

بما سعى وغوى ، ولكن الله هو الذي يزيغ القلوب بعد ما زاغت جزاءً وفاقا : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » .

« وجعلت له مالاً ممدوداً . وبنين شهوداً » .

إن المال الممدود والبنين الشهود هما الأساسان الأصيلان في الحياة الدنيا ، وليس الإمداد بهما من الله مسارعة في الخيرات ، فقد يكون املاءً وابتلاءً : « أيحسبون أنما نمدّهم به من مال وبنين . نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون » ( ٢٣ : ٥٥ ) .

والمال الممدود ما يمدّ الانسان في الحياة ويجره إلى بغيته فيها كما يهواه ، وهذا الممدود يقتضي مدّاً زمنياً طول الحياة دون انقطاع ، ومدّاً من حيث المكان ، ولكي يستطيع تجوالاً واسعاً في ماله وكما يروى : «كان ماله ممدوداً ما بين مكة إلى الطائف ، من ضرع وزرع وتجارات وبساتين وأشجار وأنهار ، وكان له بستان لا ينقطع صيف شتاء ، ثم يقتضي مداً فيها بالزيادة دون نقصان ، ولقد كان له كل ذلك ، لكنه لم يمدّه إلا في طغيان بنعمه وبغي وترح « ولا تحسبن الذين كفروا انما نملي لهم خيراً لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين » ( ٣ : ١٧٨ ) .

والبنون الشهود هم الشاهدون مصالح الأب مادياً ومعنوياً ليل نهار ، فالبنون الغيّب عن الأب ، المستقلون في مصالحهم ، ليسوا قوة وأزراً للأب ،وقد يكونون عليه وزراً ، كالشهود في مصالحهم أنفسهم ، والغيّب عن مصالح الأب ، فعدمهم خير من وجودهم ، وغيابهم خير من شهودهم .

فالوليد الوحيد أعطي بنين شهوداً : شهوداً لأمواله استزادة لها دون نقصان وشهوداً لأحواله في الاتراح والأفراح ، وشهوداً له لا عليه ، فيما يتطلب الشهادة ، وشهوداً في تلقيهم عن والدهم ، وأداء له ، يمثلونه كأنهم هو وكأنه هم ، لايفارقهم ولا يفارقونه ، وقد كانوا ــ كما يروى ــ ثلاثة عشر ، أقوياء جبارين عقلاء .

« ومهدت له تمهيداً . ثم يطمع أن أزيد » تمهيداً وحيداً في الحياة وجاه قومه وأقرانه ، وسهلت له سبل الحياة تسهيلاً « ثم يطمع أن أزيد » : تمهيداً له بالمال الممدود والبنين الشهود ، كأنه أعطي ما أعطي استحقاقاً أو دونه، ولذلك يطمع أن أزيد ! .

« كلا انه كان لآياتنا عنيداً . سأرهقه صعوداً » .

« كلا » ليس كما يطمع فلن أزيده شيئاً ، وليس كما يزعم ، فلم يعط استحقاقاً وإنما ابتلاء واستخفافاً : « إنه كان لآياتنا عنيداً » آيات النبوة والوحي من القرآن العظيم ، وآيات الله من ملائكة الوحي والرسل ، وآياته الكونية الدالة على ألوهيته إذ لم يكن ليعتبر بها ، إنه كان عنيداً : كثير العناد والعناد لهذه وتلك، لذلك انتخبته قريش لكي يفكر وينظر في أمر هذه الآيات، فانه كان ضليعاً في اللغة العربية فاختاروه ، محاولة للقضاء على وحي القرآن ، وليخيّل إلى الناس أنه قول البشر وسحر يؤثر ، لذلك حق عليه أن يرهق صعوداً يضطر إلى عذاب صعد ، يغشاه بقهر غليظ العذاب ، في دنياه إذ لم يأت بشيء ضد القرآن ، إلا حكماً ضد العقل « إن هذا إلا سحر يؤثر » ومن شأن السحر الزوال دون البقاء، وفي عقباه صليه سقر، وإنما العذاب الصعود هنا جزاء الكيد الصعود ضد القرآن كما كاد : بما أرهق نفسه بعناء طويل .

فالذي ينحرف عن سبيل الايمان الميسر الودود ، ويقطع حياته ضد الحق في شدة واضطراب وقلق ، فحياته النفسية والفكرية هنا صَعود ، فكذلك هي في الأخرى صعود جزاء وفاقاً .

فإن كانت الأكثرية الساحقة من أصحاب الجحيم إنما يستحقونها بما انجرفوا في تيارات التخلف دون تفكير ، فهذا الوليد الوحيد سوف يصلى النار بما اعتمله بتقدير وتفكير ، فقد حاول أن يعكس أمر الحقيقة بعدما تجلت له من وحي القرآن ، فحق له إذاً عذاب السعير :

**« انه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال ان هذا الا سحر يؤثر . ان هــــذا الا قول البشر » .**

لقد اجتمعت اليه قريش ــ بما عرفوا من عناده لرسول الله (ص) وأنه أعقلهم وأقدرهم على معارضه القرآن ــ فقالوا : يا أبا عبد شمس ، ما هــذا الذي يقول محمد؟ أشعر أم كهانة؟ أم خطب ؟ فقال : دعوني اسمــع كلامه ، فدنا من رسول الله (ص) فقال : يا محمد أنشدني من شعرك ، قال : ما هو شعر ، ولكنه كلام الله الذي ارتضاه لملائكته وأنبيائه ورسله ، فقال : اتل عليّ منــه شيئاً ، فقرأ عليه رسول الله (ص) « حم السجدة » فلما بلغ قوله « فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » اقشعر الوليد وقامت كل شعرة في رأسه ولحيته ومرّ إلى بيته ولم يرجع إلى قريش من ذلك ، فمشوا إلى أبي جهــل فقالوا : يا أبا الحكم إن أبا عبد شمس صبأ إلى دين محمــد ، والله ليصبأن قــريش ، أما ترى لم يرجع إلينا ، فغدا أبو جهل إلى الوليد فقال : يا عم نكست رؤوسنا وفضحتنــا وأشمتّ بنا عدونا وصبوت إلى دين محمد ، فقال : ما صبوت إلى دينــه ولكني سمعت كلاماً صعباً منه تقشعر الجلود، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، إن له لحلاوة وان عليه لطلاوة وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق ، وانه يعــلو وما يعلى ! فقال له أبو جهل : أخطب هو ؟ قال : لا ، إن الخطب كلام متصل وهذا كلام منثور لا يشبه بعضه بعضاً ، قال : أفشعر هـــو ؟ قال : لا،أما إني لقد سمعت أشعار العرب بسيطها ومديدها ، ورملها ورجزها وما هو بشعــر ، وهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط .

ثم قال : تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنــق ؟ وتقولون انه كاهن فهل رأيتموه يحدث بما يتحدث به الكهنة ؟ وتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب ؟ فقالوا في كل ذلك : اللهم لا ، قالوا له فما هو ؟ .

ففكر فقال: ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ...».

إن آخر ما وصل إليه الوليد في تفكيره وتقديره وقياسه القرآن على غيره: أنه سحر لا كسائر السحر، إنما سحر يؤثر، سحر لأنه يفرق بين الأحبة ويؤثر لأن الفراق الناتج عنه لا يزول كسائر السحر، وإنما يؤثر ويبقى. «إنه فكر» في أمر القرآن ليمتبره من كلام الخلق «وقدر» بكافة المقادير التي يمكن أن يقدر ويقاس بها كلام، فلم ير فيه شبهاً من شعر ولا خطب، «فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر» قدّره وقاسه بسائر السحر فما قدر أن يقول: هو سحر، لأن السحر لا يبقى ولا يؤثر، فأثر السحر - أيُّ سحر - دائر يزول بمثله أم بنفسه أم بمعجزة إلهية، ولكن أثر القرآن باق، لا يزداد على طول المكوث إلا إزدهاراً، والسحر لا يوافقه العقل والفطرة والذوق السليم، ويمكن إبطاله بالبراهين العقلية، والقرآن يأخذ بأزمة العقول ويجعل الإنسان مختاراً بين الرد والقبول، لا مختاراً لا حول له ولا قوة، فلا يمكن القول أنه سحر كسائر السحر. ثم «نظر» في الأمرين: أنه سحر؟ لا! أنه معجزة إلهية؟ لا يوافقها هواي، فخلط بين الأمرين فقال «إن هذا إلا سحر يؤثر» ففرّع على دعوى السحر «إن هذا إلا قول البشر»، ولم يفرع على قوله «يؤثر» شيئاً، لأنه يحمله على مصارحة التناقض إذا قال «معجزة» إذ من شأن البقاء والاثر في مثل هذا الكلام ألا يكون من كلام البشر، فخلط حقاً بباطل، ثم استنتج من باطله باطلاً وتغمض عن حقه «ثم عبس وبسر» قطب حاجبيه عابساً، يقبض ملامح وجهه باسراً ليستجمع فكره، وعرف بعد ذلك كله أنه وحي، ولكنه «أدبر واستكبر» وعبر عن رأيه بعد هذا المخاض كله، وهذا الحذق كله، وقال: «إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر».

فهناك تفكير وتقدير ونظر وعبْس وبسْر وإدبار واستكبار، أبواب جهنمية سبع فتحها الوليد ليحرق بنيرانها وحي القرآن، ولكن هذه التقولة الجهنمية

لم تفضح إلا إياه لمن فكر وقدر ونظر حقه دون ادبار واستكبار .

فكر في القرآن الذي سمعه واحتار في أمره واقشعر ، وقدره وقايسه بسائر الكلام من نظم ونثر ، ثم نظر فيا قدر فلم يقدر على شيء يبطل به وحي القرآن حالات ثلاث كلها فكرية قلبية ، فلما لم يجد حيلة عبس في وجهه وبسر ، تدليلا على أنه يواصل في عمق التفكير والتقدير ، وإن كان كذالك ، ولكنه عبس القلب وبسره بعجزه ، ظهر على وجهه وملامحه ، ثم أدبر عما حصل بتفكيره وتقديره ونظره ، واستكبر عن إظهار الحق ، فلم يجد بداً أن يخلطه بالباطل ليستره على الجاهلين وقد ستر .

إن العَبْس هو قُطوب ما بين العينين ، والبَسر الاستعجال بالشيء قبل أوانه ، فقد عبس حيث احتار بين أمرين ١ ـ نصوع وحي القرآن فكيف يكذبه ٢ ـ عناده لنبي القرآن فكيف يصدقه ، ولذلك « بسر » : استعجل في حكمه دون أن يتأمل في مغزاه ، أنه سوف يفضحه ، فآثر عاجل دنياه على آجل عقباه ، واستعجل عذابه النفسي هنا بما أبداه من تناقض « سحر يؤثر » قبل أن يأخذه عذابه الشامل يوم الطامة الكبرى .

«فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر» : إنه قتل نفسه بتقديره مرتين : في الدنيا إذ فضح نفسه بما أنتجه من تناقض : « سحر يؤثر » وفي الآخرة إذ يصلى سقر ، وكل ذلك بما قتل ضميره في حكمه الباطل ، رغم معرفته بحق الوحي القرآني « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً » .

فـ « قتل » هنا وهناك إخبار لا دعاء ، وحاش ربنا عن الدعاء ، فانه ليس إلا لمن يعجز عن الوصول إلى بغيته ، فيدعو غيره ليوصله ، فهل لربنا رب يدعوه ؟ .. وإنما كيفية تقديره بما فكره قبله ونظره بعده ، إنها قتلته وفضحته وعذبته ، بما قتل حينذاك ضميره المدرك ، تأمل .

« فقال ان هذا الا سحر يؤثر . ان هذا الا قول البشر »

فما هو السحر ؟ وما الذي يؤثر ؟

إن السحر هو اصابة السَّحَر : طرف الحلقوم ، ما يؤثر في الإنسان دون اختياره ومن حيث يعمى ، وهو يبطل بسحر مثله أو أقوى ، فأحرى أن يبطل بمعجزة إلهية ،ومن ميزاته أنه يرهب ويأخذ العين على غِرّة : « فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم » ( ٧ : ١١٦ ) وان الله يبطله : « قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله ان الله لا يصلح عمل المفسدين . ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون » ( ١٠ : ٨٢ ) وانه لا يتخطى الخيال إلى العقل « فإذا حبا لهم وعصيّهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى » (٢٠:٦٦) وجماع القول في السحر انه لا يفلح فاعله حيث أتى فلا يبقى : « إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى » ( ٢٠ : ٦٩ ) ومن آثار السحر التفريق بين الأحبة « فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه » ولكنه أيضاً غير مفلح إذ يبطل بسحر مثله أو معجزة ، فلا يؤثر ويبقى ، وآخر ما توصل إليه الوليد في قولته الباردة « إنه سحر » : « ما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه » وهنا استفاد من جهل الجهال بمجرد تشابه التعبيرين : « إن الساحر يفرق . وترون هذا أيضاً يفرق » ويا له من فرق شاسع بين التفريقين ، ما يفرق بما يعمى سببه ولا يبقى ولا يعرف لماذا ؟ وهو السحر وأشباهه من الباطل ، وما يفرق مبصراً بسناد البينات الفطرية والفكرية والعقليـــة ، فإن كان كل مفرق سحراً فليكن العلم والعقل وسائر الكمالات المفرقة بين الناس ، ليكن كل ذلك سحراً ، ولتكن كافة المبادىء والأديان الحقة المفرقة بين المحقين والمبطلين سحراً.

إن القرآن ورسول القرآن يفرقان بين المتحدين في الحيرة والضلال ، ففريق يؤمن وفريق يكفر ، كلٌ على بيّنة مبصرة ، إيمــاناً لبيناته، وكفراً لشهواته ، دون أن يعمى لها المصدر والمورد والدليل ، فهل هذا سحر ؟ كلا ! وكما اضطر الوحيد أن يتبعه بـ « يؤثر » يبقى ، ولكنما السحر لا يبقى !.

فمن الفوارق بين السحر والآيات المعجزة أنها مبصرة بينة لا تخفى على العقول

ومفلحة تأخذ بأزمة القلوب دون زوال، فهل القرآن إذاً سحر ؟ .

«يؤثر» قد تكون «يؤثر» من الإيثار ، أي ـ على كونه سحراً ـ يقدم على غيره ، من السحر ومن الآيات المعجزة ، فلا تتغلب عليها أية محاولة لمعارضته ، إنما « يؤثر » .

وقد تكون من الأثر بمعنى البقاء : سحر يبقى ! فهو بالمعنيين ليس سحراً ، إذ هو يبقى والسحر لا يبقى ، ويقدم على غيره من سحر ومعجزة ، والسحر يبطل بسحر مثله وبالمعجزة ، إذاً فلم ينتج تفكير الوحيد وتدبيره ونظره إلا حكماً متناقضاً في نفسه .

« إن هذا إلا قول البشر » وهذا صحيح إذا كان سحراً ، ولكنه يؤثر ، فكيف يكون قول البشر ، فهل يوجد من قول البشر ما يؤثر ؟ ! .

**« سأصليه سقر . وما ادراك ما سقر . لا تبقي ولا تذر . لواحة للبشر عليها تسعة عشر » .**

فكما أن الوليد الوحيد أصلى ناراً ليحرق بها وحي القرآن ، ما يزعم أنه يجعله بين الحياة والموت ، موتاً بالسحر وحياتاً بأنه يؤثر ، كذلك هو سيصلى سقر ، ناراً لا تبقي ولا تذر .

وبما أن السقر من سقرته الشمس : لوّحته وأذابته ، فهي أصل النار وأشده في الجحيم ، يصلاها : يوقدها ـ أمثال الوليد من الألداء الأشداء ، رؤوس الكفر والضلالة .

« وما أدراك ما سقر » ؟ انك دريت ما هي ، لكنه بالوحي ، فهي من الشدة لحدّ لا مثيل لها يوم الدنيا حتى يقاس بها ، فهذا تهويل بتجهيل سقر ، ثم يفسرها بمفعولها وبعض ملازماتها :

« لا تبقي ولا تذر » : فهي تكنس اهلها كنساً وتحوم حوماً ، فلا يقف لها شيء على حاله ، فلا تبقيهم أحياء ولا تتركهم يموتون : « الذي يصلى النار

الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيى » ( ٨٧ : ١٣ ) حالة وسطى بينهما هي أشد من الموت ، وكما لا تبقي لهم أرواحاً ولا أجساداً إلا أحرقتها ، «نار الله الموقدة . التي تطلع على الأفئدة » ( ١٠٤ : ٧ ) دون النار الدنيا الخاصة بالأجساد ، وكما لا تبقي لهم جلوداً ولا تذر : « كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب» ( ٤ : ٥٦ ) ناراً ساحقة ماحقة فيها أشد العذاب وأبقاه ، ومن آثارها :

« لواحة للبشر » البشر جمع البشرة ، الظاهر من الجلد ، لأي صاحب جلد واختص الانسان باسم البشر بين سائر ذوي البشر ، لظهور جلده دونها ، فانها مستورة بالشعر والوبر : فهي أيضاً بشر في أصل المعنى ، والبشر هنا في وجه عام يعم كل ذي بشرة ممن تلوّحه النار من جن وانسان وحيوان، وإن كان يلمح للبشر الإنسان بوجه خاص ، فالبشر هنا عام لكل بشرة وبشر .

واللواحة مبالغة من « لاح » : ظهر - فهي لواحة : كثيرة الظهور والبروز ، « وبرزت الجحيم لمن يرى » ( ٧٩ : ٣٦ ) ولائحة كاللوحة ، تلوح فيها أعمالهم الشريرة ، فان النار ليست إلا ظهوراً للتخلف عن الهدى والنور بقدره . وتلوّح البشرة أيضاً من « لاحه » العطش ولوّحه اذا غيره ، فهي تسوّد البشرة وتنضجها تغييراً للونها وهيئتها « كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها»فهذه النار هي عذاب مثلث لأهلها ، تثير الفزع في النفوس بنظرها المخيف رؤية لها ، وللاعمال الناتجة هي عنها ، وبأثرها الساحق نضجاً وتسويداً للبشره ، فهل ان لأهلها من خلاص ؟ ولات حين مناص ! فانها تحت الحراس ، بملائكة غلاظ شداد :

« عليها تسعة عشر » تسعة عشر ملكاً ، لا طائفة أو جماعة من الملك ، فان معدود المؤنث هنا غير مؤنث ، فليست امرأة كذلك ، ثم ولا رجلاً ، ولأن النار تحرق الإنس والجن،فليس أصحاب النار منهم بل«وما جعلنا أصحاب النار

إلا ملائكة ، والملك ليس مؤنثاً ، ولا لفظياً ، فليكن هو المعدود لهذا العـدد المؤنث ، دون المؤنثات اللفظية والمعنوية .

وهؤلاء التسعة عشر ملكاً ، ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ( ٦٦ : ٦ ) ويرأسهم واحد منهم « مالك » فانه يملك النار ويحرسها ببقية الزبانية : « ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون » (٤٣ : ٧٧) وهو ومن معه هم الزبانية : « فليدع ناديه . سندع الزبانية » (٩٦:١٨)من الزبن وهو الدفع ، فهم شرط النار الدافعون أهل النار إلى النار ، وهم خزنتها : « وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم » ( ٣٩ : ٧١ ) .

« وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلاَ يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ » .

أصحاب النار هنا من يصحبونها حراسة وحفاظاً لها وزبانية لأهلها ، فليكونوا ممن لا تحرقهم النار ، ولذلك جعلوا ملائكة فإنهم نور والنور لا تحرقها النار .

ثم انهم ، ذواتهم ، وعدتهم العددية القليلة ، والناقصة عن كمال العـدد ، هم

فتنة للكافرين والذين في قلوبهم مرض ، واستيقان وازدياد لإيمان أهل الكتاب والمؤمنين .

إن هذا العدد بالذات ، وكسائر العدد في سائر المواضيع ، مما يثير رغبة الجدال للجاهل المتعنت في قلوب مقلوبة ونفوس مريضة ، لماذا الزبانية تسعة عشر ؟ .

لماذا هذه القلة القليلة ؟ فبإمكاننا نحن الأشداء الأقوياء أن ندفعهم ، وعلى حدّ تعبير قائلهم أبو جهل : « ثكلتكم أمهاتكم اسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة وأنتم الدّهم ،أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من خزنة جهنم » ؟ (١) فهذا الوغد النكد خيل إليه أن التسعة عشر رجال ، وهم ملائكة وعلى قلة عددهم أقوياء عُدداً ! على حدّ قول الرسول الأقدس (ص) : « كأن أعينهم البرق ، وكأن أفواههم الصياصي ، يجرون أشفارهم ، لهم مثل قوة الثقلين ، يقبل أحدهم بالأمة من الناس يسوقهم ، على رقبته جبل ، حتى يرمي بهم في النار ، فيرمي بالجبل عليهم » (٢) .

إنما هنا وهناك العُدد الإلهية تعمل كما يريد الله ، وليست العِدة ذات أهمية ، بل ولا أصل الجنود « وما هي إلا ذكرى للبشر » فالعدد أياً كان إنه فتنة لهؤلاء الأوغاد المناكيد ، تسعة عشر أو عشرين ، أو زد عليها ما شئت ، فان المجادل الجاهل لا يقف لحد في الجدال ، فالعاقل إنما يجادل من يجوز عليه الجهل ، مع علم مسبق له نفسه ، وبرهان قاطع يتنافى والخبر الجديد ، وأما الناكرون للجحيم وزبانيتها ، والنار وحدودها ، فكيف لهم الجدال مع نسّاق الوجود ، العالم بالعدد والمعدود والحد والمحدود ؟ كأن لهم العلم بمجد العدد وهو الجاهل ، أو هم

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٨٤ — اخرج ابن جرير عن ابن عباس قال لما سمع ابو جهل « عليها تسعة عشر » قال :

(٢) المصدر اخرج ابن مردوية عن ابن عباس قال حدثت ان النبي (ص) قال :

القادرون على هذا العدد ؛ القليل في زعمهم ، وهو العاجز عن أن يزيدهم بعَدد أو يقويهم بمُدد !

كلا – إن هذا العدد كسائر الأعداد في سائر المواضيع، يتمكن الجاهل الغبي أن يعترض على أي منها يشاء ، دون برهان على خلافه قائلا : لماذا السماوات سبع ؟ لماذا حمل الجنين بين ستة أشهر وتسعة ، لماذا الصلوات اليومية سبع عشر ركعة ولماذا ؟

والجواب أن خالق الخلق ومدبره يريد ويفعل ما يريد ولا يُسئل عما يفعل وهم يسألون ، « ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السماوات والأرض » .

فلو جعل عدد الزبانية تسعة عشر ألفاً أو مليوناً أو ملياراً أو ما زاد ، لقالوا لماذا لم يجعل عشرين ألفاً أو ما زاد : ولو جعلهم عشرين ألفاً أو ما زاد لقالوا لماذا لم يجعلهم أكثر أو أقل .

ولو لم يجعل للجحيم زبانية لقالوا : إله عاجز بلا جنود ، فهم متعنتون أينما وجهوا ، فالله تعالى إنما يجعل الزبانية تسعة عشر فتنة للضالين ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين ، وإيقاناً لأهل الكتاب بما لهم من خبر مسبق عن هذا العدد في كتبهم وازدياداً لإيمان المؤمنين ، كما يزدادون بغيرها من آيات الله البينات « وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون » ( ٨ : ٢٢ ) فكل مقالة من ربهم يزيدهم إيماناً ، لتفتح قلوبهم وانشراح صدورهم ، ولأن كتب الوحي المسبقة تصدق هذا العدد ، وانه لو لم يكن وحيا من الله لما اختاره محمد (ص) وهو أعقل العقلاء، فهل ليثير الهزء والهُراء من الكافرين والذين في قلوبهم مرض ؟ .. ولأن قلة الزبانية تدل على كثرة القدرة الإلهية ، وما الجنود إلا ذكرى للبشر ، دون حاجة من الله إليها ، وكما تصدقه سائر الجنود من الطير الأبابيل التي رمت أصحاب الفيل ، ومن القمل والجراد والضفادع التي قضت على آل فرعون ، وأمثال هذه وتلك مما لا يحسب لها حساب في كيانها ، وإنما تتغلب بحساب الله

لـكي يدركوا جانباً من القدرة الإلهية ومن ضعفهم وجاهها .

« كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء » : يضل الكافر المعاندبمايهدي به المؤمن الحايد ، دون فرق في الحجة بين الفريقـــين إلا بما يسعى : « يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين » : ضلالاً ثانياً ناتجاً عن ضلال أول : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » ( ٦١ : ٥ ) كما الهداية الثانية ناتجـــة عن هداية أولى وإيمان : « إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » ( ١٨ : ١٣ )

فقد كشف الله لعباده عن طريقي الهدى والضلال ونجديهما كالشمس في رابعة النهار « وهديناه النجدين » فحدد لنا نهوجاً نسلكها فنهتدي بهـا ، وأخرى ننحرف إليها فنضل ونشقى ، اختياراً دون اجبار : « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » « انا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » دون تسيير على الشكر أو الكفران ، إلا أنه تعالى فطر الناس على طلب الهدى ، فمن فسق عن فطرته التي فطره الله عليها ضـل ، ومن تبناها في الحياة ، مستوحياً في استقامتها وحي السماء فقد نجى وزاده الله هدى .

إن الذين في قلوبهم مرض لم يكونوا ليعقلوا أن هذا العدد تعبير عن واقـــع الزبانية ، إذ حسبوه مثـــلا ، ثم اعترضوا عليه كمثل « كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء » من شاء الضلالة وزاغ عن الحق أزاغ الله قلبه وخـــتم عليه ، ضلالة ثانية بالاختيار ، ومن شاء الهداية وتحراها هداه الله ، هداية ثانية بالاختيار « وان الله ليس بظلام للعبيد » .

« وما يعلم جنود ربك إلا هو » فانها غيب كلها في كيانهـا ، وفي عَددهـا وعُددها ، إلا ما كشف الله لنا عنها ، سواء أكانت جنود إنسية أو جنيـة أو ملكية أم سواها من حيوان وسواه ، فلا يعلمها إلا هو ، إلا ما كشف لنا عنها كما كشف عن عدد جنود سقر ، الزبانية التسعة عشر ، عن عددهم دون عُددهم ، فما عرّفناه عرفناه وآمنا ، وما جهلناه سكتنا عنه وآمنا ، كسائر الجنـــود

الربانيين وكما يحدث الرسول (ص) عن بعضهم إذ شاهدهم ليلة المعراج [١] .

« وما هي إلا ذكرى للبشر » فكما الله بائن عنا في ذاته وأفعاله وصفاته ، كذلك في جنوده ، فالجنود لمن سوى الله ناصرة لأصحابها ، بما أن أصحابها قاصرة بدونها ، فكلما كثرت الجنود ازدادت أصحابها قوة وشوكة ، وكلما قلت ضعفت وانهارت ، وتعاكسها جنود الله ، فإن كيانها بعَددها وعُددها ليس نصرة لله ، وإنما ذكرى للبشر بما يأنسها البشر ، فان البشر لا يتذكر في الأكثر إلا بما يباشره حسّه ، فالجنود ذكرى لهم بعذاب ملموس بما تعودوها في حياتهم ، فواقع الجنود بذكراها أدخل في النفوس ، وأرهب للقلوب من قدرة تجردية إلهية غير ملموسة بنفسها .

إذاً فلا التسعة عشر تنبيء عن عجزه تعالى عن تكميلها ، ولا أصل الجنود تنبيء عن حاجته إليها ، وإنما هي بعَددها وعُددها لحكم شتى عرّفنا الله تعالى طرفاً منها وليذكّر أولوا الألباب .

مركز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٨٤ ـ اخرج الطبراني في الاوسط عن ابي سعيد الخدري ان رسول الله (ص) حدثهم عن ليلة الاسراء قال : فصعدت انا وجبريل الى السماء الدنيا فاذا بملك يقال له اسماعيل وهو صاحب سماء الدنيا وبين يديه سبعون الف ملك مع كل ملك منهم جنده مائة الف ـ وتلا هذه الآية « وما يعلم جنود ربك الا هو » .

« كَلَّا وَالْقَمَرِ ٣٢ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ٣٣ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ٣٤
إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ٣٥ نَذِيراً لِلْبَشَرِ ٣٦ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ
يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ٣٧ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ٣٨ إِلَّا أَصْحَابَ
الْيَمِينِ ٣٩ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ٤٠ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ٤١ مَا سَلَكَكُمْ
فِي سَقَرَ ٤٢ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ
الْمِسْكِينَ ٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ
الدِّينِ ٤٦ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ٤٧ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ٤٨
فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ٤٩ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ٥٠
فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ٥١ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفاً
مُنَشَّرَةً ٥٢ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ٥٣ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ٥٤
فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ٥٥ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ هُوَ أَهْلُ
التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ٥٦ » .

* * *

**« كلا والقمر والليل اذا أدبر . والصبح اذا أسفر » .**

« كلا » كلمة ردع وتنديد شديد بما تقدم من أوهام خابطة وأقاويل حابطة،

إن القرآن سحر يؤثر وهو قول البشر ، وإن الزبانية التسعة عشر هراء اسطورية وأن سقر خيال يؤثر عن أساطير الأولين .

« كلا » ليس كما يزعمه الزاعمون ويتقوله القوالون ، « والقمر ... » : ـ

قسماً بالقمر الزاهر في قلب السماء ، بمشاهده وجلواته ، وقسماً بالليل حين يدبر ، إدباراً من ظلامه بالقمر ، وعن كيانه بانصرام ساعاته ، وقسماً بالصبح إذا اسفر عن وجهه بادبار الليل ، « انها لإحدى الكبر » : إن الآيات القرآنية لإحدى الآيات الكبرى الإلهية وكبراها ـ ان سقر لإحدى الآيات المنذرة هنا بذكراها ، وبعد الموت بواقعها ـ إن التسعة عشر لإحدى الطوائف من جنود ربك الكبر !

فكما القمر حينما يظهر يزهر ويخفف عن وطئة الظلام ، ثم يساعده تصرم الليل وانحداره فيدبر الليل تماماً إذ يهاجم بعسكر الشمس والقمر ، القمر في قلبه والشمس تمده حين انحداره ، فإذا الصبح يسفر .

كذلك الأقمار الزاهرة والآيات الباهرة القرآنية ، إنها حقائق نورانية ثابتة تتقدم ، تزيل الظلام عن أجواء القلوب المقلوبة والأفكار المظلمة ، ثم هي في تقدم وانبهار ، كما الظلام في تأخر وانصهار ، يدبر الليلة الظلماء شيئاً فشيئاً ، إلى أن تصل نور القمر بضياء الشمس في الصبح إذا أسفر ، صبح العدالة الإنسانية على ضوء شمس الهداية المهدوية ، إذ تزول كافة الغيوم عن وجه الآيات المنيرة القرآنيه في دولة القائم المهدي عليه السلام فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً.

فكما أن مشاهد القمر والليل إذا أدبر والصبح إذا أسفر ، أنها ظاهرة للبصر كذلك مشاهد الآيات القرآنية ظاهرة للبصائر ، للأفكار الصافية والقلوب الضافية ، تغسل القلوب كما لو كانت تستحم بالنور ، فهي هي بذواتها تشهد لذوي البصائر أنها إلهية وليست سحراً يؤثر ، وإنما معجزة تؤثر وتبقى حتى تشمل العالم كله في الصبح إذا أسفر : صبح الدولة الاسلامية زمن قيام القائم المهدي (ع).

قسماً بهذه الشواهد الكونية ، إن الآيات القرآنية لإحدى الكبر ، هي الوحيدة بين آيات الله الكبرى ؛ فإن الآيات المعجزات لمن سبق من الرسل كانت وقتية بصرية وقد زالت ، على كونها كبيرة في وقتها ومغزاها ، ولكنما القرآن آية خالدة تجري كجري الشمس ، ويشرق على قلوب وأفكار المكلفين ما طلعت الشمس وغربت ، فهو شمس لا تغرب ، بل وتزداد نوراً وبهوراً على مرّ الدهور ، وانها تفك النفوس عن رهانة الأعمال الاغلال التي تسوقها إلى سقر .

« انها لاحدى الكبر . نذيراً للبشر » فالقرآن نذير بشير ، والسقر نذير ، والتسعة عشر نذير للبشر :

«لمن شاءَ منكم أن يتقدم أو يتأخر» فهذه النذارة الإلهية من القرآن ومن سقر وتسعة عشر ، انها للبشر كل البشر ، مخيراً دون مسير : «لمن شاء منكم» اختياراً للتقدم فنعمّا ، أو للتأخر فبئسما : « أن يتقدم أو يتأخر » . « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر» .

لقد هيأ الله دوافع تقدم الإنسان الى المثل العليا بالفطرة التي فطر الناس عليها ، وبالعقول المتصلة واخرى منفصلة هم رجالات الوحي ، فمن شاءَ تقدماً في فطرته وعقله على ضوء السنن الإلهية ، الكونية والتشريعية ، فحسبه القرآن هادياً له وسراجاً منيراً ، ومن تخلف عن ذلك كله وانحاز الى الشهوات والمغريات فهو المتأخر عما هيأ الله له فلا يلومن إلاّ نفسه : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » .

« كل نفس بما كسبت رهينة » ان رهانة النفوس بأعمالها ضابطة عامة تعم المكلفين أجمع ، وإن كانوا مؤمنين بعضاً ، إلا أصحاب اليمين « والذين آمنو واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرىء بما كسب رهين » ( ٥٢ : ٢١ ) رهانة معتدلة قابلة للتخفيف لمن آمن مهما أخطأ وعصى ، ورهانة مؤكدة لغير المؤمن وكما يوحيها « رهينة » فانها ليست هنا للتأنيث ، لاستواء المذكر والمؤنث في الفعيل ، بل للمبالغة ، فمن النفوس رهين ومنها رهينة ومنها غير رهين كأصحاب اليمين ومن فوقهم ، فإن لهم

نفوساً قدسية ، فلا ترهن بأعمالها ، ولا يسأل عنها ، لأنها ما كسبت في إيمانها وأيمانها الا خيراً فأصبحت خيراً في ذواتها ، لا يقدر ثوابها بأعمالها .

والنفس هنا تعني كلا الروح والجسم ، وكذلك ما كسبت ، تعم مكاسبها الروحانية والجسدانية ، وإن كان الجسد لا يعمل إلا على ضوء الروح ، ولكنما الروح قد تكسب مكاسب مجردة بلا وسائط ، كالعقيدة والإيمان والنيّة وأضرابها ، فهي تثاب بها أو تعاقب كما سمعت ، وقد تكسب بواسطة الجسد كسائر الأعمال الجسدانية ، فهي تثاب أو تعاقب بواسطة الجسد ، والمدرك في كلا الحالين هو الروح ، والرهن يعم الكسبين ، ولا سيما أن الكاسب هو الروح في الحالين .

فالنفوس كلها ، إلا أصحاب اليمين والسابقين ، انها رهينة بمكاسبها ، خيرة وشريرة : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً » (٣ : ٣٠) تجد خيرها وشرها سواء ، فتجزى بها على سواء ، إلا أصحاب اليمين وأحرى منهم السابقين المقربين :

« الا أصحاب اليمين . في جنات.. » صحيح أن من أصحاب اليمين من لا يخلو عن سيئات ، ولكنهم متحللون عن رهانتها برجاحة الحسنات : « إن الحسنات يذهبن السيآت » (١١ : ١١٤) فسيئاتهم مكفرة بكبائر الحسنات وبترك كبائر السيآت : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئآتكم وندخلكم مدخلا كريماً » (٤ : ٣١) بل ومنهم من يبدل الله سيآتهم حسنات : « إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً فاولئك يبدل الله سيآتهم حسنات » (٢٥ : ٧٠) .

فهؤلاء سوف لا يرون ولا يجدون سيآتهم يوم العرض في الميزان لأنها كُفرت أو بدلت حسنات ، فلا ترهن نفوسهم بالسيآت ، والحسنات لا ترهن وتقيدنفوس أصحابها ، وانما تحررها عن السؤال ، وعن حدود مقررة لها ، فلهم جزاء بلا حساب وفوق الحساب .

ان التقسيم الثلاثي الذي تحمله آيات عدة ، يجعل المؤمنين غير التائبين ، ومن

لم تكفر سيئاته، يجعلهم في أصحاب الشمال، فليس اصحاب الشمال هنا على سواء، وإنما هم المرهنون بأعمالهم، سواء المخلدون في النار، أو الناجون عنها بعد أمد قريب ام بعيد: «فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة. وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة. والسابقون السابقون أولئك المقربون. في جنات النعيم. ثلة من الأولين. وقليل من الآخرين» (٥٦: ١٤) «فأما إن كان من المقربين. فروح وريحان وجنة نعيم. وأما إن كان من أصحاب اليمين. فسلام لك من من أصحاب اليمين. وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم. وتصلية جحيم» (٥٦: ٩٣) فالفريق الأخير من أضل أصحاب الشمال ولا يشملهم كلهم فان منهم: «آخرون خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يعفو عنهم» (٩: ١٠٢) وإذا رجحت سيآتهم أم لم تكفر بحسناتهم فسبيلهم الأخيرة هي النجاة من النار.

ثم أصحاب اليمين. وأحرى منهم السابقون المقربون. هم ليسوا رهائن مكاسبهم، فهم - ولا سيما الآخرون - ليسوا من المحضرين للحساب، فانهم فوق الحساب: «فانهم محضرون. إلا عباد الله المخلصين» (٣٧: ١٢٨) فقد استقروا في مستقر العبودية فبماذا يحاسبون؟ وأصحاب اليمين منهم كفّرت سيآتهم بحسناتهم أو بدّلت حسنات، فعلى مَ يحاسبون؟:

**«إلا أصحاب اليمين. في جنات يتساءلون. عن المجرمين. ما سلككم في سقر».**

«يتساءلون» جميعاً «عن المجرمين» تساؤل صاحب الشأن المفوض في الموقف، سؤال تبكيت وتجهيل وتخجيل، وليسمع الجواب من في الموقف، ويتذكره هنا من يقرء القرآن ويسمعه.

«عن المجرمين» وهم من المرهونين بما كسبوا، فالإجرام قطع الثمرة عن الشجرة، فهم الذين قطعوا ثمرات الحياة ولم ينتفعوا منها، قطعاً بعد ايناعها كمن آمن ثم كفر، أو قطعاً عن نموها وإيناعها كالذين تخلفوا عن هداية الفطرة

والشريعة، فاذا قطع الانسان عن نفسه : عن شجرته الانسانية ــ ثمرات حياتها، فقطع نفسه عن الصلة المعرفية بالله، فهذا مقطوع عن الخير كله وكان مصيره سقر:

**«ما سلككم في سقر» ما أنفذكم في سقر فلم تنجوا عنها بتوبة ولا شفاعة، ولم تكفر عنكم سيآتكم فأنفذتكم في سقر؟**

هنا نجد الجواب شرحاً لمدى الإجرام السالك صاحبه في سقر :

**«قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين . وكنا نخوض مع الخائضين . وكنا نكذب بيوم الدين . حتى أتانا اليقين» :**

هذه هي جماع الأسباب لسلوك سقر لجماع المجرمين، مهما اختلفوا في جمعها كما في أتعس المجرمين، أو بعضها، واحدة أو أكثر، فان الجواب للجميع وليسوا على نسق واحد في الإجرام، فالمجرمون دركات، كما أن أصحاب اليمين درجات والسؤال لأصحاب اليمين أجمع عن المجرمين أجمع، فليس العطف هنا بين الأربع يوحي لاشتراط الجمع بينها في سلوك سقر:

«قالوا لم نك من المصلين» فالصلاة — في نظرة عميقة — هي الإيمان كله، فالخارج عن زمرة المصلين خارج عن زمرة المؤمنين، مهما كان مقراً بالشهادتين، ولذلك نجدها مع إيتاء الزكاة من شروط قبول توبة المشركين : «فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم» (٩ : ٥) «... فاخوانكم في الدين» (٩ : ١١) فالخروج عن الشرك والكفر، والدخول في الأخوة الدينية هما مربوطان بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة .

«ولم نك نطعم المسكين» : من زكاة أو صدقات أخرى : ضرائب مستقيمة وسواها، فالزكاة، في العلاقات البشرية اسلامياً، هي أخ الصلاة في العلاقات العبودية، قد لا يعتبر تاركها مسلماً : «فويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون» (٤١ : ٧) .

صحيح أن إقام الصلاة وإيتاء الزكاة هما من فروع الدين، ولكنهما كالأصول،

لأنها أول ما يبرز وأبرزه ممن يعتنق الاسلام ، فليحكم على تاركها بالكفر واقعياً وإن كان مسلماً عقائدياً .

إن الزكاة هي عبادة الله في خلقه بعد عبادته في ذاته ، فتركها مع ترك الصلاة ترك لعبادة الله من جهتين ، وهو يدفع بالانسان - لا محالة - إلى نكران أصول الدين ، بالخوض مع الخائضين المستهزئين برب العالمين ورسله ، والتكذيب بيوم الدين :

«وكنا نخوض مع الخائضين» : الخوض لغوياً هو الشروع في الماء والمرور فيه واستعير للفور في الباطل ، تصدياً له ونكرانا للحق ، وهذه هي حالة الاستهتار بأمر العقيدة وأخذها مأخذ الهزل واللعبة دون مبالاة .

فمن الخائضين من يخوض قصداً وعناداً وعناداً على الحق وهم أصول الضلالة ، الذين يعيشونها حياتهم ، ويضلون من سواهم : «وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزء بهافلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره انكم إذاً مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً» (٤ : ١٤) فالذين يخوضون مع الخائضين هم هوامش الضلالة، وحالهم كالأصول ومصيرهم إلى جهنم جميعاً ، فالخائض في آيات الله هنا يخوضها كفراً واستهزاء ولعباً بها ، بدل أن يغورها تعمقاً وتأنقاً وتدبراً : «فويل للمكذبين الذينهم فيخوض يلعبون» (٥٢ : ١٢) «فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون» (٧٠ : ٤٢) ، فمنع الخائضين في آيات الله فرض ، والقعود معهم سكوتاً دون نكير حرام ، ومسايرتهم والتأثر بفعلتهم كفر : «وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين» (٧ : ٦٨) .

«وكنا نكذب بيوم الدين» وهو من نتائج الخوض ، وهو من أخطر الإستهتار ، إذ يحرر أصحابه من عبء التكاليف الإلهية ، وهو مبدء الإباحية المطلقة فهو من أشر وأخطر الكفر ، مهما اعتنق صاحبه عقيدة الإله فانه أمّ

البلاء ، إذ تختل جميع الموازين في يدى صاحبه ، وتضطرب كافة القيم والمثل في تقديره لجاله القصير الصغير إذ لا يدين بيوم الدين ، فتفسد مقائيسه ليوم الدنيا والدين ، خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين .

فهم لا يزالون شاكين في الدين ويوم الدين، يعيشون الشك والنكران والحياة المنكرة والمعيشة الضنك حتى الموت الذي ينقلهم من الشك إلى اليقين :

« حتى أتانا اليقين » : الموت الذي لا محيد عنه وهـو يقين للمؤمن والكافر سواء ، والذي يقطع كل شك وريبة فيجعل الكافر الناكر للدين ويوم الدين على يقين ، والذي يقطع الآمال الكاذبة والشكوك الحائلة دون التصديق بما في يوم الدين ، فاليقين هنا يعم علم اليقين وعين اليقين الحاصلين بالموت ، وواقع اليقين بالموت قبل الموت ، فطوبى لمن مات قبل موته : « موتوا قبل أن تموتوا » فحصل على اليقين الدافع إلى الصالحات قبل الموت ، قبل أن يضطر إلى اليقين بواقعه بعد الموت ، فيسمع نداء التنديد التجهيل : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » .

فليس اليقين هو الموت ، وإنما يحصل بالموت لمن لم يحصله قبل الموت ، والموت نفسه أيضاً من مصاديق اليقين إذ لا ينكره نفسه أحداً ، وإنما النكران لما بعده من حياة برزخية وحياة خالدة بحساب وجزاء وفاق .

ومما يحصّل اليقين ويزداده ، مواصلة العبادة : « واعبـد ربك حتى يأتيك اليقين » (١٥ : ٩٩) ونهاية المطاف لليقين الحاصل والمتكامل بالعبـادة ، هي الموت ، فليس الموت هنا أيضاً هو اليقين ، وإنما هو نهاية اليقين بالعبادة ، ومن ثم بداية اليقين دون عبادة إذ يكشف الغطاء فيزداد الموقف يقيناً ويدخـل العابد في نفس اليقين .

ومن كانت تلك النكرانات سيرته العقلية والعقائدية والعملية في الحياة، لا تصله شفاعة الشافعين ولا تجديه ، إذ إن الشفاعة مبدئياً تكميل الناقص بشفع الكامل إن اذن الله ، فهي للمتوسطين في الإيمان عقيدة وعملاً ، لا المتحللين عنه كهؤلاء المذكورين:

« فما تنفعهم شفاعة الشافعين » : فطالمـــا هناك شافعون ، ولكنهم « لا يشفعون إلا لمن ارتضى » ه ـ الله : من ساءته سيئته وحسنته حسنته ، من يعيش بين الخوف والرجاء ، فحياته مبدئياً ايمانية ، طالما يقصُر أو يقصّر احياناً ، دون من يبدءون بمبدء اللاايمان ، وينتهون الى الموت مجرمـــين : تاركين الصلاة مع التاركين ، وتاركين إطعام المسكين، وخائضين في النكران مع الخائضين ، مكذبين بيوم الدين .

« فما لهم عن التذكرة معرضين » : ؟ ! ما لهم ؟ ما داءُهم وما دواءهم ، في حالتهم البئيسة التعيسة ، انهم فقط[1] « عن التذكرة معرضين » : عما يذكرهم الله ونعم الله وأيام الله ، من نبي الله وكتاب الله وسائر آيات الله التي هي ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، فهم حالهم : « عن التذكرة معرضين » والى سواها : التلهية عن الذكرى ـ مقبلين ، فقلوبهم منكوسة ، وابصارهم مطموسة ، وحياتهم مركوسة ، اجسادهم اجساد الآدميين وارواحهم ارواح الحمر المستنفرة الشياطين :

« كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة »

فالحمر المستنفرة هي حمر الوحش ، التي هي طبعها الوحشة والإستنفار من كل متحرك او ساكن ، فكيف بقسورة : من أسد او صائد ، تأخـذ في الإستنفار في كل اتجاه حين تسمع زئير الأسد او حين تراه وان لم يأسد ، تنبثّ هنا وهناك كالفراش المبثوث ، ما يثير الضحك ويفكه من هذه الحركة الجنونية ، وكما تستنفر حين يرصدها الصائد .

---

(١) فتقديم الظرف « عن التذكرة » يوحي بحصر المظروف « معرضين » فيه، فلا يعرضون الا عن التذكرة الإلهية .

فمشهد هؤلاء الحمر الإنسية في الاستنفار مشهد الحمر الوحشية واضل سبيلا، اذ يعرضون عن الصائد التذكرة ، الذي يحاول صيدهم عن حياة التباب إلى حياة الصواب ، فالنبي صياد يرصد الضالين ليصيدهم بالتذكرة .

ولماذا يعرضون مستنفرين عن قسورة الوحي ، الأسد الضرغام الذي يأسد في صيده ، لا ليأكل صيده ، وانما لينجيه ، فالأنبياء قساورة صيادون ، يصيدون البهم الضلال بقوة الذكرى والبرهان ، بكل مناعة وأمان .

فإذا الحمر المستنفرة ، تفر من قسورة ، خوف الصيد الفاتك والإفتراس المهلك ، فهي لا تلام في استنفارها ، وان كانت زائدة النفرة عن حدها ، فهؤلاء الحمر الإنسية يفرون معرضين عن قسورة التذكرة ، الناصحة ، التي تذكرهم بربهم ومصيرهم ، فأين حمر من حمر ، وأين قسورة من قسورة ؟ ؟

« بل يريد كل امرىء منهم ان يوتى صحفاً منشرة »

« بل » : ام — ذلك الشماس والنفار عن تذكرة محمد الرسول وقرآنه — ليس فراراً عن التذكره كتذكرة ، وإنما استكباراً على حامل التذكرة ، انه بشر مثلنا ، فلماذا يفضل علينـــا بوحي التذكرة : « ان انتم إلا بشر مثلنا .. » فليوح إلى كلٍّ منّا : « لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله اعلم حيث يجعل رسالته » ( ٦ : ١٢٤ ) .

فمن استكبـــارهم « يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفاً » من الوحي تختصُّه « منشرة » معلنة لهم ولمن سواهم : رسالات مستقــلة فردية مستقلة ، فيها ما يهوون، طبعاً وشرائع متفاوتة متهافتة تفاوت الأهواء وتهافت الآراء .

فلو ان كلاً يحوى ما يحويه الكل لوحدة الشرعة في الكل كما القرآن ، فلا كثرة هنا كما ليست هناك، فليكتب كلٌّ نسخةً من القرآن ككتاب اليه ، ولكنهم لا يريدون وحدة الرسالة والشريعة .

ولو أن كلاً يناحر الآخر في محتواه ، فليست هكذا الشرعة الإلهية ، ولأمة واحدة ، وبل وللأمم أجمع ، حيث الدين واحد، والشرايع الى الدين في جذورها واحدة ، مهما اختلفت في بعض الصور وفي البعض من الصور .

فالشرعة الإلهية تعني توحيد الحيــاة بسلوكها إلى مرضاة الله وصالح الناس ، حيث تزيل خلافات الناس ، لا لتزيد خلافات على خلافات ، ظلمات بعضها فوق بعض وكما يريدها هؤلاء الناس !

وليكن حاملو الشريعة من أصفى الأصفياء بين الناس ، وليتلقوا، ويبلغوا شريعة الله إلى الناس ، ويطبقوها كما يريده إله النـــاس ، فكيف يتحمل شريعةَ الله كرسل ، أناسٌ هم أشر من نسناس ، يستكبرون على رسل الله ، ويتحكون على رسالات الله، ويقتسمون فيما بينهم رسالة الله، كأنها مال يغنم.

« كلا بل لا يخافون الآخرة » .. كلا : ليس الأمر كهذه وتلك وإن تفوهوا بها وادعوها ، فلا فرارهم عن التذكرة لخوفهم عنها، ولا ان كل امرىء منهم يريد ان يوتى صحفاً منشرة ، حتى يعمّروا على ضوءها الحياة الدنيا والآخرة : « كلا بل لا يخافون الآخرة » هذا داءهم وبلاءُهم مهما تلونوا وجاه الرسالات بالوان الإعتذارات ، فالذي لا يخـــاف الآخرة إذ لا يؤمن بالله ، انه لا يريد خطاب الله وشرعة الله كيفما كانت وحيثما نزلت .

« كلا انه تذكرة ».. كلا : ليس كما تهوون ، كردع ثان لما يهوون : أن يوتى كل امرىء منهم صحفاً منشرة ، فالقرآن تذكرة وليست لعبة مقسمة بين اللاعبين ، تذكرة جماعية يحملها اول العابدين ، وليست فردية انقسامية يحملهـــا الفوضى ناس ونسناس ، ليزيدوا في خلافـــاتهم ورعوناتهم وفخفخاتهم .

تذكرة تمشي مع المتذكرين باختيار ، ولا تمشّيهم بتسيير واضطرار :

« فمن شاء ذكره » : من شاء التذكرة ذكره : القرآن ونبي القرآن . فمن يذكر التذكرة دون ان ينفر عنها كالحمر المستنفرة ، فانها له تذكره وتهديه الى الله .

وترى انهم يذكرون تذكرة الله دون مشيئة الله، وبمشيئتهم أنفسهم فحسب، كما قد يوحي به « فمن شاء ذكره » أم انه فقط بمشيئة الله ؟ :

« وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة » :

فهنا مشيئتان ، من الناس أن يذكروا ذكرى الله ، ومن الله أن يؤيـدهم في ذكراهم ، فـ « لا جبر ولا تفويض بل أمرٌ بين أمرين » دون تدافع أو صدام بين أمرين : مشيئة الله ومشيئة الناس ، وإنما تـلاؤم ووئام ، ولكنما المشيئات كلها مشدودة الى مشيئة الله ، يمضي في اتجاهها وفي داخـل مجالها ، وكما يناسب عدله وفضله ، دونما تسيير واجبار ، وإنما في يسر واختيار ، اللهم إلا فيما لا يعاقب عليه أو يثاب ، مما هو خارج اطلاقاً عن نطاق الاختيار .

كما ولا يشاء الله الذكرى إذا لا يشاؤون ، لا أنهم لا يشاؤون ويشاء الله فهم يَغلبون ـ إذاً ـ مشيئة الله !

فمن يعلم الله منه انه يشاء ان يذكر ذكر الله ، فهو يذكره بمشيئة الله ، فان الله يسبقنا في حسناتنا ، ومن يعلم انه لا يشاء فـــلا يشاء الله ذكراه ، ويذره في غيه يمرح ، وفي طغيانه يعمه ، فإننا سابقون الله في سيئاتنا ، وهو سابق في حسناتنا إذ يشاء حسناتنا فيؤيدنا، ولا يشاء سيئاتنا حتى يدفعنا لها .

فهنالك الأصل مشيئة الله تحوّل مشيئة الصالحات الى تأكدها فواقعها ، ثم لا تحوّل مشيئة السيئات لشيء منها إلا تركاً وإعراضاً ، طالما السيئة أيضاً لا تتحقق أخيراً إلا بمشيئة الله ، ولكنها مشيئة أخيرة ضرورية للواقع ، لولاها لم تحصل أية سيئة ، لوحدة الالوهية ، ولكنما المشيئة للحسنات تصاحب

أصحابها على طول الخط ، وللبحث الفصل عنها مواضيع أخرى نأتي عليها في طيات آياتها .

« هو أهل التقوى وأهل المغفرة » : فاذا اتقي يغفر كما اتقي ، « يقول الله : أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معي شريك ، فاذا اتُّقيت ولم يُجعل معي شريك فأنا أهل أن أغفر ما سوى ذلك »[1] وطبعاً لمن يشاء دون فوضى : « ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .

فليُتقَى الله في ألوهيته فلا تنكر ، وفي وحدته فلا يؤخذ له شريك ، وفي طاعته فلا يُعصى ، ثم ولكل تقوىً مغفرة عن كل طغوى قد تخالطها ، وتوحيد الله هو الأم في درجات التقوى ، كما الشرك هو الأم في دركات الطغوى ، ثم بعدهما درجات ودركات .

فمن يذكر ذكر الله ، فانه في سبيل تقوى الله ، ومهما يكن قاصراً أو مقصراً في تحقيق ذكر الله وذكراه ، تفهماً وتطبيقاً ، فان الله كما هو أهل التقوى ، كذلك هو أهل المغفرة ، يغفر للمتقين ، فيغفر قصورهم وتقصيرهم ما داموا هم على الطريقة ، أهلية المغفرة تلو أهلية التقوى ، جزاءً وفاقاً وعطاءً حساباً .

(١) الدر المنثور .

## سورة القيامة ــ مكية ــ وآياتها اربعون

* * *

« بِسْمِ اللهِ الرَّحمانِ الرَّحيمِ . لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ١ وَلَا
أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ٢ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ٣
بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ٤ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ
أَمَامَهُ ٥ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ٦ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ٧ وَخَسَفَ
الْقَمَرُ ٨ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ٩ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ
الْمَفَرُّ ١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ١٢ يُنَبَّؤُا
الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ١٣ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ
بَصِيرَةٌ ١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ١٥ » .

« لا اقسم بيوم القيامة . ولا اقسم بالنفس اللوامة » :

إنه تصريحة باللّا قسم وتلويحة بالقسم كسائر اللّا قسم في القرآن[1] ان يوم القيامة والنفس اللوامة يصلحان أن يقسم بهما للصالحين المؤمنين بالقيامة ،

(١) راجع ص ١٥٩ من الجزء الثلاثين : « فلا اقسم بالخنس » .

الحاملين النفس اللوامة، فهما يدلان أصحابها الى إمكانية وضرورة جمع العظام وتسوية البنان ليوم الحساب .

فلا معنى للقيامة الحقة ، حسب الأدلة الواقعية والعقلية ونصوص الوحي، إلا قيام الأجساد من الأجداث وعود الأرواح اليها للحساب والجزاء الوفاق ، وقيام الأشهاد وقيام الناس لرب العالمين ، فالقيامة المجردة عن حشر الأجساد قيامة جرداء عن أهم معانيها ومغازيها .

وناكروا حشر الأجساد والحساب لا يصدقون بقيامة الحساب حتى يقسم لهم بها تصديقاً إلزامياً، وان كانوا يلهجون بها تعنتاً « يسأل أيان يوم القيامة » لكنها كلمة جوفاء عن أهم معانيها : « جمع العظام والحياة الحساب » ، إذاً فـ « لا أقسم بيوم القيامة » لمن ينكر حقه منها لهج بلفظه .

والنفس اللوامة ــ كذلك ــ كيوم القيــامة ، تشهد للحياة الحساب ، فالنفوس على ضروب شتى : منهــا قدسية مطمئنة بالله ، راضية عن الله ، مرضية عند الله ، فهي لا تلوّم أصحابها إذ لا تقصّر عامدة معاندة ، مهما قصرت عما يحق لساحة الربوبية ، فقد تلوم لقصورها دون تلوّم، فهي دائبة في طاعة الله ، مستزيدة لمرضاة الله كالسابقين والرعيــل الاعلى من اصحاب اليمين ، وهؤلاء حياتهم الذكر ، ليسوا بحاجة الى القسم بيوم القيامة والنفس اللوامة ، فانها لهم مطمئنة .

ومنها بهيمية مطمئنة الى دركات الهوى ، معرضة عن الهدى : « ورضوا بالحياة الدنيا واطمئنوا بها » (١٠ : ٧) وقد تبلغ من الشراسة والشماس لحدّ تلوّم أنفسها وسواها لو فعلت خيراً أو اهتمت بخير ، فهؤلاء لا ينفعهم القسم بالنفس اللوّامة إذ فقدوها إلى خلافها .

ومنها لوّامة غير مطمئنة لا الى الله ولا الى اللهو ، عوان بين ذلك ، قد تطيع ربها فتطمئن ، وقد تعصي وتشرد فتلوّم نفسها ، فهي الى خير ما دامت لوّامة تندم وتندّم أصحابها ، تلوّم العقل لو ارتاب في الحساب العدل، وتلوّم نفسها في جوارحها لو عصت أمر ربها ، فهي ضابطة لعقيدة الايمان ،

رابطة به عمل الايمان، ولذلك يحق ان يقسم بها كبرهان على قيام الأجساد يوم الحساب المجزاء العدل.

فليُقسم بيوم القيامة لمن يعتقده ما لم يصل الى علم اليقين وما فوقه، وليُقسم بالنفس اللوّامة لمن يحملها حتى تذكره وتحمله الى ذكرى جمع العظام وتسوية البنان.

وأما الناكر ليوم القيامة الحقة، والفاقد للنفس اللوّامة، الضاربة الى اعماق ذاته النفس الامارة بالسوء، فكيف يقسم له بيوم القيامة والنفس اللوامة؟ وقد ظل مرتكساً في الشهوات وغارقاً في اللذات.

وإذا كان اللاّقسم هنا يعنى به القسم خلاف الصحيح والفصيح، فأين جواب القسم؟ لا نجد جواباً إلا أنه لا قسمٌ يلح بالقسم، ويا له جمعاً ما ألطفه!.

هنا ـ لإثبات حشر الأجساد وقيامها من الأجداث يكتفى بسؤال لانح الجواب عند فاقدي الدليلين، ما لم يفقدوا التمييز تماماً:

«أيحسب الانسان ان لن نجمع عظامه»: أفهذا الإنسان الهزيل الذليل يُحيل لنا جمع العظام: «لن نجمع» إحالة التجهيل: أنها ضلت في الارض فكيف تجمع: «وقالوا: أإذا ضللنافي الأرض إنّا لفي خلق جديد» (٣٢:١٠) أم إحالة التعجيز: «وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم» (٣٦ : ٧٨) أم لا ذا ولا ذاك وانما يفتري علينا الظلم، أننا لا نحشر شيئاً رغم الظلامات القاتلة يوم الدنيا، غير المجازى عليها فيها! أم نحشر الارواح دون الاجساد، رغم انهما كانا شريكي الأعمال خيرة وشريرة، فكيف تحرم الأجساد من ملاذها، أو تعفى عن عذابها؟ كل ذلك خيالات شرسة وليست محالات.

«بلى قادرين على ان نسوي بنانه»: نرى عشرات الآيات يتمسك فيها بشأن إثبات امكانية حشر الأجساد ببرهان الأولوية: من عدة جهات، كأولوية

الإعادة من الخلق أول مرة ، بأنها أهون ، وان كان الكل عند الله هيناً ، وهنا بأولوية جمع العظام من تسوية البنان وهو مسوّيها أولاً وأخيراً ، فهؤلاء المشركون في عبادة الله ، المختصون الخلقَ بالله ، عليهم أن يصدقوا بإمكانية حشر الأجساد وهو خلقُها ثانياً ، بعد إذ هم مصدقون بخلقها أولاً : « أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد » (٥٠ : ١٥) ، وعليهم تصديق جمع العظام بعد ما يرون من تسوية البنان وهي أدق الخلق وأرقُّه في الانسان ، وهي كناية عن إعادة التكوين الانساني بأدق ما فيه دون عزوب عنه من شيء : « قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ... » : توفياً عند الموت لكلا الجسم والروح وإيفاءً لهما بأمر الله عند الحشر .

« نسوي بنانه » فالبنان هي الأصابع من البَنّ : الإقامة ، فان بها صلاح الأحوال التي تمكّن الانسان أن يبنّ بها ويقيم حياته ، « بلى » نجمع عظامه حال أننا « قادرين على أن نسوي بنانه » أيضاً ، فإن بها معظم أفعال الانسان، وهي آخر وأدق ما يخلق من عظام الانسان ، وهي من أصغرها وأكثرها نسبياً بين العظام [1] ومن أهم ما في البنان ، الذي كشف عنه العلم ، خطوط رئوس البنان التي يستفاد منها كأضبط التواقيع التي لا تشتبه ببعض ، ويستحيل فيها الاحتيال والتزوير ، وهي من أهم ما يكشف بها الجرائم ، فقد يعرف الجاني بالآثار الباقية على يديه في عملية الجناية ، يعرف بسلاحه الذي استعمله وإن لم يكن فيه أثر الدم ، وإنما المسكة يبين فيها بالعيون المسلحة ، فللبنان بالغ الأهمية في الكشف عن أصحابها ، ولأن الخطوط المهندسة في كل يد تختلف عن سائر الأيدي ، فمها

(١) فان عظام اصابع اليدين ٥٨ ، وللرجلين ثمانية وعشرون المجموع ٨٦ عظاما دقيقة وضعت لمنافع اولاها ما تمت تلك المنافع كالقبض والبسط واستعمال اليدين في الجذب والدفع ، وهي بين عظام الانسان(٢٤٨) تصبح ثلث العظام كلها ، على ان الاصابع العشرين ليست الا زهاء ١/٥٠ من الانسان.

تشابه الأشخاص واشتبه بعضهم ببعض، لا يوجد تشابه بين البنان في هندستها بخطوطها.

فالقادر على تسوية البنان قادر بأحرى على جمع سائر العظام لمهمة الحشر للحساب والجزاء العدل، وكافة البراهين الواقعية والفطرية والعقلية والتحولات الكونية، كلها مسرودة لإثبات إمكانية وضرورة حشر الأجساد، فلا يستطيع الانسان ـ أياً كان ـ أن يثبت على حسبان: «أن لن نجمع عظامه»:

**«بل يريد الانسان ليفجر أمامه. يسأل أيان يوم القيامة»**

الفجر هو الشق الواسع، والانسان يريد بنكرانه يوم القيامة ـ غير المسنود إلى برهان ـ ليشق أمامه من الزمان ليرى «ايان يوم القيامة» خرقاً لستر الساعة التي لا يجليها لوقتها إلا الله، وإذ لا يجد جواباً عن هذا السؤال، يتذرع إلى نكران الحساب، وهل ياترى أية صلة بين عرفان وقت الحساب وواقع الحساب حتى إذا جهل الوقت أنكر الأصل؟.

وإنه يريد ليفجر أمامه من زمن الساعة، ليتوسع في فجوره أمامه إلى الساعة لا يصده شبح الحشر الحساب، فخوف الحساب لجام عن الفجور ومصدٌّ له، وهو يحاول إزالة هذا الصد ليتحرر ويمضي قدماً في الفجور أمامه بلا حساب، إذ لا يحسب له أي حساب.

يتذرع بسؤاله المتعنت: «ايان يوم القيامة» ليخلق ثالوث الفجر والفجور، الموحد في نكران الساعة، من فجر الزمن بينه وبين الساعة ليعرف متى هي الساعة، فإذ لا جواب فلا ساعة! ومن فجور مستمر بينه وبين ساعته إذ يحسب أن لا حساب، ومن فجور ونكران بنفس الساعة، ثالوث الفجر المندفع من الفجور والدافع اليه، والأصل واحد هو التحرر في الفجور، أقانيم ثلاثة تتناصر في تحكيم صرح الفجور.

فليس السؤال «ايان يوم القيامة» سؤال تفهم، وإنما يجرس بـ «ايان»

مديداً لاستبعاده يوم القيامة ، أحياناً بسناد استحالة جمع العظام ، وأخرى أن لا جواب لسئواله « ايان » فليفجر حياته كل ستر وناموس إذ لا حساب !

وانهم لا برهان لهم على نكران الحساب أو المرية فيه إلا ثورة الشهوة ، فليفجروا ويشقوا واسعاً كل ما يسدها ويصد عنها .

ومهما كان لسئوال « لن نجمع عظامه » جواب الأولوية : « بلى قادرين على أن نسوي بنانه » فليس لسئوال « ايان يوم القيامة » إلا عرض مشهد من مشاهد القيامة تشترك فيه المشاعر الإنسانية والمشاهد الكونية ، فسوف يرون أنفسهم في نفس الجواب ، وأما هنا فلا جواب عن زمن الحساب إلا أن الله عنده علم الساعة :

« فاذا برق البصر . وخسف القمر . وجمع الشمس والقمر . يقول الانسان يومئذ اين المفر »

كجواب سريع خاطف حاسم دون تريُّث وحتى في موسيقا اللفظ ، إيحاء أنه لا جواب عن زمن القيامة إلا عرضاً لمشهده .

وبرقُ البصر اضطرابه وتجوُّله من خوف وتخطُّفه وتقلُّبه ،سواء بصر القلب أو القالب : « يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار » (٢٤ : ٣٧) وشخوصه من وطأة الطامة : « فاذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا » (٢١ : ٩٧) برقاً يبرز في البصر ويضرب إلى أعماق ذات البشر : « مهطعين مقنعي رئوسهم لا يرتد اليهم طرفهم وأفئدتهم هواء » (١٤ : ٤٣) برقاً في قيامة الإماتة والتدمير إذ ترجف الراجفة ، ثم برقاً في قيامة الإحياء والتعمير ، إذ تتبعها الرادفة : « إذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر » (٣٣ : ١٠) .

« وخسف القمر » خسوفاً بنوره وخسفاً بكيانه ، ومن أسباب خسفه أن تدركه الشمس وتقضي عليه حين تكويرها :

« وجمع الشمس والقمر » : جمع كلٌ في نفسه ، وجمعت الشمس إلى القمر

لتحيط به بعد الفراق المديد [١] ، فلم تكن الشمس ما دامت شمساً لتدرك القمر ولا القمر ما دام قمراً ليدركَ : « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون » (٣٦ : ٤٠) ولكنها إذا قامت القيامة يخرجان مِن لا ينبغي إلى ينبغي ويجب ، فاذ يخسف القمر خسوفاً في نورِه ، تدركه الشمس لانهاء كيانه وخسفه ، فمن معاني كور الشمس جمعها إلى القمر لتجمعه عن قمريته ، كما جمعت هي عن كونها شمساً ، فجمع الشمس هنا يشير إلى تكويرها في نفسها وكورها إلى القمر وعلى القمر [٢] وحقيق لهذا الخسف والجمع أن يبرق البصر ويذهل البشر ، فمن معاني برق البصر أن ينظر إلى برق :

« يقول الإنسان يومئذ أين المفر » فمهما اختلق الإنسان هنا لنفسه مفراً عن الحساب وتكاليف يوم الحساب ، فما يصنع يومئذ وهو في واقع الحساب يوم الحساب ، إلا أن يقول متحسراً متحيراً « أين المفر » ؟ متساءلاً نفسه وأهل الحشر ، بكل فزع وارتياع - إذ لا يجد مفراً من قهر الله ونكاله - أين المفر الذي كنا نحسبه : « أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه .. ايان يوم القيامة » فهذا هو يوم القيامة ، وقد جمعت عظامك وسويت بنانك فـ « أين المفر » ؟ زمانه ومكانه :

« كلا لا وزر » وهو الملجأ الذي يلتجىءُ اليه من الجبل ، فلا ملجأ حينئذ إلا الله ، ولا مستقر إلا إليه :

« الى ربك يومئذ المستقر » : مستقر رحمة لك ولمن معك : « أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً » (٢٥:٢٤) «خالدين فيها حسنت مستقراً

---

(١) لم يقل : وجمعت الشمس والقمر ، ليدل بتذكير الضمير ان المجموع هنا هو كل منهما في نفسه ، وكل مع زميله ، جمعا من جهتين .

(٢) راجع ص ١٣٧ - ١٤٠ من الجزء الاول من الثلاثين على ضوء «اذا الشمس كورت » .

ومقاماً » (٢٥ : ٧٦) ومستقر لعنة وعـذاب لغير المؤمنين : « إنهـا ساءت مستقراً ومقاماً» ( ٢٥ : ٦٦ ) .

« ينبئو الانسان يومئذ بما قدم وأخر » : تنبؤاً بالبصر « ووجدوا ما عملوا حاضراً » وتنبؤاً بالبصيرة إذ « يتذكر الإنسان ما سعى » (٧٩ : ٣٥) وبما أن النبأ خبر ذو فائدة عظيمة ، ففائدة تنبؤ الإنسان هي واقع الحجة له وعليه سراً وعلانية ، وليعرفها أهل الموقف أيضاً ويشهدوا مع الشاهدين : بما قدمه من عمل قبل فوته ، وما أخره بعـده من آثاره خيراً وشراً : « ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في امام مبين » ( ٣٦ : ١٢ ) ورغم أن الأعمـال تحضر كلها ، فبعضها منقطع الأثر فهو مما قدم ، وبعضها باق بآثاره فهو مما أخر وعلى حد المروي عن باقر العلوم ( ع ) [١] وكلٌ داخل فيما قدم بمعنى آخر هـو حضور العمل منقطعَ الأثر أو ثابته : « يوم تجـد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينه وبينها أمداً بعيداً » ( ٣ : ٣٠ ) .

« بل الانسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره »

فما هذه البصيرة ؟ هل هي الإنسان نفسه : بالغ في الإبصار على نفسه قلباً وقالباً ، لمكان تاء المبالغة ، ويختص بهذه البصارة عليه ، لمكان تقـدم الظرف « على نفسه » فهو هو ، لا سواه من أمثاله ، يعـلم من نفسه سرها وعلانيتها ، يحيط بها حيطة العلم الجامع الجامح ، لا يعزب عن نفسـه شيء من مداخلها ومخارجها ، بصيرة يوم الدنيا بما له وعليه ومعه وفيه ومنه : من خير وشر ، وبصيرة يوم الدين : حجة عليه وشاهد بمـا اقترفت من ذنب واحتملت من وزر

---

(١) البرهان ٤ : ٤٠٦ القمي عن أبي جعفر الباقر (ع) في الآية : بما قدم من خير وشر وما اخر من سنة ليستن بها من بعده فان كان شرا كان عليه مثل وزرهم ولا ينقص من وزرهم شيئا وان كان خيرا كان له مثـل اجورهم ولا ينقص من اجورهم شيئا .

ويبصر كذلك ما عمله من أعمال وما قاله من أقوال ، فهـو بصيرة على نفسه على طول الخط « ولو ألقى معاذيره » وان لفـق الأقاويل وتعلق بالمعاذير : آلات العذر وأداته الملقاة يوم الدنيا ويوم الدين ، علّه ينجو من الحساب والعقـاب ، « ولو ألقى معاذيره » : ألقى ستوره مستخفيـاً ، وأغلق أبوابه متوارياً ، فانه هو رقيب على نفسه ، عالم بمستسر غيبه ، فيما يقارفه من معصية ، أو يفـارقه من طاعة ، أو يقاربه من ريبة .

هـذا ؟ أم هـذه البصيرة هي الشهود عليه من خارج ذاته ، إضافة إليه ، فعلى نفس الإنسان شهود وحفاظ هي بصيرة عليه ،لا يفلت منهم فالت ولا يعزب عنهم عازب ، مهما تستر وألقى معاذيره : ستوره ، ومهما اعتذر بأسباب يختلقها ويلقيها علّـه ينجو ، فانه محاط بذاته وأفعاله بـ « بصيرة » إلهيـة وملائكية وبشرية ورسالية « فالله على ما تعمـلون بصير » و « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيـد » ورسل الله وأنبيائه كذلك شهـداء بصيرة ، فهو غريق في يم البصيرة من دواخـل ذاته ، فانه على نفسه بصيرة ، ومن سواها ، فان الله قرر على الإنسـان عيوناً بصيرة « ويرسل عليكم حفظة » ( ٦ : ٦١ ) وحق أعضائه بصيرة عليه تتلقى أعماله يوم الدنيا ، وتشهد عليه يوم الدين .

هذا أم ذاك ؟ كلٌ محتمل ، والجمع أتم وأجمل ، وإن كان الثاني يشمل الأول : « إن الانسان على نفسه » حفاظ وشهود « بصيرة » من دواخل ذاته وخوارجها وإن كان الأفضل أدبياً هو الجمع بالدلالتين .

وقد استدل الراسخون في العلم بآية البصيرة على أن الإنسان أعـلم بنفسه من غيره فيما ينويه أو يفعله ، وهو حجة على نفسه يحتج الله بها عليه في الدارين [١] .

---

(١) من لا يحضره الفقيه عن زرارة قال : سألت ابا عبدالله (ع) ما حد المرض الذي يفطر فيه الرجل ويدع الصلاة من قيام ؟ فقال : « بل الانسان على نفسه بصيرة » هو اعلم بما يطيقه ، والكافي عنه (ع) قال :مايصنع احدكم =

«لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ١٦ إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ١٧
فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ ١٩ كَلَّا بَلْ
لا تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ ٢٠ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ٢١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ
ناضِرَةٌ ٢٢ إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ ٢٣ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ ٢٤ تَظُنُّ
أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ ٢٥ كَلَّا إِذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ ٢٦ وَقِيلَ مَنْ
راقٍ ٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِراقُ ٢٨ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ٢٩ إِلى رَبِّكَ
يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ ٣٠ فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى ٣١ وَلكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ٣٢
ثُمَّ ذَهَبَ إِلى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ٣٣ أَوْلى لَكَ فَأَوْلى ٣٤ ثُمَّ أَوْلى لَكَ
فَأَوْلى ٣٥ أَيَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً ٣٦ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ
مَنِيٍّ يُمْنى ٣٧ ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ
الذَّكَرَ وَالْأُنْثى ٣٩ أَلَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى ٤٠»

---

ان يظهر حسنا ويستر سيئا اليس يرجع الى نفسه فيعلم ان ذلك ليس كذلك ، والله عز وجل يقول : « بل الانسان على نفسه بصيرة » ان السريرة اذا صحت قويت العلانية ، وفيه قيل له (ع) انا ندخل على اخ لنا في بيت أيتام ومعهم خادم فنقعد على بساطهم ونشرب من ماءهم ويخدمنا خادمهم وربما طعمنا فيه الطعام من عند صاحبنا وفيه من طعامهم فما ترى في ذلك؟ فقال : ان كان في دخولكم عليه منفعة لهم فلا بأس ، وان كان فيه ضرر فلا ، وقال : « بل الانسان على نفسه بصيرة » فانتم لا يخفى عليكم وقد قال الله عز وجل « والله يعلم المفسد من المصلح » .

« لا تحرك به لسانك لتعجل به » ـ إلى ـ بيانه : آيات أربع اعترضت بين آيات القيامة، ناهية رسول الهدى عن عجلة اللسان وحركته بالقرآن قبل قضاء وحيه وقرآنه : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدني علماً » (٢٠ : ١١٤) فقد أمر باتباع قراءته دون استعجال بها قبلها، ولا تحريك لسانه بها، مما يوحي انه (ص) استعجل في قراءة آيات أو حرّك لسانه بها قبل قضاء وحيها وقراءتها ولماذا و كيف ؟.

فهل بالإمكان قراءة القرآن قبل قرآنه : نزوله مقروءاً ؟ وإذ لا ! وطبعاً لا ! فكيف ينهى عنها ؟ تجد الجواب في آيات القدر وحم، الدالة على نزول القرآن المحكم في ليلة القدر، فلقد كان للرسول (ص) خبرة واطلاع بالقرآن المحكم قبل وحيه المفصل : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » (١١ : ١) ويريد الله أن يكون القرآن وحيا مزدوجاً : لفظاً إلى معنى، ولا يكفي العلم بوحي المعنى ولا سيا المحكم منه، عن الوحي المفصل، الذي فيه وحي اللفظ وتفصيل المعنى، ففيه زيادة العلم ورجاحة الاعجاز : « .. وقل رب زدني علماً »[١]

فلم تكن العجلة بالقرآن استعجالاً في ترداده بعد قراءته لحفظه[٢]، لمكان النص « فاذا قرأناه فاتبع قرآنه » و « .. قبل أن يقضى إليك وحيه »، وقد ضمن الله له بداية الوحي المفصل ألا ينساه : « سنقرءك فلا تنسى » وإنما هي لشغفه البالغ في تحلية لسانه بالقرآن المفصل بعد ما تحلى قلبه بالقرآن المجمل، واعتماداً على هذا العلم المسبق، ولكن « لا تعجل .. » « لا تحرك .. » « وقل رب زدني علماً » « وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً » فقد كان قرآناً غير مفروق في الوحي المجمل، ثم فرقه الله بالمفصل.

وآيتا النهي عن الاستعجال والتحريك توحيان أنه (ص) إنما حرك لسانه

---

(١) راجع ٣٠ : ٢ ص ٣٧٢ ـ ٣٧٦ من سورة القدر.

(٢) خلاف ما نراه في بعض الروايات.

ليمجل خلال آيات « القيامة » وانه استعجل بين الآيات من «طه» وهما مكيتان ، والنهي هنا وهناك نهي تنزيه وإنباء ، لا نهي تحريم ، وليجمع الله وحي اللفظ المفصل إلى وحي معناه ، لا فحسب ، فقد كتب على نفسه جمع المفصل أيضاً وقرآنه .

فمن ثم توحي الآيات انه ليس على الرسول شيء من الأمر بشأن القرآن ، في نزوله عليه نجوماً حسب الحاجات والمناسبات ، وفي جمعه وتأليفه كما هو الآن ، « إن علينا جمعه وقرآنه » وليتبع قرآنه على الناس بعد جمعه وقرآنه من الله: « فإذا قرأناه فاتبع قرآنه » ، وفي بيان ما أجمل فيه ، بعضه ببعض أو بوحي السنة :« ثم إن علينا بيانه » ، فلا عليه أن يحرك به لسانه ليعجل به سناداً إلى نزوله عليه محكماً مسبقاً ليلة القدر ، فهو الذي يفصله هنا كما أجمله وحياً إلى قلبك هناك « إن علينا جمعه وقرآنه » ولا موقع لجمع الآيات إلا بعد نزولها المفصل ، إذاً فجمع القرآن كنزوله إنما هو من الله ، لا من النبي (ص) فضلاً عن خلفاءه وأصحابه ! فهنا قرآن قبل الجمع هي الآيات النازلة نجوماً متفرقة خلواً عن الروابط ، وقرآن بعد الجمع هو المقروء على الرسول سوراً منسقة بآيات مرتبة مرتبطة ، وكلاهما من اختصاصات الله ، كان يأمر الرسول أصحابه وكتّاب الوحي أن يرتبوها كما يوحى إليه ، ترتيباً وتأليفاً بالوحي ، كما النزول غير المؤلف كان بالوحي ، وقد يوحي هكذا جمع إلهي بنزول القرآن المفصل مرتين ، ولو تدريجياً حتى نزلت المائدة آخر ما نزلت من القرآن ، فأصبح القرآن مؤلفاً مجموعاً كما هو الآن ، وقد كان يدرس ويحفظ جميعه كجمعه الآن ، فجماعة من الصحابة ختموه على النبي (ص) عدة ختامات وكان (ص) - حين جمعه - يأمر الكتّاب أن يسجلوا الآيات المتفرقات في مواضيع خاصة من السور التي رتبها بالوحي ، وسماها جميعاً كما تواتر عنه (ص) وتصرح آيات عدة أن القرآن كان سوراً زمن الرسول (ص)[1]

---

(١) « فاتوا بعشر سور مثله مفتريات » « فاتوا بسورة من مثله »

كما يروى عنه (ص) أيضاً ، أسماء السور وأعدادها وآياتها وحروفها [٢] .

وهل يا ترى بالإمكان أن ينزل القرآن نجوماً ثم يجعل الله أمر الجمع والتأليف فوضى بعد الرسول (ص) وفي مختلف التأليف مختلف المعاني المسرودة فرادى ، المقصودة جملاً ! ولو صدقنا هذه الفوضى ! فمن هذا الذي ألفه بعدالرسول (ص) وكيف أجمع المسلمون في جميع القرون على ما جمعه غير الرسول ، والمسلمون شتى والآراء شتى ، لحد لم يجمعوا على جميع ما أتى به الرسول ، فضلاً عن سواه ! .

وهل يا ترى ان الله ينهى رسوله عن أن يعجل بلفظه وعنده معنـــاه وعن أن يجمعه وهو مهبط تنزيله بآياته ، وعن بيـــانه وهو الرسول ! فيختصها الله بنفسه دون رسوله، ثم يسمح لخلفاءه غير المعصومين أو المعصومين، أن يجمعوه ويؤلفوه؟

---

=

فالسورة جماعة من الآيات مرتبة ، سواء نزلت سورة ام رتبت بعد النزول سورة ، والتحدي لا يخص ببعض القرآن ، حتى يقال : عل المعني بسورة وعشر سور، هي التي انزلت سورا ، فانما يتحدى القرآن بكله « قل لئـن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

(٢) كما عن سعيد بن المسيب عن علي بن ابيطالب (ع) انه قال :سألت النبي (ص) عن ثواب القرآن فاخبرني بثواب سورة سورة على نحو ما نزلت من السماء فاول ما نزل عليه بمكة « فاتحة الكتاب » ثم « اقرء باسم ربك» ثم « ن » الى ان قال وأول ما نزل بالمدينة سورة البقرة ثم الانفال ثم ـ الى قوله ـ ثم هل اتى ، ثم قال النبي (ص) : جميع سور القرآن مائة واربـع عشرة سورة وجميع آيات القرآن ستة الاف آية ومائتا آية وست وثلاثون آية وجميع حروف القرآن ثلاثمائة الف حرف واحد وعشرون الف ومائتان وخمسون حرفا لا يرغب في تعلم القرآن الا السعداء ولا يتعهد قراءته الا أولياء الرحمن » . ( كتاب الايضاح للاستاذ احمد الزاهد باسناده عن سعيد ابن المسيب عنه (ع) ) .

ثالوث الاستحالة بعيداً عن العقل والدين [١] .

ومن ثم فآية الجمع والبيان يغنينا عن القيل والقال في « مَن جمع القرآن وكيف جمع » ؟ وما قيمة الأحاديث المتناقضة في كيفية الجمع وشخصية الجامع [٢] المعارضة — لو دلت — لآية الجمع وبرهان العقل ؟ وللأحاديث المتواترة أنه كان مجموعاً زمن الرسول (ص) [٣] .

وما مصحف الإمام علي عليه السلام الذي جمعه بعد النبي (ص) إلا نفس هذا القرآن في متنه ، وإنما رفضوه للتفسيرات والتأويلات التي أوردها عن النبي (ص) في هوامشه ، مما فضحت جموع المنافقين ، ولذلك رفضوه .

وما قصة جمع القرآن بعد النبي (ص) زمن الخلفاء ، إلا جمع المجموع زمن النبي ، المكتوب مفرقاً ، فجمعوه في مصحف واحد ، لكيلا يضيع جمع النبي

---

(١) وهو : ١ — عدم امكانية هكذا جمع منسق بغير الوحي ٢ — واستحالة اجماع المسلمين على ما جمعه احدهم ٣ — واستحالة احالة الجمع الى غير الرسول مع ما نهى الرسول عنه .

(٢) فانها متناقضة في : زمن جمع القرآن ، زمن ابي بكر ؟ او عمر؟ أو عثمان ؟ وفي من تصدى لجمعه : زيد بن ثابت ؟ ام ابو بكر نفسه؟ ام زيد وعمر ؟ وفي : هل بقي من الآيات مالم يدون الى زمن عثمان : بين نفي واثبات ! وفي : هل محى عثمان شيئا مما كان قبله ؟ بين نافية ومثبتة ! وفي : من اي مصدر جمع عثمان ؟ اعتمد على مصحف ابي بكر ؟ ام هو جمعه بشهادة شاهدين ؟ او باخبار كل من سمع عن رسول الله ؟ وفي : من الذي طلب من ابي بكر جمع القرآن ؟ هل هو عمر ؟ ام زيد ؟ وفي : من جمع المصحف الامام ونشره في البلاد ؟ هل هو عثمان ؟ ام عمر ؟ وفي : من عينه عثمان لكتابة القرآن ؟ هل هو زيد وابن الزبير وسعيدوعبدالرحمان؟ ام زيد للكتابة وسعيد للاملاء ؟ ام ثقيف للكتابة وهذيل للاملاء ؟ او المملي ابي بن كعب وسعيد كان يعرب ما كتبه زيد ؟

(٣) رواها جماعة كثيرة من محدثي الفريقين وأئمة الحديث .

كما جمع ، وأجمعوا على قراءة واحدة هي المؤاترة عن النبي (ص) فرضيها المسلمون أجمع ، ولكي يبقى القرآن وحياً خالصاً حتى في قراءته ، فلا يبقى مجال للإختلاف فيه ، لذلك فنحن المسلمين لا نعتمد على سائر القراءات المخالفة للمتواتر المسجل في القرآن ، لا سيما إذا خلفت اختلاف المعنى .

وما اختلاق نسبة أصل التأليف والجمع إلى غير النبي (ص) إلا توهيناً للرسالة المحمدية ، ووهناً لكيان القرآن ، وترفيعاً لشأن من نسبوا إليه هكذا أجمع ! .

كلا ! إن القرآن كما هو الآن ، كله إلهي : من معانيه وألفاظه وترتيب آياته وقراءته ، وسوره وأسمائها : ازدواجية الوحي ، دون تدخل لغير الله في أيٍّ من هذه ، ولا من الرسول نفسه إلا بالوحي .

وان قصة الجمع المزيفة ، غير الإلهي ، مما تذرّعها المتقولون عن التحريف ، ضعف الطالب والمطلوب ! .

« ثم إن علينا بيانه » بيان للقرآن المحكم بالقرآن المفصل ، وبيان بجمع الآيات كما الآن ، فان الجمع يساعد على تفهم المفردات ، وبيان لكل آية بنظيراتها وإن كانت في غير جمعها ، وبيان بوحي السنة المفسرة للقرآن ، ازدواجية البيان بازدواجية وحي السنة والقرآن وكما تجدها في تفسيرنا « الفرقان » ، فقد تكفل الله تكفلاً مطلقاً بشأن القرآن ، مجملاً وتفصيلاً وجمعاً وحفظاً وبياناً ، ثم ليس للرسول ولا عليه إلا تلاوته للناس وبيانه كما بين له ، وتطبيقه كذلك ، وإن لتسجيل هذه المهمة الكبرى في وحي القرآن ، قيمته في تعميق إيحاءاته للناس أجمعين .

« كلا بل تحبون العاجلة . وتذرون الآخرة » : هنا رجعة ـ بعد تحكيم وحي القرآن بهذه الجمل المعترضة ـ رجعة إلى التنديد بالانسان الناكر لرجعته حياً بعد الموت : ان من بواعثه حب الحياة العاجلة ، ولا يتجمع حبها والآجلة : فحب كلٍّ منهما ينفي الثانية على قدره .

« كلا » إنه لا برهان على استحالة جمع العظام إلا حب العاجلة ، فتذرون الآخرة ، و « حب الدنيا رأس كل خطيئة » وطول الأمل في الأولى ، كذلك يُنسي الآخرة .

إن حب العاجلة يخلف وجوهاً باسرة ، وحب الآجلة وجوهاً ناضرة ، إلى ربها ناظرة :

**« وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة . ووجوه يومئذ باسرة . تظن أن يفعل بها فاقرة » .**

تقسيم ثنائي لأهل الموقف إلى وجوه ناضرة ناظرة ، وأخرى باسرة فاقرة : فما هذه الوجوه ؟ وما هو النظر إلى الرب ؟ .

الوجه ما يواجه به صاحبه ويواجَه به ، فهو من الانسان مثله وجهه الظاهر ، فنظره نظر البصر ، وهو من الكائنات كلها - ومنها الانسان لله تعالى : ذواتُها ، ما ظهر منها وما بطن ، إذ لا يعزب عنه شيء .

وهنا ، نسبة الظن إلى الوجوه الباسرة ، والنظر إلى الرب للوجوه الناضرة ، هذه النسبة وتلك تصرفها عن وجوه الأبصار إلى وجوه البصائر ، فالوجه الظاهر لا يظن ، وإنما يبصر ، والبصر الظاهر لا ينظر إلى الرب ذاته إذ « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » ( ٦ : ١٠٣ ) وإنما البصيرة الباطنة هي التي تراه رؤية المعرفة ، دون كيفية ولا إحاطة ، وكما عن الرسول الأقدس (ص) في تفسير الآية : « ينظرون إلى ربهم بلا كيفية ولا حدود ولا صفة معلومة »[١] ونظر البصر إلى أي مبصَر ، له كيفيات وحدود وصفات معلومة ، إضافة إلى أن النظر لا يستلزم الإبصار : « تراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون » (٧ : ١٩٨) وأحرى بعدم الإبصار إذا كان المنظور إليه غير مبصر ! .

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٩٠ - اخرجه ابن مردويه عن انس بن مالك قال: قال رسول الله (ص) .

ثم النص - بعد ذلك كله - « إلى ربها » لا « الى الله » والربوبية هي الرحمة والثواب والنعمة ، وأهمها المعرفة الناتجة عن غاية الربوبية ، وكما عن علي ( ع ) : «يعني بالنظر إليه النظر إلى ثوابه تبارك وتعالى »[١] ومن أعظم الثواب كمال المعرفة المعبر عنها بالنظر والرؤية ، تنظر إلى ربها فتتنضّر بنوره ، وكما عن الصادق ( ع ) « يعني إلى نور ربها »[٢] .

ثم تقديم الظرف « إلى ربها » الموحي بالحصر ، تصريحة أخرى أنه ليس نظر البصر ، إذ لا يختص - إذاً - بالرب ، فهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر !

هذا ! فرؤيته تعالى بالبصر ، وحتى ادراكه والحيطة به بالبصيرة ، إنها مستحيلة في كافة العوالم لكافة العالمين ، فقد « احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار وعمن في السماء احتجابه عمن في الأرض »[٣] وقد « خلق الله الخلق حجاب بينه وبينهم .. فالحجاب بينه وبين خلقه لامتناعه مما يمكن في ذواتهم ، ولإمكان ذواتهم مما يمتنع منه ذاته ، ولافتراق الصانع والمصنوع والرب والمربوب »[٤] فلا يمكن رؤيته بالبصر إلا إذا صار مبصراً كخلقه ، ولا إدراكه بالبصيرة إلا اذا صار خلقه مثله في الألوهية ، استحالة مزدوجة في خرافة الرؤية والإدراك الإحاطة .

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٦٤ عن كتاب التوحيد ، وقد بحثنا عن الرؤية في ص ١٧٤ - ١٧٧ ج١ من الجزء الثلاثين في ضوء الآية : ولقد رآه بالافق المبين ، وفصلنا البحث عن استحالة الرؤية في كتابنا « حوار بين الالهيين والماديين » .

(٢) البرهان ٤ : ٤٠٨ عن كتاب تحفة الاخوان عن هاشم الصيداوي عنه (ع) .

(٣) بحار الانوار ج٣ ص ٢٢٣ - ٢٢٤ عن الامام الحسين (ع) في خطبة توحيدية .

(٤) التوحيد للصدوق عن الامام الرضا (ع) في خطبة توحيدية .

إذاً فالمعني من نظر الوجوه هو نظر المعرفة ، وانتظار الثواب والرحمة فالنظر يأتي بمعنى الانتظار أيضاً : « فناظرة بم يرجع المرسلون » ( ٧ : ٣٥ ) « ما ينظرون إلا صيحة واحدة » (٣٦ : ٤٩ ) [١] .

ومن نضارتها طراوة المعرفة واللقاء يوم الجزاء ، فلتكن الوجوه هي الباطنة ، الظاهرة نضارتها في الوجوه الظاهرة : « تعرف في وجوههم نضرة النعيم » (٨٣ : ٢٤) النعيم الشامل كيانه ككل سراً وعلانية : « ولقاهم نضرة وسروراً» (٧٦ : ١١) « هم » لا « وجوههم » فالوجوه هنا وهناك تعم وجه العقل والصدر والقلب والسر والخفي والأخفى ، اصالة ، ثم الوجه الظاهر إذ تلوح عليه نضارتها ، فالوجوه الستة الباطنة قد تشترك كلها في هذا النظر المجرد « بلا كيف ولا حدود ولا صفة » فتضرب معرفة الله ومحبته إلى أعماق الذوات المؤمنة ، ثم تتحقق في نظر البصر ايضاً ، لحدّ يتحقق صاحبه بما قاله الامام الصادق ( ع ) : « ما رأيت شيئاً إلا وقد رأيت الله قبله وبعده ومعه وفيه » قبله بأزليته، وبعده بأبديته ، ومعه بقيوميته وعلمه ، وفيه بآيات حكمته وقدرته ، فتصبح ذاته كلها عيناً لا تنظر إلا الى الرب، كلٌ حسب ما قدمته نفسه وسعى ، فـ « الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق » .

فكل حجاب من الخلق والخالق ممكن الزوال ، إلا حجاب الإمكان عنه ، وحجاب الألوهية عنه تعالى ، فبقدر ما أزيلت حجب العصيان هنا ، تزال حجب المعرفة والرحمة هناك ، ثم حجب النور كذلك تزال لمن أنكر ذاته ، وأصبح كله نظراً ومعرفة لربه كالرسول الأقدس محمد ( ص ) « فكان قاب قوسين أو أدنى » .

فيا للنضارة والنظر إلى الرب هكذا ، من نعمة يعجز الإدراك عن تصورها، إذ تتضاءل إلى جوارها الجنة بما فيها ؛ وما لها لا تتنضّر ؟ وهي إلى ربها تنظر !

---

(١) وجوه ناظرات يوم بدر ــ الى الرحمن تنتظر الخلاصا ، فالنظر يعم الابصار بالبصر ، والمعرفة بالبصيرة ، والانتظار للرحمة .

نظر البصيرة بنور اليقين ، ونضارة المعرفة والرحمة بلقاء الرب الكريم .

وإن ارتقاء الكينونة الانسانية وانطلاقها من قيود الهوى ، ومن هذه الكينونة الأرضية ، هو فقط محط الرجاء في التقاءها بهذه النضارة والنظرة .

ثم الوجوه الباسرة هي البئيسة التعيسة ، المنقبضة الكالحة القاطبة ، المحرومة عن كل نضارة ونظرة « كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » ( ٨٣ : ١٥ ) بما ارتكست في حيوانية الحياة ، وانطمست وانغمرت في الشهوات ، فانحجبت عن ربها بما حجبت نفسها .

« تظن أن يفعل بها فاقرة » : الكارثة القاصمة الظهر ، المحطّمة الفقار ، تظن ظن اليقين بما قدمت لأنفسها ولات حين مناص ! .

« كلا إذا بلغت التراقي . وقيل من راق . وظن أنه الفراق . والتفت الساق بالساق . إلى ربك يومئذ المساق »

« كلا » ليست العاجلة المحبّبة هي الباقية ، إنما هي الآجلة المرفوضة ، فيا لها من حياة مرتكسة منكوسة ، فليتذكر متذكر :

« إذا بلغت التراقي » : حين تبلغ الروح مبلغها الأخير من الجسم : « التراقي » العظام الواصلة بين ثغرة النحر والعاتق ، وهي الحلقوم : تترقى إليه النفس عند الموت ، وإليه يتراقى البخار من الجوف ، وهناك يقع تردد النفس « فلولا إذا بلغت الحلقوم ، وأنتم حينئذ تنظرون » (٥٦ : ٨٣) : سكرات مذهلة وكروب تزيغ الأبصار ، كأنما القلوب تبلغ الحناجر ، ويا لها من عبرات لمن لم يغرب عقله!

« وقيل من راق » ؟ : قيلَ من أعماق المحتضر : « هل من طبيب » [1]

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٦٥ عن الكافي باسناده الى جابر عن ابي جعفر الباقر (ع) في « من راق » قال : فان ذلك ابن آدم اذا حل به الموت قال: هل من طبيب ؟

يرقى بي مما أنا فيه من خفض الإحتضار ، أو لعلّ رقية تفيدني فتلوّي من سكرة وتشفين ، أو علّ توبة ترقى بي من دركات تُنتظر ، أو ـ وفي آخر المطاف ـ من يرقى بي الى البرزخ ؟ أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب ؟

وقيلٌ من أخصّاءه الحضور : من يرقى به الى طبيب يشفيه ؟ أو يخلصه مما هو فيه ، أو مَن هذا الطبيب الذي يرقى به ، أو من يرقى به من وطأة الآخرة الى رحمتها ؟

وقيلٌ من الملائكة : من يرقى بروحه ، ملائكة الرحمة أو العذاب ، حتى يصدر الأمر من رب الأرباب [1] .

فيلاتٌ هي ويلات المحتضر إلا من رحم الله ويومئذ يفرح المؤمنون ، بلا قيل ولا ويل .

« وظن أنه الفراق » : رغم أشراط الموت وعلاماته ، ولكنه لا يرضى أخيراً إلا الظن بالموت ، ولا يحن الى يقين الموت ، إذ لا يحب الفراق ، حباً للعاجلة وفراراً عن الآجلة .

« والتفت الساق بالساق » إذ بطلت كل حيلة ووسيلة تصدّ عن الفراق ، وعلّ الساقين هما الشدّتان المجتمعتان على المرء ، من فراق الدنيا العاجلة المحبّبة ، ولقاء أسباب الآجلة المنسية [2] ، وأين ساق من ساق ؟ : « يوم يكشف عن ساق ويدعون الى السجود فلا يستطيعون » ( ٦٨ : ٤٢ ) .

والكشف عن الساق ـ وهو التشمير عنه ـ كناية عن صعوبة الأمر ، فمن

---

(١) راق اما من الرقية وهي العوذة، او من الرقاء وهي العلو ، وقد جمعنا هنا بين المعنيين .

(٢) نور الثقلين ٥ : ٤٦٥ في آية الساقين عن الباقر (ع) : « التفت الدنيا بالآخرة » .

التفاف الساق بالساق ، التفاف الدنيا بالآخرة ، إذ كشف عن ساق الآخرة لتأخذ بساق الدنيا فتثنيها وتقضي عليها [١] .

ويلتف بهذا الإلتفاف بين ساقي الآخرة والأولى ، التفاف ساقي المحتضر في اضطراب النزع ، إذ يضرب بإحدى رجليه على الأخرى ، كذلك والتصاقهما ببعض بعد الموت ، والتفافها في شدّ الكفن ، ثم التفــاف سوق اهليه ومشيّعيه ، يلتف بعضهم من شديد الحفز وعنيف السير والسّوق [٢] .

« إلى ربك يومئذ المساق » : الرجوع : « إن الى ربـك الرجعى » فـلا يُساق الميت بعد التفاف الساق بالساق ، إلا الى ربك ، الى نشأة البرزخ ثم القيامة ، « لمن الملك اليوم . لله الواحد القهــار » « والأمر يومئذ لله » فلا سوق بالموت إلا إلى الرب « لتُجزى كل نفس بما تسعى » .

فمهما كان انسياق الإنسان يوم الدنيا بخيرَته ، فهو مُساق مسيَّر في سَوق الآخرة الى سُوقها ، فلا سائق هناك إلا الله ، فلا مساق إلا إليه ، سوقاً الى ربوبيته ، لا الى ذاته ، فانما الى حسابه وجزاءه ، بثوابه أو عقابه .

ومن ثم يسدل الستار على سكرات المـوت ، ويُنتقل الى عرض مشهد اللاهين المكذبين .

**« فلا صدّق ولا صلّى. ولكن كذّب وتولى. ثم ذهب الى اهله يتمطى».**

عرضٌ موجز عن أرده حالات الكفر لألمن حماقي الطغيان ، فرعون هذه الأمة أبي جهل على حدّ المروي عن الرسول ﷺ : « إن لكل أمة فرعوناً

---

(١) راجع سورة « ن » حول الآية « يوم يكشف عن ساق » .

(٢) هذا الاخير بناء على كون الساق جمعــاً للساقة : فهم الذين يكونون في اعقاب الناس يحفزونهم على السير .

وإن فرعون هذه الأمة ابو جهل »[1] كان يأتي الرسول أحياناً يسمع منه القرآن ، ثم يذهب الى أهله منفكها متمطياً كالمُطي : « فلا صدق » بما يجب تصديقه ، رغم توفر آيات الصدق ، البينات « ولا صلى » لله : مهانة ونكراناً لله ، وللرسالة الإلهية ، دون أن يتأدب أو يخشى « ولكن كذب » كأنه فقط رزقه من الحياة : «وتجعلون رزقكم انكم تكذبون » كذب بقلبه وقوله وفعله « وتولى » بركنه ، مدبراً عن الحق ورسوله « ثم ذهب الى أهله » كأن جاء لهم بما يتفكهون « يتمطى » : يمد مَطاه : ظهره ، كالمُطي ، فالمطيّة ما يُركب مطاه من حمار وسواه ، فأبو جهل يمد مَطاه ليركبه الشيطان ، وهو يحمل الى أهله تفكّه الهزء والطغيان ، مختالاً فخوراً بما فعل ، كأنه يرفع من شأنه ، وما هو إلا حماراً ، يقرب من خطاه ويمد مَطاه .

وكم من آباء جهالات في تاريخ الرسالات الإلهية ، يعيشون مطايا ، ويحملون خطايا ، يتبهجون تفنناً في الصد عن سبيل الله « من آمن يبغونها عوجاً » وهم يفخرون ويتمطون حياتهم بما بغوا ومكروا ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، فأولى لهم ثم أولى :

**« أولى لك فأولى ، ثم أولى لك فأولى » :**

كلمة تسفيه وتقبيح ، وتوعيد بأشد وعيد ، تشمل الأولى والأخرى ، توجّه الى الذين في قلوبهم مرض ، مادّين مَطاهم فاخرين : « فاذا أنزلت سورة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم » ( ٤٧ : ٢٠ ) .

وقد أمسك رسول الله ( ص ) بخناق أبي جهل مرة وهزّه قائلاً : « أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى » فقال : أتوعدني يا محمد ! والله لا تستطيع

---

(١) الدر المنثور ٧ : ٢٩٦ ، اخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن منذر عن قتادة عنه ( ص ) .

أنت ولا ربك شيئاً ، واني لأعز من مشي بين جبليها » .. « فأخذه الله نكال الآخرة والأولى » .

فالآية الاولى تلمح لنكالين في الأولى تلوّ بعض ، ذاق الأول حياته الكافرة وهو كفره وتكذيبه بما طبع الله على قلبه ( فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ) والثاني يوم بدر إذ قتله المؤمنون ، والآية الثانية توحي لنكاليه بعد قتله : يوم البرزخ ويوم القيامة ، نكالٌ مضاعف في الأولى ، وآخر كذلك في الأخرى ، أولويّات أربع بويلات له في الدارين ، وبُعداً له من خيرات النشأتين ، وعلى حد المروي عن الامام الجواد عليه السلام [1] .

« أولى لك » : حالُك الحاضرة الخاسرة ، إذ تمتطي منحنّياً مَطاك ليركبك الشيطان ، فما أنت إلا حماراً « فأولى » : لك أن تُقتل في سبيل الطاغوت ، كما قتل يوم بدر « ثم أولى لك » : حالك المستقبلة بعد الموت يوم البرزخ إذ تحمل خطاياك مع خطايا مَن سواك من المضلَّلين بك ولا ينقص من أوزارهم شيء « فأولى » : بخلود النار يوم القيامة الكبرى : فأنت حمار في الدارين فيهما تتمطى ، وإن كنت هنا بثوب الإنسان وصورته تتغطى ! ويلات أربع كلها لك أولى ، فانك فرعون هذه الأمة ، فليأخذك الله نكال الآخرة والأولى .

**« أيحسب الانسان أن يترك سدىً » :**

عود على بدء في التنديد بالإنسان في حسبانه : « أن لن نجمع عظامه » وهذا هو تركه سدىً وهمَلاً ، وإنه بعيد عن عدل الله وحكمته : ألا يجازيه بما فعل وافتعل ، خيراً أو شراً ، أو يختص جزاءه بروحه دون جسمه ، وهما شريكان في الأعمال كلها إلا الروحانيات المحضة ، كالنيات والاعتقادات.

---

(١) نور الثقلين ٥ : ٤٦٦ في عيون الأخبار عن عبد العظيم بن عبدالله الحسني قال سألت محمد بن علي الرضا ( ع ) عن هذه الآيات ، قال : يقول الله عز وجل : « بعداً لك من خير الدنيا وبعداً لك من خير الآخرة » .

فكأنما الإنسان يحسب الحياة أرحاماً تدفع وقبوراً تبلع، فوضىً وسدىً، وقد «خُلِقنا للبقاء وكيف يفنى جنة لا تبيد ونار لا تخمد .. إنما نتحول من دار الى دار» (١)، فما خُلقنا دون هدف وحكمة، لهواً ولعباً وزينة وتفاخراً وتكاثراً في الأموال والأولاد !: «أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون» (٢٣ : ١١٥) «لم يخلق خلقه عبثاً ولم يتركهم سدىً، بل خلقهم لإظهار قدرته وليكلفهم طاعته، فيستوجبوا بذلك رضوانه، وما خلقهم ليجلب منهم منفعة ولا ليدفع بهم مضرة، بل خلقهم لينفعهم ويوصلهم الى نعيم» (٢). وما الحياة العَبَث السدى إلا لهواً تعالى الله عنه: «لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين» (٢١ : ١٧) ولماذا يعبث بنا ربنا ويلهو ؟ هل انقصان في علم أو حكمة ؟ أم بغية ظلم لعباده ؟ أم لعجز عن إحيائهم كما بدء ؟ وهو الذي خلق أول مرة :

**«ألم يك نطفة من مني يُمنى . ثم كان علقة فخلق فسوّى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى . أليس ذلك بقادر على أن يُحيي الموتى» ؟**

فالأكثرية الساحقة من ناكري إحياء الموتى يستندون الى استحالته، وواقع الخلق من نطفة الى علقة الى مضغة الى عظام والى إنشاء الخلق الآخر: «الروح» برهان لا مرد له على إمكانية الإحياء مرة أخرى وهو أهون وأحرى: «وهو الذي يبدء الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه» (٣٠ : ٢٧) ثم عله بالمحسن والمسيء والظالم والمظلوم، وحكمته العالية وعدله تعالى: تفرض الإحياء المكتّن للحساب والجزاء الوفاق !.

«ألم يك نطفة»: خلية واحدة حية صغيرة لم تكن تبين بالمكبرات،

---

(١) في العلل قال رجل للصادق (ع) إنا خلقنا للعجب ؟ قال : وما ذلك لله انت ؟ قال : خلقنا للفناء ؟ فقال يا بن اخ ! خلقنا للبقاء ...

(٢) علل الشرائع عن عمارة : سألت الصادق (ع) فقلت : لم خلق الله الخلق ؟ فقال :...

ممّاذا ؟ « من منيّ يُمنى » عن شهوة دون اختيار « ثم كان علقة » تعلقت بجدار الرحم لتأخذ سيرها حثيثاً الى خلقه إنساناً مؤلفاً من مليارات الخلايا الحية ، وقد بدأت من خلية واحدة مع بويضة [(١)] ، وهذه الرحلة القصيرة المدة ، البعيدة المدى ، هي أبعد بكثير من مولده الى مماته ، والقائد في كلتا الحركتين واحدٌ هو الله : « أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟ » « سبحانك اللهم وبلى » [(٢)] « وأنا على ذلك من الشاهدين » [(٣)] بلى ، إنه على ذلك لقدير ، وانه بالتصديق والإيمان به لجدير ، فسبحانه سبحانه تعالى من حسبان هذا الإنسان الصغير الصغير ، فماذا يملك أمام هذه الحقائق التي تفرض نفسها دون تكلف؟ إلا أن يؤمن بالخبير القدير !

مركز تحقيقات کامپیوتری علوم اسلامی

---

(١) راجع سورة العلق ٣٠ ، ص ٣٦٢ — ٣٦٥ .

(٢) الدر المنثور ٦ : ٢٩٦ عن ابي هريرة ان رسول الله (ص) كان اذا قرأ « أليس ذلك بقادر على ان يحيي الموتى » قال : ... وفي نور الثقلين ٥ : ٤٦٧ في اخلاق الرضا ( ع ) : « وكان اذا قرأ هذه الآية « قال عند الفراغ » سبحانك اللهم وبلى » .

(٣) الدر المنثور ٦ : ٢٩٦ — اخرج البخاري في تاريخه عن ابي امامة قال : صليت مع رسول الله (ص) بعد حجته فكان يكثر من قراءة « لا أقسم بيوم القيامة فاذا قال « أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى » سمعته يقول : بلى وأنا على ذلك من الشاهدين » .

## «سورة الدهر : الانسان ـ مدنية ـ وآياتها احدى وثلاثون»

« بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ • هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ
الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً ١ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ
أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ٢ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا
شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ٣ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْـلَالاً
وَسَعِيراً ٤ إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ٥
عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ٦ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ
وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ٧ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ
مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ
جَزَاءً وَلَا شُكُوراً ٩ إِنَّا نَخَـافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمـاً عَبُوساً
قَمْطَرِيراً ١٠ فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِـكَ الْيَوْمِ وَلَقَّـاهُمْ نَضْرَةً
وَسُرُوراً ١١ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّـةً وَحَرِيراً ١٢ مُتَّكِئِينَ

فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً ١٣ وَدَانِيَةً
عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ١٤ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ
مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيراً ١٥ قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا
تَقْدِيراً ١٦ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً ١٧ عَيْناً
فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً ١٨ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا
رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً ١٩ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً
وَمُلْكاً كَبِيراً ٢٠ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا
أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ٢١ إِنَّ هَذَا كَانَ
لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً ٢٢ ».

● ● ●

**« هل أتى على الانسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً » :**

هل الإنسان هنا الإنسان الأول؟ ولم يُخلق من نطفة أمشاج وغير أمشاج! أم جلس الإنسان بما فيه الأول ؟ فكذلك الأمر ! أم ولده المتناسلون عنه ؟ فكيف يخرج الأول عن انه ( ع ) : « لم يكن شيئاً مذكوراً » !

الجواب : أنه جنس الإنسان هنا، وغير الأبوين الاوّلين هناك في استعراض من خلقه : « من نطفة امشاج » وقد عرض خلقهما في مجالٍ اخرى : « من صلصال من حماٍ مسنون » كما استعرضت بقية المشاهد لخلقهم كذلك .

وهل الاستفهام تقريب وتقرير « أن أتى عليه حين : قطعة محدودة ـ من الدهر : مجموعة الزمان غير المحدودة ، لم يكن شيئاً مذكوراً : « كان شيئاً ولم يكن مذكوراً »[١] حيث النفي هنا يوجه الى الوصف، دون الموصوف كما في : « أو لم يرَ الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً » إلا في علم الله ، أما في الخلق والتقدير فلا ، وإنْ في مبادءه تراباً أم نطفة أم ماذا ؟

أم الإستفهام انكاري يعني نفي مدخوله : أنه كان شيئاً مذكوراً طوال الدهر : قبل خلقه في علم الله ، وبعده في رحمة الله وعنايته ، وعلى حدّ المروي عن الامام الصادق(ع) : « هل أتى عليك يا إنسان وقت لم يكن الله ذاكراً لك فيه ؟ » [٢] ، كلٌّ محتمل ، والجمع أجمل ، حيث الإستفهام هنا يتحملها فقد كان شيئاً معلوماً عند الله ، مذكوراً عنده في عداد ما أراد خلقه ، ثم الله ذاكرٌ له على طول الخط إذ خلق أصله : التراب ، ثم منبته من سلالة التراب ، ثم نطفته من سلالة المني ، ثم درج به في خلقه وتصويره وتسويته الى درجة الإنسان، ثم هو ذاكره طول الحياة الى الممات وبعده «فهل أتى عليه وقت لم يكن الله ذاكراً له ؟ » اللهم لا .

وقد كان شيئاً في علم الله كسائر الأشياء ولم يكن مذكوراً في الخلق : « كان مذكوراً في العلم ولم يكن مذكوراً في الخلق »[٣]: « كان شيئاً مقدراً

---

(١) تفسير العياشي عن زرارة سأل الباقر (ع) عن الآية فقال : .. وفيه عن عبد الاعلى مولى آل سام عن الصادق (ع) مثله .

(٢) ج ١٠ ص ٢٥٩ تفسير روح البيان لاسماعيل حقي .

(٣) تفسير العياشي عن سعيد الحذاء عن الباقر ( ع ) : ..

لا مكوّناً »[١] وبعد ما خلق تراباً كان شيئاً في أصله التراب بشيئية التراب، ولم يكن مذكوراً في عداد الإنسان ، ولا بمبدءه الجرثومي : نطفة وسواها ، ثم إذ خلقت نطفته كان شيئاً هو أصله الجرثومي ولم يكن مذكوراً كإنسان ، ولا مذكوراً باسم النطفة والمني أيضاً ـ تأدباً ، إذ كان قذراً لحدّ لم يك يذكر إلا لمن اضطر ، بحثاً عن أصله فيزيولوجياً ، أو خناءً لمن يستحقة ، أو تذكيراً بأصله : « لقد كنت نطفة قذرة .. » فهذه اولى النعم التي أبلانا الله عز وجل بها أن خلقنا ولم نكن شيئاً مذكوراً « وعلى حدّ تعبير علي ( ع ) وتقرير الرسول (ص) [٢] .

فهل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ؟ اللهم بلى ، إذ كان مَنسيّاً في الخلق كإنسان ، غير مذكور قبل خلقه إنساناً ، ذكرُ الكيان أم ذكر اللسان، ثم اللهم لا ! إذ كنتَ ذاكره كل الدهر: قبل خلقه وبعده !

« إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً »

فما هي النطفة الأمشاج ؟ النطفة هي واحدة النُطَف : الماء الصافي ، فالمني نُطَف يُخلق الانسان من نطفة منها : « ألم يك نطفة من مني يُمنى » وصفاءها هي اصطفاءها من البدن كله ، فانها : « ثم جعل

---

(١) الكافي باسناده عن عبد العظيم بن عبد الله الحسني باسناده عن الامام الصادق (ع) : سئل عن قوله تعالى : اولم ير الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً فقال : « لامقدراً ولا مكوناً» وسئل عن قوله تعالى:هل اتى على الانسان...قال: كان مقدراً غير مذكور، وعن حمران عنه (ع) « شيئاً مقدراً ولم يكن مكوناً » اقول : التقدير هو تقدير العلم والخلق قبل ان يخلق .

(٢) اولى الشيخ الطوسي باسناده الى الامام الباقر ( ع ) ان النبي (ص) قال لعلي ( ع ) قل : ما اول نعمة ابلاك الله عز وجل وانعم عليك بها ؟ قال : أن خلقني جل ثناؤه ولم أك شيئاً مذكوراً ، قال : صدقت .

نسله من سلالة من ماء مهين » ( ٣٢ : ٨ ) فالمني بحر لجي من ملائين النطف : الدودات الملقية ، وماؤه صفائه لأنه المصطفى من كل البدن ، ثم النطفة التي يخلق منها الإنسان هي سلالة من هـذه السلالات ، فالإنسان نتيجة نهائية لتسلسل سلالات عدة : يتسلل المني عن البدن كله بما تغذّى ، كما الغذاء سلالة من طين ، فالمني سلالة من طين : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » ( ٢٣ : ١٢ ) : سلالة هي من طين ، وهي المني ، ثم نطفة : سلالة من هذا المني !.

ومن ثم إذا كانت هذه النطفة واحدة فكيف توصف بالأمشاج ؟ فكيف يجمع بين الوحدة والجماعة ؟ نقول هنا ما قلناه في « وجعلنا بن مريم وأمه آية » ( ٢٣ : ٥٠ ) فهما من حيث الوجود اثنان ، ومن حيث الآية المعجزة آية واحدة لتلازمهما فيها ، كذلك النطفة واحـدة في كيانها وجاه سائر النطف ، ولكنها حصيلة الأمشاج : الأخلاط ، جمع المشبج أو المَشِـج أو المَشَج أو المَشْجُ : الخليط أو الخلـط ، فهي « محطّ الأمشاج من مشارب الأصلاب »[1] حيث « مـاء الرجل والمرأة اختلطا جميعاً »[2] وهذا مشج واحدٌ فما هي الأمشاج ؟ :

مشجٌ أوّل هو أصول الغـذاء الإنساني المركبة من عنـاصر عشرة هي : الأوكسجين ، والأودروجين ، والكربون ، والأزوت ، والكبريت ، والفوسفور ، والبوتاسيوم ، والمغنسيوم ، والكلسيوم ، والحديد ، وتلك عشرة كاملة تبنى غذاء الانسان .

فهذه العناصر داخلة في كل نبات وحيوان ، وأخيراً في الإنسان لأنهـا

---

(١) في نهج البلاغة قوله ( ع ) عالم الغيب من ضمائر المضمرين الى قوله : ...

(٢) القمي : عن الامام الباقر ( ع ) في تفسير الامشاج .

غذاءه ، فأعصابه وخليّاته تتكوّن وتتقوى منها ، وهي كلها دخيلة في خلق المني ، ويا لها من اختلافات لونية وعنصرية في المفعول !.

ومشجٌ ثان : خلق المني من مجموعة هذه الأعصاب ، ذكراً وأنثى ، فهو قطرة من بحر الكيان الانساني ككل ، طالما تكون خزانته الإحتياطية البيضتين ، والأصيلة صلب الرجل وترائب المرأة ، ودليلاً حسياً على هذه الجمية ارتخاء الأعصاب كلها ، بما يشدها وبعدها المركز الرئيسي : الصلب والترائب .

ومشج ثالث : خلط ماءَي الذكر والانثى : « خلق من ماءٍ دافق يخرج من بين الصلب والترائب » (٨٦ : ٧) اعتبرا ماءً واحداً لمكان المزج والمشج، ولكي يخلق منها إنسان واحد فيمشجان في الرحم : بيت الزوجية الثاني للزواج الثاني .

ومشج رابع : تزاوج النطفتين : ـ خلية الذكر وبويضة الأنثى ـ بعد خلط المائين ، فالبحران المنويان هنا يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان ، ثم تلتقي من كلٍّ دودة مع الأخرى في الآخر ، زواج بعد زواج عجيب [١] .

ومشج خامس : هو تتمة عملية الزواج الاخير في بناء الإنسان الجديد: أن يمشج الشريكان ، كلٌّ ماعنده بما عند الآخر من عناصر التخطيط (الكروموزومات Chromosmes ) وما فيها من الخلق المخلّقة (الجينات Qenes ) التي خطّتها وخلقتها وسوّتها يد القدرة الإلهية بأقلام الإرث المنحدر عبر الأجيال من الجدود والآباء الى الأبناء ، فالوراثات المتداخلة الكامنة في النطفة ، الحاملة للصفات المميزة لجنس الإنسان أولاً ، ولصفات الجنين العائلية أخرى ، هذه الوراثات هي الدور الخامس من النطفة الأمشاج .

---

(١) راجع ج ٣٠ ص ٣٦٢ ـ ٣٦٥ ، تجد فيه كيفية زواج النطفتين .

ومشج سادس : هو خلط الطبائع الكامنة في النطفة من حرارة وبرودة ويبوسة ورطوبة ، وتبتني البنية الحيوانية المعدّلة الأخلاط منها ، التي هي ظروف ومجالات فاسحة لتصرفات الروح: الغضبية والشهوية والعقلية وامثالها، والى أمشاج أخرى لم تصل اليها أيدي العلم حتى الآن .

وكما الإنسان حين نزول القرآن ما كان يدري شيئاً من هذه الأمشاج ، مما حمل جماعة من المفسرين يحاولون في جعل الأمشاج مفرداً ، وجماعة أخرى ساكتون عن تفسير الجمع بعد تصديقه ، وثالثة يكتفون بمشج ماءي الذكر والأنثى ، رغم « ان للقرآن آيات متشابهات يفسّرها الزمن » !

« ... نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً » :

الإبتلاء هو نقل الشيء من حال الى حال ، ومن طور الى طور ، كابتلاء الذهب من كدر الى صفاء في البوتقة ، والإنسان كائن متطور متنقل منذ النطفة حتى الممات ، روحياً وجسدانياً ، وكافة تطوراته هي من فعل الله وابتلاءه ، سواء أ كانت من سعيه ، كالمختار فيها بعقله وحوله ، أم سواها مما لا حيلة له فيها ، من التطورات الجنينية وسواها ، من نطفة الى علقة والى آخر الأطوار المتعاقبة حتى إنشاءه خلقاً ، ثم من ولادته الى وفاته من حياة التكليف والإختيار وسواهما ، وإنما ابتلاءه في حياة العقل والتكليف يتطلب السمع والبصر قلباً وقالباً ، ولكي يصدر الإنسان بها وببسائر وسائل الادراك ، من آفاق التكوين والتشريع الى عقله وقلبه ، استزادة للوعي واهتداء الى ما يجهله بما هداه الله السبيل ، وليكون أحسن المخلوقين ، فإما شاكراً وإما كفوراً .

فهل إن « نبتليه » هنا حال من الإنسان منذ النطفة حتى الممات ؟ وابتلاء من غايات خلقه - المهمة : « فجعلناه سميعاً بصيراً » لتكملة هذا الإبتلاء

بإكمال وسائله الاختيارية ؟ إذاً « فجعلناه » تفريع على نبتليه : فلكي نكمل ابتلاءه جعلنا له وسائله .

أم إنها حال من الإنسان في التطورات الجنينية « فجعلناه » بعد ابتلاءه هذا « سميعاً بصيراً » ؟ وأم الإبتلاء إنما هو في الحياة ولا سيما حياة التكليف! طالما يعم قبلها منذ النطفة حتى الولادة حتى عقل التكليف !

أم حال منه في حياة التكليف فحسب فابتلاءه إذاً بعد جعل السمع والبصر ؟ وهذا يقتضي قلب الجملة « جعلناه سميعاً بصيراً لنبتليه » وهو خلاف الفصيح !

أم غاية لخلقته : « خلقنا الانسان .. لنبتليه فجعلناه .. » وهذا تكلف دون دليل ! والاول أشمل وأرفق لفظياً ومعنوياً دون تكلف : حال أنا « نبتليه » لهذه الحالة التي هي ايضاً غاية : « فجعلناه سميعاً بصيراً » لتحسن حالة الإبتلاء !

والسمع والبصر هما العنصران الأساسيان الإبتلاء ، ولا يعنيان الجارحتين فحسب ، لأن مدار الإبتلاء هو سمع العقل وبصر القلب ، ففاقدهما لا يبتلى مهما كان قوياً في سمع الظاهر وبصره ، فأصل الإبتلاء هو السمع والبصر عقلياً وقلبياً ، وكماله السمع والبصر قالبياً « وقالوا لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في أصحاب السعير »[1] ولا يبتلى ويكلف من لا يجدهما عقلياً ، دون العكس .

والسميع والبصير هما مبالغتان في السمع والبصر ، ما ذكرا في القرآن إلا وصفين لله ، إلا في موضعين ثانيهما : « مثل الفريقين كالأعمى والأصم والسميع والبصير » ( ١١ : ٢٤ ) مما يدل على أهمية التوصيف بهما لغير الله

---

(١) راجع الى تفسير هذه الآية في سورة الملك .

تعالى ، فالإنسان السميع البصير لا يكاد يخفى عليه ما ينفعه في إبتلاءه واهتداءه السبيل ، وقليل هؤلاء الذين يتذرعون هذه الوسائل لاهتداء السبيل :

« إنا هديناه السبيل » : السبيل هي الطريق الذي فيه سهولة، سبيل الخير لتُطلب وسبيل الشر لتجتنب : « وهديناه النجدين » ( ٩٠ : ١٠ ) ولقد يسر الله هاتين السبيلين للانسان : « ثم السبيل يسره » ( ٨٠ : ٢٠ ) فهداية السبيل وتيسيرها، يوحيان بيسر على يسر مندغمين في ذات الإنسان، مركّزين في نجدي الخير والشر [1] « لئلا يكون للناس على الله حجة » .

فالهداية — هنا — هي دلالة الطريق : فطرياً وعقلياً وامثالهما من سائر التكوين ، وتشريعياً بكتابات الوحي وانبياءها ودعاتها ورعاتها .

والسبيل هنا تعم النجدين : الخير والشر ، إذ ألهمناها : « فألهمها فجورها وتقواها » ( ٩١ : ٩ ) . فإن لاستبانة سبيل المجرمين دخلاً عظيماً ودافعاً لسلوك سبيل المؤمنين: « وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبل المجرمين » ( ٦ : ٥٥ ) فليست هداية سبيل الله كافية في اجتناب سبيل الطاغوت ، فلنهتد السبيلين ، لكي نكون على بصيرة منها في الضلالة والهدى، وتتم حجة الله علينا فيها : « وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » ( ٦ : ١٥٣ ) .

« إما شاكراً وإما كفوراً » : « إما » هنا ليست للترديد في علم الله تعالى، وإنما ايحاءٌ لتردد الإنسان بين الأمرين تخييراً دون تسيير ، فيما إذا كان « شاكراً أو كفوراً » حالين من الإنسان أو خبرين لـ « يكون » المقدر .

---

(١) راجع ج ٣٠ ص ١٢٢ — ١٢٣ « ثم السبيل يسره » .

أو انها لتقسيم السبيل الى شاكر أو كفور، إذا كانا حالين للسبيل أو بدلين عنها: هديناه سبيل للشكر وسبيل الكفر، وما أجمل التعبير عن السبيل الواضح بالشاكر والكفور، كأنهما مندغمان في السبيل لكثرة وضوحها فيها كالشمس في رابعة النهار: «وهديناه النجدين».

والآية تتحمل المعنيين معاً لفظياً ومعنوياً، فليكونا مقصودين، والشكر علّه من الكَشْر: الكشف، وهو تصور النعمة واظهارها، بخلاف الكفر، أو انه «الأخذ بها، وكفرها وتركها»[1] وأكمله الأخذ باللسان كله، والجنان كله، والأركان كلها، أن يصبح المنعم عليه شكراً المنعم في كيانه ككل، وكامله الأخذ مبدئياً في الكلّ مع تسرّب اللمم أحياناً، وناقصه الأخذ بالبعض، وكله أخذ وشكر وتركه كفر، كلٌّ على حدّه، وهذه المعاني الثلاثة متقاربة أو مترادفة تعني: اظها النعمة وصرفها فيما أوتيت لأجلها، فاللسان معبر عما في الجنان، والأركان تعبر بأعمالها عن مدى الإيمان، وعلى حدّ المروي عن الرسول (ص): «كل مولود يولد على الفطرة حتى يعبر عنه لسانه فاذا عبّر عنه لسانه إما شاكر وإما كفور»[2].

ومقابلة «شاكراً» بـ «كفوراً» وهي صيغة موغلة في الدلالة على الكفران، دون «كافر» هذه المقابلة توحي بأن غير الشاكر كفور، فان ترك الشكر بهذه الموهبات الربانية كفران لها وكفرٌ بالرب، وكفر بالفطرة والضمير والعقل: الدافعة الى الشكر، وكفر بجملة الرسالات الربانية، إذاً

---

(١) التوحيد للصدوق عن الامام الصادق (ع) واصول الكافي عنه (ع) والقمي عن الامام الباقر (ع) في الآية قالا: «إما آخذ فهو شاكر وإما تارك فهو كافر» (نور الثقلين ٥: ٤٦٠).

(٢) الدر المنثور ٦: ٢٩٨ — اخرج احمد وابن المنذر عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله (ص).

ف « كفوراً » : « وهل نجازي إلا الكفور » ( ٣٤ : ١٧ ) مما يدل على أنه كل كافر ، إذ يحصر الجزاء العقاب بالكفور ، وكما الكفور أيضاً دركات حسب دركات الكفران ، وهنا ينقسم الى كافر وكفور .

ومن ثم تعني أن الشاكر أعم من الشكور ، ولذلــك لم تقابل الكفور بالشكور ، فمن الشاكر شكور وقليل ما هم ، ومنهم غير شكور وما أكثرهم ، كأنمــا الإنسان بطبعه كفور : « فإن الإنسان كفور » ( ٤٢ : ٤٨ ) وليس بطبعه شكوراً « وقليل من عبادي الشكور » ( ٣٤ : ١٣ ) .

« إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً » :

والكافر هنا أعم من الكفور ، كما كان الشاكر هناك أعم من الشكور ، والإعتاد هو إعداد الشيء حتى يكون عتيداً حاضراً ، فقد هيــأ الله تعالى لأخرى الكافرين ما قدموه في دنياهم : سلاسل : قيوداً لأقدامهم ، وأغلالاً : لأيديهم تشدها الى رقابهم وتجمل الاعضاء وسطهــا ، وسعيراً : ناراً متسعرة يُلقون فيها مسلسلين مغلولين ، عذاباً فوق العذاب ! ولقد ظلوا يوم الدنيــا مسلوكين في سلاسل الهوى ، ينقادون مــا قادهم الشيطان ، ومغلولين في أغلال الشهوات في سعير حياتهم الجهنمية كل الحياة ، فالإعتــاد الإلهي لهــذا العذاب حسب ما أعتدوا وإعتدوا وبغوا ، جزاءً وفاقاً ، وهذه الآية كأمثالها من آيات الإعتاد توحي بخلق الجحيم بأصولها ، وإنما تترقب حطبها لكي تسعر أكثر فأكثر . هذا هو جزاء الكفور ، فما هو جزاء الشكور ؟ :

« إن الابرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً . عيناً يشرب بها عباد الله يفجّرونها تفجيراً » :

الأبرار هنا تعم المقربين – وأحرى – طالمــا الآيات تنتهي بسيرة أقرب

المقربين[١] اهل بيت الرسالة المحمدية «علي وفاطمة والحسن والحسين ( ع ) »: « يوفون بالنذر .. إنما نطعمكم .. » فانهـا خاصة بهم كما تواترت أحاديث الفريقين[٢] رغم ان كثيراً من مفسري القرآن لم يشيروا الى نزول هذه الآيات بشأنهم عليهم السلام ، وعله تجاهلاً عن فضلهم ، لحدّ عدّوا السورة مكية ، وهي تنادي بمدنيتها كما يأتي .

فهم يشاركون سائر الأبرار في أبر النعم وأوفرها ، ويختصون بمـا لا ينالونهـا ، وهم أصدق المصاديق لآيات الأبرار وعلى حد المروي عن الامـام الحسن المجتبى ( ع )[٣] .

« .. كان مزاجهـا كافوراً » : مزاج الكأس ، لا المشروب ، لذكورته

---

(١) راجع ص ٢٢٢ من ٣٠ : ٢ ، على ضوء الآية « ان الابرار لفي عليين » .

(٢) راجع تفسير البرهان وتفسير نور الثقلين وكفاية الخصام ، تجد فيها تضافر الاحاديث ان الآيات نزلت بشأنهم عليهم السلام وفضة طالمـا ابتدأت بالابرار كل الابرار ، ولكي تشمل فضة خادمة علي وفاطمة ، وممن صرح بذلك الواحدي في كتاب البسيط وصاحب الكشاف رواية عن ابن عبـاس ، وفي الدر المنثور ٦ : ٢٩٩ — اخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله تعالى « ويطعمون الطعام .. » قال : نزلت في علي بن ابيطالب وفاطمة بنت رسول الله ( ص ) .

ومن ذلك ، في الإحتجاج للطبرسي عن امير المؤمنين (ع) حديث طويل يقول فيه للقوم بعد موت عمر بن الخطاب : نشدتكم بالله هل فيكم احد نزل فيه وفي ولده « ان الابرار يشربون.. الى آخر السوره — غيري ؟ قالوا : لا .

(٣) مناقب ابن شهر آشوب باسناده عن الهذيل عن مقاتل عن محمد بن الحنفية عن الحسن بن علي بن ابيطالب ( ع ) قال : كل ما في كتاب الله عز وجل من قوله « ان الابرار » فو الله مـا اراد به الا علي بن ابيطالب وفاطمة وانا والحسين لأنا نحن ابرار بآبائنا وامهاتنا ، وقلوبنا علت بالطاعات والبر ، وتبرأت من الدنيا وحبها واطعنا الله في جميع فرائضه وآمنا بوحدانيته وصدقنا برسوله ( نور الثقلين ٥ : ٤٧٣ — ٤٧٤ ) .

وأنوثة الكأس ، والكافور اسم أكام الثمرة التي تكفرها،مبالغة في الكَفر: الستر [١] ، فمزاج الكافور لكئوس الشراب في الجنة ، كَفرٌ لها عن كسرها وتغيّرها ، وتغييرها لشرابها ، ولم يأت في القرآن مزاج الكافور لشيء إلا الكأس ، وإلا هنا ، آية وحيدة في مزاج الكافور لكأس الجنة .

و « كان » توحي بسبق هذا المزاج عن الشرب والشراب والتفجير ، مما يؤيـــد مزاج الكأس نفسه دون الشراب ، وأنهم مزجوا كؤوس قلوبهم وأرواحهم بما يكفرها ويسترها عن موتها ، ويمدّها لشرب مياه الحيـــاة المعرفية والروحانية .

فهذه سيرة الأبرار في دنياهم ، وتلـك صورة واقعيـة لهم في عقباهم ، كأساً بكأس ، ومزاجاً بمزاج ، وشرباً بشرب ، فمن اين يشربون ؟ :

« عيناً يشرب بها عباد الله يفجّرونها تفجيرا » .وما أحلاها مشرباً من نبعة تنبع بما يفجّرونها تفجيراً أنيقاً يسيراً ليس فيه من تكلف لا كثيراً ولا قليـلا ، وإنما تفجيراً كثيراً وفيراً ، فما أنظفها شرباً وشارباً وكأساً وعينـاً وتفجيراً : عباد الله الأبرار ، كأس الكافور ، عين مفجرة بـذات أيديهم ، وعلّه بغمزة واشارة ، أو قولة وارادة ، أو أياً كان من تفجير كما يشاءون : فـ « فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين » ! .

ثم إن « عيناً » تلمح لواحدة ، فكيف يكتفي عباد الله بعين واحـدة ؟ أم كيف يشتركون كلهم في تفجير هذه الواحدة ؟ ولعل الجواب أنها واحدة في منبع أصيل ، كثيرة في نبعات فرعية في مناكب أرض الجنة ، كلٌ يفجّر هـذه الواحدة عنده بساقية تحت الأرضية عنها ، والأصل من تفجير الله ! :

---

(١) والكافور المعروف تستخرج من شجرة اريجية من فصيلة الغاريات مهدها الاصلي جنوب الصين ازهارها بيضاء ضاربة الى الصفرة .

« ان المتقين في جنات وعيون » (١٥ : ٤٥) عيون مفجرة من تلك الواحدة، وكما المقربون لهم عين خاصة بهم : « عيناً يشرب بها المقربون » ( ٨٣ : ٢٨ ) وقد تجاوب هاتين العينين : « فيهما عينان تجريان » ( ٥٥ : ٥٠ ) « فيهما عينان نضاختان » ( ٥٥ : ٦٦ ) عينان تفجّر من كلّ عيون!.

وهذه « هي عين في دار النبي (ص) تفجر الى دور الانبياء والمؤمنين »[١] كما تفجرت عيون النبوات الى دور النبيين من البيت المحمدي طوال الرسالات الإلهية، والى دور المؤمنين ، فلكلّ عين من هذه الأصيلة يوم الدين حسب ما فجروها يوم الدنيا .

« يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً » :

قد يوحي تأخير « يوفون بالنذر » وهو عمل الدنيا ، عن « يشربون » وهو جزاء الآخرة ، يوحي هذا التعبير العبير بأن الوفاء بالنذر هو من هذه الأعمال الخيرة التي تُشربهم في الجنة وتفجّر لهم عيونها ، كما شربوا حب الله، وحب الفقراء في سبيل الله ، وفجّروا عيون قلوبهم له ولهم ، وكما يوحي بأن الحالة هذه نفس الحالة تلك ، طَبَقاً عن طَبَق ، فحال الأبرار في شربهم موجودة يوم الدنيا ، كما أن حالهم في وفائهم موجودة يوم الدين .

والوفاء بالنذر – ومنه الإيجاب على النفس لسبب – يلمح بأنهم وصلوا في استجابة أمر الله القمة ، فإذ يوفي الإنسان ما يفرضه لله على نفسه فهو أوفى لله بفروضه الأصيلة ، وهذه الآية تجاوبها آيات عدة في وجوب الوفاء بالنذر : « وليوفوا نذورهم » ( ٢٢ : ٢٩ ) « إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم أنسياً » ( ١٩ : ١٦ ) .

---

(١) امالي الصدوق عن الامام الباقر ( ع ) في آية التفجير قال : « هي عين في دار ...

وقد يعم النذرُ إيجاب الواجب، فرضاً على فرض، كإيجاب المندوب فرضاً على نـدب ، فالابرار ينفذون ما اعتزموا من واجبات ، ومـا التزموا من طاعات ، كما ويعم ما أوجب الله عليهم في الميثاق [١] فهم يوفون بنذورهم ونذور الله .

وإنمـا هي صورة لمـّاعة عن قلوب صافية ، وصدور منشرحة ضافيـة ، معتزمة على الوفاء لله ، عاملة لوجه الله ، دون أن تريد إلا مرضـاة الله .

إنهم « يخافون يوماً كان شره مستطيراً » ، فهنا شرٌ مستطير ، وهناك شرٌ ثابت ، فالمستطير هو شرّ الدنيا ، والثابت هو شرّ الآخرة الناتج عن الاولى ، فان شر الآخرة من شر الدنيا المستطير اليها ، فحقيقة الإستطـارة من صفات ذوات الأجنحة : البعثة على الطيران ، فشر الدنيا مبعوث من قبل الله للطيران الى مسجلات الكون : شهود الأعمال ، وللطيران الى اعماق البرزخ والقيامة ، ثم يقف للحساب والجزاء : « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً » (١٧ : ١٣) وإنها تيارات الشر ، كأنها طائرات وهي في أعناق ركابها .

وتجاوب « مستطيراً » ، « كان » فانهـا تلمح بضيّها ، بأن شر الآخرة ـ المستقبل ـ هو استمرار لشر الدنيا ـ الماضي ـ المستطار ، طَبقاً عن طبَق ، فليقطع العـاقل أجنحة الشر وأصولهـا في الاولى ، لكي لا يستطير والى الآخرة .

ولأنهم يخافون ذلك اليوم البئيس العصيب ، يدأبون ـ هنا ـ في أجتثاث جذور الشرور لكي لا تستطير ، ويعملون في استطارة الخيرات لكي تستطير ،

---

(١) اصول الكافي باسناده عن ابي الحسن الماضي في آية النذر قـال : يوفون لله بالنذر الذي اخذ عليهم في الميثاق من ولايتنا .

ومن أسباب ذلك السلب وهذا الإيجاب الإيفاء بالنذر واطعام الطعام على حبّه لوجه الله ، المسكين واليتيم والأسير كما فعله علي وفاطمة والحسنان ( ع ) واحتج به علي ( ع ) على أبي بكر [١] .

**« وَيُطعِمونَ الطعامَ على حبّه مِسكيناً ويتيماً وأسيراً ، إنما نُطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً » .**

مكرمة أخرى للأبرّين ، هي إطعام الطعام على حبّه للمحاويج ، ايثاراً على أنفسهم ، وبهم خصاصة ! لوجه الله لا سواه ، أركان ثلاثة في الإنفاق ترفع به الى قمّته ، وتوحي بالخير المستطير ، بعد ما اجتثوا جذور الشر المستطير .

١ ـ فمن أصول البرّ والانفاق الحسَن أن يكون محبوباً،طعاماً وإطعاماً: « على حبّه » فلا كرامة في إطعام الطعام المرذول ، أو إطعام مكروه وان كان الطعام محبوباً وكان لوجه الله : « لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون » ( ٣ : ٩٢ ) حبّاً مزدوجاً للإنفاق وما تنفقون .

والنص « على حبّه » : الطعام والإطعام لا « في حبّه » لكي يؤول الى حب الله : « وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » ( ٢ : ١٧٧ ) ، اضافة الى أن الطعام هو المرجع الاقرب « الطعامَ على حبّه » و « الله » أبعد في الموقع الكلامي « عيناً يشرب بها عباد الله » وان المضاف اليه كـ « الله » هنا ، لا يرجع اليه ضميرٌ أياً كان .

---

(١) الخصال في احتجاج علي ( ع ) على أبي بكر قال : أنشدك بالله انا صاحب الولاية « يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً » أم انت ؟ قال : بل انت ( نور الثقلين ٥ : ٤٧٧ ) .

ومن الناحية المعنوية ايضاً قد يُطعَم الطعـام غير المحبوب في حب الله ، وأما إذا يطعم المحبوب لوجه الله فهو الوجه الأحسن في الإطعام ، ووجه الله مذكور بعده « إنمـــا نطعمكم لوجه الله » فلمـــاذا يؤول « على حبه » الى حب الله ؟

كلا : إنما على حب الطعام والإطعام ، حباً عالياً الى حاجة مدقعة لهؤلاء المطعمين ، فلم يقل « مع حبّه » إنما « على حبّه » مـا يوحي باستعلاء حبّه عليهم ، لا حباً ذاتياً للطعام أو نوع الطعـام ، فإنهم كانوا أخلص المخلصين وأبر الأقربين ، لا يحبون إلا لله وفي الله ، فإنمـــا حباً لإدمان الصيام الذي نذروه ، ولتقوى أبدانهم على طاعة الله وتقواه ، ومعهم الطفلان الحسنان ! وأنهم حصلوا الطعام على مشقة وصعوبة بالغة .

فهم ــ على حبهم هكذا طعام ، وحبهم الإطعـام يطعمون لقمة الفطور وبلغة الصيام للمحاويج السائلين ، بأريحية نفس ورحمة قلب وخلوص نية ، وكما فعله علـي وفاطمة والحسنان « وهما صغيران » [١] ومعهما الخـادمة فضة وقد تواترت به أحاديث الفريقين [٢] .

---

(١) امالي الصدوق عن الامام الباقر والصادق ( ع ) في الآية انهما قــالا : مرض الحسن والحسين وهمـــا صبيان صغيران فعادهما رسول الله (ص) ومعه رجلان ... وفيه انهما صاما مع ابويهما ــ الى نهاية القصة .

(٢) رواه فيمن رواه ابو صالح ومجاهد والضحاك والحسن وعطا وقتادة ومقاتل والليث وابن عباس وابن مسعود وابن جبير وعمرو بن شعيب والحسن بن مهران والنقاش والقشيري والثعلبي والواحدي في تفاسيرهم،وصاحب اسباب النزول والخطيب المكي في الاربعين وابو بكر الشيرازي في نزول القرآن في أمير المؤمنين ( ع ) والأشنهي في اعتقاد اهل السنة وابو بكر محمد بن احمد بن الفضل النحوي في العروس في الزهد ، وروى أهل البيت عن الاصبغ بن نبـــاتة وغيرهم عن الباقر ( ع ) ( نور الثقلين ٥ : ٤٧١ عن المناقب لابن شهر اشوب ) .

٢ – ومن أصول الإطعام أن يحل محله الأحرى والأحوج، ولا أحوج من: مسكين أسكنه العدم عن الحراك في حاجيات الحيـــاة، ويتيم انقطع عمن يُصلح شأنه وهو قاصر عما يصلحه، وأسير: سجين أو ملك يمين: هـؤلاء المحاويج الذين لا يجدون حيلة ولا سبيلاً، الذين طرقوا باب الرحمة سائلين، فآثرهم أهل بيت الرحمة على أنفسهم وقد كانت بهم خصاصة!

هنا تظهر مدنية هذه الآيات[١] لمكان الأسير بين السائلين، ولم يكن المؤمنون

(١) لقد روى نزول هذه الآيات في المدينة فيمن رواه: السيوطي في الإتقان عن البيهقي في دلائل النبوة عن عكرمة والحسين بن ابي الحسن، وعن الضريس في فضائل القرآن باسناده عن عثمان بن عطاء الخراساني عن أبيه عن ابن عبـاس، وعن البيهقي في الدلائل عن مجاهد، وجـلال الدين السيوطي في الدر المنثور باسناده عن ابن عباس، وأبو حمزة الثمالي في تفسيره، والطبرسي عن السيد ابو الحمد مهدي بن نزار الحسيني القايني باسناده عن ابن عباس، والاستاذ احمد الزاهد عنه.

والقصة حسب نقل البحراني في غاية المرام عن أبي المؤيد الموفق بن أحمد في كتاب فضائل أمير المؤمنين (ع) والحمويني في كتاب فرائد السمطين وعن الثعلبي والواحدي في تفسيرهما، وفي الكشاف: «ان الحسن والحسين مرضا فعادهما رسول الله (ص) في ناس معه فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت على ولديك، فنذر علي وفاطمة وفضة جارية لهما إن برآ مما بهما ان يصوموا ثلاثة أيام فشفيا وما معهم شيء.

فاستقرض علي من شمعون الخيبري اليهودي ثـلاث أصوع من شعير فطحنت فاطمة صاعاً واختبزت خمسة أقراص على عـــددهم فوضعوها بين أيديهم ليفطروا فوقف عليهم سائل فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد! مسكين من مساكين المسلمين أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة فآثروه وباتوا لم يذوقوا إلا الماء واصبحوا صياماً، فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم فآثروه، ووقف عليهم أسير في الثالثة ففعلوا مثل ذلك فلما أصبحوا أخذ علي بيد الحسن والحسين وأقبلوا الى رسول الله (ص) فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال: ما أشد ما يسوءني ما أرى بكم فانطلق معهم فرأى فاطمة في محرابها قد التصق ظهرها ببطنها وغارت عيناها فساءه ذلك فنزل جبرئيل وقال: خذها يا محمد هناك الله في أهل بيتك فأقرأه السورة.

في مكة في حرب حتى يأسروا ، ولا في قـوة حتى يجسروا أن يأسروا المشركين،وإنما كانوا هم في أسرهم وحصرهم حتى اضطروا للهجرة الى المدينة، ومن ثم قويت شوكة الإسلام وبدأت دولته ، فكان أسير وحصير بأيديهم من جراء حروبهم مع المشركين ، وكان الأسير منهم[١] لا من المسلمين إذ لا يعهد أسر المسلم إسلامياً ، اللهم إلا الكتابي ولم يكن منهم أسير وقتذاك .

فهنيئاً لآل بيت الرسالة المحمدية إذ تنزل السورة بشأنهم،كما قال جبرائيل: « خذها يا محمد هنّاك الله في أهل بيتك، فأقرأه السورة ، مهما شملت من حذا حذوهم ونحا نحوهم .

وهنا يبرز الحنان الإسلامي بشأن بني الإنسان كافـة ، وأسارى الحرب ، المشركين ، فلا يرضى أن يظلوا جياعـاً ، ولا يأسرهم إلا عن أخطارهم ، وليتعرفوا الى الإسلام في أسر المسلمين في دورهم وديارهم ، علّهم يؤمنون أو يؤمَنون دون حبس وتعطيل عن الحياة إلا لضرورة ، وسئوال الأسير هنا أقرب شاهد انه لم يكن سجيناً مهما كان تحت الرقابة في بـلد الإسلام ، « وقـد كان يؤتى الرسول ( ص ) بالأسير فيدفعـه الى بعض المسلمين فيقول أحسن إليه فيكون عنده اليومين والثلاثة فيؤثره على نفسه »[٢] .

ويعم الأسير كلّ من هو في أسر الإنسان معنوياً أو مادياً ، إلجاءً عليه ، أو لجأ إليه ، كـ « عيـال الرجـل ، ينبغي له إذا زيد في النعمة أن يزيد

---

(١) الدر المنثور - اخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن مردويه عن الحسن قال : كان الأسارى مشركين يوم نزلت هذه الآية « ويطعمون الطعام ..» .

(٢) تفسير روح المعاني للألوسي ج ٢٩ ص ١٥٥ عن الحسن.

أسرائه في السعة عليهم »[١] ومملك اليمين[٢] ، والغريم كما عن الرسول(ص) « غريمك أسيرك فأحسن الى أسيرك »[٣] هذا وكذلك ـ بالأحرى ـ كل من تموله علمياً وعقائدياً .

كما وان المسكين واليتيم يعمان المسكنة واليتم معنوياً كما يعمان المادي سواء .

٣ ـ ومن أصول الإطعام أن يكون لوجه الله دون مَنٍّ ولا أذىً « إنما نطعمكم لوجه الله .. » دون سائر الوجوه المادية والمعنوية :جزاءً أو شكوراً، رحمة فائقة فائضة من قلوب رفيقة ندية على من لا يرجى خيرهم ، وإنما ابتغاء مرضاة الله ورجاء رحمـــة الله ، متجردة عن البواعث الارضية ، الى باعث سماوي فقط هو وجه الله : مرضاته ، لا ذاته ولا وجه الذات ، إذ لا وجه له كما لنا .

وهذه التجردية هي حجر الاساس في بنـاية الإنفـاق على المحاويج ، وفي سبل الخير : الفردية والجمـاعية ، تضامنة اجتماعية عريقة على أساس التقوى وروح الحنان لبني الإنسان عامة ، وللصالحين خاصة ، تهذيباً لأرواح الباذلين ورفعها الى مستوىً رفيع ، وحفاظـاً على كرامة وسيادة المبـذول لهم ، وتعميماً للبذل .

---

(١) أصول الكافي بإسناده عن أبي الحسن ( ع ) قال : ينبغي الرجل أن يوسع على عياله لئلا يتمنوا موته وتلا هذه الآية « ويطعمون الطعام على حبه ... » قال: الاسير..وعن الرسول (ص) « اتقوا الله في النساء فانهن عندكم اعوان » ( تفسير الرازي ج ٣٠ ص ٢٤٥ ) .

(٢) تفسير الرازي ج ٣٠ ص ٢٤٥ روي مرفوعاً من طريق الخدري عن النبي (ص) في الآية قال : مسكيناً ، فقيراً ، ويتيماً : لا أب له ، وأسيراً : المملوك المسجون .

(٣) تفسير روح المعاني للألوسي ج ٢٩ ص ١٥٦ .

ولو كان البذل محصوراً في حصار التجارات : جزاءً أو شكوراً، أصبح الكثير من ذوي الحاجة محرومين ، ولو كان مقروناً بمنٍّ أو أذىً انقلب عاراً في أنفس المحتاجين ، ولكنه اشترط في الإنفــاق أن يكون مما نحب وبطريقة حبيبة بعيدة عن المنّ وعن بغيةِ الجزاء والشكور ، وعن لمحات توحي بوهن ومهانة للمعطى ، واستعظام للمعطي ، ولكي يصبح الإنفاق كأنه من يد الله دون وسيط ، ويا له إنفاقاً عزيزاً رفيقاً يصاحب حيوية العاطفة ويحافظ على حساسية القلوب .

وهل إنهم خاطبوا مسكيناً ويتيماً وأسيراً هكذا : إنما نطعمكم..قولةً في آذانهم ؟ ولا نلمس هنا نقل قول : «قالوا إنما .. » ولا ان في قول اللسان رجحان،وقد يكون نقصاناً من روحانية الإطعام وإخلاصه فـ « والله ما قالوا هذا لهم ولكنهم اضمروه في أنفسهم فأخبر الله بإضمارهم ، يقولون : لا نريد جزاء تكافوننا به ، ولا شكوراً تثنون علينا به ، ولكنا إنما أطعمناكم لوجه الله وطلب ثوابه » (١) : ومن أثوب ثوابه معرفته ومرضاته وهذه عبـــادة الأحرار !. فليست إذاً قولة في الآذان ، وإنما قالوا في أنفسهم قولاً بليغاً ، فإطعــام الطعام هكذا ــ مع مــا تصحبه من ملابسات ــ تنفي الرئاء وسائر وجوه النية السيئة ، وإنه تعبير عبير في أنفس المحاويج عن « إنمـا نطعمكم لوجه الله ... » دون قولة باللسان ، فالتلميح أبلغ من التصريح : « لا نريـد منكم جزاء ولا شكوراً » : لا مكافأة ولا اظهاراً بثناء جميـــل ، أو تلميحاً للناس أن ذلك من فلان وفلان ، فان شكر النعمة وشكورها هو اظهارهـا قلباً أو لساناً أو عملاً ، فـ « إنما » هناك تنفي كل غاية من هذا الإطعـام إلا وجه الله ، لا واقع الجزاء والشكور فهم رافضوه ، ولا إرادته أو نيته فهم مترفعون عنها ، وإنما ارادة وجه الله لا سواه .

(١) امالي الصدوق عن الصادقين ( ع ) في حديث طويل عن القصة .

فهل لا يريدون من الله أيضاً جزاء كما لا يريدون منهم ؟ تلمح « إنما ... » أنهم لا يطمعون جزاء ولا من الله ، فانها عبادة الأجراء ! ولا تحرزاً عن عذاب الله فإنها عبادة العبيد ! وإنما يعبدونه لأنه الله ، « لوجه الله » وإنها عبادة الأحرار ، فهؤلاء الأبرار هم أبر الأحرار ، ولا تعني « منكم » نفي ترقب الجزاء والشكور منهم فقط ، وإنما كأقرب الجزاء المترقب ، و« إنما » المسبقة تحصره في وجه الله ، اللهم إلا أن يكون ترقُّبه من الله بأمر الله ولوجهه ، لا أجراً منه ، ثم وليس خوفهم يوماً عبوساً قمطريراً إلا خوف البعد عن زلفاه ومعرفته ورضاه ، وإنما هي جنة الرضوان يعملون لها ، ونيران البعد يتحذرون عنها :

« إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً » :

« نخاف من ربنا » خوفاً من ربوبيته لعدله ، الظاهر « يوماً عبوساً » : قاطباً وجهه معبِّساً « يقبض ما بين الأبصار »[1] يستدل بعبسه وقطوبه على إرصاده بالمكروه وعزمه على ايقاع الأمر المخوف « قمطريراً » : شديداً ضره ، طويلاً شره ، وهذا اليوم نفسه متطلق مستبشر لمن يخافون ربهم فيحسبون حسابه حياتهم ، فالطَّلق والعبس ليوم الحساب ، كلٌّ بحساب كيفية الحساب ، دون أن يحمل اليوم بذاته أياً منها إلا ميزان الحق والعدل .

فـ « الكافر يعبس يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عرق مثل القطران »[2] والمؤمن يُلَقَّى نضرة وسروراً :

« فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقّاهم نضرةً وسروراً »

« فوقاهم الله » بما وقوا أنفسهم يوم الدنيـــا واتقوا « شر ذلك اليوم »

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٢٩٩ — اخرجه ابن مردويه عن انس عن النبي (ص) في الآية .

(٢) تفسير روح البيان ١٠ : ٢٦٧ كما روي أن الكافر ...

وعبثه وقطوبه « ولقاهم » : استقبلهم « نضرة » في وجوههم « وسروراً » في قلوبهم [١] تلقية لكيانهم ككلّ إعلاناً وإسراراً كما كانوا يوم الدنيا ناضري الوجوه وطاهري القلوب .

**« وجزاهم بمـــا صبروا جنة وحريراً ، متكئين فيها على الآرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً » :**

طرف من نعيم الجنة إيجاباً وسلباً جزاء بما صبروا في الله على الحرمان من نعيم الدنيا ، وعلى طاعة الله ، وعن معصية الله .

فبعد أن سبق شرابهم من كأس الكافور ، هنا يجمـــل في ذكر مكانهم وأكلهم بـ « جنة » ثم تختص الحرير من لباسهم ، فإن « لباسهم فيها حرير » ( ٢٢ : ٢٣ ) أنعم لباس وألينه وأحسنه ، فهذه نعم إيجابية .

ثم سلبية هي عدم رؤية شمس ولا زمهرير ، فهم في حياة مريحة مطمئنة ناعمة معتدلة دون أن يلمسوا شمساً لاهبة ساخنـة ولا برداً قارساً ، عوان بين ذلك سجسج لا قرّ فيها ولا حرّ .

تُرى إن الأبرار لا يرون فيها شمساً لأنها كورت عند قيامتها فـلا شمس هناك ؟ ولا زمهريراً لأنها لا تكون ؟ إذاً فليست هذه نعمة يختصون بها عن أهل النار ، إذ هم يشاركونهم في عدم الرؤية هذه وتلك !

أو إن في سماء القيامة شمس غير هذه المكوّرة ، فقد ترجع هي شمساً أو غيرها من غازات فتصبح شمس الآخرة أو شموسها ، كما ان هناك زمهريراً : برد قارس شديد ، فزبائن الشمس ونورها النافذ هي على أهل النار عذاب فوق العذاب ، وأهل الجنة لا يرونها ، اذ تجنبهم أشجارُها عن نورها ، وجوُّها

---

(١) امالي الصدوق عن الصادقين ( ع ) ( نور الثقلين ٥ : ٤٨٠ ) .

عن نارها ، كما ان زمهرير على أهل النار عذاب فوق العذاب ، فأهل الجنة لا يرون بردها وقرّها ، إذ تبعد عن أولاء وتقرب من هـؤلاء ، فالأبرار في جنة عادلة معتدلة عوان ، في دلال وظلال : « ان المتقين في ظلال وعيون » ( ٧٧ : ٤١ ) « وندخلهم ظـــلاً ظليلاً » ( ٤ : ٥٧ ) « وظل ممدود » ( ٥٦ : ٣٠ ) .

ولا معنى لظل ولا ظلال ، إذ لا شمس تشرق وتحرق ، فالظل دليل الشمس كما الشمس دليل الظل « ألم ترَ الى ربك كيف مدّ الظل ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً » ( ٢٥ : ٤٥ ) .

وهل إن زمهرير العذاب لأهل النار كلهم مع النار ؟ لا دليل على الشمول! فإنها الآية الفريدة في ذكرها سلباً عن الأبرار ، لا إيجاباً على كل أهل النار !

أو ان المعذبين بزمهرير لا يعذبون بالنار ؟ تنافيه الآيات في شمول النار لغير الأبرار ! إذاً فهما في الجحيم متقاربان وكما في المروي عن الرسول ﷺ[1].

ومن ثم إذا اختصت زمهرير ببعض أهل النار أو شملتهم ، فكيف يُجمع بين هذين المتناحرين المتنافرين ، وكلٌ يخفف الآخر ويفنيه !

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٣٠٠ — أخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والترمذي وابن مردويه من طرق عن أبي هريرة قال قال رسول الله (ص) اشتكت النار الى ربها فقالت رب أكل بعضي بعضاً فجعل لها نفسين نفساً في الشتاء ونفساً في الصيف فشدة ما تجدونه من البرد من زمهريرها وشدة ما تجدونه في الصيف من الحر من سمومها . واخرج نحوه عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن قال ذكر لنا ان نبي الله (ص) قال:...وفيه عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله (ص) في حديث : واذا كان يوم شديد البرد .. قال العبد لا إله إلا الله مـــا أشد برد هذا اليوم اللهم أجرني من زمهرير جهنم قال الله لجهنم ان عبداً من عبيدي استجارني من زمهريرك واني أشهد أني قد أجرته ، فقالوا وما زمهرير ؟ قال كعب : بيت يلقى فيه الكافر فيتميز من شدة بردها بعضه من بعض .

هذا الواقع الخطير من عذاب النار الزمهرير، يجاوبه واقع النار في الشجر الأخضر : « الذي جعل لكم من الشجر الاخضر ناراً فاذا أنتم منه توقدون » (٣٦ : ٨٠ ) « أفرأيتم النار التي تورون . ءأنتم انشأتم شجرتها أم نحن المنشئون » (٥٦ : ٧٢) وآية غرق آل فرعون في الماء والنار : « مما خطيآتهم اغرقوا فأدخلوا ناراً » (٧١ : ٢٥) ناراً برزخية أدخلوها وهم غرقى الماء[١] وتجاوبه أولاً وأخيراً القدرة الإلهية النافذة في كل شيء ، ان يجعل المنافرين يساعد بعضها بعضاً جنباً بجنب !

ثم الرؤية المنفية في الشمس والزمهرير ، ليست هي رؤية البصر فحسب ، وإنما رؤية الإدراك المزعجة : لمسة الحرارة والبرودة ، وابصار عين الشمس ونورها الضارية ، واما إبصار الزمهرير ، ومن بعيد ، فلا عذاب فيه ، كما لا عذاب في رؤية النار لأهل الجنة ، بل رحمة فوق رحمة أن يروا أعداء الله كيف يعذبون ! كما تجاوبها آيات التراني والحوار بين أهل الجنة والنار .

وكما تبعد عنهم الشمس والزمهرير ، كذلك تدنو منهم ظلال الجنة عن الشمس :

**« ودانيةً عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً » :**

ودانية عليهم ظلال الجنة بما تجنهم من شجراتها وقصورها ، والقطوف جمع قِطف: المقطوفة المجتناة، وهي عناقيد الاعناب وأشباهها ، ذللت لهم : جعلت قريبة من أيديهم ، غير ممتنعة على مجتنيهـــا ، لا يحتاجون الى معاناة في اجتنائها ، ولا مشقة في اهتصار أفنانها ، كالظهر الذلول يوافق صاحبه ، ويواتي راكبه ، راحة لهم مرهفة وضيئة ، غير شماس مستصعبة ،

(١) راجع تفسير الآية في سورة نوح .

فـ « من قربها منهم يتناول المؤمن من النوع الذي يشتهيه من الثمار بفيه وهو متكيءٌ »[١].

والتذليل هنا من الذّل : ضد الصعوبة – كالارض المذلول – لا الذُّل : ضد العز والحمية ، حيث الجنة عزٌ بحذافيرها ، بنعيمها وأهليها .

**« ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا ، قوارير من فضة قدروها تقديراً » :**

« ويطاف عليهم » : والطائفون « ولدان مخلدون » (٥٦ : ١٥)« بآنية »: كئوس « من فضة » ويا لفضة الجنة من صفاء وجلاء ! « وأكواب » : كوز وأقداح لا عروة لها « كانت قواريراً » وليست قوارير زجـاجية ، وإنما « قوارير من فضة » أصلها فضة ، وقواريرنا هنا من الحصى ، واذا كانت قوارير الحصى الدنيا، لها جلاؤها وصفاؤها[٢] فكيف اذاً قوارير فضة الأخرى، والفضة في الدنيا لا تصبح قوارير كيفما رقت ولطفت ! فلو ضربتها حتى جعلتها مثل جناح الذباب لم يُرَ الماء من وراءها . فنسبة قارورة الجنة الى قـارورة الدنيا هي نسبة فضتها الى حصى الجنة وأدنى ! ثم الاكواب هذه ، الشفافة المتلألئة ، التي تزيد شرابها صفاء كما تزيدها جلاء ، إنها توضع في صحاف من ذهب : « يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب » (٤٣ : ٧١)...«قدروها تقديراً » : آنيةً وأكواباً وشراباً كما يشتهون ، فمن لذة الماء والشراب أن يكون على قدر الريّ لا زائداً يُرفض ، ولا ناقصاً ينقص .

---

(١) روضة الكافي بإسناده عن أبي جعفر الباقر ( ع ) قال : ان رسول الله (ص) سئل عن قول الله عز وجل « ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا » ؛ قال : ... وفي آخره : وان من الفاكهة ليقلن لولي الله يا ولي الله كلني قبل ان تأكل هذه قبلي ( نور الثقلين ٥ : ٤٨١ ) .

(٢) المجمع ١٠ : ٤١٠ عن الامام الصادق ( ع ) في « قوارير من فضة » : ينفذ البصر في فضة الجنة كما ينفذ في الزجاج .

فآنية الفضة ، وأكوابها القوارير في صحاف الذهب ، بطائفيها الولدان المخلدين اللؤلؤ المنثور ، تزيد الأبرار قراراً بين الظلال الوارفة ، والقطوف الدانية والجو الرائع ، ما لم تعهده الأرض ، ولا تصوراً !.

وهل المشروب بآنية الفضة من قواريرها ، هو الماء ؟ أم خمر الجنة؟ علها هي [١] حيث يذكر شراب الماء بعدها من ماء السلسبيل :

**« ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً . عيناً فيها تسمى سلسبيلاً »**

فللأبرار كأسان لشراب الماء ، كأس الكافور وكأس الزنجبيل [٢] : « عيناً يشرب بها عباد الله » و « عيناً فيها تسمى سلسبيلاً » : سهلاً لذيذاً حديد الجرية ، غاية في السلامة وسهولة الانحدار في الحلق [٣] فـ « سل » عنها « سبيلاً » [٤] يوم الدنيا ، ان تدخل في صنف الأبرار ، فتشرب منها يوم الدين .

ومزاج الزنجبيل كمزاج الكافور هو كوقاية للكئوس بما فيها من ماء الجنة

---

(١) راجع ٣٠ : ١ ص ٢٢٦ : خمر الدنيا والآخرة ، في ظل « يسقون من رحيق مختوم ».

(٢) قال الدينوري « الزنجبيل نبت في ارض عمان وهو عروق تسري في الارض وليس بشجرة ، ومنه ما يحمل من بلاد الزنج والصين وهو الاجود وكانت العرب تحبه لانه يوجب لذعا في اللسان اذا مزج بالشراب فيتلذذون » اقول : وزنجبيل الجنة يزيد لذة للشاربين كما يعلمها اهلها .

(٣) لم تذكر سلسبيل إلاهنا ، وقد يقال انها لم تسمع في غير القرآن اذ لاتوجد الا في الجنة ، فليكن اسمها ايضاً خاصاً بها وكما يوحي له «تسمى » بما يختص هذا الاسم بهذه العين في الجنة .

(٤) تفسير الرازي ٣٠ : ٢٥٠ وقد عزوا الى علي بن ابيطالب ( ع ) ان معناه : « سل سبيلاً اليها » .

وخمرها ، وكما أن خمر الجنة وماءها جنة الخمور والميـــاه ، كذلك زنجبيلها وكافورها .

وقد يذكر من عيون الجنة كنبعات أصلية لمياههـا وأنهارها عيون عدة : هي الكوثر والسلسبيل والتي يشرب بها عباد الله والتسنيم ، ونبعة الكوثر هي في جنة الرسول ﷺ ولها سواقي الى بيوت النبيين والمقربين والصديقين والشهداء والصالحين .

« ويطوف عليهم ولدان مخلدون ، إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثورا »

«ويطوف عليهم» كخدام لحاجياتهم «ولدانٌ مخلدون»: دائمون في طوافهم ، وفيما هم عليه من البهاء والجمال وحسن الخدمة ، كما هم في الجنة خـالدون ، خلوداً مثلثاً لا يعنى منه هنا الأخير ، فإن أهل الجنـة كلهم خالدون ، دون اختصاص بـ « ولدان مخلدون » .

ومـن حسن منظـرهم : « إذا رأيتهم » — وأنت أول من تراهم — « حسبتهم » : حسباناً في النظر والبصر « لؤلؤاً منثوراً » : منثوراً بـين أيدي أهل الجنة ، مبذولاً لهم متوفراً ، ورغم ان اللؤلؤ المنظوم له جماله ، ولكنما المنثور أجمل وأروع ، للتشعشعات المتقابلة بينها ، ولأنه تدل ألا قيمة له وجاه أهل الجنة ، فطالما للمنظوم حساب ، فليس للمنثور المنثور حساب.

« وإذا رأيت ثَمّ رأيت نعيما وملكا كبيرا »

نعيما لأهل الجنة كلهم على درجات ، وملكا كبيراً لهم كلهم على درجات ، وهو من أفضل النعيم إذ يرجع الى حظوة الروح ، ولا سيما نعيم القرب والرضوان من الله ، « ورضوان من الله أكبر » ، فالرسول هو ملـك الملوك في الجنـة بكل ما له من معنى عادل ، وعلى حد قوله ﷺ : « أنا أولهم خروجاً إذا خرجوا ، وأنا قائدهم إذا وفدوا ، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا ، وأنا مستشفعهم

إذا جاسوا ، وأنا مبشرهم إذا أيسوا الكرامة ، والمفاتيح بيدي ، ولواء الحمد بيدي ، وآدم ومن دونه تحت لوائي ولا فخر ، يطوف عليهم ألف خادم كأنهم بيض مكنون ، أو لؤلؤ منثور » [1] .

وإن النعيم العميم والملك الكبير في الجنة بعد العناء الطويل في الدنيا ، هو من شئون نزول الآية [2] ، ومن النعيم :

**« عالِيَهم ثيابُ سندس خضرٌ وإستبرقٌ وحُلُّوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً » .**

« عاليَهم » : مكان تعلوهم على أرائكهم [3] وتعلوهم على أبدانهم : لا يتكلفون في لبسها ، وإنما تعلوهم الثياب فيلبسونها [4] « ثياب سندس خضر » : ما رقّ من الحرير لهم شعاراً « واستبرق » : ما سمك منه لهم دثاراً فوق الشعار ، وكلاهما خضر : « ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق » ( ١٨ : ٣١ ) « .. متقابلين » ( ٤٤ : ٥٣ ) تقابلاً بينهم وفي ثيابهم ونعمائها ، ومن خواص الحرير ــ إضافة الى ليونته ولطافته ــ أنه لا يجذب حرارة ولا برودة ، وإنما

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٣٠٠ — أخرج ابن مردويه عن أنس قال قال رسول الله (ص) :

(٢) الدر المنثور ٦ : ٣٠١ — أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة قال دخل عمر ابن الخطاب على رسول الله (ص) وهو راقد على حصير من جريد قد أثر في جنبه فبكى عمر فقال ما يبكيك ؟ فقال: ذكرت كسرى وملكه وقيصر وملكه وصاحب الحبشة وملكه وانت رسول الله على حصير من جريد ، فقال (ص) : « أما ترضى ان لهم الدنيا ولنا الآخرة فأنزل الله : وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً » .

(٣) منصوب على الظرف كـ « والركب أسفل منكم » لا الحالية فان الحال لزامها التنكير ، ولا كونه مفعولاً لـ « رأيت » إذ يقتضي نصب ثياب كمفعول ثان ، ولا تصح قراءة الجزم إذ المدار على المتواترة الموجودة في المصاحف .

(٤) مجمع البيان : روى عن الصادق ( ع ) .

يساير حرارة البدن والهواء لأنه حرير : حُرٌ طليق عن التأثر والتأثير ، والخضر أحسن الألوان وأنضرها وأطراها .

« وحلّوا » : زُيِّنوا « أساور » جمع سِوار معرب : دستوار ، زينة الزَّنْد ، زيّنت بها زادهم « من فضة » ويا لها من صفاء لبياضها ، ومن ذهب ولؤلؤ : « يحلّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤ ولباسهم فيها حرير » ( ٣٥ : ٣٣ ) أساور من أجلها : ذهباً وفضة ولؤلؤ .

« وسقاهم ربهم شراباً طهوراً » فماذا « حلّوا » و « سقاهم » كأمر مضى وهو يستقبلهم بعد الموت ؟ علّه لأن تلك التحلية وذلك السقي ، مما حلّوا به أنفسهم يوم الدنيا بلباس التقوى ، وسقوا قلوبهم حب الله ، فستقبلهم إنما هو ابن ماضيهم ، فقد يعبّر عن سبب مضى ، وقد يؤتى بمسبَّب يأتي .

وكما كان شرابهم يوم الدنيا طهوراً : طاهراً في نفسه ، مطهراً لهم عن سائر الأقذار ، كذلك يتجلى يوم الدين شراباً طهوراً : يطهرهم عن سائر الأقذار وإن كان خمراً ، فبين خمر الدنيا والآخرة بون الجنة والنار ، فطالما خمر الدنيا تخمر عقل الإنسان وصحته ، فخمر الآخرة تستره عما سوى الله : « وأنهار من خمر لذة للشاربين » ( ٤٧ : ١٥ ) « لا فيها غَولٌ ولا هم عنها يُنزَفون » ( ٣٧ : ٤٧ ) « لا يُصَدَّعون عنها ولا يُنزَفون » ( ٥٦ : ١٩ ) : لا فيها صداع الرأس ولا فراغ العقل ونزفه [١] .

« إن هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكوراً » : كان جزاءً فضلاً من الله ، لا استحقاقاً عليه ، جزاءً بما وَعَد وكتب على نفسه من فضل ورحمة ، لولاه لم يكن استحقاق « وكان سعيكم مشكوراً » يشكركم به الله : « ومن

(١) راجع ج ٣٠ ص ٢٢٦ من هذا التفسير .

تطوع خيراً فان الله شاكر عليم » ( ٢ : ١٥٨ ) ونفس هـذا الشكر نعمة فوق النعم فانه من جنة الرضوان ونعمته، يشكرنا ربنا أن عملنا من الصالحات لصالحنا : « ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فـان ربي غني كريم » ( ٢٧ : ٤٠ ) .

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ تَنْزِيلاً ٢٣ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً ٢٤ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ٢٥ وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ٢٦ إِنَّ هٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً ٢٧ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً ٢٨ إِنَّ هٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ٢٩ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ٣٠ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَٱلظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ٣١ » .

**« إنا نحن نزّلنا عليك القرآن تنزيلا . فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا » :**

تسلية أنيسة لخاطر الرسول الأقدس ﷺ الجريح من تهريجات المعارضين، سلواناً بمثلث التنزيل للقرآن العظيم : « إنا » ، « نحن » ، « نزلنـا » نزولاً في ظـلال جمعية الصفات والأسماء الحسنى الإلهية « نا – نحن – نا » فبـا له من قوة وروعة في التنزيل ، ما له من مثيل بين كتابات السماء !.. لذلك فليصبر

صاحب هذه الرسالة صبراً طويلاً لحكم ربه، صبراً يساير الحكم تثبيتاً وتنفيذاً، وصبراً يدافع عنه إذ يصدر أمر ربه بملاحقة المعارضين .

إنها ملابسات معركة مصيرية واحدة يخوضها كل صاحب دعوة في أي عصر ومصر ، فليصبر صبراً جميلاً صارماً في وجه الطغاة دون انفلات عن الدعوة ولا فشل ، لعلّ الله يُحدث بعد ذلك أمراً ، ودون أن يطيع منهم آثماً أو كفوراً ، فهناك طرق لهم شق من الإغراء والإطراء ، والتهديد والإيذاء، ليلتقي بهم صاحب الدعوة في منتصف الطريق ويسايرهم مداهناً ، ولكنه نقصٌ في الدعوة ونقضٌ لها ، فلتكن صارمة صابرة دون انزلاق عنها ولا قيد شعرة ، حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .

**« واذكر اسم ربّك بُكرة وأصيلاً ، ومن الليل فاسجد له وسبّحه ليلاً طويلاً » :**

إن العبء ثقيل ، والطريق لتحقيق أمر الله طويل ، فلا يكتفى فيه بزاد قليل ، بل ذكراً لله تعالى بكرةً وأصيلاً ، والسجود والتسبيح ليلاً طويلاً ، اتصالاً دائباً بالمصدر الذي نزل عليك القول الثقيل ، لتخف عليك أتعاب الدعوة ومشاغبها وعراقيلها .

والبكرة هي الصبح ، والذكر الواجب فيها هي صلاة الصبح ، والأصيل من الأصل هي قاعدة النهار وأصله في الطرف الأخير ، والواجب فيه صلاة العصر ، والسجدة المأمور بها ليلاً هي فريضة الليل : العشاءان أم إحداهما ، والآية على أية حال لا تشمل الفرائض الخمس كلها ، كآية هود : « وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل » ( ١١ : ١١٤ ) مما يدل على مكيتها ونزولها قبل فرض الخمس ، وقد نوافيكم بالبحث الفصل حولها في طيات آياتها .

**« إن هؤلاء يُحبّون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً » :**

إن الأثمة والكفَرة يحبون الحياة العاجلة ، حباً لا يُبقي لهم ولا يذر

مجالاً أن يعملوا للآجلة ، ليوم ثقيل بأوزارهم التي قدموها ، فبدل أن يجعلوا هذا اليوم الأمـــام إمامهم : يذكرونه ويعملون له ، إنهم يذرونه وراءهم ظهرياً كأنه لا يأتيهم ، وإنمـــا العاجلة أمامهم وإمامهم ، يُبصرون إليه فيُعميهم ، ولا يبصرون به ليبصّرهم : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » (٣٠ : ٧) غرقى في عاجلة الدنيا الخفيفة التي تمضي على أية حال ، وغافلين عن الآجلة الثقيلة البعيدة المدى : ثقيلة بخلودها ، ثقيلة بنتائجها ، ثقيلة بحسابها ، فيا لهم من غفوة وغفلة شملتهم وأعمتهم وجنّنتهم ، حياتاً صبيانية زهيدة حمقاء !

« نحن خلقناهم وشدَدنا أسرَهم وإذا شئنا بدّلنا أمثالهم تبديلاً » :

لفتة تذكر هؤلاء الغافلين المغترين بقوتهم ، المعتزمين التغافل طول حياتهم ، تذكـّرهم بمبتدءهم ومنتهاهم : فقــد صدروا بخلقهم وشدة أسرهم ــ : ربطهم الموثق ، ــ صدروا من الخلاق الحكيم ، أسراً وربطاً موثقاً بين الروح والجسم ، وبين أجزاء كلٍّ منهما ، وبينهما وبين العالم الخارجي ، وبينهما وبين الله تعالى بما فطر الإنسان على معرفته ، وسوف يبقى أسر الروح بجسمهـا إذ يتلاقيان يوم المعاد ، فويل هذا الإنسان إذ يجعـــل نفسه في أسر الشهوات ، ويفك أسره ووثاقه عن ربه !.

بدأوا من الله وليسوا بمعجزيه ، وإذا شاء بدّلهم أمثالهم[1] : أمثالهم في المادة والصوره ، كأن يفنيهم ويأتي بخلق جديد : « إن يشأ يذهبـكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز » (١٤ : ١٩) « فلا أقسم برب المشارق والمغـــارب إنا لقادرون . على أن نبــدل خيراً منهم ومـــا هم بمسبوقين » (٧٠ : ٤٠ — ٤٣) .

---

(١) بدّل يقتضي مفعولين ، ذكر ثانيها « أمثالهم » وحذف الأول « هم » . بدلناهم أمثالهم.

أو أمثالهم في الصورة ، والمادة نفس المادة ، كما في قيامة الإحياء ، فإن الأجساد لا تعاد بصورها الأوّلية وإنما بأمثالها في الصورة وأصولها في المادة، فالأجساد المعادة يوم المعاد هي هي بموادها وهي غيرها بصورها ، طالما هي أمثالها : « نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين . على أن نبدّل أمثالكم وننشأكم فيما لا تعلمون » ( ٥٦ : ٦٣ ) « أفعيينا بالخلق الأولى بل هم في لَبس من خلق جديد » ( ٥٠ : ١٥ ).

« وإذا شئنا بدّلنا » هم « أمثالَهم » في العاجلة بخلق جديد بدلَهم ، وفي الآجلة بخلقهم مرة أخرى لتجزى كل نفس بما تسعى «بدّلنا أمثالهم تبديلاً»: الى مَن هم أحسن منهم ، أو أبدانٍ أخلص وأخلد من أبدانهم كما في القيامة، وهذا الثاني مقصود من الآية قطعاً لمكان « إذا » الدالة على تحقق مدخولها لا محالة ، طالما تشمل الأول ضمنياً .

« إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلاً » :

التذكرة حاصلة بالفعل ، برحمة الله وحكمته ، تذكرة بالغة كافية ، ولكنما التذكر بها منوط بمشية الإنسان ، فمن شاءه اتخذ الى ربه سبيلاً كما يسعى : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » فالسبل الى الله كثيرة ، كلٌ يسلك سبيلاً قدَر سعيه ، متذكراً بالتذكرة قَدَر وَعيه ، ولكنما المشية منّا غير كافية للوصول ، فهي بحاجة الى مشيئة الله ، أن يشاء ما يشاءه العبد من خير فيوفقه له :

« وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً » :

هذا شرطُ الله لنا دائباً ، أن لانشاء الإهتداء إلا أن يشاءه الله لنا بعدها، بشفع مشيئته بمشيئتنا نصراً من عنده ، وتوفيقاً لنا لدَحْر ما لا نقدر عليه

من عراقيل السير ، فلولا توفيقه لم نقدر على ما نشاء . فـ « إياك نعبد وإياك نستعين » : في أن نعبدك لا سواك .

« إن الله كان عليماً » بقصورنا « حكيماً » في مشيئته ، فلولا حكمته لم يشأ مـا نشاء ووكلنـا الى أنفسنا ، ولولا حكمتـه لشاء هدانا شئنا أم أبينا فأصبحنا على سواء [1] .

ولنـا أن نعاكس المشيئتين ، ان مشيئة المخاطبين هنا من مشيئة الله ، لا يشاءون إلا ما يشاء الله ، فانهم المعصومون المطهرون ، مهـابط وحي الله ، وأمناء الله في مشيئته « وان فعل امنائه فعله » [2] ، فقد « جعل قلوب الأئمة مورداً لإرادته وإذا شاء شيئاً شاؤه » [3] والآية تتحملها معاً ، وهما متداخلان في المعصومين ، فهم لا يشاءون أمراً إلا أن يشاءه الله ويحققه ، وليست لهم مشية إلا ما يرضاه الله ، وأما غيرهم فليس لهم إلا المعنى الأول ، وشاهداً على أن الآية تعنيه فيما تعنيه :

« يُدخل مَن يشاء في رحمته والظالمين أعدّ لهم عذاباً أليماً » :

فإنه لا يدخل في رحمته إلا من يشاء الدخول في رحمته فيوفقه لها ، فمشيئته للهداية هنا منوطة بمشيئة العباد ، وأمـا الظالمون ، الذين لا يشاءون رحمته ،

---

(١) راجع ص ١٨٠ ج ٣٠ على ضوء الآية « وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين » .

(٢) الاحتجاج للطبرسي حديث طويل يقول فيه ( ع ) .. وفعل ملك الموت فعل الله ، لأنه يتوفى الأنفس على يد من يشاء ، ويعطي ويمنع ويثيب ويعاقب على يد من يشاء وان فعل امنائه فعله كما قال : وما تشاءون إلا أن يشاء الله .

(٣) تفسير البرهان ٤ : ٤١٦ عن الكافي عن أبي الحسن الثالث قال : .. ثم قال : وهو قوله : وما تشاءون إلا أن يشاء الله .

فهو كذلك لا يشاء لهم الرحمة، وإنما «أعدّ لهم عذاباً أليماً» ختاماً في السورة كالمطلع تصويراً لنهاية الإبتلاء، إذ خلق من نطفة أمشاج للإبتلاء فجعل سميعاً بصيراً، وهدي السبيل إما شاكراً وإما كفوراً «يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعدّ لهم عذاباً أليماً».

هذا، وكما يعني أيضاً «من يشاءه الله» وهو ـ لا ريب ـ من شاء رحمة الله وسعى لها حق شاء الله إدخاله فيها، فالمشيئة إذاً مزدوجة، بادئة من المرحومين إذ يعدّون لها عدتها بإذن الله، ومنتهية الى الله إذ يدخلهم في رحمته، مشيئتين من الله، وواحدة من العبد.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

## سورة المرسلات ـــ مكية ـــ وآياتها خمسون

« بسم الله الرحمن الرحيم . والمرسلات عرفاً ١ فالعاصفات
عصفاً ٢ والناشرات نشراً ٣ فالفارقات فرقاً ٤ فالملقيات
ذكراً ٥ عذراً أو نذراً ٦ إنما توعدون لواقع ٧ فإذا النجوم
طمست ٨ وإذا السماء فرجت ٩ وإذا الجبال نسفت ١٠ وإذا
الرسل أقتت ١١ لأي يوم أجلت ١٢ ليوم الفصل ١٣ وما
أدريك ما يوم الفصل ١٤ ويل يومئذ للمكذبين ١٥ ألم نهلك
الأولين ١٦ ثم نتبعهم الآخرين ١٧ كذلك نفعل بالمجرمين ١٨
ويل يومئذ للمكذبين ١٩ » .

• • •

« والمرسلات عرفاً » : قسماً بالطاقات المرسلات من رب العالمين : مادية

وروحية ، ملائكية وبشرية وسواهما كرياح الرحمة[١] ، آفاقية كهذه أو أنفسية كالفطَر والعقول ، والعُرف هو المتتابع كعرف الفرس ، والمرسلات الإلهية متتابعة كالآيات القرآنية النازلة تترى ، والعرف هو المعروف من الإحسان : « خذ العفو وأمر بالعرف » ( ٧ : ١٩٩ ) وهذه المرسلات هي عرف بذواتها ، عرف بطاقاتها ، عرف في إرسالها ، عرف في رسالاتها وغاياتها، أرسلت حا لكونها عرفاً ، وأرسلها الله عرفاً ، ولغاية هي العرف: المعروف من الإحسان، رغم ما يبدّله الإنسان ويواجهه بغير احسان[٢].

فملائكة الوحي والحياة والموت والتدبير، من المرسلات عرفاً، كما النبيون أجمع ، مرسلات روحية في الآفاق ، وكما العقول والفِطَر مرسلات روحية في الأنفس ؛ معروفاً من الإحسان متتابعاً.

كما وأن رياح الرحمة وأمطارها وأشباهها مرسلات مادية ، فهذه المرسلات وتلك تُرسل عرفاً وتهدف عرفاً وهي عرف في ذواتها وصفاتها ، وكلها تشهد شهادات عينية وعلمية وعقلية « إنما توعدون لواقع » !

« فالعاصفات عصفاً » : توحي الفاء هنا أن العاصفات هي من المرسلات — وان كانت بعدها عصفاً — فمنها عاصفات ومنها دون ذلك ، والعصف هو شدة المرور ، وهو الكسر ، وهو المكسور من العلوفة كعصف مأكول .

---

(١) الدر المنثور ٦ : ٣٠٣ — أخرج ابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن جده قال قال رسول الله (ص) : « الرياح ثمان اربع منها عذاب وأربع منها رحمة ، فالعذاب منها العاصف والصرصر والعقيم والقاصف ، والرحمة منها الناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات ، فيرسل الله المرسلات فتثير السحاب ، ثم يرسل المبشرات فتلقح السحاب ، ثم يرسل الذاريات فتحمل السحاب فتدر كما تدر اللقحة ، ثم تمطر وهي اللواقح ، ثم يرسل لنا الناشرات فتنشر ما أراد ».

(٢) وعرفاً على ترتيب هذه المعاني : حال من المرسلات ، حال للمرسل ، مفعول لأجله من الإرسال .

فقسماً بالمرسلات العاصفات عصفاً ، عرفاً أو سواه ، فمن العاصفات عرفاً الملائكة النازلة بالرحمات سريعة كاسرة الموانع والعراقيل ، وغير العرف منها هي النازلة بالنوازل والصعوبات ، كما النبيون عرف المصدقين ، وعذاب على الكافرين ، ومن الرياح عاصفات عرفاً كالتي تنشر السحاب وتثيرها ، ومنها عاصفات نكراً كالصرصر والعقيم والقاصف ، إذ تقصف بمرورها الشديد وتكسر وتُخسر .

« والناشرات نشراً » : والنشر هو البسط ، والإذاعة ، والريح الطيبة ، والتفريق ، والنحت ، والتمويذ ، والهبوب ، والإصابة ، والإحياء ، والنبت وإيراق الشجر : معانٍ عدة حسب عديد المتعلقات [١] .

وقسماً بالطاقات الباسطات المذيعات أخبار السماء في أرجاء الكون حيث تبث رياحها الطيبة وتفرقها على أهليها ، وتنحت بأخبارها ما يقبل النحت من قلوب صافية ، وتصيب القلوب المقلوبة غير الصافية ، وتهبّ كالرياح في الأجواء ، والقلوب أوعية فخيرها أوعاها فتصيب كلا حسب وعيه ، والتي تنشر الأجساد من الأجداث فإلى ربهم ينسلون .

« فالفارقات فرقاً » : فارقات من الناشرات ، لمكان الفاء ، الناشرات وحي السماء ، الفارقات بين مصدقيه ومكذبيه ، وبين الحق والباطل ، والناشرات ارزاقَ الخلائق ، الفارقاتِ بينهم حسب تقديراتهم ، والناشرات أحياءً ، فالفارقات بينها ، ففريق في الجنة وفريق في السعير

« فالملقيات ذكراً » : إنما يوصف وحي السماء بالذكر الملقى ، بعد ما يُنشر ويفرق بين الحق والباطل ، والإلقاء هنا من النبيين ، فانهم هم رسل الخلق المذكرون لهم بوحي السماء .

---

(١) نشراً هذا مصدر ومفعول به ايضاً كما في الأحياء : الناشرات أحياء .

« عذرا أو نذرا » « فالملقيات ذكرا عذراً أو نذراً » عـذراً عند الله فحجة على المنذَرين، أو نُذراً لهم به يُنذرون ويتأثرون[1] ، فاشتراط التأثير نُذراً ـ فحسب ـ في وجوب البلاغ والأمر والنهي ، شططٌ من القول وهُراءٌ ، بل وعذراً أيضاً، كما هو لزام إلقاء الذكر دائباً،وعلى من لم يتذكر ايضاً ، ونذراً أحياناً : لمن يتذكر ، فالمعذرة الى الربّ في أداء البلاغ لها المكانة الأولى في المنذِرين ، لا يُعذرون في تركها بحالٍ ، فالله يُنجي من يأمر بالعرف وينهى عن السوء عذراً أو نذراً ، ويأخذ الظالمين بعذاب بئيس ، من فاعل المنكر ، وتارك للنهي عنه حتى عند عدم التأثير : « وإذ قالت أمةٌ منهم لم تَعِظون قوماً الله مُهلكهم أو معذبهم عذاباً شديدا . قالوا مَعذِرةً إلى ربكم ولعلّهم يتقون . فلما نسوا ما ذُكّروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون . فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين » ( ٧ : ١٦٦ ) فانها تصرح بنجـاة الناهين عن السوء فقط ، وبعـذاب شامل تاركي النهي عن المنكر فيما لم يكن له تأثيرٌ ، إلا معذرة الى الربّ ، طالما تشدد عذاب العاتين عما نهوا عنه : « كونوا قردة خاسئين » !

وهل إن هذه المقسم بها خمس كما يشهد له عديده؟أم إثنان لأن الأصل المعطوف عليه فيها إثنان « والمرسلات ... والناشرات » والثلاثة الباقيات متفرعات ؟ ام واحد لوحدة المقسم لأجله ، فلتكن متوحدة في رباطها به؟ لكلٍّ وجه ، وهي متداخلات في صفاتها وغاياتها ، وهي كلها دالات « إنما توعدون لواقع».

فمرسلات العقول والفِطَر والفكر ، ومنها مرسلات الرسالات الملائكية والبشرية ، ومنها مرسلات الرياح وصلا وفصلا ، وسائر المرسلات الفاصلة والواصلة ، تدل دلالات عقلية وواقعية وحسية لإمكانية وضرورة وقوع الوعد الحق ، وخسر هنالك المبطلون .

---

(١) قد يكون عذراً أو نذراً ، جمعين لعاذر ونذير ، أو مصدرين بمعنى الإعذار والإنذار، وعلى الاول هما حالان للملقيات .

كما العاصفات من المرسلات تدل بشدة مرورها وكسرها ومكسورها أن موانع نشر الموتى سوف تذل لديها بما أراد الله .

وكذلك الأمر في الناشرات نشراً ، فالفارقات فرقاً ، فالملقيات ذكراً :

« إنما توعدون لواقع » : « إنما توعدون لصادق . وإن الدين لواقع » ( ٥١ : ٦ ) « إن عذاب ربك لواقع » ( ٥٢ : ٧ ) فويل للمكذبين بيوم الدين ، رغم هذه الكثرة من الأدلة والبراهين .

« فاذا النجوم طمست » : طَمْسُ النجوم هو محو آثارها ، و « ذهاب ضوءها » [١] وأنوارها ، وإزالتها عن الجهات التي كان يُستدل بها ، ويُهتدى بَسمْتِها ، كالكتاب المطموس الذي أشكلت سطوره ، واستعجمت حروفه .

يوم الطامة الكبرى تُطمس النجوم منكدرة ، والكواكب منتثرة ، كلآلي منظومة ، ينخرط سلكها فتتفرّق ، فتُطمس عن كيانها كواكب ونجوماً وعلاماتٍ هاديةً ورجوماً ، ذاهبة في الفضاء بدداً ، كما تذهب الذرة التي تنفلت من عقالها .

« وإذا السماء فرجت » : « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » ( ٥٠ : ٦ ) فالسماء غير ذات الفروج تصبح من ذوات الفروج ، ولحد كأن كلها أبواب وفروج : « وفتحت السماء فكانت أبواباً » ( ٧٨ : ١٩ ) فروجاً بزوال نجومها وبروجها ، فانها شغلت كثيراً من أجواءها ، وفروجاً بانشقاقها وانكشاطها في كافة أرجاءها [٢] .

---

(١) تفسير القمي عن أبي جعفر الباقر ( ع ) : فطمسها ذهاب ضوءها .

(٢) راجع سورة الانشقاق ج ٣٠ ص ٢٣٦ والانفطار ٣٠ – ١٨٤ والتكوير ٣٠ – ١٥٤ .

« وإذا الجبال نُسفت » : قُلعت وأزيلت بمتفجرات الزلزال الدكداك، وبالانفجارات الذرية وسواها آخذة مسيرها الى الدمار والهلاك، تُنسف فلا يبقى إلا سرابٌ وقاعٌ صفصفٌ : « ويسألونك عن الجبال قل ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً . لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً » ( ٢٠ : ١٠٧ ) [١] .

« وإذا الرسل أقتت » : والتوقيت هو تقدير الوقت لوقوع الفعل، وتأجيله لأجله، فالرسل عند قيامة الإماتة تُؤقّت، عند الصيحة التي تصعق من في السماوات والأرض إلا من شاء الله، وهم ممن شاء الله، لا يصعقون عن الحياة كلّ الحياة، مهما كانوا ميتين عن الحياة الدنيا، فهم في البرزخ أحياء، والى يوم يبعثون، لا يصعقهم الفزع الأكبر، فهم منه آمنون .

فالرسل تُؤقّت تأجيلاً لقيامة الإحياء، لتحقيق الوعد الواقع الصادق وليُسألوا ماذا فعلوا وماذا أجيبوا، وسئوال المرسل اليهم ماذا أجابوا : « فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين . فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين » ( ٧ : ٧ ) « يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علاّم الغيوب » ( ٥ : ١٠٩ ) « ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين » (٢٨ : ٦٥) تساءولات وتساءولات وليشهدوا لهم أو عليهم، ولأنهم من أكرم الشهداء .

« لأي يوم أجلت . ليوم الفصل » : إن التأقيت التأجيل هو ليوم الفصل : الفصل بين المختلفين، وبين المتصلين بالقرابات، وفصل الحق عن الباطل، والفصل عن الأعمال والآمال : « إن يوم الفصل كان ميقاتاً » ( ٧٨ : ١٧ ) للناس عامة، وللرسل بوجه خاص، وتوقيت لأجل معلوم .

---

(١) راجع سورة النبأ ج ٣٠ ص ٣٩ .

« وما أدراك ما يوم الفصل » : إنك تدري ما هو ، ولكنها بما أدراك ربك فلا سبيل لها إلا وحي السماء .

« ويلٌ يومئذ للمكذبين » : حذار وإنذار من العزيز الجبار ، بويل لكل ويل للمكذبين بيوم الدين ، وهم محضرون لمجلس القضاء يوم الفصل ، ذلك لأن تكذيبهم كان ويلاً عقيدياً وعملياً .

« ألم نهلك الأوّلين . ثم نتبعهم الآخرين . كذلك نفعل بالمجرمين . ويل يومئذٍ للمكذبين » .

إن ذلك الويل قد يهلكهم يوم الدنيا كما يهلكهم يوم الدين ، فإهلاك المكذبين الأوّلين ، ثم إتباعهم الآخرين ، ذلك تحذير لهؤلاء الظالمين أن ليس الويل لهم مختصاً بيوم الدين ، فحذار حذار أيها المكذبون ، فإن مصارعكم تنكشف وأنتم حشود أقوياء ، وعلى مد البصر ترى المصارع والأشلاء لهؤلاء وهؤلاء ، وأمامها وعيد الله ناطقاً ببينة الله : « كذلك نفعل بالمجرمين . ويل يومئذٍ للمكذبين » .

« أَلَمْ نَخْلُقكُّمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ٢٠ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ٢١
إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ٢٣ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِلْمُكَذِّبِينَ ٢٤ . أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتاً ٢٥ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً ٢٦
وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتاً ٢٧ وَيْلٌ
يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ٢٨ انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ٢٩

إِنطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ٣٠ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ
اللَّهَبِ ٣١ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ٣٢ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ٣٣
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ٣٤ هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ
لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ٣٦ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ٣٧ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ
جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ٣٨ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ٣٩ وَيْلٌ
يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ٤٠ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ٤١ وَفَوَاكِهَ
مِمَّا يَشْتَهُونَ ٤٢ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٤٣ إِنَّا
كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ٤٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ٤٥ كُلُوا
وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ ٤٦ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ٤٧
وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ٤٨ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِلْمُكَذِّبِينَ ٤٩ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ٥٠ »

« ألم نخلقكم من ماء مهين » : « من سلالة من ماء مهين » ( ٣٢ : ٨ ) كما أن هذا المهين نفسه كان سلالة من طين : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » ( ٢٣ : ١٢ ) ... وإنه تذكير بحالة الإنسان المسبقة الهزيلة الرذيلة ، النتنة المهينة ، أن خلقه الله منها في أحسن تقويم ، نعمة سابغة سابقة وحجة بالغة على ناكري الألوهية .

« فجعلناه في قرار مكين » : قرار الرحم وما أمكنه من قرار الحياة الجنينية ، وقرار الأرض التي من طبعها القرار : « الله الذي جعل لكم الأرض قراراً » ( ٤٠ : ٦٤ ) قراراً بكيانها وقراراً بحركاتها التي تفلتها من مداراتها لولا أن جعلها الله كفاتاً أحياءً وأمواتاً .

« الى قدر معلوم » : دون فوضى حتى في قدر القرارين : في الرحم وفي الأرض .

« فقدرنا فنعم القادرون » : « قدرنا » لا فقط « قدرناه » أو « قدرنا عليه » أو « قدرنا به » وإنما « قدرنا » ، « و « عليه » و « به » والكل مقصود :

« قدرناه » : هيّأناه للتكامل الجنيني ، أن قسمناه : الماءَ المهين ، فأخذنا منه سلالة هي النطفة الجرثومية « من سلالة من ماء مهين » ، واستخدمنا الباقي لتكملتها ، فهذه النطفة الأمشاج تسير سيراً زهواً بطيئاً في البوق ، ولا تنتهي منه الى الرحم إلا بعد ثمانية أو عشرة أيام ، تقوم خلالها بتقسيم نفسها تقسيماً بعد تقسيم ، لكي تهيىء كل قسم وتعدّه للدور الذي سيقوم به في تكوين الجنين الجديد ، أو حفظه وحمايته ، أو في تغذيته ، فتصل البيضة النطفة الى بيت الزوجية المهيأ لها ، فتلتصق بجداره ، وتبدء خلايا الأقسام عملها العظيم بالتعاون مع بعضها أو مع خلايا جدار الرحم ، فتجعل حول الجنين غلافاً فوق غلاف فوق غلاف : « في ظلمات ثلاث » :

و « قدرنا » عليه : قوينا عليه وتمكنا أن نخلقه ما نشاء كما نشاء ، وضيقناه في مضيق الرحم حفاظاً عليه من كل صدام ، وفي مضيق من الحياة الدنيا .

و « قدرنا » به : قسنا به سائر الخلق فجعلناه في أحسن تقويم « فتبارك الله أحسن الخالقين » ، ودبرناه فصورناه : « فنعم القادرون » فيما قدرنا « ه » و « به » و « عليه » .

وكما أن للإنسان قراراً مكيناً ركيناً في الأرحام، لا تنافيه تقلّبات الأمهات في مختلف الحركات، كذلك الله جعل له الأرض كفاتاً: قراراً مكيناً، رغم حركاتها الدائبة المتداخلة، تضم ما عليها في حضنها أحياء وأمواتاً:

**«ألم نجعل الأرض كفاتاً. أحياءً وأمواتاً، وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماءً فراتاً»:**

هذا الإستفهام التقريري في مقام تعداد النعم السابقة يوحي بأن كفات الأرض نعمة غالية فيها، تُشابه قرار الرحم المكين، لولاه لم تُمكنْ أو لم تسغْ للإنسان حياة، كما أن لقرار الرحم دورَه الهامّ في بداية المطاف، وهذه هي الحقيقة التي تساعدها اللغة والواقع، مهما تغافلت عنها قرون خلت، فتخيلت أن الأرض جامدة على قرني الثور أو ظهر الحوت[1]!

**«الأرض الكفات»:**

إن آية الكفات هذه تُظهر الأرض بمظهر الطير المسرعة في طيرانها، المتقبضة جناحيها، حيث الكفات هي «الإسراع في العدْو والطيران مع تقبُّض فيه»[2].

---

(١) انها ليست على ظهر الحوت أو على قرني الثور، وإنما هي كسائر الكواكب تسبح في جو السماء، وحديث الثور مقطوع في أوله، يعني غير ما عنوه، فقد سأل احد الزارعين الامام الصادق (ع) ان لي ثورين أزرع بها الأرض، وانا كبير أريد ان أبيعهما فأعيش في عزلة العبادة بثمنهما؟ قال (ع): «لا تفعل فان الأرض على قرني الثور» يعني زراعة الأرض في تلك الزمن، كما في زمننا على قرني التراكتور.

(٢) كما في لسان العرب وتاج العروس وغريب القرآن وأمثالها، ففي التاج عن الزهري: «كفت الطائر وغيره يكفت كفتاً وكفاتاً ككتاب وكفيتاً كأمير وكفتاناً»: اسرع في =

وأوفق الوجوه في « كفاتاً » أدبياً ومعنوياً : أنها مصدرٌ ، مفعولاً ثانياً لـ « نجعل » فقد كانت أرضاً ولم تكن كفاتاً ، لا أموات فيها ولا أحياءَ ، فلا تقبُّض لها لا للأحياء ولا للأموات ، إذ كانت مجنونة الحراك محترقة ، لا تحنّ لمعايش : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً » ( ٦٧ : ١٥ )[1] فذلت بعد شماس ، واعتدلت بعد ارتكاس .

كذلك الله جعلها كفاتاً : سريعة الطيران في جو السماء ، شديدة التقبض حالته : أحياءً وأمواتاً ، طائرة متقبضة كأنها الطيران نفسه ، والتقبض نفسه ، كما يوحي به المصدر « كفاتاً » نفسه .

وما أهمها من أصلين أصيلين في كيان الأرض ، طالما غفل عنها ساكنوها عبر قرون خلت قبل القرآن ، وقرون بعده ، بين مستند الى الحسّ ، مؤوّل لآيات حركات الأرض ، وساكتٍ عنها شاكٍّ فيها حتى فسرها العلم ، فليس العلماء بعد القرآن هم الكاشفين عن حركاتها ، ولا ان ( كبرنيك ونيوتون ) هما اللذان أبديا نظرية القوة الجاذبية ، رغم ما يزعمه الزاعمون[2] . و « إن للقرآن آيات متشابهات تفسرها الزمن » .

---

= الطيران ، والكفتان من العدو والطيران كالحيوان في شده ، ويقال : كفت الطائر اذا طار وتقبض فيه ، والكفت في عدو ذي الحافر سرعة قبض اليد .

وفيه عن الصحاح : الكفت السوق الشديد ، ورجل كفت وكفيت سريع دقيق ، وفرس كفيت وقنيص وعدو كفيت أي : سريع ، وكذلك في اللسان وغيره .

(١) راجع سورة الملك الجزء ٢٩ في تفسير آية الذلول .

(٢) مضت قرون والبشر تزعم الأرض جامدة على قرني الثور أو الحوت أم ماذا ؟ وأول من تجرءَ على خلاف هذا المحسوس ! ( فيثاغورث الحكيم ٥ ق م ) ثم تبعه ( فلوترجوس وارشميدس ) ثم أيدها بعد قرنين ( ارسترجوس ) وأبدى نظرية حركة الأرض حول الشمس ، ولذلك كفروه ، وبعد نصف قرن أوضح ( كليانتوس ) ان الأرض محكومة بحركتين =

فأرضنا هذه محكومة بحركات عدة أنهاها العلماء الى أربعة عشر [١]، وكما توحي بها: «يوم ترجف الراجفة» [٢]: حركات متداخلة يعبر عنها بالرَّجْفة»، وقانون الفرار عن المركز يقتضي فرار ما عليها متناثرة الى أعماق الأجواء، وكذلك تفسّخ الأرض نفسها، ولكنها كفات تتقبض الأحياء والأموات، بقانون مكافح قانونَ الفرار، تبديلاً له بالقرار: «الله الذي جعل

---

= الوضعية والإنتقالية، فألحقوه بزملاء الكفرة، وبعد قليل قام (بطلميوس) ضد هذه البدعة! ولذلك سمي بعلامة القرون ومحيي العلوم.

إن الهيئة البطلميوسية أخذت من الشهرة والاعتياد مبلغاً وافقها جماعة من المسلمين كأنها وحي السماء، فأولوا آيات وروايات تدل على حركات الأرض، كأن كتاب بطلميوس هو كتاب الوحي الأصيل، يحق تأويل القرآن لأجل الحفاظ عليه! طالما النبهاء منهم كانوا بين مخالف أو ساكت.

ثم بعد الألف من الهجرة أخذ (غاليلة) يبحث بصراحة عن حركتي الأرض، ولذلك سجن وأحرقت كتبه في المجتمع الأوروبي، ولقد كان القرآن أصدق شاهد على هذه النظرية المسجونة المهانة.

ان القوة الجاذبية التي توحي بها آيات بينات، ليست هي القوة المغناطيسية، إنما هي قوة مرموزة تستفيد منها كافة الجاذبات في الكون، ولو ان ارضنا ما كانت كفاتاً أحياء وأمواتاً، فلم تملك القوة الجاذبية، لم يكن لها قرار عليها، ولا امكانية التنفس فيها، فمن فضل هذه القوة ترى الكواكب السيارة تسير حول مداراتها الخاصة دون انفلات عنها كأنها تسير على جادة حديدية ثابتة.

هذه القوة توجد في أبعد الكواكب والمجرات التي تسير في مسايرها كل ثانية مآت الأميال.

الأرض تسير حول فلكها كل ساعة مائة الف كيلومتراً، ولا يستطيع أي إنسان مواجهة الرياح بهكذا سرعة، ورغم ذلك يعيش على هذه السفينة الفضائية في كمال الطمأنينة والارتياح، وحسبه ينكر حراكها.

(١) كما عن (فلاماريون) و (فيلكس) قبله كان يقول باحدى عشر حركة، وبالامكان ان تستكشف حركات لها أخرى في المستقبل.

(٢) راجع ج ٣٠ ص ٧١ حول آية الراجفة.

لكم الأرض قراراً » ( ٤٠ : ٦٤ ) ، وهو الجـاذبية العمومية التي اعتبرت كجناحين لهذه الطائرة العجيبة : « كفاتاً . أحياء وأمواتـاً » : تقبض على ظهرها مـا عليهـا ، بهذه الأجنحة غير المرئية : « الجاذبية » وكما أن السماء بكواكبها مرفوعة بهـا : « الله الذي رفـع السماوات بغير عمد ترونها » ( ١٣ : ٢ ) « فثمّ عَمدٌ ولكن لا ترونها »[1] وهي أو منها: الجاذبية العمومية التي تقبض بها الأرض الكفاتُ الأحياءَ والأموات .

كما وان الرواسي الشامخات عـدّلت حركاتهـا ومنعتها عن التهافت والانفراج : « وعدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها.. فسكنت من الميَدَان برسوب الجبال في قطع أديمها » « فـسكنت على حركتها من أن تميد بأهلها أو أن تسيخ بحِملها أو تزول عن مواضعها »[2] .

ولقد تُجاوب آيةَ الكفات آياتٌ أخرى بيِّنات في حركات الأرض ، تتجلى لكم في طيات الكتاب ، كآية المهد والمهـاد والقرار والذلول ويسبحون[3] فانها لتجاوب في أن كرتنا الأرضية طائرة قوية ، وسفينة جوية ، تسبح في البحر المحيط كبحّارة دائبة الحراك والميَدَان ، مهداً لأطفالهـا ، ومهاداً للحياة عليها ، وذلولاً لركّابها دون شماس وشراس وانطماس ، وإنما حنونة

---

(١) كا عن الامام بن محمد علي الباقر ( ع ) .

(٢) نهج البلاغة عن أمير المؤمنين علي ( ع ) وعن الامـام الصادق ( ع ) « ان حركات الأرض وسكانها من جملة أدلة حدوث العالم » ( الاحتجاج للطبرسي ) .

(٣) وهي على الترتيب « الذي جعل لكم الارض مهداً » ( ٢٠ : ٥٣ ) « ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال اوتاداً » ( ٧٨ : ٧ ) « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً » (٦٧ : ١٥) « وآية لهم الأرض الميتة .. والشمس تجري .. والقمر قدرناه .. وكل في فلك يسبحون » ( ٣٦ : ٣٣ — ٤٠ )

رئوفـة لا يحس أولادهـــا بحركاتها السريعة لحد نكرانها، فيا لها من أمان رغم الميَدَان!

«أحياءً وأمواتا»: علّ الأحياء هنا تشمل أصول الحياة كالأوكسيجين، فَكُرة الفضاء المحيطة بسفينتنا الأرضية، تشعُّ عنها قرابة مائة كيلومتراً، وهي مركبة من أوكسيجين وأزوت وأرجون، وكافة نباتات الأرض وحيوانها وإنسانها بحاجة حيوية الى هذه الكرة التي تعتبر حياتاً للأرض وما عليها.

ففي حـــالة نقصان الأوكسيجين أو فقدانها لا واقع للحيـاة على وجه الأرض، فإنها مادة ضرورية للتنفس أولاً، ولتركيب المـاء منها ثانيـاً وقد جعل منه كل شيء حيّ، فالأوكسيجين بأصلها وتراكيبها هي أصل الحياة، لا للنبات والحيوان والإنسان فحسب، بل لمثل النار كذلك فانها تخمد لو لم تستمد بأوكسيجين الفضاء.

فلو لم تكن الأرض كفاتاً، تتقبض بالجاذبية كرةَ الأوكسيجين، لتكافح قانون الفرار عن المركز وخفة الأوكسيجين، في فرارها وانهيارها عن الكرة الأرضية، لماتت الأرض وما عليها!

ومن جهة أخرى: إن كرة الفضاء الحائلة حول الأرض التي قطرها ثمانمائة كيلومتراً، إنها تعتبر مدرّعة بجنزره تحافظ على الأرض من عشرين مليوناً من الأحجار السماوية التي تقصدها بسرعة ٥٠ كيلومتراً في كل ثانية – يومياً، فلو لم تكن الأرض كفاتاً لانصدمت بهذه النيازك النـــارية والقاذفات الجوية، فتدكدكت.

إن هذا الجو المدرع – إضافة الى هذه المكافحة الخارجية – يعدّل درجة الحرارة على سطح الأرض، وينقل الذخائر اللازمة من المـــاء وبخاره، من

البحار الى البراري والقفار، فلو لم تكن الأرض كفاتاً لأصبحت القارات كلها قاحلة يابسة .

ثم بقية الأحياء من حيوان وإنسان ، تعيش على طمأنينة تامة، وتمشي على مناكبها ، فلولا جاذبية الأرض الكفات ، لانفلتت الى اعماق الأجواء، ولولا كفات الحركات المنتظمة المعدّلة لاستحالت عليها الحياة في الحركات الراجفة، ولكنها كفات ويا لها من بركات !

ومن ثمّ الأموات التي لا مُمسكة لها في قرارها على وجه الأرض ، فلولا كفات الأرض لانفلتت الى غيرها ، فيا لها من كفات كافية للحفاظ على الأحياء والأموات !

ومن أهم ما يحافظ على طمأنينة الأرض وما عليها، لحدّ لا نُحسّ حركاتها، أنها تتحرك مع كرة الفضاء المحيطة بها فلا يُحسُّ حراكها ، كمن يقفز في طائرة ، فإنه يرجع الى مكانه الأول لأن الطائرة تطير بفضائها ، خلاف ما إذا لم تكن مسقفة ، إذ لا تطير بفضائها ، كذلك الأرض تطير بكرة الفضاء ، المدرّعة حولها ، فلذلك لا تبدو حركاتها لركابها .

هذا هو المعنى الشامل لكفات الأحياء والأموات ، وقد يشمل قبور الأموات وبيوت الأحياء دون اختصاص بها ، فإنها ليسا من ضمنيات جعل الأرض ، وإنما من فعل المخلوقين ، والآية في مقام الإمتنان بما خلق الله ، لا بما فعل الناس [1] .

---

(١) القمي : نظر أمير المؤمنين ( ع ) في رجوعه من صفين الى المقابر فقال : هذه كفات الأموات أي مساكنهم ، ثم نظر الى بيوت الكوفة فقال : هذه كفات الأحياء ثم تلا قوله : « ألم نجعل الأرض كفاتاً ، أحياء وأمواتاً » . وفي معاني الأخبار للصدوق مثله عن ابي عبدالله الصادق » ( نور الثقلين ٥ : ٤٨٩ ) أقول وهذا من باب الجري والتطبيق لا التفسير ، وإنما بياناً كما كان يفهمه الناس في تلك الزمن ، ولقد فسر العلم كفات الأرض كما تصدقه اللغة ايضاً .

فيا لكفات الأرض من بركات في جاذبيتها وحركاتها، للأحياء وللأموات! ويا لرواسيها الشاخات ومياهها الفرات من خيرات، لولاها لم تكن لأهلها حياة، سبحان الخلاق العظيم!

**« ويلٌ يومئذ للمكذّبين . إنطلقوا الى ما كنتم به تكذّبون . إنطلقوا الى ظل ذي ثلاث شعب . لا ظليل ولا يغني من اللهب . إنها ترمي بشرَر كالقصر . كأنه جمالتٌ صفر . ويلٌ يومئذ للمكذّبين »:**

« انطلقوا »: تخلّوا وتحلّلوا من وَثاق التكذيب وأسره، الى حرية التصديق: بما كنتم به تكذبون، في تأنيب مرير وإيلام عسير، «انطلقوا»: متحللين عن رهانة ثالوث التكذيب: بالله ورسوله واليوم الآخر، بثالوث ترك التصديق والإقرار والعمل الى ثالوث العذاب: « ظل ذي ثلاث شعب »: سرادقات ثلاث تحيط بكم: « إنا اعتدنا للكافرين ناراً أحاط بهم سرادقها » (١٨ : ٢٩) « لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل » (٣٩ : ١٦) انطلقوا الى ظلٍ « لا ظليل ولا يغني من اللهب » رغم أن من فوائد الظل أنه ظليل عن وهج النور والنار، وأنه يغني من لهب النار، ولكنه ظل حار لافح خانق، أشد حروراً من النار: « وظل من يحموم » (٥٦ : ٤٣) يزيد أهلها تغلغلاً في زبانيتها وشررها القصر، وإنه ظلٌ نارها بدخانها دون نور، « إنها ترمي بشرر كالقصر »: كما أنهم طول حياتهم الشريرة النكدة كانوا يرمون بشرر من قصورهم، كذلك ثالوث ظلهم في النار « ترمي بشرر كالقصر . كأنه جمالت صفر »: جمالة صفر ترتع هنا وهناك، وتحرق القصر بأصحابه ..

**« هـذا يومُ لا ينطقون . ولا يُؤذن لهم فيعتذرون . ويلٌ يومئذ للمكذبين »:**

« لا ينطقون »، لا هم « ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة »

( ٣ : ٧٧ ) أجل – وفيم ينطقون ؟ ، فهل في تخليص أنفسهم عن رهانة العذاب بعد ثبوته عدلاً ؟ « ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون » ( ٢٧ : ٨٥ ) فهم في البداية محكومون دون حاجة الى استئناف وتمييز ، إذ لا يخفى على الحاكم هناك أمرٌ عن إضبارات المحكوم عليهم ، ولا هو جائر فيميل عن العدل فيهم .

أم ينطقون بالإعتذار وقد مضى حينه وحان حين الجزاء الوفاق وإنما الإعتذار لمن كان له عذر و « الله أجلّ وأعدل وأعظم من أن يكون لعبده عذر ولا يدعه يعتذر به ، ولكنه فلج فلم يكن له عذر »[1]: « لا تعتذروا اليوم تُجزون بما كنتم تعملون » ( ٦٦ : ٧ ) « لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم » ( ٩ : ٦٦ ) . فلا كلام هناك إلا بإذن الرحمن إذا كان صواباً : « لا يتكلمون إلا مَن إذن له الرحمن وقال صواباً » ( ٧٨ : ٣٨ ) فالكلام المأذون مقيد بالصواب ، كما الصواب ايضاً مقيد بالإذن ، فهل يتأتى صواب من أهل النار حتى يؤتوا إذناً في الكلام ؟! كلاّ ! وإن الهول هناك يكمن في الصمت الرهيب ، والكبت الرعيب ، الذي لا يتخلله كلام ، ولا يقطعه إعتذار ، فلا يؤذن لهم حتى في الإعتذار « ويلٌ يومئذ للمكذبين » إذ حجبوا عن رحمة الله وعن خطابه ، بعداً في بُعد ، ظلمات بعضها فوق بعض !

وإنما لا ينطقون بما ينفعهم ، وقد ينطقون بما يضرهم ويخجلهم : « يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون » ( ٤٣ : ٧٧ ) « ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربّنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون » ( ٣٢ : ١٢ ) « ربّنا أخرجنا منها فان عدنا فإنا ظالمون . قال اخسئوا فيها ولا تكلمون » ( ٢٣ : ١٠٨ ) .

**« هذا يوم الفصل جمعناكم والأوّلين . فان كان لكم كيد فكيدونِ . ويل يومئذ للمكذبين » :**

---

(١) روضة الكافي عن الامام الصادق ( ع ) في تفسير الآية قال : ...

« هذا يوم الفصل » : فصل القضاء ، فلا رجوع بالإعتذار ، وفصل الحق عن الباطل فلا اعتراض « جمعناكم والأوّلين » ف « إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين » ( ٤٤ : ٤٠ ) « فان كان لكم كيد » حيلةٌ للفرار أو الإستعفاء والإعتذار « فكيدون » كلاّ ! وإنما هو الصمت الكظيم ، في ذلك اليوم العظيم على العذاب الأليم « ويلٌ يومئذٍ للمكذبين » .

**« إن المتقين في ظلال وعيون . وفواكه مما يشتهون . كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون . إنا كذلك نجزي المحسنين » :**

إنهم « في ظلال » : « وندخلهم ظلاً ظليلاً » ( ٤ : ٥٧ ) ظلال ظليلة تعاكس ظلال المكذبين ، ظلال عن نور الشمس بما تجنهم من أشجار ، كذلك وهم في ظلال السابقين والمقربين .

« وعيون » تحت هذه الظلال ، بكل جلال ودلال « وفواكه مما يشتهون » وهذه النعم الناعمة المتقين « ويلٌ يومئذ للمكذبين » ويلٌ على ويلهم !

**« ويل يومئذ للمكذبين . كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون . ويل يومئذ للمكذبين » :**

ويلهم إذ لا يتمتعون إلا قليلاً ، وكلُّ فانٍ قليل ، ولا سيما الذي يعقّب العذاب الوبيل ، وهذه القلة المنقطعة بانقطاع الحياة الدنيا ، ليست إلا « انكم مجرمون » : قطعتم ثمرة الحياة واجتثثتم أصولها بالمغريات .

فأنتم أجرمتم الأكل والمتعة : قطعاً لها عن الخلود ، وحصراً في الأولى الفانية القليلة : « أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل » ( ٩ : ٣٨ ) .

فويلهم في هذه المتعة القليلة ، إذ جنّدوا لها طاقاتهم الكثيرة وخسروها بها ، ويلهم بعدها : أكلٌ ومتعةٌ قليلةٌ يتوسطان ويلين : فكلوا وتمتعوا قليلاً في الأولى ، لتجرموا وتعذبوا طويلاً في الأخرى : « متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد » ( ٣ : ١٩٧ ) « قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار » ( ٣٩ : ٨ ) .

**« وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون . ويل يومئذ للمكذبين . فبأي حديث بعده يؤمنون » :**

هؤلاء الذين يركعون ويسجدون للشهوات الطائشة ، والمحرمات الفاحشة ، « إذا قيل لهم اركعوا » والقائل هو الرب المنعم ، والركوع هو الخضوع لمن يربّيهم ، شكراً لبعض النعم ، وتركاً للفرعنة والإستبداد ، دون أن ينتفع به المنعم .. مع كل ذلك « لا يركعون » وإنما يمرحون في غفلة ، ويلتهون في شهوة وغفوة كأن لا ربّ ولا حساب « وما كيد الكافرين إلا في تباب » : يأمرهم الرسول ﷺ عن الله بالصلاة فيقولون : لا ننحني ، فإن ذلك سبّة علينا ، فيقول ﷺ : لا خير في دين ليس فيه ركوع وسجود (١) .

لا يحنون ظهورهم لله مخافة المسبّة ، ويحنونها لمن يستحمرهم في اللهو ولا مسبّة !

« فبأي حديث بعده يؤمنون » : « فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون » ( ٤٥ : ٦ ) « ومن أصدق من الله حديثاً » ( ٤ : ٨٤ ) ؟ فهل في الكون حديث أثبت من الله ، وأضبط من كلام الله ؟ فأنى يُؤفكون ؟

ومَن لا يؤمن بهذا الحديث الذي يهز الرواسي ويصدّعها من خشية الله ، فبماذا يؤمن ؟ : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله » ( ٥٩ : ٢١ ) فما لهذه القلوب المقلوبة الصلّدة الصُلبة ، وهذه الضمائر اليابسة البائسة ، ما لها لا تتقلب بما يقلّب الجبال الرواسي !؟ .

**تمّ بحمد الله – مكة المكرمة : محمد الصادقي**

---

(١) المجمع عن مقاتل نزلت في ثقيف حين أمرهم الرسول بالصلاة ...

# فهرست


| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| سورة الملك كلام في القدرة . السبع الطباق . رجوم الشياطين في السماء الدنيا | ٣ — ٢٤ |
| نذر لكل القرى . حركات للأرض . هل الله في السماء | ٢٥ — ٤٣ |
| سورة الحاقة كيف حملنا في الجارية قبل خلقنا ؟ بشارة محمدية على سفينة نوح | ٨٨ — ٩٤ |
| العرش بأقسامه وحملته . كتاب اليمين والشمال . تجاوب بين القرآن والتورات | ٩٥ — ١١١ |
| سورة المعارج اليوم الخمسين الف سنة . وحدات الزمان . مصلح الإنسان . خلق الأمثال في الماء | ١١٣ — ١٤٢ |
| سورة نوح الشريعة الاولى . رؤية السماوات الطباق . حياة برزخية . لم يلدوا إلا فاجراً | ١٤٥ — ١٦٦ |
| سورة الجن رسل الجن . جد ربنا . النيازك النارية من مدفعيات سماوية | ١٦٩ — ١٨٤ |
| المساجد لله . درجات علم الغيب ونصيب الرسل منها | ١٩٣ — ٢٠٦ |
| سورة المزمل القول الثقيل . السبح الطويل . تبتل التبتيل . آية توراتية محمدية | ٢٠٧ — ٢٢٣ |
| سورة المدثر دثر ثلاث . سحر يؤثر ؟ التسعة عشر على سقر | ٢٣٠ — ٢٥٦ |
| سورة القيامة النفس اللوامة . جمع العظام . تسوية البنان ؟ بصيرة الإنسان ؟ الاستعجال في وحي القرآن . الله جامع القرآن . النظر الى الرب | ٢٧٠ — ٢٨٨ |
| سورة الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً . امشاج ستة . الاربعة الطاهرة : علي . فاطمه . الحسنان . تبديل الأمثال . صلة المشيئة الإلهية بالإنسان | ٣٠٥ — ٣٣٠ |
| سورة المرسلات المرسلات وما يليها . عذراً أو نذراً . قرار مكين . الارض الكفات طائرة مسرعة . الجاذبية العامة من كفات الارض | ٣٣١ — ٣٥٢ |


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

# AL FORQAN

## FI

## TAFSEER AL-KORA'AN

BY

Dr. MOHAMMAD AL-SADEQI

PUBLISHED BY

*Al Aalami Library*

BEIRUT - LEBANON
P.O.BOX. 7120